

المؤرخ المصرى

دراسات وبحوث فى التاريخ والحضارة

(مجلة علمية محكمة نصف سنوية)

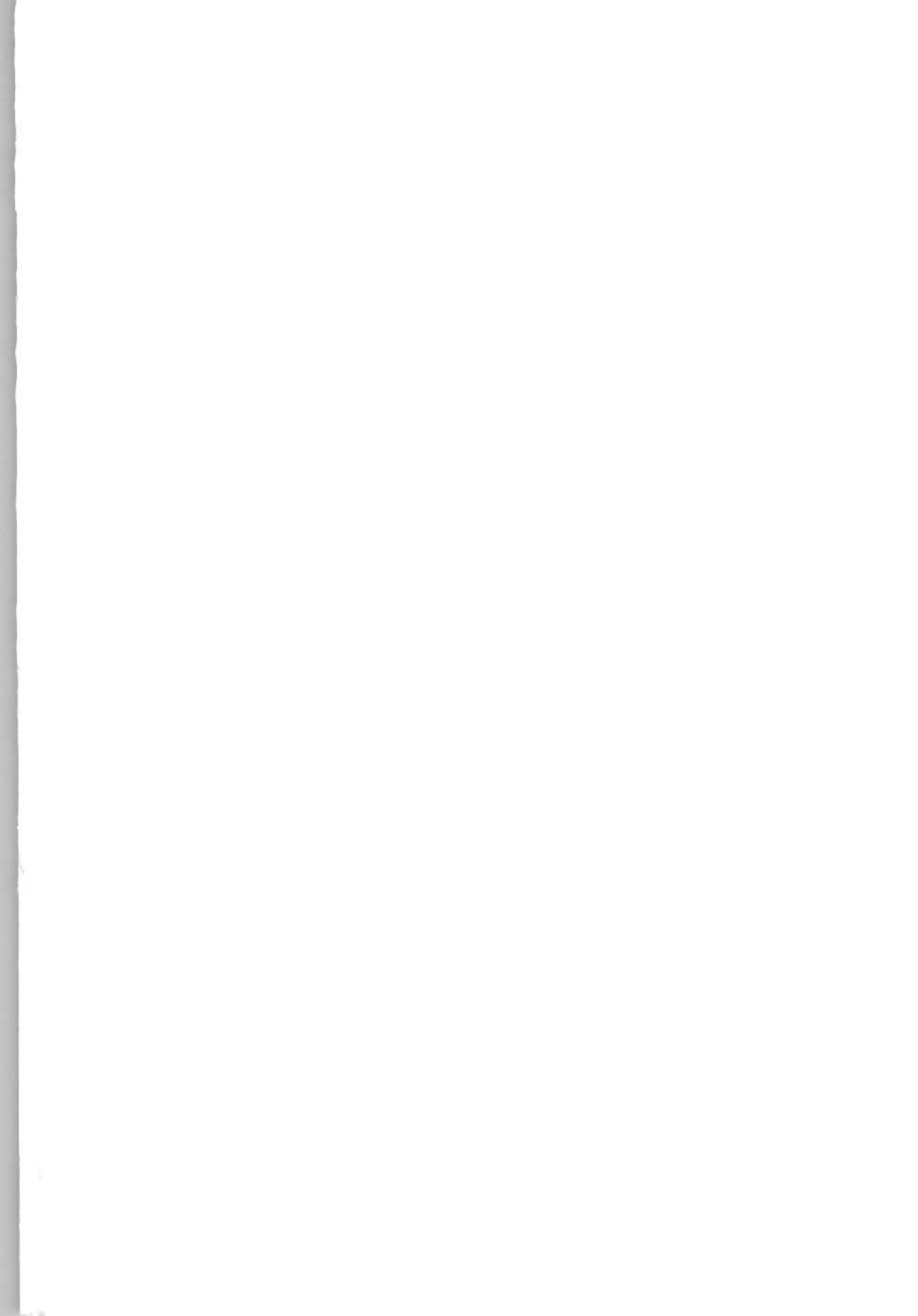
جامعة القاهرة



يصدرها قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة القاهرة

العدد السابع والأربعون

يوليو ٢٠١٥







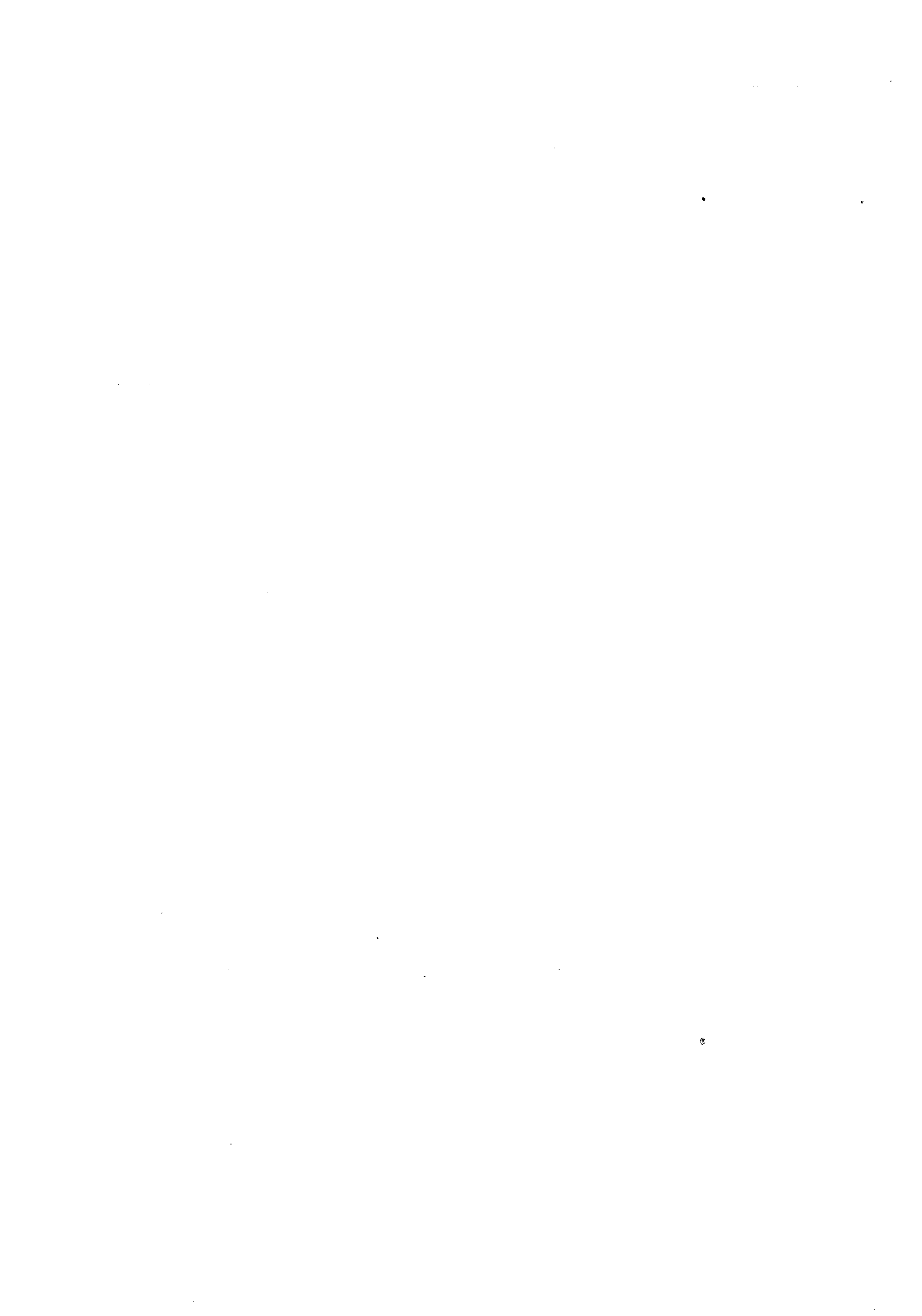
المؤرخ المصرى

دراسات وبحوث فى التاريخ والحضارة
(مجلة علمية محكمة نصف سنوية)

يصدرها قسم التاريخ
كلية الآداب – جامعة القاهرة

العدد السابع والأربعون

يوليو ٢٠١٥



المراسلات : **ترسل البحوث والمقالات باسم أ.د. أحمد الشربينى رئيس التحرير على العنوان التالى :** (قسم التاريخ) **كلية الآداب – جامعة القاهرة – بريد الأورمان – الجيزة.**

All correspondence to be directed to : Editor- in chief- Prof. Ahmed El Sherbini, Cairo University, Faculty of Arts, Orman, Giza, A.R.E.



الهيئة الاستشارية

قواعد النشر

- ترحب مجلة المؤرخ المصرى بنشر الأبحاث والدراسات الأصلية ذات المستوى الجاد بعد التحكيم، فضلا عن مراجعات وعرض الكتب الجديدة.
- تقبل حوليات المؤرخ المصرى للنشر الأبحاث التاريخية والحضارية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية، على ألا يقل عدد الصفحات عن ٣٠ صفحة مسجلة على ديسك كمبيوتر، وفق برنامج (word) مع نسخة مطبوعة على ورق حجم A4 ، بما فى ذلك الهوامش والجداول وقائمة المراجع، على أن تكتب الهوامش فى نهاية البحث.
- حوليات المؤرخ المصرى لا تنشر بحوثا سبق أن نشرت أو معروضة للنشر فى مكان آخر، وتقوم رئاسة التحرير بإخطار المؤلفين بإجازة بحوثهم للنشر بعد عرضها على هيئة التحكيم.
- تحتفظ حوليات المؤرخ المصرى لنفسها بحق قبول أو رفض الأبحاث أياً كان قرار هيئة التحكيم.
- النشر فى مجلة المؤرخ المصرى متاح لأعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية والعربية والأجنبية وسائر المهتمين بالدراسات التاريخية.
- الآراء الواردة فى مجلة المؤرخ المصرى تعبر عن وجهة نظر أصحابها.



محتويات العدد
يوليو ٢٠١٥

الصفحة

بحوث فى التاريخ الإسلامى

بحوث في التاريخ الوسيط

الافتتاحية

يسعد هيئة تحرير مجلة المؤرخ المصري أن تقدم هذا العدد المهم لمتابعيها من المتخصصين في التاريخ والحضارة، وتأتي أهمية هذا العدد من تضمنه مجموعة متنوعة من البحوث العلمية التي تغطي فترات زمنية ممتدة، ومساحات جغرافية كبيرة، حيث تضمن العدد أكثر من دراسة عن الفترة العثمانية، تناولت إحداها البحث في إسهامات تلك الدولة في الفكر السياسي الإسلامي، في حين اهتمت دراسة أخرى باستكشاف صورة مصر والمصريين في الذهنية العثمانية من خلال القراءة النقدية في كتب أحد الرحالة العثمانيين الذين تجولوا بالمنطقة، ورصدوا أحوالها. أما الدراسة الثالثة فتناولت موضوعاً في تاريخ الخليج في أواخر الحقبة العثمانية. أيضا تضمن العدد دراسة عن الحرم الهمايوني ودوره في تدهور الدولة العثمانية، كذلك تضمن العدد أكثر من دراسة عن تاريخ مصر الحديث، وبخاصة الاقتصادي، حيث تضمن العدد دراسة عن تطور صناعة النسيج عبر فترة زمنية ليست بالقصيرة، كما تضمن دراسة عن تطور النقل النهري في عصر محمد علي باشا. علاوة على ذلك تضمن العدد دراسة عن دور السيدة الأولى السياسي والمجتمعي في أمريكا في فترة مهمة من تاريخها المعاصر. وبالإضافة إلى هذه البحوث السبع في التاريخ الحديث تضمن العدد أربعة بحوث في التاريخ الإسلامي والوسيط؛ حيث تضمن دراسة عن الخشداشية في العصر المملوكي، كما تضمن دراسة عن إدارة أزمة عام الرمادة، ودراسة عن أحد المؤرخين اليمنيين" الجندي" في العصر الاسلامي، أما الدراسة الأخيرة فجاءت عن الأوقاف والدعوة الشيعية في العصر الفاطمي. وبهذا

يكون العدد قد تضمن أكثر من عشرة بحوث، وهذا ربما فاق الحدود التي التزمت بها المجلة في أعدادها السابقة، لكن حرص المجلة على الوفـــاء بالتزاماتها أمام المهتمين بالنشر فيها هو ما جعلنا نقدم على الـــدفع بهـــذا الكم من البحوث في هذا العدد الذي نأمل أن يلقى القبـــول والاستحســـان الذي لقيته الأعداد السابقة من المجلة.

رئيس تحرير مجلة المؤرخ المصرى

ورئيس قسم التاريخ

أ.د. أحمد الشربينى

صناعة النسيج في مصر
١٨٠٥ - ١٩٧٤ (*)

أ.د. أحمد الشربينى السيد
كلية الآداب – جامعة القاهرة

في الوقت الذي كانت فيه أوربا تسعى للخلاص من الاقتصاد الإقطاعي التقليدي، الذي يقوم على نمط الزراعة المعاشي بالدرجة الأولى، كانت مصر وبعض بلدان الشرق كالهند والصين، تعيش مرحلة من تصنيع الاحتياجات المجتمعية غير المعروفة إلا في تلك المناطق. ورغم أن نمط تلك الصناعات كان تقليدياً، أو ما يمكن أن نطلق عليه نمط ما قبل الميكنة الصناعية، فإن إنتاج تلك المناطق وجد طريقه إلى الأسواق الخارجية، بما في ذلك الأسواق الأوربية، ولعل الإقبال الأوروبي على تلك المنتجات الصناعية السلعية التي كانت تنتج بالشرق هو ما حفز أوروبا لتغيير أوضاعها الاقتصادية، بالسعي لتفعيل قطاع الصناعة وتجاوز مرحلة الإنتاج الحرفي إلى مرحلة الإنتاج الميكانيكي الذي كان وصوله إليها إعلاناً عن دخوله عصر الثورة الصناعية، التي كانت إنجلترا السباقة إليها في منتصف القرن الثامن عشر.

وكانت المنسوجات المصرية واحدة من أهم المنتجات التي فاض إنتاجها عن حاجة السوق المصرية، ووجدت نوعيات منها طريقها إلى الأسواق الخارجية بما في ذلك بعض الأسواق الأوربية. وظلت المنسوجات حتي مطلع القرن التاسع عشر تمثل واحدة من أهم المنتجات التي تصنعها

(*) مجلة المؤرخ المصرى، عدد يوليو ٢٠١٥

طوائف الحرف بمصر في معظم المدن والقرى المصرية، حتى تخصصت طوائف، بل.ومناطق معينة في إنتاج نوعيات محددة منها، حيث كان معظم المنسوجات القطنية ينتج في صعيد مصر، بينما اشتهرت مصر السفلى، ومنطقة الفيوم بصناعة المنسوجات الكتانية، في الوقت الذي كانت تنتج فيه المنسوجات الحريرية بشمال مصر السفلى " الوجه البحري " وبخاصة في دمياط والمحلة الكبرى نظراً لسهولة استيراد المادة الخام التي تدخل في صناعة تلك المنسوجات من بلاد الشام " سوريا تحديداً " وملائمة مناخ المنطقة لصناعتها، كما كانت صناعة الصوف تنتج في الفيوم والقاهرة. واذا كانت الأقمشة الشعبية الرخيصة قد توزع إنتاجها في أنحاء البلاد، فان مدناً مصرية تخصصت في إنتاج نوعيات من المنسوجات ذاع صيتها، ومن أهم مراكز صناعة النسيج في مصر حتى مطلع القرن التاسع عشر اسنا وقوص وقنا وجرجا وفرشوط وأسيوط ومنفلوط وأبو تيج في الوجه القبلي، وشبين ومنوف وطنطا ومحلة مرحوم وبرمة وإبيار وبسيون ورشيد ودمياط والمنصورة وسمنود والمحلة الكبرى وقلين في الوجه البحري(١).

في ذلك الوقت كان إنتاج النسيج تقليدياً، ويتم على مراحل غير متصلة، حيث كان الغزل يعد بشكل منفصل عن عملية النسج وبالطرق التقليدية، ففي الغالب ما كانت تتم عملية الغزل في البيوت الريفية، وبيد السيدات الريفيات، بعد فراغهن من العمل المنزلي وربما الحقلي، في محاولة إيجابية من المرأة لشغل أوقات فراغها والمساهمة في زيادة دخل أسرتها. ولعل هذا الدور المهم الذي قامت به المرأة في صناعة الغزل والنسيج هو ما جعل الذاكرة الشعبية المصرية تربطه ببعض الأمثال العامية التي مازالت تتردد حتى اليوم، والتي تؤكد على أن عملية الغزل كانت تقوم بها المرأة في الغالب، بعد انتهائها من أعمالها اليومية، وأن اللاتي كن يجيدن عملية الغزل

منهن كن يؤدينها ببراعة واتقان أياً كانت نوعية المغزل الذي يستخدمنه، ومن أشهر هذه الأمثال " في النهار تطوف وفي الليل تغزل الصوف"[٢]، وبعد انتهاء عملية الغزل للقطن أو الصوف أو الكتان كان يجري نقل الغزل إلى مراكز النسج بالقرى والمدن لتجري عملية النسج[٣].

وكان النساجون في أماكن عديدة يتخصصون في صنع تصميمات فريدة لا ينتج مثلها في أماكن أخرى، ولعل هذا ما جعل جيرار – أحد علماء الحملة الفرنسية – يشير إلى أن بعض مناطق إنتاج المنسوجات في مصر عرفت بنوعية المنسوجات التي تنتجها كمنوف وسمنود والمحلة الكبرى ورشيد ودمياط والمنصورة والفيوم[٤].

لهذا تخصصت مدن مصرية في إنتاج نوعيات من المنسوجات راجت بالأسواق الخارجية، فالأقمشة القطنية المنقوشة التي كانت تنتجها دمياط والمحلة ورشيد ومنفلوط وأبو تيج كانت تصدر إلى الأسواق الفرنسية، والتي كان يعاد تصديرها منها إلى هولندا وإسبانيا. ومن مينائي دمياط ورشيد كان يصدر إلى تركيا وبلاد الشام الأقمشة الحريرية المصنوعة بالقاهرة والإسكندرية والمحلة الكبرى، والشيلان الصوف المصنوعة بالفيوم، والفوط المصنوعة في القاهرة". كذلك كانت الأقمشة الصوفية والشيلان تصدر إلى دارفور وسنار وكردفان بطريق القوافل[٥].

وكان يقوم بصناعة النسيج حرفيون ممن كانوا يمارسون مهنهم في منازلهم أو من خلال طوائف متخصصة للحرف[٦] استقرت بأحياء وحارات معينة في المدن، وكان هؤلاء لا ينتجون إلا بناءً على طلب مسبق، مصحوب في الغالب بتقديم عربون " مبلغ من المال يدفع مقدماً – وتوفير المواد الأولية، نظراً لضيق حجم السوق، وصعوبة المواصلات، وضعف القوي الشرائية. ورغم هذا فقد شهدت نهايات القرن الثامن عشر تسرب عناصر

النظام الرأسمالي إلى صناعة المنسوجات المصرية، عندما بدأ التجار في تمويل· أصحاب الحرف " الصناع " في الريف والمدن وتشغيلهم لحسابهم الخاص مع تزويدهم بالمواد الأولية والأدوات، شريطة أن ينتجوا وفقا للمواصفات التي يحددها التجار، عندما بدأ بعض كبار تجار العاصمة استيراد القطن من سوريا وتوزيعه علي النساء الغزالات في القرى والمدن لغزله في منازلهن في أوقات الفراغ، ثم نقل خيوط الغزل الي النساجين والصناع تحت إشرافهم. كذلك اعتاد تجار دمياط استيراد الحرير الخام وتمويل المشتغلين بغزله ونسجه وتصدير المنسوجات الحريرية(٧).

ولا يمكن الحديث عن صناعة النسيج في مطلع القرن التاسع عشر دون الوقوف علي تجربة محمد علي باشا في تحديث صناعة النسيج والتي كانت تعد واحدة من أهم مجالات الصناعة التي عني محمد علي بها لاعتبارات سياسية وعسكرية في آن واحد، فمحمد علي كان يسعى منذ أن وصل إلى السلطة إلى إقامة جيش حديث يحول مصر إلى قاعدة للدفاع عن مصر والمنطقة العربية ضد أطماع الغرب. ولما كان الجيش في حاجة إلى تأمين متطلباته من الاحتياجات، فقد فضل محمد علي إنتاج هذه الاحتياجات من الداخل بدلاً من استيرادها من الخارج حتى يظل متمتعاً بحرية الحركة واستقلال القرار بعيداً عن الضغوط الخارجية، وكذلك حتى يتسنى له الحفاظ على فائض الاقتصاد المصري وخلق اقتصاد متوازن القطاعات لا يعتمد على الخارج في تدبير بعض احتياجات السوق السلعية، أو حتى في تصريف مواده الأولية وبخاصة بعد أن قرر محمد علي التوسع في زراعة القطن، من هنا كانت صناعة المنسوجات على رأس أولويات محمد علي الصناعية.

ولما كان تحديث الصناعة في حاجة إلى بعض الوقت فقد عول محمد علي باشا على صناعة المنسوجات الصغيرة أوالحرفية أهمية في تحقيق

بعض أهدافه في سنوات حكمه الأولى. لهذا كانت صناعة المنسوجات التقليدية في مقدمة الصناعات الصغيرة أو التقليدية التي اهتم محمد علي باشا بوضعها تحت إشراف الدولة، كما كانت من الصناعات التي اهتم بتحديثها، بعد أن أدرك أن سيطرة الدولة عليها، وتوجيهها يضمن له الهيمنة على أحد مصادر الدخل التي تساعد على زيادة موارد دولته في أولى سني حكمه، كما أن تلك السيطرة ستمكنه من توفير احتياجات المؤسسة العسكرية – من ملابس قطنية وصوفية وأغطية وسجاجيد – التي كان قد شرع في بنائها على وجه السرعة منذ بداية حكمه، ومطالبته بالتدخل في الجزيرة العربية ثم شروعه في مد نفوذه إلى السودان، علاوة على ذلك كانت هذه السيطرة تتيح له حماية الصناعة الحديثة التي كان يتطلع لبنائها، وتوفير احتياجاتها من العمالة المدربة والماهرة، وكذلك المادة الخام التي تحتاجها. لهذا كانت صناعة المنسوجات في مقدمة الصناعات التقليدية التي اهتمت دولة الباشا بإخضاعها لإشرافها، وهذا ما أكد عليه الجبرتي عندما ذهب إلى أن الباشا أمر بأن يوضع تحت إشراف الدولة كل " أنوال الحياكة وكل ما يصنع بالمكوك وما ينسج.... في سائر بلاد الإقليم المصري "(٨).

كانت الأوامر قد صدرت لحكام الأقاليم بحصر أنوال النسيج بأقاليمهم، وجمعها ووضعها في مكان واحد حتى يسهل الإشراف على إدارتها وتشغيلها لحساب الميري، حيث صدر أمر إلى مأمور الجيزة بوضع قائمة بعدد الأماكن الجاري تجهيزها في داخل مديريته لجمع الأنوال التي بأيدي الأهالي... وبيان مقدار المبالغ التي صرفت على إنشائها والمبالغ اللازم صرفها فيما بعد لإتمام إنشائها "(٩).

كان الإنفاق على تجهيز المراكز التي ستجمع بها الأنوال وصيانتها وتشغيلها يتم على حساب الميري، كما يلاحظ أن دولة الباشا قد اتجهت

لتحديد قيمة هذه الأنوال تمهيداً لتقديم تعويضات عنها لأصحابها ففي إحدى الأوامر تم التأكيد على " أن جميع الصرفية تكون من خزينتنا وتكون الأشغال. جميعها على ذمتنا... لذلك رتبنا نظار وكتبة ومعلمين صنايع وأمرنا بضبط كل الأنوال وتثمين جميع الموجودات وتدوير كل الأشغال بعد العدد الشافي والبحث الكامل وحضور دفاتر بجميع ذلك وعند حضور الدفاتر يترتب لكل شيء مقتضاه [١٠]".

ولم تعف القري التي كانت بها صناعة حرفية للنسيج من سياسة محمد علي باشا حيث أكد على أن " القري التي تكثر فيها الأنوال أيضاً تجمع في منزل واحد "[١١]، والملاحظ انه بمجرد حصر الأنوال وجمعها في مكان واحد، وإدارة الدولة لها كان يتم الفصل بين الحرفي وأداة النسج التي كان يعمل عليها، وعندئذ يتحول الحرفي أو الصانع الذي كان ملماً بكل أطراف الصنعة إلى عامل لا علاقة له بهذه الأداة إلا العمل عليها تحت إشراف رجال الباشا نظير أجور، ومعاشات تم تحديدها لهم، في محاولة لتحسين ظروف عملهم بشكل يدفعهم إلى الارتباط بمشروع الباشا، وهذا ما عكسته مكاتبات الباشا والتي ذهبت إلى أننا " جعلنا لكل إنسان أجرة تقوم به زيادة عما كان يأخذ الأول... والمعلمين الذين كانوا يدورون الأنوال على ذمتهم جعلناهم معلمين على عدة أنوال ويكون لهم معاش وعلى هذا النوع كل إنسان كان له دخل في هذه الأشغال جعلنا له معاش حتى لا يكون لأحد حجة وحتى إذا تعدى أحد وعمل شيئا من هذا الأمر يبقا مستحق القصاص وذنبه في رقبته ".

وحتى يضمن الباشا تشغيل صناعة المنسوجات تحت إشراف دولته فقد شكل ديوانا للإشراف على الصناعة وأرسل وكلاءه إلى القرى لشراء الخيوط التي تغزلها النساء في القرى، أو جمع غزل القطن والكتان من الفلاحات

الريفيات اللاتي أمدتهم الإدارة بهما لغزله نظير مقابل مادي، حتي ولو كن بالمناطق النائية، وذلك تمهيداً لتوصيله إلي النساجين بالقرى والمدن على حد سواء(١٢).

هذا في الوقت الذي عينت فيه الإدارة مشايخ بكل قرية ليقوموا بإحصاء مغازل القرية وأنوال النسيج بها ليضمنوا استمرار تشغيلها، وشراء المنسوجات الجاهزة بها، وبالمدن بأسعار تحددها الحكومة، ووضع خاتما حكوميا "علامة الميري" على طرفي كل قطعة نسيج منها حتى يسهل عليها ضبط الإنتاج "البراني" ومعاقبة كل من يحاول تهريب المنسوجات وبيعها بالأسواق خلسة بالضرب والغرامة الباهظة(١٣).

وفي الوقت الذي أهتم فيه محمد علي بفرض إشراف دولته على صناعة النسيج التقليدية، فقد اهتم كذلك بخلق صناعة حديثة للمنسوجات، على غرار صناعات النسيج الغربية. ولما كانت صناعة النسيج تعتمد على بعض الصناعات الخاصة بتجهيز وإعداد المواد الأولية التي تحتاجها في الداخل، فقد اهتم محمد علي باشا بحلج وكبس القطن حتى أنه قام باستيراد آلات الحلج والكبس التجارية من أمريكا عام ١٨٢٠، كما أنشأ مصنع لتجهيز النيلة استعان فيه بخبراء هنود في صناعة النيلة.

و بدأ تحديث صناعة الغزل والنسيج في مطلع القرن التاسع عشر بإنشاء مصنعين كبيرين بالقاهرة - ببولاق والخرنفش - في نهاية العقد الثاني من ذات القرن، كان مخططا لهما أن يتخصصا في إنتاج المنسوجات الصوفية والحريرية والقطيفة، بيد أن الصعوبات التي اعترضت عملهما جعلتهما يتحولان لإنتاج المنسوجات القطنية، كما أنشئت في بولاق ورشة تبييض، كانت ترسل إليها المنتجات القطنية من المصانع الأخرى لتبييضها، كما أنشيء مصنعان للصباغة في بولاق(١٤).

ورغم الصعوبات التي واجهت تحديث صناعة المنسوجات، والتكاليف الهائلة التي تطلبتها، والتي لم يغطها - على الأقل في السنوات الأولى من التحديث - إنتاجها، فقد شرع الباشا في إنشاء مصانع أخرى للنسيج خارج القاهرة وعلى مقربة من مصادر المواد الأولية التي تحتاجها حتى قدر البعض هذه المصانع في ١٨٣٣ بثلاثين مصنعا، ثلاثة منها بالقاهرة، وثلاثة أخرى في بولاق، واثنان في كل من قليوب والمحلة ودمياط وواحد في كل من بنها وشبين وزفتى وميت غمر وسمنود وفوه ونبروه ودمنهور وبني سويف والمنيا وفرشوط وملوي وطهطا وجرجا وأسيوط وقنا واسنا[١٥].

والملاحظ أن معظم هذه المصانع أو الفابريقات تخصص في إنتاج المنسوجات القطنية وقليل منها تخصص في إنتاج المنسوجات الحريرية، والصوفية، والكتانية، والطرابيش، والشيلان، والسجاد. فمدينة المحلة كادت تنفرد بإنتاج المنسوجات الحريرية، أما مصنع فوه والذي تأسس في عام ١٨٢٤ فقد تخصص في إنتاج الطرابيش لتزويد الجيش بحاجته من أغطية الرأس، وجلب له المعلمين المتخصصين في صناعتها من تونس، كما جلب الصوف اللازم له من إسبانيا[١٦]. لهذا لعب تطور صناعة المنسوجات القطنية في عصر محمد علي باشا دوراً مهماً في استهلاك نسبة كبيرة من الأقطان المصرية حتى أنه في عام ١٨٢٨ أصبح خمس إنتاج مصر من محصول القطن يغزل في مصر، وأصبحت مصانع النسيج الحكومية تستهلك ثلثي الإنتاج من غزل القطن، أما الثلث الأخير فكان يباع للنساجين الحرفيين[١٧].

وقد اعتمدت صناعة النسيج الحديثة بالفوريقات أو المصانع التي أنشأها محمد علي باشا على العمالة والخبرات الأجنبية بالدرجة الأولى على الأقل في سنوات تأسيسها الأولى، وإذا كانت محاولات استعانته بعمالة وخبرة

إنجليزية وفرنسية قد واجهتها صعوبات جمة بسبب موقف حكومة البلدين من هجرة عمالة بلديهما المدربة إلى الخارج، فانه لم يستسلم لهذه الصعوبات وراح يدبر احتياجاته من العمالة المدربة والخبرة من خارج البلدين قدر الإمكان، من مالطة ومن دول جنوب أوروبا، وذلك من خلال الإغراءات التي كان يقدمها لهؤلاء العمال والخبراء، فقد نشر إعلان في مالطة بأنه سيقدم شروطا طيبة للصناع والحرفيين الذين يقبلون الإقامة في مصر وممارسة مهنهم وحرفهم، ويبدو أن مثل هذا الإعلان وجد استجابة من هؤلاء العمال حتى أن ورشة تبييض المنسوجات التي أُنشئت ببولاق عرفت باسم ورشة مالطة، نظرا لكثرة استخدام المالطيين بها. كذلك حاول محمد علي استقدام عمال من إنجلترا وفرنسا، فمن خلال وكلائه بفرنسا نجح في إقناع عمال فرنسيين من ذوي الخبرة بالهجرة دون موافقة حكوماتهم، وإن كان استقدام عمال أجانب من جنوبي أوربا للعمل بمشاريع محمد علي الصناعية أكثر نجاحاً، حيث كانت الأحوال الاقتصادية السيئة دافعا لقبولهم بالهجرة إلى مصر، حتى أنه في نهاية ١٨١٧ وصل إلى مصر سبعة عشر من نساجي الحرير من لجهورن، وكان متوقعا أن يصل منهم ستون آخرون. وذكر تقرير في مطلع عام ١٨١٨ أن عمالا من الذكور والإناث في طريقهم من جنوا ولجهورن ومرسيليا للعمل في مصانع الحرير والقطن المصرية. هذا في الوقت الذي اهتم فيه الباشا بتدبير بعض العمالة التي كانت تحتاجها المصانع من داخل مصر، ففي اجتماع عقد في خريف عام ١٨١٨ صدرت التعليمات إلى مشايخ أحياء القاهرة بجمع ٤٠٠٠ شابٍ للعمل تحت إمرة العمال الأوربيين المهرة، كما ذهب الجبرتي إلى أن الحكومة كانت تنوي تعبئة ١٠ آلاف مصري للعمل في مصانعها(١٨).

هذا في الوقت الذي أغلقت فيه دولة الباشا بعض ورش صناعة

المنسوجات التي قررت الإشراف عليها، وفرضت على من كانوا يعملون بها العمل بالمصانع الحديثة التي كانت تمتلكها الدولة بالأجور التي تحددها، ولم يفوت محمد علي فرصة الاستفادة من الخبرات الأجنبية في تدريب العمالة المصرية، عندما طلب من المصانع التي يفد إليها خبراء أجانب استقبال عناصر مصرية منتقاة للتدرب على يد هؤلاء الخبراء، لهذا طالب " بان يرسل إلى مصنع السبتية ومصنع الحوض المرصود المحالين إلى عهدة المهندس ... القادم من انجلترا عددا من الأسطوات المصريين الماهرين ليتمرنوا كل يوم ساعتين أو ثلاث ساعات "(١٩).

وحتى لا تظل صناعة النسيج الحديثة بيد الأجانب فقد عمد الباشا إلي إرسال البعوث العلمية والعملية إلى الخارج... ففي سنة ١٨٢٩ أرسل إلى فرنسا مبعوثين لدراسة صباغة الشيت والجوخ والحرير والشيلان وطباعة المنسوجات(٢٠).

وكانت الأجور تتفاوت بتفاوت الخبرة وطبيعة العمل والإنتاج، وربما جنسية العامل نفسه. وكانت الأجور تدفع كرواتب مشاهرة أو مياومة أو تدفع في مقابل الإنتاج أو ما يمكن ان يسمي بالمقطوعية، فنقرأ في مؤلف منجن وفي تقرير بورنج أن معدلات الأجور بالقطعة في مصانع الغزل والنسيج بالقاهرة بلغت ٧ بارات عن الرطل لعمليتي التنظيف والتمشيط، و٤ بارات عن الرطل من الغزل السميك و١٠ بارات للرطل من الغزل الرفيع، بينما كان الأجر يصل في حالة الغزل الرفيع جداً إلى ١٥ بارة للرطل، ويروي شولشر أن عمال الغزل في فابريقة الخرنفش كانوا يحصلون علي قرشين و٣٠ بارة يومياً، أما عمال النسيج فكانوا يحصلون علي ٨ قروش و٣٠ بارة عن القطعة، بينما كان أجر الرسامين يتراوح بين ٢٠ و٦٠ قرشا شهرياً، وقد تعجب الكاتب لانخفاض أجور العمال الفنيين في المبيضة اذ كان المدير الذي

درس الصناعة في أوربا يتقاضي ٥٠٠ قرش شهريا " ١٢٥ فرنك " وهو أجر ضئيل نسبيا إلى نظائره في أوربا. وفي أمر آخر لوحظ أن أسطوات مصنع النيلة في ميت بره كانوا يتقاضون ١٧٥ قرشا شهرياً ومساعدوهم ٧٥ قرشا في أوان النيلة فقط "[٢١].

ومن أوامر متفرقة لوحظ كذلك أن مرتب رؤساء الحرير تراوح بين ٢٠٠ قرش و ٣٠٠ قرش شهرياً، وأن مرتب معاون مصانع جرجا وطهطا كان ٥٠٠ قرش، ومرتب ناظر على٢٣ فابريقة شهرياً بلغ ١٠٠٠ قرش[٢٢].

وكما انشغل محمد علي بتوفير العمالة لمصانع المنسوجات الحديثة، فقد انشغل كذلك بتوفير احتياجاتها من المواد الخام بأسعار منخفضة، تساعد تكلفة إنتاجها علي المنافسة في السوق الخارجية، حتي أنه توسع في زراعة نوعيات محسنة من الأقطان، واحتكر تسويقها، كما توسع في زراعة الكتان حتى أصبح يزرع في كل الأقاليم المصرية، كما عمل علي زيادة مساحة الأراضي المزروعة بأشجار التوت لزيادة إنتاج الحرير، حتى أنه في مارس ١٨١٧ غرس أشجار التوت في بلبيس بالشرقية لتربية دود القز، كما اهتم بتربية دود القز في الشام وجبل الدروز تحديداً[٢٣].

كذلك اهتم محمد علي بفتح أسواق منطقة الشرق الأدنى أمام المنسوجات المصرية، حتي لا يتوقف تسويقها على السوق المصرية، من هنا كان حرصه على أن يجعل من بلاد الشام سوقاً رائجة للأقمشة المصرية، حتى أنه أعطى أوامره لناظر الأنوال بخفض أسعار المنسوجات التي كان يتقرر توجيهها إلى بلاد الشام حتى تلقى رواجاً بأسواقها، واتخاذ الإجراءات التي تضمن سلامتها وجودتها قبل السماح لها بالخروج إلى بلاد الشام، وإغراء تجار المنسوجات الشوام حتى يفضلوا العمل بتجارة المنسوجات المصرية، عندما كلف ناظر الأنوال بأن تتقاسم خزينة الأنوال أرباح مبيعات

المنسوجات مناصفة مع تجارها من الشوام. في الوقت الذي اهتم فيه الباشا بتأمين طريق تجارة القوافل بين مصر والشام، بعد أن تعرضت بعض قوافل المنسوجات للسطو والنهب من جانب البدو. كذلك اهتم محمد علي بالسيطرة على سوق المنسوجات بالحجاز والجزيرة العربية، عندما دفع تجار المنسوجات الذين كانت لهم معرفة بها – من الحجازيين والمصريين والأجانب – لدراسة هذه الأسواق والوقوف على نوعيات المنسوجات التي تروج بها، وتقديم نوعيات مصرية منها، مما فتح أمام البفتة المصرية السوق الحجازية على حساب النوعيات الهندية[٢٤].

كذلك كانت مصر تصدر – عن طريق مينائي رشيد والإسكندرية – للآستانة والمدن الايطالية والنمسا واليونان ومالطة ومدن البحر المتوسط كميات كبيرة من المنسوجات والخيوط عالية الجودة، والتي صنعت خصيصا للتصدير بواسطة مجموعة من وكلاء الباشا من الأجانب[٢٥].

ولا نستبعد ان يكون اهتمام محمد علي باشا بصناعة المنسوجات وبالهيمنة على أسواقها في الشرق الأدنى والبحر المتوسط وراء تحرك إنجلترا لضرب تلك الصناعة من خلال الإجهاز على مشروع محمد علي بشكل عام، حتى تقصى محمد علي عن واحدة من أهم أسواق المنسوجات في العالم هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى حتى تجهض صناعة المنسوجات المصرية بشكل يضمن لصناعة المنسوجات البريطانية مصدر مهم للأقطان الخام، بعد أن ازداد الطلب الدولي على الأقطان بدخول دول أوروبية عدة مجال الثورة الصناعية وتقدم صناعة المنسوجات بها، وتوتر الأوضاع في الولايات المتحدة الأمريكية بشكل ينذر باندلاع أعمال عنف وحرب أهلية في أي لحظة، كان من المتوقع أن تؤثر على قدرة الولايات المتحدة في تمويل مراكز صناعة المنسوجات العالمية، وتحديدا البريطانية باحتياجاتها من

الأقطان الخام، لهذا فرضت بريطانيا على الدولة العثمانية في ١٨٣٨ معاهدة بالطة ليمان، التي استهدفت ضرب الاحتكارات في الدولة العثمانية، وتحديدا في مصر، لأنها تجربة الاحتكار الوحيدة في الدولة العثمانية التي ارتبط استمرارها ببناء مشروع نهضوي وتنموي على كافة المستويات، بعد أن ساعدت الدولة على حصد الفائض الاقتصادي وتوظيفه في إقامة مشروع نهضوي متوازن. ولعل رغبة انجلترا في تغييب التجربة المصرية على وجه السرعة – لتأمين حرية التجارة في الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف، وضمان أسواق لمنتجاتها الصناعية، وإزالة ما يتعرض له رعاياها من تمييز في المعاملة – هو ما دفعها إلى استغلال أزمة محمد علي باشا مع الدولة العثمانية – التي حرصت على تقليم أظافر الباشا والقضاء على مصادر دخله من الاحتكار أملاً في أن يؤدي ذلك إلى إضعاف قوته الحربية – وتشكيل تحالف دولي بزعامتها، ومحاصرة السواحل المصرية وإجباره على قبول معاهدة لندن التي اعتبرت معاهدة بالطة ليمان جزءاً منها، كما أن جهود إنجلترا في أعقاب معاهدة لندن تركزت على إنهاء علاقة محمد علي باشا بالشام والجزيرة العربية ورفع يد الدولة المصرية عن إدارة الاقتصاد وتحرير السوق المصرية، وفتحها أمام السلع الأجنبية. لهذا بدأ محمد علي يتخلى في أعقاب معاهدة لندن تباعاً عن الاحتكارات، ومن بينها احتكار صناعة المنسوجات.

فبعد اتفاقية لندن مباشرة أحال الباشا بعض الفوريقات "المصانع" إلى متعهدين لاستغلالها ودفع رسوم نظير ذلك، فقد عهد بإدارة فابريقات السبتية وبولاق وفوة إلى ابنه إبراهيم باشا على أن يدفع نظير ذلك مبلغ ٢٥٠ كيسة سنوياً، وفي عام ١٢٥٨ / ١٨٤٢ أباح محمد علي باشا تشغيل الأقمشة القطنية على ذمة الأهالي[٢٦].

وفي عام ١٢٦٥ تقرر" أن يعطي مصنع الشيت بشبرا التزاماً " بعد ان أصبحت ادارة الحكومة له غير مجدية، وفي أواخر حكم محمد علي أمر بإيقاف إدارة فابريقات المنسوجات بالأقاليم من جانب الميري، والاكتفاء بإدارة فابريقات القاهرة وضواحيها فقط وحفظ الأدوات الخاصة بالفابريقات المذكورة من التلف إلى أن يظهر راغب في التزامها "[٢٧].

وفي بداية حكم عباس أُلغيت مصانع القماش بالوجه القبلي من بني سويف وما فوقها وذلك لارتفاع تكلفة ما تنتجه من مصنوعات؛ بسبب ارتفاع تكاليف نقل القطن الخام من مديريات الوجه البحري.

ومهما كان الأمر فإن محمد علي أوجد ما يمكن أن نسميه بثنائية إنتاج المنسوجات، بعد أن أسس لصناعة حديثة للمنسوجات تعتمد على الآلة أو الميكنة في إنتاجها، في الوقت الذي لم يضح فيه بصناعة المنسوجات التقليدية إلا في حدود ضيقة، وفي ضوء مقتضيات الصناعة الحديث حسب تقديره. وهذا ما لم تعرفه تجربة التصنيع الأوربية، التي ارتبط الوصول فيها إلى الصناعة الآلية بالإجهاز على نظام طوائف الحرف، في مراحل الانتقال من الإنتاج الحرفي إلى المصنع الآلي مرورا بالعمل المنزلي والمصنع اليدوي.

وهذه الثنائية تجلت في عدم إحداث أي تغيير في طرائق الإنتاج البدائية أو التقليدية في صناعة النسيج الصغيرة، والتي بقى فيها كل قديم على قدمه ولم تحاول الحكومة تقديم النصح والإرشاد والقدوة الحسنة للصناع، الذين لم ترشدهم إلى الوسائل الحديثة لزيادة الإنتاج، أو تزودهم بالائتمان الذي يفتقرون إليه، أو تساعدهم في تسويق المنتجات. هذا في الوقت الذي أدى فيه التدخل الحكومي في صناعة النسيج الحرفية إلى قتل روح الابتكار لدي الصناع. وبخاصة بعد أن حظرت الحكومة إنتاج السلع البديلة، ومنعت اتباع طرائق جديدة للإنتاج خوفا مما قد يترتب على ذلك من خسارة للمشاريع

الأميرية. ولم يكن لدى أرباب الصناعة حافز على زيادة الإنتاج طالما كان نصيب الأسد من الربح يعود إلى جيوب الموظفين والخزينة الأميرية.

وبعد أن حققت صناعة النسيج الحديثة درجة عالية من النجاح في ظل تحكم الدولة في السوق من خلال الهيمنة على الصناعات الحرفية وتوجيهها، وربما بعد أن أدرك محمد علي عاقبة الإفراط في مراقبة الصناعات الحرفية، بدأت الدولة تتخلي عن سياسة الإشراف والتوجيه لصناعة المنسوجات الحرفية أو الصغيرة، وذلك في مطلع ثلاثينات القرن التاسع عشر، وقبلت بإعطاء أصحابها الحرية في إدارتها، مع الاحتفاظ بحق الدولة في الحصول علي احتياجاتها من إنتاجها بالقيمة التي يباع بها، وفرض ضرائب معتدلة عليها. فقد تم رصد أمر من المجلس العالي "بصرف النظر عن إنشاء أماكن خصوصية في القرى لجمع الأنوال المتفرقة فيها والتنبيه على مأموري الأقاليم بان يوزعوا علي كل قزاز خمسة عشر نولا ليقوم بتشغيلها في بيته حيث أن أولاده يساعدونه في انجاز أعماله "[٢٨].

وفي ٢٠ يونيو ١٨٣٤ أمر الباشا ببقاء أنوال العباءات والأحرمة في يد الأهالي على أن يأخذ منهم اللازم للعساكر بالقيمة التي تباع بها الأشياء[٢٩]، وفي ٩ أغسطس ١٨٣٤ تقرر تشغيل أنوال الأقمشة على ذمة الأهالي وتخفيض الأرباح على الأنوال وتحصيلها في كل شهر "[٣٠].

لهذا عادت صناعة الحرير إلى أيدي الأفراد لقاء ضريبة شهرية قدرها ٣٦ قرشا عن كل نول... كما عادت مصانع النيلة إلى الأفراد سنة ١٨٣٥ وإن كانت قد أحيلت في باديء الأمر لمشايخ البلاد وأعيد تشغيلها لحساب الحكومة مرة ثانية قبل التخلي عنها نهائيا.

وهذه الصناعة الحرفية للمنسوجات والتي اعتقت من قبضة دولة محمد علي باشا هي التي قدر لها أن تستمر وتعمل في النصف الثاني من القرن

التاسع عشر، ولكن في ظروف أصعب من تلك التي كانت تعمل في ظلها في عصر محمد علي، حيث كان عليها أن تواجه منافسة شرسة من قبل إنتاج تقني غربي عالي الجودة ومنخفض السعر، فى الوقت الذي فقدت فيه الحماية الجمركية، وكذلك الدعم حتي من قبل النظام السياسي.

المنسوجات المصرية في عصر الحرية الاقتصادية:

رغم أن طوائف حرف النسيج في مصر كانت على رأس طوائف الحرف الصناعية التي تأثرت بسياسة محمد علي الاحتكارية، فقد عاودت نشاطها في أعقاب سقوط مشروع محمد علي السياسي والاقتصادي – بالمدن والقرى بمعظم المديريات – وبالطرق التقليدية لتغطية بعض حاجات المجتمع المصري من المنسوجات، وبخاصة بعد أن استسلم خلفاء محمد علي لخطط الرأسمالية العالمية التي حيكت حول مصر، والتي استهدفت دمجها بشكل نهائي في السوق الرأسمالية العالمية، مع العمل باستمرار لوقف أي محاولات لتصنيعها، وبخاصة في مجال النسيج، حتى يتم حسم مخطط تحويلها إلي وحدة متخصصة في إنتاج احتياجات السوق الرأسمالية من الأقطان طويلة التيلة، والتي توسع محمد علي باشا في زراعتها في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

وعندما أجهز عباس باشا على ما تبقى من تجربة محمد علي الصناعية، في ظل إقرار مبدأ الحرية الاقتصادية، تطلعت طوائف حرف النسيج في مصر إلى العمل في ظروف أفضل من تلك التي عملت فيها إبان عصر محمد علي، بيد أن الظروف لم تمكنها من ذلك، لارتباط صناعة النسيج في مصر رغم انها كانت ما تزال تقليدية بالسوق الرأسمالية العالمية، بعد أن تطورت، بدرجة فاقت تطور انتاج الغزل المحلي، وأصبحت في حاجة إلى خيوط رفيعة لا توفرها صناعة الغزل المنزلية التى كان يشترك

فيها أفراد الأسرة، واعتمادها على الغزل الوارد من البلدان الأجنبية، واستيراد معظم الخيوط الصوفية والقطنية والكتانية التي تحتاجها من إنجلترا وإيطاليا، ومعظم خيوط الحرير من الصين وإيطاليا[٣١].

كذلك تأثرت صناعة المنسوجات التقليدية في مصر، بما ترتب على تراجع دور الدولة من اختفاء الحماية الجمركية للسوق المصرية، واتجاه المنسوجات الأجنبية - بعد تفعيل معاهدات الامتيازات الأجنبية وتوقيع معاهدات تجارية مع الدول الأجنبية حددت الرسوم علي الواردات بما يتراوح بين ٨% و ١٠% من قيمتها - لإغراقها، بشكل أدى إلى دخول طوائف النسيج في أزمة مهدت للإطاحة بها من دنيا المجتمع المصري قرب نهاية القرن التاسع عشر، وبخاصة بعد أن غض سعيد باشا الطرف عن الصناعة، وركز جل اهتمامه بالزراعة، واهتم الخديوي إسماعيل بالصناعات التي تقوم على تجهيز محصول القطن وإعداده للتصدير. واتجاه سياسة الاحتلال البريطاني في مصر للعمل على تكريس تخلف صناعة النسيج في مصر، وتخصيص مصر فى إنتاج القطن لسد ولو جزء من حاجة المصانع الإنجليزية من الأقطان طويلة التيلة.

كذلك ساهم تغير أنماط استهلاك قطاعات كبيرة من المصريين مم قلدوا الأجانب وتلهفوا على كل ما هو غير مصري مهما بلغ ثمنه وانحط نوعه في خلق أزمة للمنسوجات التقليدية المصرية، وتحويل مصر إلى سوق ضخم للمنسوجات الأجنبية، والتي زادت واردات مصر منها بدرجة غير مسبوقة، تعكسها الأرقام والنسب الواردة بالبيان التالي:

قيمة واردات المنسوجات ونسبتها إلي إجمالي الواردات المصرية

" القيمة بالجنية المصري "

السنة	قيمة واردات المنسوجات القطنية	قيمة الواردات	النسبة
١٨٥٩	٧٩٧,٠٤٩	٢,٤٩٤,١٤٣	٣٢
١٨٦٤	١,٧١٨,٦٧٤	٥,٢٩١,٢٩٧	٣٢,٥
١٩٠١	٢,٤١٥,٠٠٠	١٥,٢٤٥,٠٠٠	١٥,٨
١٩٠٥	٢,٩٩٩,٠٠٠	٢١,٥٤٩,٠٠٠	١٤,٠
١٩١٠	٣,٤٠٤,٠٠٠	٢٣,٥٠٩,٠٠٠	١٤,٥
١٩١٣	٣,٦٥٧,٠٠٠	٢٧,٨٥٧,٠٠٠	١٣,١

المصدر: أحمد الشربيني: التجارة المصرية ١٨٤٠- ١٩١٤ رسالة ماجستير منشورة كلية الآداب – جامعة القاهرة، ص ٤٢٩

من البيان يلاحظ أن قيمة واردات المنسوجات القطنية تضاعفت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبخاصة منذ مطلع ستيناته، حتى أن نسبة الزيادة في قيمة هذه المنسوجات في سنة ١٨٦٣/١٨٦٤ بلغت ١١٥،٦% عنها في سنة ١٨٥٩، ثم واصلت نسبة الزيادة ارتفاعها حتى بلغت ٢٠٣% في سنة ١٩٠١ و ٢٧٦،٣% في ١٩٠٥ و٣٢٧،% في ١٩١٠، ثم ٣٥٨% في سنة ١٩١٣ عنها في سنة ١٨٥٩. ورغم هذه الزيادة الهائلة في قيمة واردات مصر من المنسوجات القطنية فإن نسبتها إلى إجمالي واردات مصر تراجعت من أكثر من ٣٢% في الفترة ١٨٥٩- ١٨٦٤ إلى ما تراوح بين ١٣% و١٦% في الفترة ١٩٠١- ١٩١٣.

ومما زاد من رجحان كفة المنسوجات الأجنبية في سوق المنسوجات المصرية، اهتمام سلطات الاحتلال البريطاني في مصر بأضعاف فرص المنسوجات المصرية على منافستها، وكان **اللورد كرومر في مقدمة من قاموا من رجال الاحتلال** علي تنفيذ هذه السياسة، والتي توفر للمنسوجات البريطانية في مصر ميزة التفوق على المنسوجات المصرية، عندما أصدر مرسوم في ١٣ ابريل ١٩٠١ يقضي بفرض ضريبة قيمية مقدارها ٨% على الخيوط والأنسجة المصنوعة في مصر[٣٢].

وقد عبر **تيود ور روذشتين** عن هذا المرسوم – الذي قوبل بامتعاض من المصريين حتى تم إلغائه – بقوله أن " اللورد كرومر....حرف (مبدأ حرية التجارة)... وفسره بأنه يتعين عليك أن تقتل صناعتك حتى لا تمد المستهلك بمصنوعات أرخص من المصنوعات الواردة ". وإلى جانب ذلك كان تحريم استيراد الأقطان الرخيصة من الخارج لاستخدمها بصناعة النسيج في مصر يوفر ميزة لصناعة النسيج الأجنبية، لأن اعتمادها عليها يساعدها على خفض تكاليف الإنتاج، بشكل يعطيها فرصة للمنافسة في السوق المصرية[٣٣].

وأمام تحول مصر إلى واحدة من أهم أسواق المنسوجات في الشرق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لم يكن من المنتظر أن تنجح أي محاولة فيها لإقامة مشاريع ضخمة لتصنيع المنسوجات، ولو برأس مال إنجليزي، للتسهيلات التى توفرت للمنسوجات الأجنبية في السوق المصرية. فبعد ان تأسست شركة الغزل والنسيج المصرية-الإنجليزية، وأنشأت مصنعين لها بالقاهرة " ببولاق " وبالإسكندرية، اضطرتها خسائرها إلى إغلاق مصنع القاهرة، والتنازل عن مصنع الإسكندرية لشركة الغزل الأهلية. ورغم اعادة تأسيس شركة الإسكندرية باسم شركة الغزل والنسيج الأهلية

المصرية في سنة ١٩١١ - التي تعد أول شركة ترسي دعائم صناعة الغزل بكافة مراحلها - فانها تعثرت في عملها واصطدمت بعقبات حتى نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤[٣٤].

وفي الوقت الذي كانت شدة منافسة المنسوجات الأجنبية بالسوق المصرية وراء تعثر مشاريع صناعة النسيج الحديثة في مطلع القرن العشرين، بدأت معظم حرف صناعة النسيج وملحقاتها في مصرفي التراجع، فانهارت أعمال الصباغة بلون النيله بالقاهرة، كما تدهورت صناعة النسيج بأسيوط حتى انه لم يعد يعمل بها بحلول عام ١٩١٠ سوى ٧٠ نولاً من ٣٠٠ نول كانت بها قبل ذلك بسنوات قليلة[٣٥].

والحالة السيئة التي وصلت اليها صناعة المنسوجات في مصر مع نهاية القرن التاسع عشر، شغلت بال بعض الصحف المصرية، التي راحت تبحث عن أسباب التراجع المخيف للمنسوجات المصرية من السوق فصحيفة " الأهرام " نوهت إلى أن مشكلة تغير أنماط الاستهلاك لدى بعض الطبقات المصرية أثر على الإنتاج المحلي عندما ذهبت إلى" انه كان في مصر صناعة منسوجات حريرية ...... في بعض بنادر القطر،...... مدهشة...إلا إن المتاجرين بها لا يكسبون كفاف يومهم إلا بشق الأنفس...... لأن.... البلاد لم تمتلك بين اغنيائها - ممن اقتدوا بالأوربيين - عادات الاقتصاد والاستقلال في الأذواق، والملابس والمفروشات "[٣٦].

كذلك تعرضت صحيفة الأهالي لذات المشكلة، عندما أشارت إلى ان الأهالي في مصر قبل ان تنتقل المدنية إليها، كانوا يقبلون على استخدام كل ما هو أهلي محض، ولكن بعد أن فتح باب مصر على مصراعيه أمام المصنوعات الغربية - بعد أن تأثر المصريون خاصة بالتقاليد الغربية لكثرة الأجانب بمصر - تكاثر المزدحمون عليها، وعدوا اقتناءها عنواناً على

الرفعة والرفاهية والحضارة.......... وأصبحت مصر تقلد أوربا واندفع المصري يقيس نفسه بالأوروبي، ويتحداه في كثير من فوارق المظاهر.... ثم تسرب حسب التقليد إلى الطباع والعادات فأتى على كثير من مميزات مصر، وقضى على كل صناعة وطنية شرقية "... وتشير الصحيفة إلى أن المصري كان قبل أن يعرف المدنية الغربية مصرياً في لباسه............... وأنه كان لا يطلب حاجة إلا وجدها في مصره. وبين قومه وشعبه... وكانت البضائع الوطنية منتشرة في جميع أطراف القطر، وكان عمالها يعدون بعشرات الألوف.... ولكن حدث ان حلت المصنوعات الغربية محل المصنوعات الوطنية ولما لم تجد هذه من يأخذ بيدها ماتت وأصبحت أثراً بعد عين "[٣٧].

وتناولت ذات الصحيفة نفس الموضوع في أعداد اخرى فأشارات إلى أنه حتى بداية سنة ١٩١٤ كانت المصنوعات الوطنية - بما في ذلك الصناعات التي كانت تقوم بها مدارس مجالس المديريات الصناعية كالسجاد المصنوع في أخميم وأسيوط والمحلة الكبرى ومحلة مرحوم - تائهة في أسواق مصر التجارية... وغير معروفة "[٣٨].

هكذا ساهمت سياسة الباب المفتوح التي فرضت على مصر مع مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والتي كرسها الاحتلال البريطاني لمصر ١٨٨٢ في تراجع صناعة المنسوجات التقليدية في مصر، والتمهيد لحل طوائف إنتاج النسيج التي كانت تنتشر بالبلاد، وخلق عقبات أمام إقامة صناعة حديثة للمنسوجات عند مطلع القرن العشرين، ومن ثم احتفاظ المنسوجات الأجنبية، والتي جاءت في معظمها من إنجلترا بمكانة مرموقة بالسوق المصرية.

صناعة المنسوجات في النصف الأول من القرن العشرين:

تعد الحرب العالمية الأولي نقطة فاصلة في تاريخ صناعة المنسوجات في مصر، فبينما كانت تلك الصناعة بشقيها القديم والحديث تهم نحو الاختفاء بسبب شدة منافسة المنسوجات الأجنبية لها، في ظل غياب أي حماية جمركية أو دعم حكومي لها، جاءت الحرب العالمية الأولي لتوفر لسوق المنسوجات المصرية حماية طبيعية عندما تأثرت واردات مصر من المنسوجات بانشغال الدول التي كانت تمد مصر معظمها بالمجهود الحربي وبالعمليات العسكرية في حوض البحر المتوسط، بشكل أدى إلى ازدياد الطلب في السوق المصرية على المنسوجات من قبل المصريين، والقوات العسكرية الأجنبية التي كانت ترابط في مصر أو على مقربة منها، مما أدى إلى ارتفاع أسعار المنسوجات بالسوق المصرية ارتفاعا غير متوقعاً، وإفساح المجال أمام نشاط صناعات الغزل والنسيج، وملحقاتها. فعادت الحياة تدب في الصناعات الحرفية التي أصيبت بالشلل قبل الحرب، بسبب شدة منافسة المنسوجات الأجنبية لها، فنشطت صناعة الأقمشة القطنية بمدينة المحلة الكبرى، وانتعش نسج الحرير في دمياط، كما عادت الحياة لنسج الأقمشة القطنية والحريرية وصناعة الشيلان في قليوب وأخميم وأسيوط ونقادة[٣٩].

كذلك تنفست المشاريع الكبيرة لإنتاج المنسوجات الصعداء في غياب المنافسة الأجنبية مع اتساع أوار الحرب، حتى استطاعت شركة الغزل الأهلية زيادة إنتاجها بما تراوح بين ١٥% و٢٠% عما كان عليه قبل الحرب، رغم توقف العلاقات بين مصر وتركيا التي كان إنتاج الشركة يوجه إليها بالأساس فيما قبل الحرب. كذلك ازداد نشاط المغزل الأهلي بالإسكندرية حتى انه استوعب ٥٠،٠٠٠ قنطار من القطن، وأنتج من الخيوط ما قدره ٣،٥٠٠،٠٠٠ رطل، ومن المنسوجات ما تراوح بين ٨ و٩ مليون ياردة،

ويعود النشاط المتزايد لإنتاج هذا المغزل إلي زيادة الإقبال علي استخدام الغزل المصري بعد أن توقفت واردات الغزل من الخارج. كذلك نشطت صناعة المنسوجات الحريرية والكتانية، وأنشئت عدة مصانع لإنتاج الملابس لتموين الجيوش البريطانية من جهة، وسد احتياجات السوق الداخلية، وتوريد الملابس للمصالح الحكومية والشركات الخاصة من جهة أخرى[٤٠].

كذلك قامت في مصر إبان الحرب صناعة للطرابيش، فبعد أن توقف استيراد الطرابيش من النمسا بسبب الحرب أقدم أحد باشاوات مصر وأثريائها – إسماعيل عاصم باشا – على انشاء مصنعاً للطرابيش في قها، أصبح ينتج يومياً حوالي ٨٠٠ طربوش، وأقبل الناس علي شراء منتجاته التي فاقت جودتها النوعيات التي كانت تستورد من الخارج. علاوة علي هذا أدي تأثر مصر بالحرب إلى ازدهار صناعة السجاد الصوف ذي الألوان الطبيعية من خلال نشاط المدارس الصناعية في أسيوط ونجع حمادي وبني سويف[٤١].

وقد نبه انتعاش صناعة النسيج وغيرها من الصناعات، أثناء الحرب العالمية الأولي الأذهان إلي خطورة الاعتماد علي الواردات الأجنبية، والنظر في مستقبل الصناعة المصرية والاقتصاد المصري بعد الحرب، ولهذا السبب عنيت الحكومة بدراسة اثر الحرب في صناعة البلاد وتجارتها، واستبدال الأصناف المصنوعة في البلاد بالأصناف التي انقطع ورودها، ومن ثم شكلت الحكومة في سنة ١٩١٦ لجنة برئاسة إسماعيل صدقي باشا، وعضوية طلعت حرب، لاقتراح الخطط التي تراها كفيلة لتحقيق هذه الأغراض. وقد قامت اللجنة بعمل مجموعة من الدراسات عن مختلف الصناعات وعلى رأسها صناعة المنسوجات، كما بحثت الشروط التي يجب أن تتوفر لقيام صناعات جديدة وهي توافر الخامات في البلاد، وإمكانية تصريف المنتجات

داخل السوق المصرية، وإنتاج السلع التي يتطلب استيراد نظائرها من الخارج تحمل نفقات نقل مرتفعة، وتوافر الأيدي العاملة المدربة. وقد أفاضت الدراسات في ذكر وجوه المساعدات التي يتعين علي الحكومة القيام بها حيال الصناعة المصرية. ونوهت علي وجه الخصوص بضرورة تعديل نظام الجمارك وفرض رسوم حمائية لصد تيار المنافسة الأجنبية من جانب السلع المناظرة للسلع المنتجة محلياً، والعناية بالتعليم المهني "إنشاء مدراس صناعية " وتخفيف الضرائب على الصناعات المحلية، وخفض أسعار نقل الإنتاج الصناعي المصري على السكك الحديدية، ومنح حق الأفضلية له في المناقصات الحكومية، وتقديم إعانات لبعض المشروعات الصناعية الهامة، وإنشاء مصرف خاص لتقديم التسهيلات الائتمانية للمشروعات الصناعية. وبهذا تكون اللجنة قد رسمت الخطوط العريضة للإطار العام الذي تعمل في نطاقه الصناعة المصرية في أعقاب الحرب العالمية الأولى، كما أوضحت بعض ما يتعين الأخذ به من إجراءات لضمان تقدم الصناعة وإنعاشها، كما وجهت الأنظار نحو الصناعة وتهيئة الأذهان لاعتبارها مقوماً حيوياً هاماً من مقومات الاقتصاد القومي(٤٢).

والاقتراحات التي انتهت إليها لجنة التجارة والصناعة تمثل معلماً هاماً على طريق تطور الصناعة في مصر بعد الحرب، ولاسيما صناعة المنسوجات، لأنها تعبر عن نبذ البرجوازية المصرية لفكرة الاعتماد علي الزراعة وحدها كميدان للاستثمار، وتطلعها إلى آفاق استثمارية جديدة في قطاعات أخرى كالتجارة والصناعة كانت حكراً لرأس المال الأجنبي، وهو ما تم تجسيده من خلال " بنك مصر " بعد نهاية الحرب.

ويعد إنشاء بنك مصر علامة مهمة في تاريخ صناعة المنسوجات المصرية، لقيامه على تأسيس مجموعة متنوعة ومتخصصة من شركات

الغزل والنسيج الكبرى، التي ساهمت في النهوض بصناعة النسيج في النصف الأول من القرن العشرين، رغم الزيادة الهائلة في عدد مصانع النسيج في تلك الفترة. فبعد أن كان عدد مصانع النسيج في أعقاب الحرب العالمية الأولى يصل إلى ١٧١٦ مصنعاً ارتفع هذا العدد إلى ٦ ٤١٩ مصنعاً في عام ١٩٣٨[٤٣].

وبالطبع هذا الارتفاع في عدد المصانع لا يدل دلالة حقيقية على تقدم صناعة النسيج، بعيداً عن شركات بنك مصر، لأن المنشآت الصناعية كانت من الحجم الصغير، حيث ظل أكثر من ٦٠ % من هذه المصانع يستخدم أقل من خمسة عمال، وأكثر من ٨٥ % منها يستخدم أقل من ١٠ عمال، بينما لا يزيد عدد المصانع التي تستخدم أكثر من مائة عامل عن ١،٢% من تلك المصانع، ويرجع غلبة المصانع الصغيرة الحجم إلى عدة أسباب أهمها أن الحرف اليدوية ظلت حتى نهاية هذه الفترة القاعدة الأساسية للصناعات في مصر. كما أن طبقة المنظمين القادرين على إدارة المصانع ذات الحجم الكبير كانت ما تزال مترددة، بالإضافة إلى ذلك فان تجميع رؤوس الأموال الكبيرة لم يكن متاحاً في جميع الأوقات، ويضاف إلى هذا أن الحجم الصغير للمشروعات يتلاءم مع مزاولة النشاط الصناعي في الريف وفي المدن الصغيرة على حد سواء، وهناك عامل آخر مهم وهو أن منافسة السلع الأجنبية ذات الجودة العالية والأثمان المنخفضة - بفضل النظام الجمركي فيما قبل عام ١٩٣٠ - كانت وراء انتشار المشاريع صغيرة الحجم ذات التكلفة المحدودة، وأسعار الإنتاج المتواضعة، لتغطية احتياجات ذوي الدخل المحدود[٤٤].

على أية حال سارت صناعة النسيج في سنوات ما بعد الحرب العالمية الأولى سيراً حثيثاً، رغم صغر حجم معظم مشاريعها، نتيجة الإقبال الهائل

على الاستثمار في صناعة الغزل والنسيج، سواء من خلال بنك مصر أو خارجه.

وقد تأسس بنك مصر في أبريل ١٩٢٠ برأس مال قدره ٨٠،٠٠٠ جنيه مصري، ازداد في العقدين التاليين إلى ما يربو علي أربعة ملايين جنيه مصري. (٤٥)

ولعب طلعت حرب الدور الرائد في تأسيسه عندما انتهز فرصة علو المد الوطني في ثورة ١٩١٩ وجدد الدعوة إلى إنشاء بنك وطني، من منطلق إيمانه بأن الاستقلال السياسي لا يتحقق إلا بإرساء دعائم الاستقلال الاقتصادي، فكما أن الاستعمار استطاع السيطرة على مصر عن طريق الأجهزة الاقتصادية التي ربطت مصر بالاقتصاد البريطاني، فان الكفاح ضده أيضاً لابد أن يبدأ بالأجهزة الاقتصادية. وكانت خطة البنك للقضاء على السيطرة الاستعمارية تقوم على العمل على تقوية مراكز الاقتصاد وتدعيمها حتى يمكن منافسة الشركات الأجنبية والتجارة الأجنبية، والعمل للزحف علي الشركات الأجنبية المسيطرة على اقتصاديات البلاد لتمصيرها عن طريق شراء أسهمها. ولما كانت عملية التحرير تقتضي تحرير تجارة القطن، وسوق المنسوجات المصرية، لذا أعطي البنك أهمية كبيرة لتطوير صناعة المنسوجات لمساعدة البلاد علي استهلاك جزء من أقطانها، وتغطية جانب من احتياجات سوقها من المنسوجات، بدرجة تمكنها من الاحتفاظ بجزء من الفائض الاقتصادي الذي كان يتسرب إلى الخارج، من خلال سيطرة البيوت الأجنبية على تجارة القطن وتصديره، أو قيامها بعمليات إغراق سوق المنسوجات بالمنتجات الأجنبية وبخاصة البريطانية.

لهذا شرع البنك في تأسيس شركات للغزل والنسيج بعد خمس سنوات من تأسيسه، عندما أسس شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى "١٩٢٧

"، كما أسس شركتين في ذات المجال أصغر منها حجماً عرفت الأولي منها بشركة مصر للكتان، في حين عرفت الأخرى بشركة مصر لنسج الحرير(٤٦).

ولم تبرز شركة من شركات النسيج في مصر بعد الحرب العالمية الأولى مثلما برزت شركة مصر للغزل والنسيج، التي تمثل باكورة صناعة الغزل والنسيج الوطنية، حتى أن رأسمالها زاد من ٣٠٠،٠٠٠ جنيه مصري عند التأسيس في ١٩٢٧ إلى مليون جنيه مصري في عام ١٩٣٦، كما أنه خلال الفترة الأولى من عملياتها والتي امتدت من ١٩٣٠ إلي ١٩٣٦ زاد استهلاكها من القطن المحلي من ٢٢،٣٠٨ قنطاراً في ١٩٣٠ إلي ٢٨١،٨٠٣ قنطاراً في ١٩٣٦ بنسبة زيادة تجاوزت ٩٠%، كما زاد إنتاجها من الغزل في ذات الفترة من ٨٤٣،٧٤٤ كجم إلي ١٠،٧١٦،٨٩٤ كجم، في الوقت الذي ازداد فيه إنتاجها من الأقمشة من ١٤٨،٣٢٤ متراً مربعاً إلى ١،٤٩٩،٥٨٦ متراً مربعاً، ولعل هذا ما جعل صافي أرباح الشركة يرتفع في نفس الفترة من ٦٠٧ جنيه مصري إلي ٦٤،٣٩٥ جنيه(٤٧).

ويعزى النجاح الذي حققته شركة مصر للغزل والنسيج بين سنتي ١٩٣٠ و١٩٤٠ إلي التعريفة الجمركية الحمائية التي أصدرتها الحكومة المصرية في أعوام ١٩٣٠ و١٩٣٤ و١٩٣٨ لحماية صناعة النسيج الناشئة، بعد أن انتهت مدة آخر معاهدات الامتيازات الأجنبية مع إيطاليا، ولعل النجاح الذي حققته هذه الشركة في ظل الحماية التي توفرت لسوق المنسوجات المصرية مع مطلع ثلاثينات القرن العشرين هو ما دفع الخارجية البريطانية، وهيئة التجارة البريطانية، والغرفة التجارية في مانشستر إلي بحث الخيارات التي يمكن اتخاذها، لتعويض خسائر تجارة المنسوجات البريطانية في مصر، بسبب التغييرات الناجمة عن التعريفات الجمركية الحمائية المصرية، وسياسة

" إغراق السوق " التي تنتهجها دول المحور، وبخاصة اليابان لإغراق سوق المنسوجات المصرية بنوعيات تؤثر سلباً على توزيع المنسوجات البريطانية بالسوق المصرية. وفي البداية هددت الغرفة التجارية في مانشستر- و بشكل سافر- بمقاطعة الشركات الأعضاء بها لاستخدام الأقطان المصرية بالتحول عنها إلي أماكن أخري بالعالم للحصول على إمداداتها من القطن الخام، في حين حاولت بعض شركات مانشستر التغلب على الأزمة ومنافسيها " بالقفز " فوق حواجز التعريفات الجمركية وإقامة مشروعات بريطانية - مصرية مشتركة في مصر. وكان هذا هو النهج الذي اتبعته شركة " كاليكو برينترز أسوسييشن (جماعة طباعي كاليكو)- إحدى أكبر شركات مانشستر - عندما اشتركت مع الشركة الأهلية للغزل والنسيج " ١٩٣٤ " في إقامة شركة جديدة لصناعة النسيج في مصر، عرفت بالشركة المصرية لصناعة النسيج. واتجاه شركة " براد فورد دايرز اسوسييشن " (جماعة صباغي **براد فورد**) - المنافس الرئيس لشركة كاليكو - هي الأخرى للاستفادة من التعريفات الجمركية الحمائية المصرية بتصنيع المنسوجات في مصر، وذلك بالدخول في مفاوضات مع بنك مصر لتأسيس شركات للنسيج في مصر بالتعاون معه، وتقدمها في مفاوضاتها مع البنك بشأن هذا الموضوع، في عام ١٩٣٦ باقتراح لإقامة شركتين متخصصتين في الغزل والنسيج والصباغة، الأولي منها لغزل ونسج القطن الرفيع ويسيطر عليها بنك مصر، أما الثانية فتقوم بعمليات الصباغة وتسيطر عليها الشركة البريطانية. وهذا التوجه تماشي مع رأي وزارة الخارجية البريطانية، لإقامة شراكات مع بنك مصر، لمواجهة تأثير التعريفات الجمركية الحمائية على تجارة المنسوجات القطنية البريطانية مع مصر، وتقليل نفوذ دول المحور- اليابان وايطاليا وألمانيا - في سوق المنسوجات المصرية[٤٨].

وقد نجحت **براد فورد** في تأسيس شركة الغزل والنسيج الرفيع، وشركة صباغي البيضا بكفر الدوار كشركتين مساهمتين مصريتين بعد أن انتهت مفاوضاتها مع بنك مصر إلى اتفاق لتقسيم العمل بين لانكشير، وبنك مصر، قضى بأن تتولى شركة بنك مصر بالمحلة الكبرى غزل ونسج المنسوجات السميكة " المنسوجات الشعبية "، في حين تتولى شركة الغزل والنسيج الرفيع بكفر الدوار تصنيع المنسوجات الرفيعة، وتتولى صباغي البيضا التجهيز النهائي لإنتاجهما، مما أدى إلى تخصص أكبر وحدة إنتاجية للنسيج في مصر بالمحلة الكبرى - بضغط من لانكشير- في إنتاج المنسوجات الشعبية " التي تنافسها بقوة المنسوجات اليابانية "، وتَحَكُم شركة براد فورد في صناعة التجهيز المصرية بعد أن ساهمت في شركة صباغي البيضا بحوالي ٧٥% من رأس مالها، في الوقت الذي بلغت فيه مساهمتها برأس مال شركة الغزل والنسيج الرفيع بكفر الدوار عند ٥٠% من رأس المال(٤٩).

وبالإضافة إلى هاتين الشركتين تأسست في ثلاثينات القرن العشرين ست شركات أُخرى للغزل ولنسيج وتبييض وصباغة وطباعة وتجهيز الأقمشة التي تنتج من القطن والحرير الطبيعي والصناعي علي اختلاف أنواعها، بلغ مجموع رؤوس أموالها ما ينوف عن مليون ونصف مليون من الجنيهات(٥٠).

وقد حظيت منطقة الإسكندرية بمعظم هذه الشركات حتى أنها انفردت بأربع شركات منها، وهي الأهلية للبطاطين " ١٩٣٢ " والمصرية لصناعة المنسوجات " ١٩٣٤ " والمصنع السكندري لنسج الحرير الصناعي والطبيعي "١٩٣٦ "، والمصرية لصناعة وتحويل المنسوجات - كونرتكس - " ١٩٣٨ "، ثم جاءت شركة واحدة بالقاهرة - مصر حلوان للغزل والنسيج ١٩٣٧ -

وأخرى بالقليوبية - الشركة المصرية لغزل ونسج الصوف بشبرا الخيمة" ١٩٣٧ "[٥١].

وعندما شبت نيران الحرب العالمية الثانية، وتعذر الاستيراد من الخارج، وجدت صناعة المنسوجات في مصر فرصة فذة لتثبيت أقدامها، وتوطيد الأسس التي تقوم عليها، في ظل الحماية التي وفرتها الحرب لها، بسبب تعطل حركة النقل عبر المتوسط بين أوربا ومنطقة الشرق الأوسط، وتراجع واردات المنسوجات البريطانية نتيجة تأثير الحرب على صناعتها، وتراجع منافسة منسوجات دول المحور " اليابان وألمانيا وايطاليا "، في الوقت الذي ازداد فيه الطلب على المنسوجات المصرية بالسوق المحلي، وأسواق منطقة الشرق الأوسط، لهذا ازداد عدد أنوال النسيج الميكانيكية في مصر حتى بلغ عند نهاية الحرب عشرة آلاف نول، واليدوية إلى حوالي ٥٠،٠٠٠ نول، أصبحت تنتج نحو ٢٥٠ مليون ياردة سنوياً، وهو رقم اقتضي زيادة عدد المغازل، وقدراتها الإنتاجية حتى تفي بحاجة هذه الأنوال من الغزل، لاسيما بعد أن أدت الحرب إلى توقف استيراد الغزل الهندي بشكل هدد حوالي ١٢٠ ألف نول يدوي - كانت تستخدم هذا الغزل - بالتوقف عن العمل، لهذا زاد إنتاج الغزل من ٢٤ مليون طن في ١٩٣٨ إلي ٣٢،١ مليون طن في ١٩٤٥ بزيادة بلغت ٨،١ مليون طن[٥٢].

ولعل الزيادة في إنتاج الغزل في سنوات الحرب كانت وراء زيادة كمية الأقطان التي استخدمتها المغازل حتى بلغت مليون قنطار سنوياً[٥٣].

كذلك تكونت نحو عشرين شركة جديدة للغزل والنسيج فيما بين ١٩٤٠ و١٩٥٢، برأس مال تجاوز الخمسة عشر مليوناً من الجنيهات، لكن الملاحظ ان رأس مال هذه الشركات لم يكن متوازناً ، حتى ان شركات تميزت بضخامة رؤوس أموالها وأخرى عانت من قلة أصولها، حتى أن المغازل

الميكانيكية في صناعة الغزل والتي كان عددها يصل إلى ٣٢٦،٥٤٠ مغزلاً، كانت تمتلك معظمها اثنتي عشرة شركة من الشركات العاملة في هذا المجال، منها أربع شركات كانت تمتلك أكثر من ٩٠% من هذه المغازل، ومن بين الشركات الأربع كانت هناك شركة تمتلك وحدها ١٦١،٣٠٠ مغزلا، وأخري تمتلك ٧٨٤٩٠ مغزلاً، وتمثل حصتهما معاً ٧٧ % من أجمالي المغازل الميكانيكية(٥٤).

وإضافة إلى هذه الشركات التي تأسست حديثاً شهدت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية زيادة رؤوس أموال الشركات التي تأسست قبل الحرب، والتي من بينها شركة مصر حلوان ومصر للغزل والنسيج بالمحلة وكفر الدوار(٥٥).

كذلك تضاعف رأس مال صباغي البيضا بعد الحرب العالمية الثانية من ٥٠٠،٠٠٠ جنيه مصري، إلى ١،٠٠٠،٠٠٠ جنيه في النصف الأول من خمسينيات القرن العشرين، في مقابل ٦٧،٢٨٠ جنيه مصري عند التأسيس(٥٦).

نتيجة موافقة مجلس إدارة شركة براد فورد على إجراء توسعات في الشركة انتهت بتشييد أكثر من مصنع قبل نهاية أربعينيات القرن العشرين، كان أحداها إعادة تركيب لمصنع إنجليزي تخصص في تصنيع الأقطان السوداء للوفاء بحاجة النساء في أسواق الشرق الأوسط، على الرغم من وجود اتجاه في مصر ومنطقة الشرق الأوسط للأخذ بالموضة الأوربية(٥٧).

ومن أهم الشركات التي تأسست في تلك الفترة: النصر للغزل والنسيج بالقاهرة" ١٩٤٨"، وشركة غزل ونسج وصناعة القطن " كرنك " بشبرا الخيمة" ١٩٤٦"؛ والنصر لحراير وأصواف الشرق بإمبابة" ١٩٤٦"؛ ومصر للحرير الصناعي بكفر الدوار" ١٩٤٦"، والإسكندرية للغزل والنسيج "

١٩٤٧"، والنصر لكتان الشرق بالإسكندرية " ١٩٤٦"؛ والأهلية للمنسوجات بالإسكندرية " ١٩٤٨"(٥٨).

ورغم زيادة عدد شركات النسيج التي تأسست منذ بداية الحرب العالمية الثانية وحتى مطلع الخمسينات، وزيادة رؤوس أموال بعض الشركات التي كانت تعمل في ذات المجال من قبل، والأرباح التي حققتها شركات النسيج إبان الحرب – بما في ذلك الشركات الانجلو المصرية –، فقد تعرضت صناعة النسيج لأزمة بعد الحرب امتدت لشركات بنك مصر، بعد ان استغلت أزمة بنك مصر قبيل الحرب العالمية الثانية في إزاحة طلعت حرب عن إدارته، وتخلي ادارته الجديدة عن دعم المشاريع الصناعية، بما فيها شركات النسيج، واهتمامها باستخلاص اكبر قدر ممكن من الأرباح من البنك وشركاته(٥٩).

ومشكلة صناعة النسيج بعد الحرب تعود بالأساس إلى ارتفاع أسعار القطن، مع اشتداد الطلب عليه من قبل الدول الصناعية، التي تطلعت بعد خروجها من الحرب لاستعادة نشاطها الصناعي، وقد أرجع أحد المراقبين خطورة ارتفاع أسعار القطن علي صناعة النسيج المصرية قبيل ثورة ١٩٥٢،إلى أن " القطن الخام يشكل ٥٦،٣% من إجمالي قيمة الإنتاج في هذه الصناعة (٦٠) ومما زاد من أزمة صناعة النسيج في ذلك الوقت، استمرار تدفق المنسوجات الأجنبية على السوق المصرية بأسعار أقل من تلك التي كانت تباع بها المنسوجات المصرية، بشكل جعل شركات النسيج في مصر، تعجز عن تسويق إنتاجها في الداخل والخارج، واتجاه معظمها إلى خفض إنتاجه والتخلص من نسبة من الأيدي العاملة، بشكل أثار موجة من السخط داخل المجتمع المصري، وارتفاع الأصوات المطالبة بتدخل الحكومة لحماية هذه الصناعة، باعتبارها من أهم الصناعات القومية. وذلك بمنع استيراد –

ولمدة عام على الأقل - جميع أصناف المنسوجات القطنية التي يوجد في البلاد منها كميات كبيرة " جيث كان لدي الشركات فائض عن حاجة السوق يصل إلى ٣٠% - وذلك بإصدار الحكومة أوامر للبنوك بعدم فتح اعتمادات لاستيراد هذه البضائع، وزيادة الرسوم الجمركية عليها، وإعانة المصانع علي تصدير الكميات الفائضة من إنتاجها بمقدار قيمة الفرق بين أسعار الأقطان المصرية، والأقطان الأمريكية[٦١].

وقد شغلت أزمة صناعة النسيج وزارة التجارة والصناعة حتى انها الفت أكثر من لجنة للبحث في الوسائل الفعالة لتفريجها، وقد انتهت إحدى هذه اللجان في دراساتها إلى وجوب إنشاء مجلس أعلى للإشراف على شؤون الغزل والنسج، يكون من بين اختصاصه دراسة حالتها من جميع نواحيها الفنية والمالية والإدارية، كما طالبت الدراسة بالأخذ بمبدأ التخصص بين شركات النسيج، والعمل لخفض نفقات الإنتاج إلى مستوي البلدان الاخري، كما طالبت الحكومة بالتدخل لمساعدة الصناعة بإعفاء مسلتزماتها الإنتاجية من الرسوم الجمركية، وادراج منتجاتها بالقوائم الملحقة بالاتفاقيات التجارية مع الدول الأجنبية، ومنع استيراد الآلات والأدوات التي تستعمل لصناعة المنسوجات السميكة، والتفتيش علي السلع قبل تصديرها للتأكد من أنها ترضي المشترين، وألا تدفع إعانة تصدير للمنسوجات إلا على الكميات الفائضة من الإنتاج والتي قدرت ب ١٤،٠٠٠ طن في أواخر أربعينيات القرن العشرين[٦٢].

ويبدو أن أزمة النسيج كانت أزمة المصانع والشركات الصغيرة وليست الكبيرة، حتى أن شركة مصر للغزل والنسيج (المحلة الكبرى) حققت أرباح صافية في سنة ١٩٥٠ بلغت ٤٦٠،٦٢٥ جنيه بعد ان كانت ٤٥٦،٧٤٠ جنيه في ١٩٤٩ و ٤٥٧،٩٣٤ جنيه في ١٩٤٨. كذلك حققت شركة مصر للغزل

والنسيج الرفيع أرباحاً صافية بلغت عن نفس السنة بعد خصم كل المصروفات ٣١٠،٥٠٢ج، كما بلغت أرباح شركة الغزل الأهلية أكثر من ٢٠٠،٠٠٠ من الجنيهات(٦٣).

ولعل نجاح شركات النسيج الكبرى في تجاوز أزمة النسيج في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وزيادة الاستثمارات في هذا المجال هو ما جعل صناعة الغزل والنسيج تحتل مركزاً متقدماً بين فروع الصناعة المصرية في مطلع خمسينيات القرن العشرين، إذ تبلغ الأموال المستثمرة فيها بما في ذلك رؤوس الأموال المساهمة المدفوعة، والسندات المتداولة التي أصدرتها، والاحتياطيات التي كونتها، قرابة ٢٩ مليوناً من الجنيهات من مجموع الاستثمارات الصناعية كلها، والتي تبلغ قرابة ٧٦ مليوناً من الجنيهات. ومعنى هذا أن صناعة الغزل والنسيج أصبحت تستأثر بما يقرب من ٣٨% من مجموع الاستثمارات الصناعية. وقد بلغ عدد المشروعات المساهمة في صناعة النسيج ٢٤ مشروعاً، توزعت في مناطق مختلفة في وسط الدلتا بمدينة المحلة الكبرى، وفي غرب الدلتا بكفر الدوار ثم في الإسكندرية وضواحيها، وفي القاهرة وضواحيها. لهذا راعت الخطة الخمسية الأولى التي وضعتها حكومة ثورة يوليو لتحقيق التنمية الاقتصادية عدم تركيز الصناعة الواحدة في مناطق معينة بالذات، لأنها وجدت أن من مصلحة الاقتصاد القومي، أن تظفر الأقاليم المختلفة التي لا عهد لها بالصناعة، بنصيب من المشروعات الصناعية الجديدة، ولهذا وضعت ضمن برنامج الخمس سنوات إقامة مشروعات غزل ونسيج في شبين الكوم وميت غمر ودمياط(٦٤).

واهتمام نظام ثورة يوليو بتنمية صناعة الغزل والنسيج في إطار محاولاته لتصنيع مصر - لخلق فرص عمل خارج قطاع الزراعة،

لاستيعاب الزيادة الهائلة في قوة العمل، والمساعدة في رفع مستوي المعيشة، وإعادة التوازن للاقتصاد المصري حتى تتمكن البلاد من تقليل اعتمادها على الخارج، والحد من تبعيتها للسوق العالمية – يعزى لأنها كانت تعد ثاني أهم صناعة في مصر بعد المواد الغذائية في مطلع الخمسينات، وتساهم في قيمة الإنتاج الصناعي البالغ ٣١٤ مليون جنيه ١٩٥٢ بحوالي ٨٥ مليون جنيه بنسبة ٢٧،١ %، كما أن شركاتها تستوعب حوالي ٥٣،٦% من إجمالي قوة العمل التي تعمل بالشركات التي تستخدم أكثر من عشرة أفراد(٦٥).

وقد اتجه نظام يوليو للنهوض بصناعة الغزل والنسيج في البداية برأس المال الخاص " المحلي والأجنبي "، وعدم الزج بالدولة في مشاريعها إلا إذا تردد رأس المال الفردي ورفض القيام بالدور المنتظر منه في تصنيع مصر. وقد اتضح للنظام بعد فترة وجيزة من قيام الثورة بان رأس المال المحلي والأجنبي لم يشارك في التنمية الصناعية بالقدر المأمول، حتى أن رجال الأعمال البريطانيين الذين كانوا يساهمون في شركات للغزل والنسيج بمصر، حققت أرباح – كالشركة المصرية لصناعة المنسوجات وشركة صباغي البيضا حيث حققت الأولي صافي أرباح بلغ ٢٤% من إجمالي رأس مالها في ١٩٥٤/٥٣، في حين حققت الثانية صافي أرباح بلغت ٢٥% من إجمالي رأس المال في ١٩٥٢/٥١، ازدادت في ١٩٥٦/٥٥ إلي ٦٣% – بدأوا مع أوائل خمسينيات القرن العشرين وزيادة إحساسهم بخطر مواصلة العمل في مصر يفكرون في الانسحاب من صناعة المنسوجات المصرية، حتى ان اتحاد صباغي براد فورد اتجه إلى تصفية مراكزه في مصر، عندما حول حصة كبيرة من أسهمه في شركة صباغي البيضا إلي شركة مصر للغزل والنسيج، كذلك حاولت شركة كاليكو التخلص من حصتها بالشركة المصرية لصناعة المنسوجات، بعد أن أصبحت تعتبرها مثال للاستثمار

السيئ، لكن هذه المحاولات أحبطت بعجز الشركة عن إيجاد مشتر لأصولها، ثم تمصير رأس المال البريطاني في مصر بعد العدوان الثلاثي علي مصر في سنة ١٩٥٦[٦٦].

على أية حال أمام تراجع رأس المال المحلي والأجنبي عن المشاركة في تنمية صناعة النسيج والنهوض بها، قامت الدولة بالمهمة، وبخاصة بعد حرب السويس وبداية الانطلاق نحو التمصير، وإنشاء المؤسسة الاقتصادية "١٩٥٧ " لتقوم بالنيابة عن الدولة في إدارة استثماراتها، مع إعطائها الحق في إنشاء شركات مساهمة بمفردها، ولهذا أصبح للمؤسسة أسهم بنسبة ٥٠% في ٥٢ شركة منها سبع شركات للغزل والنسيج ساهمت في إجمالي رأسمالها البالغ ٤،١٧٠،٠٠٠ جنية بمبلغ يصل إلى ٢،٠٧٠،٠٠٠ جنيه بنسبة ٤٩،٨ % من رأس مال هذه الشركات[٦٧].

وعندما وضعت الخطة الخمسية الصناعية الأولي " يوليو ١٩٥٧ " وشرع في تنفيذ مشروعات تتصل بصناعة الغزل والنسيج، تمتلكها الدولة أو يمتلكها أفراد، تأسست مجموعة من الشركات المتخصصة في صناعة الغزل والنسيج، بعد ان وفر النظام فرصاً أمام شركات الغزل القديمة لزيادة رأسمالها من خلال التعديلات التي أدخلت على قوانين الاستثمار، كما قدم تسهيلات لإنشاء شركات جديدة في هذا المجال، ولما أدرك النظام محدودية استجابة أصحاب رأس المال الخاص للنهوض بمستوي صناعة النسيج، إلى مستوى الخطة المأمول اتجهت الدولة إلى المبادرة وتحمل مسئوليات إنشاء شركات للغزل والنسيج والصناعات المكملة لها من تبييض وصباغة وطباعة وغيرها، والتي حرصت على توزيعها بأنحاء البلاد، والخروج علي نطاق تركزها بالإسكندرية، والقاهرة، وكفر الدوار، والمحلة الكبرى، فتأسست النصر للغزل الرفيع بطنطا " ١٩٦٠ "، وشركة النصر للغزل الرفيع بميت

غمر وزفتي " ١٩٥٨" واللتين أدمجتا في شركة الدلتا للغزل والنسيج بطنطا، كذلك تأسست شركة مصر شبين الكوم للغزل والنسيج " ١٩٥٩ " بالتعاون بين بنك مصر وهيئة ديا انفست اكسبورت بألمانيا الديمقراطية، وشركة النصر للغزل والنسيج الرفيع بدمياط والمنصورة "١٩٥٩ "، وفي بورسعيد تأسست شركة النصر لشباك الصيد" ١٩٦٠"، وشركة النصر للغزل والنسيج – بورتكس – " ١٩٦٠ " واللتين أدمجتا في شركة النصر للغزل والنسيج ببورسعيد، وفي قنا تأسست شركة النصر للغزل المتوسط "١٩٦٠ " بالتعاون الاقتصادي بين مصر وجمهورية ألمانيا الديمقراطية، وقامت هيئة انفست اكسبورت بألمانيا الديموقراطية بتوريد آلاتها، واستوردت الآلات المكملة لها من اليابان، وجاء تأسيس هذه الشركة لتكون نواة لصناعة نسيج في الوجه القبلي، ومنطقة شبرا الخيمة بالقليوبية تأسست عدة شركات للغزل والنسيج في عهد الثورة منها شركة مغازل الصوف المصرية " فيلانا " ١٩٥٦ "، وشركة البطاطين المصرية " فلتس " ١٩٥٦ " ص ١٢٩ – ١٣٢ وقد أدمجتا في الشركة المصرية للأصواف والبطاطين، كما تأسست شركة شبرا الخيمة للصباغة والتجهيز ١٩٦٠ والتي أدمجت مع مصبغة غمرة " ١٩٤٥ " في شركة القاهرة للصباغة والتجهيز ولتصبح بذلك منطقة شبرا الخيمة واحدة من أهم مراكز صناعة الغزل والنسيج في مصر في النصف الثاني من القرن العشرين(٦٨).

ولما انتقلت للدولة شركات للغزل والنسيج نتيجة العمل بقوانين التأميم " يوليو ١٩٦١ "، بالإضافة إلى شركات الغزل والنسيج التي تأسست بأنحاء البلاد بعد يوليو ١٩٥٢، اتجهت الدولة إلى إنشاء مؤسسة نوعية للإشراف علي شركات صناعة الغزل والنسيج في ١٦ ديسمبر ١٩٦١ بالقرار الجمهوري رقم ١٨٩٩ لسنة ١٩٦١ عرفت بالمؤسسة المصرية العامة

للغزل والنسيج، لتتولى الإشراف على شركات الغزل والنسيج التابعة للقطاع العام، وتوجيهها التوجيه الذي يحقق أهداف الخطة العامة لتنمية الاقتصاد القومي بشكل عام(٦٩).

وبموجب قرار الإنشاء تقرر إخضاع ٥٨ شركة من شركات الغزل والنسيج والصباغة والتجهيز للمؤسسة، ثم تم إدماج هذه الشركات في ٣٣ شركة، بعد دراسة من أجل تحقيق التكامل الإنتاجي بين هذه الشركات، وتوحيد طاقتها الإنتاجية المتماثلة للوصول إلي الحجم الاقتصادي، الذي يحقق الأهداف والنتائج المطلوبة(٧٠).

وقد جاءت معظم هذه الشركات بالإسكندرية التي تركزت بها ثلاث عشرة شركة، والقليوبية التي كان بها خمس شركات تركزت في معظمها بمنطقة شبرا الخيمة، وتركزت ثلاث شركات بكل من القاهرة وكفر الدوار، أما المحلة الكبرى فقد انفردت بشركتين كبيرتين، وغيرهم كانت هناك شركة واحدة في طنطا، وبورسعيد ودمنهور وقنا، كما كانت هناك شركة واحدة لكل من دمياط والمنصورة.

والأساس الذي تم عليه الدمج هو عمل الشركات في مجال واحد، أو في مجالات يتكامل نشاطها، وتكون في الغالب بمنطقة واحدة، ولهذا قليلاً ما قامت شركات على دمج أكثر من شركة بأكثر من منطقة، والحالة الوحيدة التي تم رصدها هي حالة الشركة المصرية للغزل والنسيج التي قامت علي دمج ثلاث شركات منها اثنين بالقاهرة وثالثة بالإسكندرية. وفيما عدا ذلك روعي في الدمج وحدة التخصص، والمكان والتكامل الوظيفي، لهذا أدمجت شركة المحمودية للغزل والنسيج في شركة مصر للغزل والنسيج الرفيع بكفر الدوار، وقامت الشركة الأهلية للغزل والنسيج بالإسكندرية علي دمج ثلاث شركات هناك – الغزل الأهلية والمصرية لصناعة المنسوجات والمصرية

للمنسوجات والطباعة -. كما قامت شركة الإسكندرية للغزل والنسيج والصباغة على دمج شركة الإسكندرية للغزل والنسيج وشركة صباغة باكوس، أما الشركات التي لم تدمج فكانت من الشركات الكبرى كشركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى، أو من الشركات التي لا تتوفر بمناطقها شركات أخرى يمكن دمجها بها أو معها - كشركة مصر حلوان للغزل والنسيج والشركة المصرية لغزل ونسج الصوف بالقليوبية، والتي كان لها مصنعان بشبرا الخيمة ومسطرد للصباغة والتجهيز وغزل ونسج الصوف وشركة النصر للغزل والنسيج المتوسط بقنا، وشركة مصر شبين الكوم للغزل والنسيج - أو تلك الفريدة في تخصصها حتى لو كانت بالمنطقة شركات أخرى، والتي منها شركة النصر لحراير وأصواف الشرق بالقاهرة وشركة مصر للحرير الصناعي بكفر الدوار، والشركة الأهلية للبطاطين بالإسكندرية(٧١).

وتعد الشركة العربية للسجاد الميكانيكي من الشركات التي أقدم نظام يوليو علي تأسيسها، بعد أن لاحظ عدم وجود شركات لصناعة السجاد في مصر واعتماد السوق علي ما يستورد من الخارج، بعد ان عجزت الورش اليدوية والمدارس الصناعية عن تغطية احتياجات السوق بشكل أدى إلى تسرب مبالغ ضخمة من العملات الصعبة لدفع قيمة واردات مصر من السجاد من هنا كانت المبادرة بإنشاء هذه الشركة في مايو ١٩٦٠ بمقتضي القرار الجمهوري رقم ٩١٩ لسنة ١٩٦٠ في دمنهور، وكان مشروعها قد أدرج ضمن برنامج السنوات الخمس للصناعة، بهدف توفير فرص عمل لأكثر من مائتي أسرة في بدء تشغيله - ويمكن أن تزداد تبعا لاطراد الإنتاج - وتحقيق وفر في العملات الأجنبية يقدر بحوالي ٢٥٠،٠٠٠ جنيه. واختيرت دمنهور مركزاً لهذا المشروع لما تتميز به من ملاءمة درجة

الرطوبة لهذه الصناعة، ولقربها من مراكز تربية الأغنام. وبلغت الطاقة الإنتاجية للمصنع حوالي ١٠٠،٠٠٠ متر من السجاد في الوردية الواحدة. وصمم المصنع والآلات على أساس إمكان زيادة الطاقة الإنتاجية مستقبلا إلى ما يقرب من ٥٠%من طاقته عند التشغيل، حتى يصل الإنتاج إلي ٤٥٠،٠٠٠ متر مربع من السجاد. وتبلغ قيمة الإنتاج السنوي للمصنع في بدء تشغيله حوالي ٥٠٠،٠٠٠ جنيه[٧٢]، لهذا ازدادت قيمة إنتاج مصر من الغزل والنسيج من ٨٤ مليون جنيه ١٩٥٢ إلى ٤٧٠ مليون جنيه سنة ١٩٧٠/١٩٧١، و٥٢٥ مليون جنية في ١٩٧٢ ثم ٦٩٠ مليون جنية ١٩٧٥[٧٣].

كما ازداد استهلاك الأقطان المصرية حتى بلغ في ١٩٦٠/١٩٦١ حوالي ٢،٤ مليون قنطار، ثم ٤،٢ مليون قنطار في ١٩٧٤/ ١٩٧٥. كذلك أدي تطور صناعة النسيج إلي ارتفاع نسبة صادرات المنسوجات إلى إجمالي صادرات مصر من ٩% في ١٩٥٢ إلى ٦٠ % في أوائل سبعينيات القرن العشرين، اتجهت في معظمها إلي دول الكتلة الشرقية[٧٤].

علاوة على ذلك تحولت صناعة النسيج إلى احد أهم المجالات الصناعية استيعاباً للعمالة حتى انها انفردت ب ٢٩،١% من العمالة الصناعية في مطلع سبعينات القرن العشرين، وبعد أقل من عشر سنوات أصبحت تستوعب حوالي نصفها، والذين تقاضوا ٤٦ % من الأجور الصناعية[٧٥].

هكذا شهدت مصر على مر أكثر من قرن من تاريخها محاولات مضنية لتحديث صناعة النسيج بدأت مع مطلع القرن التاسع عشر، واستمرت حتى بداية الربع الأخير من القرن العشرين، وقد ارتبطت هذه المحاولات بسعي الأنظمة السياسية لتقليل الارتباط بالخارج وتحديدا الرأسمالية العالمية،

التي أخذت تتطلع لنصب شباكها حول مصر، وتحويلها إلي احدي الوحدات التابعة لها، المتخصصة في إنتاج القطن – وبخاصة بعد ان نجحت محاولات محمد علي في زراعة نوعيات محسنة من الأقطان – وسوق لمنسوجاتها التي أصبحت تنتج آلياً بعد دخول هذه الدول الرأسمالية إلى عصر الثورة الصناعية.

وقد نجحت محاولات الدولة المصرية في مطلع القرن التاسع عشر في إيجاد صناعة حديثة للمنسوجات إلى جانب صناعتها التقليدية – التي لم تضح بها إلا في حدود ضيقة – استطاعت أن تستوعب معظم الأقطان التي تنتجها مصر عندئذ، كما استطاعت أن توفر احتياجات السوق المصرية من المنسوجات وتمتد بها إلى أسواق منطقة الشرق الأدنى بشكل أثار عليها الدول الأوربية الصناعية وبخاصة إنجلترا التي قادت المجتمع الدولي لضرب مشروع محمد علي وإعادة فتح أسواق المنطقة أمام منتجاتها من المنسوجات.

وكان ضرب مشروع محمد علي باشا يمثل بداية البداية لدمج مصر في السوق الرأسمالية العالمية، التي بدأت تراهن على مصر كسوق مهم لمنسوجاتها في المنطقة وكذلك كمنتج مهم لنوعيات جيدة من الأقطان طويلة التيلة التي تحتاجها مصانعها.

وبالطبع ساهم رأس المال الأجنبي – الذي حل محل الدولة المصرية في إدارة وتوجيه الاقتصاد بعد غل يد دولة محمد علي – والاحتلال البريطاني لمصر على ترسيخ علاقة مصر غير المتوازنة بالسوق الرأسمالية العالمية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والتي أدت إلى اجهاد طوائف حرف النسيج، وعجزها عن منافسة المنسوجات المستوردة في السوق المصرية، كما أدت إلي تعثر محاولات إقامة صناعة حديثة للمنسوجات بمصر حتى وإن كانت برأس مال بريطاني حتى الحرب العالمية

الأولى.

في النصف الأول من القرن العشرين تهيأت الظروف بشكل أفضل في مصر لنهوض صناعة المنسوجات، حيث أدت ظروف الحربين العالميتين، وما ترتب عليهما من توفير حماية طبيعية لسوق المنسوجات المصرية، وازدياد الطلب على المنسوجات، ثم ظهور بنك مصر، وتوافر الحماية الجمركية للسوق المصرية مع مطلع ثلاثينات القرن العشرين، واتجاه بعض الاستثمارات الأجنبية للعمل في مجال صناعة النسيج، إلى ظهور مراكز لصناعة النسيج في مصر حول الشركات التي تأسست في هذا المجال بالمحلة الكبرى وكفر الدوار والقاهرة وشبرا الخيمة، استطاعت أن توفر للسوق المصرية معظم احتياجاتها من المنسوجات، كما أنها استوعبت جزء كبير من الأقطان المصرية، ووفرت فرص عمل ضخمة لنسبة كبيرة من العمالة المصرية. ولعل المكانة التي وصلت إليها صناعة النسيج في مصر في مطلع الخمسينيات هي التي حدت بنظام يوليو لأن يوليها اهتمام زائد، حتى ان خمسينيات وستينيات القرن العشرين شهدت تأسيس مجموعة متنوعة من شركات الغزل والنسيج، والتي روعي عند تأسيسها، عدم تركيزها بنفس أماكن تركز شركات النسيج التي تأسست في النصف الأول من القرن العشرين. لهذا كان حظ قنا وبورسعيد وطنطا ودمياط وزفتي وميت غمر ودمنهور وشبين الكوم من هذه الشركات كبيراً. ورغم هذا ظلت صناعة النسيج تتركز في الإسكندرية وشبرا الخيمة والمحلة الكبرى وكفر الدوار والقاهرة.

الهوامش:

(١) علي الجريتلي: تاريخ الصناعة في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٢، ص ١٨؛ جيرار"ب- س": الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر، وصف مصر، ج ٤، ترجمة زهير الشايب، دار الشايب للنشر، القاهرة، ص ص ١٧٧، ١٨١.

(٢) نعوم شقير: أمثال العوام في مصر والسودان والشام، مطبعة المعارف، القاهرة ١٣١٢ هجرية، ص ٩٥٠.

(٣) بوركهارت، جون لويس: العادات والتقاليد والأمثال الشعبية في عهد محمد علي، ترجمة ابراهيم شعلان، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٩٠.

(٤) جيرار: مصدر سابق، ص ١٨٠.

(٥) نفس المصدر، ص ص ١٧٧، ١٨١؛ كينث كونو: فلاحو الباشا "الأرض والمجتمع والاقتصاد في الوجه البحري ١٧٤٠ – ١٨٥٨، ترجمة سحر توفيق، مراجعة عاصم الدسوقي، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة ١٩٩٩،ص ٨٣.

(٦) رؤوف عباس حامد:مصر وعالم البحر المتوسط في العصر الحديث،" في " مصر وعالم البحر المتوسط، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة ١٩٩٦، ص ٦١؛ علي الجريتلي: تاريخ الصناعة، ص ٢١.

(٧) لمزيد من التفاصيل عن طوائف الحرف ارجع الي:علي الجريتلي: تاريخ الصناعة، ص ص ٢٢-٢٣.

(٨) علي الجريتلي: تريخ الصناعة، ص ص ٢٠ – ٢١ .

(٩) عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، ج٤، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ١٩٩٨، ص ص ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٨٧.

(١٠)دار الوثائق القومية المصرية،ديوان خديوي تركي، ملخصات، دفتر ٧٦٦، غرة ذي القعدة ١٢٤٥ هـ، ابريل ١٨٣٠ " من المجلس العالي الي الديوان الخديوي ".

(١١)دار الوثائق القومية المصرية، محكمة الدقهلية، سجل ٦٣ ص ٢٦١، ٢٢ شوال ١٢٣٢هـ ٨ سبتمبر ١٨١٧.

(١٢)دار الوثائق القومية المصرية، معية تركي ملخصات دفتر ٦ من الجاب لعالي الي كاتب المنصورة ١٣ صفر ١٢٣٧، ٩ نوفمبر ١٨٢١.

(١٣)علي الجريتلي: تاريخ الصناعة، ص ٦٩.

(١٤) نفس المرجع، ص ص ٢٧٩-٢٨٠؛ هيلين آن ريفلين: الاقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة احمد عبد الرحيم مصطفي ومصطفي

الحسيني، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٧، ص ٢٧٩؛ الجبرتي: المصدر السابق، ج٤ ص ص ٤٣٨،٤٨٧،٤٣٩.

(١٥)هيلين ريفيلين: مرجع سابق، ٢٨٣.

(١٦)علي الجريتلي: تاريخ الصناعة، ص ص ٥٦ – ٥٧.

(١٧)نفس المرجع، ص٥٨؛ هيام صابر احمد عثمان: صناعة المنسوجات في مصر في عهد محمد علي ١٨٠٥ – ١٨٤٨، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة، ٢٠٠٩، ص ٤٥، ١٣٥.

(١٨)علي الجريتلي: تاريخ الصناعة، ص ٥٦.

(١٩)هيلين ٢٨٣ان ريفلين: مرجع سابق،ص٢٨٤؛ الجبرتي: مصدر سابق،ج ٤ ص ٢٩٢.

(٢٠)دار الوثائق القومية المصرية، محافظ أبحاث رقم ٨٥، ٢٧ جمادي الأولي ١٢٤٧، ٣٠ نوفمبر ١٨٣١ " الخواجة والماس ".

(٢١)علي الجريتلي: تاريخ الصناعة، ص ١١٧-١١٨.

(٢٢)الوقائع المصرية، عدد ٨٦، ٢٢ جمادي الاولي ١٢٤٥.

(٢٣)علي الجريتلي: تاريخ الصناعة، ١٣٠- ١٣١.

(٢٤)هيام صابر: مرجع سابق، ص ص ٨٤، ٨٦، ٨٩، ٩٢.

(٢٥)نفس المرجع، ص ص ٢١٨- ٢١٩.

(٢٦)نفس المرجع،٢٢١- ٢٢٢.

(٢٧)دار الوثائق القومية المصرية، ديوان شوري المعاونة، ملخصات أوامر، دفتر ٢٨٦، ٢٧ محرم ١٢٥٨ ه / ١٠ مارس ١٨٤٢ من قلم الايراد الي عباس باشا.

(٢٨)أمين سامي: تقويم النيل، مجلد ١ ص ١٠٣.

(٢٩)دار الوثائق القومية المصرية، ديوان خديوي تركي، ملخصات دفتر ٧٦٦، ١٣ شوال ١٢٤٥، ٧ ابريل ١٨٣٠ من المجلس العالي الي الديوان الخديوي.

(٣٠)دار الوثائق القومية المصرية، معية سنية تركي، ملخصات الدفاتر، دفتر ٥٦، ١٢ صفر ١٢٥٠ ه / ٢٠ يونيه ١٨٣٤ من الجناب العالي الي مدير البحيرة.

(٣١)نفس المصدر " من الجناب العالي الي المديرية ٣ ربيع الثاني ١٢٥٠ ه ١٩ اغسطس ١٨٣٤..

(٣٢)راشد البراوي ومحمد حمزة عليش: التطور الاقتصادي في مصر في العصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٤٨، ص ١٥٠.

(٣٣)محمد فهمي لهيطة: تاريخ مصر الاقتصادي في العصور الحديثة،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٤، ص ٥٣٧.

(٣٤)راشد البراوي وعليش: التطور الاقتصادي في مصر في العصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٤٨، ص ١٥٤.
(٣٥)نفس المرجع، ص ١٥٤.
(٣٦)احمد الشربيني: التجارة المصرية ١٨٤٠- ١٩١٤ رسالة ماجستير منشورة كلية الآداب – جامعة القاهرة، ص ٣٨٩.
(٣٧)الأهرام ٢٢يناير ١٨٩٤.
(٣٨)الأهالي ٢٧ أكتوبر ١٩١٠.
(٣٩)نفس المصدر ١٥ يناير ١٩١٤.
(٤٠)لطيفة سالم: مصر في الحرب العالمية الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤، ص ١٣٠.
(٤١)نفس المرجع،ص ١٣٧.
(٤٢)نفس المرجع ١٣٨- ١٣٩.
(٤٣)وهيب مسيحة: تطور الصناعة المصرية خلال الخمسين سنة الأخيرة،بحوث العيد الخمسيني ١٩٠٩ – ١٩٥٩، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع، القاهرة ١٩٦٠،٤٧٠-٤٧١. نفس المرجع ١٣٨- ١٣٩.
(٤٤)جمال الدين محمد سعيد: اقتصاديات مصر، ط ١ مطبة لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٥٠،ص ٢٢٩.
(٤٥)محمد رشدي: التطور الاقتصادي في مصر، ج ٤، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٢، ص ١٠٤.
(٤٦)اريك ديفيز: مأزق البرجوازية الوطنية الصناعية في العالم الثالث " تجربة بنك مصر ١٩٢٠ – ١٩٤١ "، ط ١، ترجمة سامي الرزاز، مؤسسة الابحاث العربية، بيروت ١٩٨٥، ص ١٣١.
(٤٧)نفس المرجع،ص ١٥٢.
(٤٨)نفس المرجع، ص ص١٦٣ - ١٦٤.
(٤٩)نفس المرجع،ص ص١٨٥،١٧٠.
(٥٠)احمد الشربيني: العلاقات الاقتصادية المصرية البريطانية ١٩٤٥-١٩٥٦، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة ٢٠٠٠، ص ١٨٩.
(٥١)وهيب مسيحة: مرجع سابق، ص ٤٧٣.
(٥٢)الكتاب السنوي الأول: المؤسسة المصرية العامة للغزل والنسيج، القاهرة ١٩٦٢، ص،ص ١٠١،٩٨، ١٣٦، ١٤٤، ١٥٩، ٢١٥، ٢٢٢.
(٥٣)محمد رشدي: مرجع سابق، ص ١٩٣.

(٥٤)عاصم الدسوقي: مصر في الحرب العالميـــة الثانيـــة ١٩٣٩ – ١٩٤٥، ط ٢، دار الكتاب الجامعي، القاهرة ١٩٨٢، ص ص ١٧٥- ١٧٦.

(٥٥)جمال الدين سعيد: مرجع سابق، ص ص ٢٢٩ – ٢٣٠.

(٥٦)محمد دويدار: الاقتصاد المصري بين التخلف والتطوير، دار الجامعات المصـــرية، الاسكندرية،١٩٧٨، ص ٤٧٢.

(٥٧)إحصاء الشركات المساهمة التي يوجد اســتغلالها فـــي مصـــر ٤٩/ ١٩٥٠ م، ص ص ٥٥٨، ٦٣٢؛ نفس المصدر يونيه ٥٣/ ١٩٥٤ م، ص ص ٢٤٩، ٢٩٦.

(58) Tignor ,l. Robert; Egyptian textiles and British capital 1930 – 1956, American university, Cairo, 1989, pp ٧٢، ٧٧.

(٥٩)الكتاب السنوي الاول: مرجع سابق، ص ص ١٠٨، ١١٥، ١٤٩،١٩٨،٢٤٧.

(٦٠)اريك ديفيز: مرجع سابق، ص ص ١٧٧- ١٩٦ .

(٦١)مصر المالية، عدد ٢١، ٢٢ مايو ١٩٤٩؛ وعدد ٢٢، ٢٩ مايو ١٩٤٩.

(٦٢)نفس المرجع العدد ٢٩، ١٧ يوليو ١٩٤٩ " مشاكل الغزل والنسيج " ص ص ٤-٥؛ عدد ٣٢،٢١ أغسطس ١٩٤٩ " لابد من سياسة صناعية " ص ص ٤ – ٥.

(٦٣)جمال الدين محمد سعيد: مرجع سابق، ص١٢٢..

(٦٤)وهيب مسيحة: مرجع سابق، ص ص ٤٧٦ – ٤٧٧.

(٦٥)محمد دو يدار: مرجع سابق، ص ص ٤٢١، ٤٣١.

(66) Tignor; op, cit p66.

(٦٧)محمد دويدار: مرجع سابق، ص ص ٤٤٠-٤٤١.

(٦٨)الكتاب السنوي الاول: مرجـــع ســـابق ص ص ١١٧-١١٩،٢٥٨ ، ٢٦٦ ، ٢٧٢، ٢٧٧، ٢٨٠.

(٦٩)نفس المرجع، ص ١١.

(٧٠)نفس المرجع ص ٧٥ – ٨٤.

(٧١)نفـــس المرجـــع ص ص ٩٨،١٠١،١٢٥،١٤٩، ١٣٦،١٥٦،١٩٨، ٢٠٠،٢٠٢، ٢١١،٢٤٢،٢٤٢،٢٧٧،٢٩٩.

(٧٢)نفس المرجع، ص ٢٩٧.

(٧٣)علي الجريتلي: خمسة وعشرون عاما " دراسة تحليلية للسياسات الاقتصـــادية فـــي مصر ١٩٥٢ – ١٩٧٧ " الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧، ص ٤٠.

(٧٤)نفس المرجع، ص٤٣

(٧٥)نفس المرجع، ص٤٣

الدور السياسي والمجتمعي للسيدة الأولى
فى الولايات المتحدة الأمريكية
"قراءة في أوراق إليانور روزفلت (*)"

د. أحمد جلال بسيونى

كلية الآداب – جامعة دمنهور

ظهر لقب "السيدة الأولى The First Leady" في الولايات المتحدة مع منتصف القرن التاسع عشر، وخُصت به فقط زوج الرئيس، التي كان جُل مهامها إدارة شئون البيت الأبيض وفقًا لمفاهيم ومعايير محددة، لكن بوصول إليانور روزفلت إلى البيت الأبيض بتبوؤ زوجها فرانكلين ديلانو روزفلت Franklin D. Roosevelt منصب الرئاسة في مطلع عام ١٩٣٣ تغير كثير من المفاهيم حول طبيعة هذا الدور الذي كان على صاحبة لقبه أن تلعبه، نظرًا للطبيعة الخاصة في شخصيتها، وللأدوار والأنشطة التي مارستها على مدى أكثر من نصف قرن، حتى إنه لا يكاد يُذكر هذا اللقب في أي مكان من العالم إلا وذُكر معه اسم إليانور روزفلت.

وقد تعرف الباحث على إليانور روزفلت بصورة عابرة أثناء إعداده لرسالته للماجستير، التي كانت حول فترة حكم زوجها للولايات المتحدة[1]، ثم ازدادت معرفته ببعض معالم أفكارها حين كان فى دورة عن "حقوق الإنسان في القانون الدولي"، حيث لعبت في هذا الشأن دورًا رئيسًا بحكم ترأسها للجنة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بالأمم المتحدة فى عام ١٩٤٨ ، ثم ازدادت معرفته بها أكثر حين زار الولايات المتحدة في خريف عام ٢٠٠٧، وهناك زار النصب التذكاري للرئيس روزفلت، والذى تحتل زوجه إليانور فيه ركنًا خاصًا، وكذلك سماعه ورؤيته كيف يستحضر شعبها ذكراها.

(*) مجلة المؤرخ المصرى، عدد يوليو ٢٠١٥

وبالتالي فإن هذا البحث يهدف إلى إلقاء الضوء على تجربة تاريخية واقعية لعبت فيها المرأة دورًا مجتمعيًا حقيقيًا بالعمل والإنتاج، وليس بمجرد تصادف أنها زوج لرئيس البلاد، أو لمسئول كبير، إذ كان لإليانور دور مجتمعي قبل أن تصبح زوجة الرئيس، ووقت أن كانت السيدة الأولى، وظل دورها حيويًا بعد أن مات زوجها، وإلى أن توفيت هي بعده بنحو ثمانية عشر عامًا. ومن خلال طرحنا لهذه الإشكالية سيمكننا التعمق بصورة مجهرية في طبيعة المجتمع الأمريكي آنذاك طوال النصف الأول من القرن العشرين لنجد أنه كان مجتمعًا يفتقد للكثير من المعايير التي يتغنون باستحواذهم عليها اليوم، إلا أن هذا المجتمع حظي بحركة نشطة في كافة الاتجاهات مكنته من اقتناص تلك المكتسبات الموجودة لدى أمريكيى اليوم، والتي كان للحركة النسوية التي قادتها مصلحات كإليانور روزفلت دور كبير في الوصول بهذا المجتمع إلى ما هو عليه الآن.

وتعتمد هذه الدراسة على مجموعة من الوثائق الأصلية التى هي عبارة عن بضع عشرات من الأوراق الخاصة التي عبرت فيها إليانور روزفلت عن أفكارها وتوجهاتها تلك، وقد حصل الباحث على تلك المجموعة كإهداء من أحد المراكز العلمية المتخصصة بالولايات المتحدة وقت زيارته لها في خريف ٢٠٠٧ للتعرف على طبيعة الدراسات الأمريكية. وتجدر الإشارة إلى هذه الأوراق التي اعتمدت عليها الدراسة هي من ضمن أوراق إليانور روزفلت الخاصة المحفوظة في مكتبة فرانكلين روزفلت في نيويورك[٢]، وبالطبع فهي ليست كل الأوراق؛ لأن تراث إليانور روزفلت الفكري يبلغ نحو مليوني ونصف المليون صفحة من المراسلات والتقارير والمذكرات والخطب والمقالات وغيرها[٣].

وسوف تتم معالجة هذه الدراسة باستخدام المنهجين **التاريخي والبنائي**؛ **حيث** يستعرض الأول الحوادث التاريخية ويصنفها في سياقها الزمني، مع مراعاة الترتيب الموضوعي للأحداث في سياق هذا المنهج. أما المنهج **الثاني** فيعتمد على دراسة علاقات الوحدات والبُنى الصغرى بعضها

ببعض داخل الحدث التاريخي في محاولة للوصول إلى تحديد عام للبناء الكلي الذي يجعل من هذا الحدث تأريخًا موثقًا متماسكًا في وحدة واحدة، ومن هنا سيتناول هذا الفصل أربع قضايا رئيسة بالمناقشة مرتبطة ببعضها زمنيًا وموضوعيًا بحيث نصل في النهاية إلى البناء الكلي، وهذه الموضوعات هي: إليانور الناشطة سياسيًا؛ إليانور وقضايا المرأة الأمريكية؛ إليانور وقضايا الحريات المدنية؛ إليانور وحقوق الإنسان في القانون الدولي.

أولًا: إليانور الناشطة سياسيًا:

ولدت إليانور إليوت روزفلت فى (١١ أكتوبر ١٨٨٤ – ٧ نوفمبر ١٩٦٢)، وترعرعت في أسرة أرستقراطية بمدينة نيويورك، وتلقت تعليمها الأولي في المدارس الداخلية بها، ثم أُرسلت إلى أكاديمية ألينس وود Allenswood في لندن في سن الخامسة عشر، وفيها تأثرت بالفكر الفيكتوري بجانب دراستها للغات الفرنسية التي أتقنتها، والألمانية والإيطالية، اللتين عرفت قواعدهما، ثم عادت إلى الولايات المتحدة بعد ثلاث سنوات. وفي العام التالي، ١٩٠٣، خُطبت إلى فرانكلين -أحد أبناء عمومتها- الذي كان يكبرها بعامين[٤]. وكان العروسان الشابان ينتميان فكريًا إلى تيار صاعد في الحزب الديمقراطي الأمريكي آنذاك يدعو إلى تغيير نظرة المجتمع الأمريكي إلى دور المرأة؛ والتوسع في الحريات المدنية؛ والدفاع عن حقوق العمال والأقليات والمهمشين، وكان هذا ما جمعهما فكريًا، وبالفعل تم زواجهما في عام ١٩٠٥، وأنجبا ستة أبناء في الفترة مابين عامي ١٩٠٦ و ١٩١٦[٥].

وبعد إنجاب إليانور لأولادها في الفترة ما بين عامي ١٩٠٦ و ١٩١٦ سعت إلى تحقيق استقلاليتها وطموحاتها ؛ فاتجهت إلى النشاطين السياسي والمجتمعي من خلال رابطة الناخبات الأمريكيات، ورابطة نقابات العمال النسائية، وحمَلة السلام، والحزب الديمقراطي، كما عملت في أحد بيوت المستوطنات، وفي اتحاد المستهلكين القومي[٦]. وكان تعيين زوجها في منصب مساعد وزير البحرية فى عام ١٩١٣، ثم انهماكه في شئون الحرب

العالمية الأولى هو البداية الحقيقية لانطلاقة إليانور التي كتبت في مذكراتها عن تأذيها من انشغال زوجها الدائم عنها وعن أولادها بسبب الحرب[٧]، فانشغلت بعضوية الرابطة النسائية الأمريكية التي نشطت في بعض الإسهامات العامة مثل الخدمة في المقاصف والمستشفيات بمقاطعة كولومبيا، وجمع التبرعات لأعمال الإغاثة، والاستعدادت للطوارئ بكافة أشكالها، كما تبنت مبادرة لإقناع الصليب الأحمر الأمريكي لبناء قاعات للترفيه عن الجنود الأمريكيين[٨].

ثم خسر الديمقراطيون انتخابات الرئاسة لعام ١٩٢١، وخرج فرانكلين روزفلت مع غيره من الديمقراطيين من دوائر الحكم بعد نحو عشر سنوات قضاها في العمل السياسي، وأدركت إليانور أن الوقت كان لايزال مبكرًا على تطبيق أفكارها مبادئها، وأن الطريق لايزال طويلًا وشاقًا، ثم توارت إسهامات إليانور لفترة من الزمن زاد منها إصابة زوجها بمرض شلل الأطفال، وكان عمره وقتها تسعة وثلاثين عامًا، واحتاج لنحو أربعة أعوام حتى يعاود حياته الطبيعية، والتأقلم مع وضعه الجديد، وهو ما تم بصورة جيدة على الرغم من أنه لم يستطع أن يقف أو يمشي على رجليه نهائيًا إلى أن وافته المنية سنة ١٩٤٥[٩].

ثم عاودت إليانور ممارسة نشاطها السياسي فى عام ١٩٢٧ حينما رشح الحزب الديمقراطي محافظ نيويورك ألفريد سميث Alfred E. Smith لخوض انتخابات الرئاسة أمام مرشح الحزب الجمهوري هربرت هوفر Herbert Hoover، فكتبت تفند أسباب دعمها له، وذكرت العديد من الأسباب، وعلى الأخص سجله الحافل بإيمانه بقضايا الديمقراطية والحريات المدنية والدينية، وقدراته الإدارية والتنفيذية التي أظهرها إبان توليه منصب حاكم نيويورك، وكذلك قدرته على اختيار الرجال الأكفاء في إدارته، ومواجهته للعديد من المشكلات في الزراعة والمياه وتنمية الطاقة، وإنجازاته في تحسين ظروف التعليم، والتمويل من الضرائب، والمباني العامة والمؤسسات، وفي قدراته التواصلية مع الغالبية العظمى من سكان الولاية،

فضلًا عن خبراته في الشئون الدولية[10].

وقد كان ترشيح الحزب الديمقراطي لألفريد سميث لمنصب الرئيس معناه فراغ منصب محافظ نيويورك من شخصية قوية، وهنا وجد سميث ومستشاروه أن فرانكلين روزفلت هو خير من يملأ هذا الفراغ، وبالفعل تم اختيار الحزب له ليخوض انتخابات الولاية باسمه للعام ١٩٢٨، وبالطبع كانت إليانور داعمة أساسية له، بل كان دورها مهمًا وكبيرًا جدًا بسبب قدراتها التنظيمية ونفوذها السياسي في المنظمات النسائية والعمل العام، وهو ما كان محصلته النهائية فوز زوجها بالفعل في انتخابات الولاية، في الوقت الذي خسر فيه سميث انتخابات الرئاسة[11].

وحين يصل الناشطون السياسيون إلى السلطة توضع مبادئهم على المحك، فإما أن يسعوا إلى تطبيق ما كانوا ينادون به، وإما أن يركنوا إلى الدعة والراحة والتمتع بملذات السلطة وإغراءاتها، لكن في حالة الرفيقين روزفلت فقد كان الوصول للسلطة معناه الفرصة السانحة لتطبيق أفكارهما التي كانا يؤمنان بها. وبالفعل استطاع محافظ نيويورك الجديد أن يُخفِض الضرائب المفروضة على المجتمعات الريفية بالولاية، ويخصص الاعتمادات اللازمة للنهوض بالمنشآت التعليمية والطرق فى تلك المناطق، كما نجح في اتباع سياسة إعادة زرع الأراضي بالغابات بدلًا من تركها بورًا، وحاول تنظيم مصالح العمال الصناعيين، والتأمين ضد البطالة والشيخوخة. ولسوء حظه، أو لحسن حظه، أيًا ما كان الأمر، فقد حل الكساد الاقتصادي بالبلاد، وعجزت إدارة الرئيس هوفر عن مواجهة الأزمة على الصعيد القومي، بينما كان المحافظ روزفلت يواجهها على النطاق المحلي في نيويورك بإجراءات جادة، فأنشأ إدارة مؤقتة للإغاثة العاجلة لتوفير فرص العمل للعاطلين، كذلك عمد إلى زيادة الإنفاق على الأشغال العامة، كما تبنى حركة العودة إلى الأرض التي لبت بعض احتياجات العائلات المنكوبة بأجور رمزية[12].

وكان أثر هذه النجاحات مباشرًا، فقد ذاع صيت المحافظ، وعمت شهرته، مما جعل الحزب الديمقراطي يستقر عليه لترشيحه لمنصب الرئيس

في انتخابات عام ١٩٣٢، وبالفعل فاز بها، فكان ذلك مؤشرًا قويًا على حدوث تحول تاريخي وجوهري في المجتمع الأمريكي؛ وذلك لأن البرنامج الجديد New Deal الذي تقدمت به إدارته غيَّر معتقدات الأمريكيين بشأن طبيعة الدولة ومسئولياتها من خلال تدخلها المباشر في شئون المواطنين، وتحمل مسئولية تنظيم الاقتصاد، وتوفير الحاجات الأساسية لغير القادرين على إعالة أنفسهم"[١٣].

وهكذا وصلت إليانور إذن إلى قمة السلطة في البلاد، وبتوجهاتها الفكرية، وقدراتها التنظيمية استغلت هذا المنصب لتطبيق أفكارها وميولها. فبعد أقل من أربعة أشهر من تنصيب زوجها رئيسًا ناشدت الشعب الكتابة إليها بحرية، حتى وإن كان المرسلون مخالفين لها في الرأي والتوجه، ووعدت الجمهور بأنها لن تطبع اسم المرسل إلا بإذنه، كما طلبت أن تكون الموضوعات المكتوبة في كل شيء، ليس فقط في المشكلات والمعضلات، وإنما كذلك في الأفراح والمناسبات المختلفة[١٤].

كما أكدت إليانور على أن هذا الطلب "نابع من قلبها على أمل تبادل المعلومات، وفتح غرفة للمناقشة مع ملايين الرجال والنساء الذين يقرأون لها". وقالت إنها تلقت على مدار سنوات مضت الرسائل من أشخاص يعيشون في كل أنحاء البلاد، وأنها تمنت دومًا الوصول إليهم، ومساعدتهم، وحل مشكلاتهم هم وعائلاتهم وأصدقائهم، وأنها بهذا الشكل الجديد للتواصل يمكنها تناول تلك المساعدات، مع اعترافها بأن تلك الكتابة إليها ليست الحل السحري للمشكلات، وإنما يمكن من خلالها التعلم واكتساب الخبرات من التجارب المتعددة التي يرسلها المرسلون[١٥].

وكان من نتيجة تلك المناشدة أن تلقت إليانور في العام الأول وحده من فترة رئاسة زوجها حوالي ثلاثمائة ألف خطاب لطلب المساعدة بمتوسط مائة وخمسين ألف طلب لكل عام من الأعوام التالية طوال سنى الرئاسة الاثنتي عشرة، فأفرزت بذلك نظامًا مجتمعيًا جديدًا قوامه مشاركة الناس معاناتهم، ومحاولة الاستجابة لهم ومساعدتهم بصورة غير رسمية[١٦]، فقد كان

مراسلوها يحكون لها عن حياتهم ومشكلاتهم، وكانوا يسألونها المساعدة. أما هي فكانت بدورها تتولى الرد شخصيًا على أكثر من خمسين خطابًا في اليوم الواحد، وتحول خطابات أخرى إلى المسئولين في الوكالات أو المنظمات التي قد تمد لهم يد المساعدة، أما بالنسبة للخطابات المهمة سياسيًا، فقد كانت تلخص فحواها للرئيس حتى يقوم هو بنفسه بالرد عليها[١٧].

وعلى الرغم من إعلان إليانور لمرات عدة أنها بهذا النشاط "غير الرسمي" لا تتدخل في أمور الدولة السياسية، وأنها لا تجيب على أية أسئلة سياسية، إلا أن الأمور السياسية كانت في الحقيقة الغرض الرئيس من وراء هذه الأنشطة. فقد كانت إليانور أول امرأة أمريكية استطاعت الاستفادة من وسائل الإعلام لبناء شبكة اتصالات، فتحولت بذلك إلى صانع للأخبار بالنسبة لزوجها، وليست مجرد ناقل لها، وكانت بمؤتمراتها الصحفية ومقالاتها في الصحف والمجلات المتنوعة تقوم بتوجيه الرأي العام، وتستفيد بهذه الوسيلة في اتجاهين مختلفين شكلًا، متكاملين مضمونًا؛ فمن ناحية كان ذلك الأمر عبارة عن وسيلة لبناء وعي ذاتي أكبر للشعب بعامة، وللمرأة بخاصة، ومن ناحية أخرى كانت تكسب جماهير الناخبين لصالح إدارة زوجها وحزبها السياسي[١٨].

ومما يدل على هذا التوجه السياسي لدعم إدارة زوجها أن إليانور تحدثت صراحة إلى مريديها عن ضرورة أن يصطف الأمريكيون متحدين متراصين خلف قيادتهم، لأنه "بدون تعلم العيش معًا كأفراد وجماعات، وإيجاد سبل لتسوية الصعوبات التي نواجهها دون أن نظهر الخوف من بعضنا البعض ، واللجوء إلى القوة، لا يمكننا أن نأمل في أن نرى الديمقراطية الناجحة؛ فمن الحقائق التي لا جدال فيها أن الديمقراطية لا يمكنها البقاء على قيد الحياة بغير سيطرة القانون، وبالتالي فلابد أن تحترم الشعوب آلية سن القوانين لتلبية الظروف التي يعيشون فيها، وعند الاقتضاء يتم تغيير تلك القوانين وفق عملية سياسية تخضع لإرادة غالبية الشعب؛ لأنه في كل مرة تتدخل القوة الجبرية مثلًا في تشكيل العلاقة بين صاحب العمل

والموظف تضعف معها قوة الديمقراطية"[١٩].

وبحلول عام ١٩٣٦ كان عمود إليانور اليومي بعنوان: "يومي My Day" يحتل مكانة غير عادية في صحافة الولايات المتحدة، واستمر هذا العمود إلى وقت وفاتها فى سنة ١٩٦٢، على الرغم من أنه ليس بالضرورة أن تكون كل مقالاته مفيدة أو عميقة الفكر، إذ كان كثير من أحاديثها ينطوي على النصائح المنزلية، والقضايا التي تهم كثيرين كالبطالة، والفقر، والتعليم، والشباب، والحياة الريفية، والعمل، وقضايا المرأة، وكل ذلك ترك أثرًا في كافة البيوت الأمريكية، إذ كانت النساء في كافة أنحاء البلاد تتعلقن بكل كلمة تقولها، وكذلك الفقراء والأقليات والمهمشون وغيرهم، إذ لم يحدث من قبل أن تحدثت السيدة الأولى بصفتها الشخصية، أو وجدت هذه الفئات الشعبية شخصًا من البيت الأبيض يتحدث في شئونهم أو بالنيابة عنهم[٢٠].

وبجانب تلك المقالات في الصحف والمجلات كانت إليانور تعقد المؤتمرات الصحفية؛ فقد عقدت في اثنتي عشرة سنة خلال فترة حكم زوجها ثلاثمائة وثمانية وأربعين مؤتمرًا صحفيًا، كان جلها لدعم العديد من التشريعات التي تتخذها إدارة روزفلت، وعلى الأخص في القضايا التي تؤمن بها كمقترحات التعديلات الدستورية الخاصة بحظر عمالة الأطفال، والتشريعات المنظمة للحد الأدنى للأجور والأقصى لساعات العمل. كما كانت تتحدث في تلك المؤتمرات الصحفية عن الخدمات الاجتماعية والتعليم والاهتمام بالشباب ورعايتهم، في الوقت الذي تتحدث فيه عن الجهود الرامية إلى تعبئة المدنيين للحرب العالمية الثانية[٢١].

وقد كانت إليانور منطلقة في أفكارها تلك من فلسفة خاصة تنشد السمو الإنساني، حتى أن الدين نفسه -من وجهة نظرها- نابع من تلك الفلسفة، فلم يكن معنى الدين بالنسبة لإليانور الارتباط بعقيدة بعينها، فهي لم تكن ترى فرقًا حقيقيًا بين البروتستانتية والكاثوليكية، لأن العقيدة الموجودة في القلب تجعل المرء يعيش وفقًا لأعلى المعايير التي يتصورها، وبالتالي فإن فاعلية الدين تتحقق -من وجهة نظرها- حينما تسمو النفس روحيًا،

وتترفع عن الأنانية والذاتية، وتسعى لعمل الخير لكل أولئك المكافحين معها على الأرض، فهي ترى أن أسوأ شعور يمكن أن يعتري الإنسان هو الاكتئاب بسبب الخوف من المستقبل المجهول، أو الخوف من عدم القدرة على مواجهة المشكلات، وتحمل أعباء الحياة"[٢٢].

كذلك كان للشباب موقع خاص في اهتمامات إليانور، خصوصا أنهم كانوا من أكثر المتضررين من جراء حدوث كارثة الكساد الاقتصادي، فضلًا عن أنهم يمثلون المستقبل المنظور الذي لابد أن يُبنى على أسس قويمة، ولذا فقد كان من أوائل أعمالها حين أصبحت السيدة الأولى أن قامت بمعاونة فرانسيس بيركنز Frances Perkins[٢٣] فى العمل على إنشاء مخيمات لشباب العاطلين في نيويورك، واستمرت في الضغط في هذا الاتجاه بالخطب والمقالات والندوات، والتوسع في إنشاء مخيمات الشباب العاطلين عن العمل في كافة أرجاء البلاد، حتى توجت تلك المجهودات في عام ١٩٣٥ بإصدار قانون إنشاء الإدارة الوطنية للشباب the National Youth Administration (NYA)[٢٤].

ولم تكتف إليانور بمجرد طرح الأفكار وتشجيعها، بل كانت تذهب في "زيارات ميدانية" لمتابعة آليات تطبيق تلك الأفكار على أرض الواقع، ومن تلك الزيارات زيارة إلى أحد مخيمات التعدين، وهناك زارت أسرة صغيرة مكونة من زوجين شابين وطفلين. وعلى الرغم مما رأته من فوضى في مطبخ الأسرة، ومن قذارة في ملابس الطفلين، إلا أنها أشادت باجتهاد الوالدين وكدهما في العمل والإنتاج لمواجهة ظروف الحياة، كما أثنت على جهودهما في الحفاظ على صحة ولديهما من مرض السل الذي كان متفشيًا وقتها، وعلى طموحاتهما في محاولات الارتقاء بزراعتهما، وتوسيع رقعتهما الزراعية، إذ كانا يسعيان لإقناع الدولة أو شركات التعدين لإعادة تقسيم بعض الأراضي وتوزيعها على عمال المناجم العاطلين[٢٥].

ومن هذه الزيارة، التي اتخذت منها إليانور نموذجًا يحتذى للشباب، انطلقت في الدعوة إلى توسع الشباب في "زراعة الكفاف subsistence

farming"، ليس بغرض المنافسة في الأسواق الكاسدة أساسًا، وإنما لكي توفر الأسر البسيطة لنفسها قدرًا ميسورًا من المنتجات الزراعية، وما يرتبط بها من الصناعات الأولية، وبالتالي فإنهم سيوفرون بذلك نقودًا كانوا سيدفعونها في شراء تلك الحاجات، وكذلك سيوفرون ساعات كانوا سيقضونها عملًا في المصانع، وبالتالي سيخففون من ازدحام المدن، ويطبقون اللامركزية في سد الاحتياجات. وأكدت على أن ذلك سيكون نواة لمشروع الاكتفاء الذاتي في حياة القرية، وهو المشروع الذي كانت قد نجحت فكرته في ولاية غرب ڤيرچينيا بحيث أصبحت مزارع الكفاف تلك أكثرًا أمانًا للعاطلين عن العمل الذين يعيشون في المدن، فضلًا عن أنه يمكن عمل بعض الحرف المنزلية التي تزيد الدخل وتخلق الفنانين الجدد[٢٦].

وقد كان لتأثر إليانور بالفكر الفيكتوري أثناء دراستها في إنجلترا أثره على طريقة طرحها لأفكارها، فحينما كانت تطرح مشروعًا أو فكرة كانت تحسب الجانب الفني والذوقي فيه، فحين أسهمت في إنشاء المخيمات للشباب لم تكن فقط تريد مجرد تسكينهم في عشوائيات، وإنما لابد أن يُراعى الذوق والفن العام، فقد كانت إليانور ترى أن يكون جميع الأمريكيين واعين بتقدير الجمال في بلد شاب له مذاقه الخاص، بل كانت تتوقع أن تتخذ الحكومة موقفًا مسئولًا تجاه الفن والفنانين، وأنها قد أوصلت بالفعل أصوتهم ومطالبهم التي راسلوها بشأنها إلى دوائر الحكومة المختلفة، كما أكدت على أن هناك خُططًا مرسومة بإتقان لإنفاق الأموال على تجميل المدن، وإنشاء المتنزهات العامة، وأنها تعزز اتحادات الفنانين والمبدعين[٢٧]، ففي رأيها أن الفنون بكافة أشكالها لم تعد ترفًا، بل هي "ضرورية في حياتنا كوسيلة من وسائل التعبير عن الذات... كل هذا في إطار السعي لتحقيق السعادة"[٢٨].

كما كانت قضية الضمان الاجتماعي أحد أهم القضايا التي شغلت فكر الإصلاحيين في الحزب الديمقراطي، وهي القضية التي دار حولها جل الإصلاحات خلال الأعوام الست الأولى من حكم الرئيس فرانكلين روزڤلت. ولما كانت إليانور من بين هؤلاء المفكرين والإصلاحيين فقد كانت ترى أنه

لا يُعقل أن يظل الشخص يعمل ويكد طوال حياته، ثم لا يستطيع توفير إحتياجاته الأساسية في شيخوخته. وأنه على الرغم من وجود العديد من الجمعيات الخيرية التي كانت تقدم المساعدات، إلا أنه حان الوقت الآن (١٩٣٤) لأن "تتبنى الدولة مشروعًا أكثر إنسانية واستنارة"[٢٩].

وكانت إليانور تميل إلى عدم تحديد مبلغ مالي محدد للتقاعد؛ وذلك حتى تتم دراسة كل حالة على حدة، وتقيمها بحسب الإمكانيات والمهارات ومستوى الدخل، إلا أنها اشترطت لذلك وجود إدارة جيدة، أيضًا رأت أنه كان بالتشريع المسنون لهذا الغرض مشكلة؛ لأن اعتماداته المالية كان يتم تقسيمها مناصفة بين الحكومة المحلية والحكومة الفيدرالية، ومن ثم دعت إلى إنشاء صناديق خاصة تدفع للناس معاشاتهم بصورة منتظمة. كما وضع التشريع حداً أدنى لسن التقاعد وهو سبعون، لكنها وجدت من خلال شكاوى الناس لها أنها سن طاعنة، وأنهم يرغبون في تخفيضها إلى الستين أو الخامسة والستين، فتبنت الفكرة، وقالت أنه بتطبيق القانون بهذه التعديلات فإن المسنين سيتمكنون من التمتع بحياتهم بعد التقاعد ، وهم راضون سعداء، كما أن خروج كبار السن من سوق العمل بصورة طبيعية سوف يتيح للشباب فرصة النضال ، وإثبات وجودهم بعد إخلاء الساحة أمامهم، فضلًا عن رغبة من يحبون والديهم فى التفرغ لرعايتهم في شيخوختهم"[٣٠].

وبجانب مساعي إليانور في قضايا الضمان الاجتماعي، كانت مساعيها في النداء بالتأمين ضد البطالة، إذ كانت ترى أن هذا النوع من التأمين يعطي فرصة لالتقاط الأنفاس، حيث يعطي فرصه للرجل أو المرأة للحصول على وظيفة أخرى، أو لإعادة تأهيل نفسه للقبول في نوع جديد من العمل. كذلك دعت إلى ضرورة المشاركة بدور أكبر في رعاية المعاقين والمقعدين والمكفوفين، سواء أكانوا يعيشون مع ذويهم، أو في دور الحضانات والمؤسسات الإيوائية. أيضًا احتل التعليم ركنًا أساسيًا في أفكارها، إذ كانت تراه مسألة مهمة وحيوية، وأنه لابد من مراقبة ودراسة تطور التعليم العام لجعله أكثر استجابة لاحتياجات العصر، وكذلك لابد من تحقيق تكافؤ

الفرص في التعليم في جميع أنحاء البلاد بحيث يتساوى أطفال الريف مع أطفال المدينة في نوعية التعليم المتلقى"[٣١].

فلم يكن الغرض من التعليم في نظرها مجرد اكتساب المعرفة والقراءة والكتابة، وتعلم الحقائق، وإنما كان الغرض الحقيقي للتعليم هو دفع الأطفال إلى الرغبة في التعلم، ثم تعليمهم كيفية استخدام عقولهم، وكيفية توظيفها للحصول على الحقائق عندما تتم إثارة فضولهم، وبصورة أشمل فإن الغرض الأساسي للتعليم في فكر إليانور كان لإنتاج المواطنين، وهو الهدف الرئيس للديمقراطية، وبالتالي فقد كانت ترى ضرورة إعادة النظر في النظام التعليمي الأمريكي، ووضع معايير عامة للمواطنة تُدَرس في المدارس العامة والخاصة على حد سواء[٣٢].

فالحفظ والتلقين ليس هو التعليم في نظرها، وإنما كانت تود أن يزور الأطفال أضرحة القادة الوطنيين التاريخيين للبلاد، وكذلك لابد أن تكون لديهم معرفة بالكيفية التي تدار بها الدوائر الحكومية، وما هي واجباتها؟، وكيف تعمل المحاكم؟، وما هي هيئات المحلفين؟،كما تريد أن يعرف الأطفال كيف تدير الولايات المتحدة علاقاتها مع العالم الخارجي، واتصالاتها بالدول الأخرى ، لأن إدراك الطفل لمثل هذه الأمور تجعله مشروعًا لقائد كبير. وبالتالي اقترحت عمل دورات متخصصة في التاريخ والإدارة الحكومية، تُدرس فيها قيمة المواطنة، كذلك أوصت بضرورة إعداد المعلمين بصورة جيدة تلبي تلك الأغراض، وأن عليهم سبر أغوار جديدة، وفتح مصادر جديدة للمعرفة والإلهام والخبرة لأنفسهم، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وأنه لا يمكن للمعلم توليد حماس الطلاب إذا كان فاقدًا له"[٣٣].

وكما كانت أنشطة إليانور في دعم السياسات التي تتخذها إدارة زوجها داخليًا، فقد نشطت كذلك في دعم توجهات تلك الإدارة في السياسة الخارجية، ضد ذلك التوجه الذي ارتبط في الأساس بصعود الأنظمة الشمولية في أوروبا والشرق الأقصى، وعلى الأخص الفاشية والنازية. حيث كتبت إليانور محذرة من أن "الخطر الحقيقي الذي يواجه الديمقراطيات هو أن تنجر

وراء أفعال تلك الدول الشمولية، وتجاريها في سباق التسلح؛ لأنها بذلك –أي الديمقراطيات– ستلزم بقية العالم بالاستماع لها وتقليدها، وتكون المحصلة النهائية حرباً ضروساً لا تبقي ولا تذر". ومن ثم فهي ترى أنه لابد على الشعوب في تلك الدول الشمولية أن تكون أقوى من حكامها، لأن هذه هي الديمقراطية، وهذا هو السبيل الوحيد لسيادة القانون والنظام[٣٤].

كذلك تحدثت عن ضرورة السعي لإحلال السلام، وإيجاد السبل البديلة لتجنب خيار الحرب، خصوصاً أن ذلك سيوفر المبالغ الطائلة التي يمكن استخدامها في برامج التنمية، وتوفير الاحتياجات، وتحسين المدارس ومستوى التعليم، والمعاشات التقاعدية، وتعويضات العمال، ورعاية المكفوفين، فليست هناك حدود لأوجه صرف هذه الأموال التي يكدسها البعض من أجل لذة التدمير، ولذا فهي تقترح سحب التجارة من هذه الدول كي تُجبر على إحترام السلام[٣٥].

وبالطبع كانت إليانور داعمة أساسية لمشروع الأمم المتحدة؛ لأنها كانت ترى أن هذه المنظمة ستضمن أن "يعيش العالم في سلام ووئام"، ومن كان غير مقتنع بتلك الفكرة فعليه بالنظر إلى الماضي، وعلى الأخص إلى تاريخ أوروبا القريب، حيث سفكت دماء الملايين في حربين عالميتين في جيل واحد، أتيتا على الأخضر واليابس، وتلزم الشعوب الأوروبية التي خُربت ديارها جهدًا جبارًا لإعادة بناء بلادها بعد هذا الدمار الرهيب، ثم تؤكد على أهمية الدعم الأمريكي لهذه الشعوب ماديًا وروحيًا، ولهذا فعلى الأمة أن تعرف هذه الخلفيات حتى تتمكن من مواجهة المستقبل، والتخطيط له، ولهذا فالأمم المتحدة توفر مظلة للعمل السلمي الذى يمكنها من تجنيب البلاد ويلات الحروب[٣٦].

وبالطبع إذا اختار شخص ما أن يشارك في العمل العام، فلابد أن يتقبل النقد، فما بالنا وأن هذا الشخص بقدر إليانور روزفلت التي تعرضت لانتقادات لا حصر لها، وربما كان أكثرها فجاجة تلك الرسوم الكاريكاتورية التي كانت تسخر من أسنانها الأمامية البارزة في رسوماتها، وكان مثل تلك

الرسوم من القسوة والوقاحة في كثير من الأحيان للدرجة التي لا يمكن تحملها، إلا أن إليانور كانت تتعامل معها بهدوء وسعة صدر، فحينما رسمها أحد الرسامين بمثل هذا الشكل الفج، غضبت صديقاتها وطالبنها بالرد، فقالت إن من حقه الرسم، ودعته لتناول الشاي معها[٣٧].

لكنها بالمقابل كتبت عدة مرات للدفاع عن نفسها إزاء تلك الانتقادات، فقالت أن هناك التزامات لزوجة الرئيس مرتبطة في الأساس بالمنزلة الرسمية التي تفرض عليها إدارة شئون البيت الأبيض وفقًا للقواعد المعمول بها، وهذا في حد ذاته ليس مشكلة، بل المشكلة تكمن فى كثرة الانتقادات بسبب اهتمامها بالأنشطة الأخرى، فقد راسلها الملايين من الشعب بغية مساعدتهم على إنجاز بعض الأمور التي لا يقدرون عليها بمفردهم، وإليانور هي من قامت بمساعدتهم على قضاء حوائجهم طالما أن ذلك غير مخالف للقانون، وهي لا ترى في ذلك مشكلة، لكن المشكلة لو أنها استفادت من هذا النفوذ، وتربحت من منصبها كزوجة للرئيس[٣٨].

كما كانت إليانور ترى أن من يقفون وراء تلك الانتقادات لم يروا في حياتهم امرأة متعددة المواهب ومتشعبة الأعمال تريد أن ترى الكثير وتعرف الكثير وأنهم لا يعرفون غير ذلك النوع من النساء الذي عليه العيش في منزله فقط[٣٩]. كما أكدت على أنها ليست منتخبة، أو شاغلة لأي منصب رسمي حتى تنتقد بهذا الشكل، وبالتالي فهي ترى أن من يقومون بهذه الانتقادات هم أناس يسعون للشهرة. ثم تؤكد على أنها تقوم بهذه الأعمال من وحي ضميرها، فهي ليست من هذا النوع الذي يركن إلى الدعة والراحة، وينتظر أن تأتي اليه المزايا دون تعب أو مسئوليات ، لكنها في المجمل كانت ترى أن الانتقاد شيء طبيعي وصحي، خصوصًا أنه لا يوجد قانون خاص بسلوك كل فرد، لذلك على المرء أن يعيش كما يحب، فهناك أشخاص يعيشون بمفردهم منعزلين ويتلذذون بشهواتهم ، ولا يوجه لهم أي انتقاد، أما هي فلا تقدر على تلك العيشة، لكنها تطلب أن يكون النقد بناءً وليس هدامًا[٤٠].

ثانيًا: إليانور وقضايا المرأة الأمريكية:

كانت قضية المرأة الأمريكية هي المحور الأبرز في فكر إليانور روزفلت، بل كانت هي القضية التي تنطلق منها إلى المشاركات والفعاليات المختلفة. فقد كانت ترى أنه لابد أن يكون لدى النساء فضول في معرفة السياسات الحكومية والوكالات التجارية، لأن كل ذلك ينعكس على حياتهن اليومية بكافة تفاصيلها، وبالتالي يتكون الرأي العام في البيوت الأمريكية[٤١].

كما أخذت تنادي بأنه قد آن الأوان للكل أن يعترف أن لعشرة ملايين امرأة أمريكية بالغة أصوات تعادل الرجال، ولذا طالبت بأن تشارك النساء الرجال المعرفة بآليات إدارة الدولة، ووضع الميزانيات وإنفاقها، وطرق المحاسبة، وفرض الضرائب، ونفقات الحكومة المحلية، أو الدولة الوطنية، فهؤلاء الملايين من النسوة من وجهة نظر إليانور يردن أن يرين النتائج الفعلية الملموسة لتلك النفقات، ويردن الأمن ، والتمثيل الحقيقي، والصدق، والحكمة ، والتشريع، وظروف معيشية أكثر سعادة ، وأكثر راحة، ومستقبلاً آمناً من أهوال الحرب، ومن وجهة نظرها فإن هذا لن يتحقق إلا بمشاركة المرأة سياسيًا[٤٢].

وعلى الرغم من أنه كان قد بُدئ في تفعيل قانون مباشرة الحقوق السياسية للمرأة الأمريكية بُعيد انتهاء الحرب العالمية الأولى مباشرة، إلا أن إليانور الناشطة سياسيًا كانت تشتكي من أنه بعد عشر سنوات من بدء العمل بهذا القانون، فإن انخراط المرأة في العمل السياسي، أو مجرد ذهابها لصناديق الاقتراع كان لا يزال ضعيفًا جدًا، على الرغم من التحول الملحوظ في معاملة الرجال للنساء فى محاولة لكسب أصواتهن، وأيضًا على الرغم من انتخاب ثلاث نساء كعضوات في الكونجرس، وغيرهن في المجالس التشريعية المختلفة بالولايات. إلا أن هذا من وجهة نظرها لم يكن معناه أن هناك حالة قبول عامة وراغبة في انخراط المرأة في العمل السياسي، أو أن

هناك مساواة حقيقية في حصة ممارسة الرجل والمرأة للسلطة السياسة، وتبرهن على ذلك بأنه لم يكن للمرأة صوت في الدوائر التي تقرر شئون السياسة الوطنية، كما كانت آليات ممارسة العمل السياسي لا تزال كما هي في أيدي الرجال"[٤٣].

وقد كان تصويت المرأة في الانتخابات من أكثر الصعوبات التي تواجه القيادات النسائية، وتشغل تفكيرهن وكيفية حمل النساء على تغيير مواقفهن من عدم الاكتراث إلى المشاركة الفعالة. وتنفي إليانور ما كان يقال عن أن المرأة الأمريكية كسولة بطبعها بدليل مشاركتها منذ صغرها في كثير من الأشياء حتى في الأمور البسيطة كزرع بذور النباتات ورعايتها، لكنها ترى أن المشكلة الحقيقية تكمن في قلة وسائل المعرفة التي تحفز النساء على المشاركة، ولذا فهي تعتبر أن أحد أهم واجبات الأحزاب تتمثل في تفعيل تلك التوعية، وإعطاء الفرصة للنساء في المشاركة والممارسة من خلال الانتخابات التمهيدية"[٤٤].

ومن ثم فقد طالبت إليانور بالاعتراف الرسمي والصريح بحق المرأة في أن يكون لها تمثيل محدد في مختلف اللجان الوطنية، وأن يُنص صراحة على تنظيم النساء في جميع أنحاء الولايات المتحدة، وأن يكون للمرأة المتميزة في العمل السياسي الأولوية في الحصول على المكافآت العينية والمادية، وأن يكون لها الحق في الترشح لمنصب الرئيس، وأن يتم اختيارها لمنصب نائب الرئيس، وأكدت على أنه لن يتم إجبار الرجال داخل الأحزاب على قبول مشاركة المرأة لهم فى عملهم إلا من خلال التمثيل الفعال للنساء، وهنا سوف يتم الاستماع لما يطرحنه من قضايا لأنهن أتين بقوة صندوق الانتخاب. وفى المقابل وجهت إليانور حديثها لرفيقاتها ونصحتهن بضرورة أن يسعين للمساواة بالرجال سواء من حيث المظهر بأن يتعلمن التحدث بلغتهم، أو من حيث المضمون بأن يسعين لإتقان نوعيات آليات العمل التي يتقنها الرجال، وذلك ببساطة من وجهة نظرها- لأن جمهور الناخبين واحد رجالًا ونساءً، المهم هو نوعية النخبة التي ستفرض نفسها على هذا

الجمهور[٤٥].

ولعل من أثار كارثة الكساد الاقتصادي التي ضربت الولايات المتحدة سنة ١٩٢٩ أن فقد كثير من العائلات الأمريكية أعمالهم ومنازلهم، وكان كثير من الآباء يستشعرون المذلة والمهانة لعدم مقدرتهم على إعالة أسرهم، إذ كان الأب عائل الأسرة الوحيد في مجتمع لا يحبذ عمل المرأة، ولذلك فقد كان كثير من هؤلاء الآباء يستسلمون للواقع المرير، أو لمعاقرة الخمور هربًا من هذا الواقع، أو لليأس الذي يدفعهم لتعمد فقدان الحياة بالانتحار بعد أن فقدوا الأمل وثقتهم في أنفسهم لأنهم لم يكن في مقدورهم مجرد سداد إيجار المنزل أو فواتير الغاز والكهرباء، فضلًا عن إعالة أبنائهم[٤٦]. كما كانت أبرز النتائج التي ترتبت على ذلك على النسوة أن ترك نحو ربع الأمريكيات العزلة وخرجن للعمل في ظل تلك الظروف القاسية ، وقبلن العمل في أعمال بسيطة، وكثيرًا ما كانت بدون أجر مقابل إطعام أولادهن، فواجهن حالات فجة من التمييز والابتزاز وسوء المعاملة. ومن ثم استغلت إليانور روزفلت وسائل الإعلام لمخاطبة هؤلاء النسوة وتشجيعهن على المشاركة الفعالة والكاملة في الحياة الأمريكية، للتغلب على العزلة الاجتماعية التي فرضتها عليهن التقاليد[٤٧].

وبوصول إدارة فرانكلين روزفلت إلى السلطة فى عام ١٩٣٣ كان اهتمام إليانور بحقوق المرأة ، وحقها في الوصول إلى مواقع السلطة واضحًا جليًا؛ فبعد تنصيب زوجها بيومين فقط عقدت إليانور أول مؤتمر صحفي لها وهي زوج الرئيس، وذلك بعد أن التقت خمساً وثلاثين امرأة، وأعلنت في هذا المؤتمر صراحة أن لديها نية واضحة في توفير آلية واضحة للصحفيات كي يكن بمثابة قنوات معلومات من البيت الأبيض مباشرة إلى الأمة، فكانت بذلك أول امرأة تعلن صراحة عن إعطائها فرصًا حقيقية للمرأة للتقدم في هذا المجال، بل زاد الأمر بتدخلها في إجبار الصحف على توظيف المزيد من النساء في عصر كان فيه تقريبًا كل شيء تمييزًا ضدهن[٤٨].

وكانت إليانور في مؤتمراتها الصحفية المنتظمة تقصر الدعوة فيها

على الصحفيات فقط، كما كانت تكثر من مقالاتها في المجلات النسائية، وكانت المرأة تستحوذ على الجانب الأوفر من أحاديثها الإذاعية، صحيح أنها لم تحاول قصر أحاديثها على الشئون النسائية فقط، بل أدخلت قضايا أخلاقية أخرى كالمساواة في العمل، والحقوق المدنية، والإسكان، والاقتصاد، وإعادة توطين الفقراء، وبرامج الإغاثة، إلا أنها كانت تعلم أن غالبية جمهورها مستمعين- كانوا أم قراءً هم بالدرجة الأولى من النساء، وكانت سببًا في تعيين أربعة آلاف امرأة في المناصب الحكومية المختلفة، كما كان لهذا أثره المباشر في أن تتقلد المرأة لأول مرة في تاريخ الولايات المتحدة مناصب في الوزارة والقضاء والخارجية في عهد زوجها فرانكلين روزفلت (١٩٣٣-١٩٤٥)[٤٩].

كذلك قدمت إليانور نفسها -من خلال إجاباتها على الأسئلة وتناولها للقضايا المتعددة- بوصفها قدوة لغيرها من النساء الأمريكيات، فكانت تسعى إلى توسيع آفاقهن من مجرد الاهتمام بالتزين والتبرج إلى جذبهن لقضايا أعمق وأهم، فلم يكن من السهل على المتابع لنشاطها أن يفصل بين القضايا السياسية والقضايا الاجتماعية التي كانت تتناولها[٥٠].كما رأت أيضا أنه إذا كان هناك عدد كاف من النساء للمشاركة، فإنهن لن يقبلن بسهولة التفريط في حقوقهن الأساسية في العيش والسعادة والتمتع بملذات الحياة، فضلًا عن بنائهن لجيل جديد من الأبناء سيكون قادرًا على مواجهة تحديات المستقبل. وبالطبع فقد كان ذلك سيتطلب نظامًا جديدًا في التعليم، وقدرة على الاستماع والتقدير، وقد حان الوقت للمجتمع لتدشين هذا "الحس السليم" من أجل تحقيق تلك الأحلام "فليس هناك شيء اسمه مصباح علاء الدين، ولكن هناك رغبات ومقاصد وأحلام، ودورنا الآن أن نحولها إلى واقع ملموس"[٥١].

كما كانت إليانور ترى أن وظيفة المرأة ستعلي من شأنها، وتجعلها أكثر قيمة للحياة، ولمن حولها، فالمرأة من وجهة نظرها لا تسعى للعمل من أجل كسب المال فقط ، وإنما لتطوير شخصيتها، بحيث تصبح أكثر من شخصية داخل نفسها، ويمكنها المساهمة في أكثر من حقل محيط بها. أيضًا

كانت ترى أن معايير التقييم القديمة القائمة على تقدير النجاح بقدر ما يتم كسبه من أموال أصبحت مفاهيم خاطئة، وأصبحت مفاهيم النجاح تعتمد على مقدار السعادة، والمقدرة على إسعاد الآخرين، حتى لو كان الشخص غير قادر على تلبية كافة الاحتياجات التي تطلبها أسرته، وشبهت ذلك بالرسام الذي يرسم تحفة فنية تضيء المكان بجمالها، على الرغم من عدم مقدرته على بيعها، والاستفادة بثمنها[٥٢].

وأخذت إليانور تؤكد على أن عمل المرأة شرف؛ فعملها في التدريس مثلًا أفضل من الرجل بكثير، كما أن الأم في المنزل تعرف تفاصيل حياة ابنها الدراسية الدقيقة أفضل من الأب، بل هي تعرف كثيراً من التفاصيل الدقيقة كميزات وعيوب المدرسين، وإن كثيرات منهن يعرفن بدقة ميزات وعيوب النظام السياسي الأمريكي، فإذا كانت المرأة بهذه المستويات الراقية، وهي التي تربي النشء، فما الذي لا يجعلها تتبوأ المنزلة التي تستحقها في المجتمع؟[٥٣].

ومن هذا المنطلق أخذت إليانور تطرح الأفكار لنوعية العمل الذي يمكن للمرأة الإبداع فيه، وكان التمريض من بين تلك الأعمال، فقد وجهت جمهورها إلى أن الشعب يتوقع من ممارسة المرأة لهذه المهنة المهارة والتفاني في العمل، وتأهيل ممرضة تقوم بدور المعلم، وذلك بفتح حقل جديد للتعليم للتخصص في تلك المهنة، وبالتالي سيتم تغيير نمط الحياة ليكون الناس أكثر صحة وسعادة، فالأمريكيون تعلموا أن يعيشوا حياة مادية جيدة، وآن الأوان أن تعيش قلوبهم وعقولهم بمستوى جيد، فمثلًا إذا كان الآباء يسعون لإدخال أولادهم مدارس رياض الأطفال، فإنه من الأفضل أن تكون هناك ممرضات في تلك المدارس لتعليم هؤلاء الأطفال طرق الرعاية المناسبة، وبالتالي سيُخلق في المجتمع مستوى رعاية صحية عامة[٥٤].

وكانت إليانور قد اقتنعت بتلك الفكرة حينما كانت تزور بعض معسكرات الإغاثة بغرب ڤيرجينيا، ووجدت أن الممرضات يقمن بأعمال إغاثية متعددة، حيث كن يساعدن الأطفال، ويهتممن بهم في المخيمات، كما

كن يحاولن تعليم الأمهات الطرق المثلى للرعاية الصحية، ومن ثم أطلقت حملة ارتباط الممرضة بالعمل في المدارس وفي المؤسسات، وفي المجتمعات المختلفة، فقد كانت تعتقد أن هذا الأمر سيتيح للمواطن العادي أن يكون في المستقبل قادرًا على إدارة أمور تمريضه بنفسه باكتسابه الوعي الكافي، خصوصاً في المجتمعات المحلية في القرى الريفية، وأن نشر تلك التوعية سيكون بديلًا لدفع ضريبة لدعم العمل الصحي، ونشر الأساليب المثلى للصحة الوقائية[٥٥].

وقد أكسبت كل هذه المحاولات النساء بعامة خبرات كبيرة، فحينما اشتركت الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية تطوعت النسوة بأعداد مهولة متسلحات بالخبرة السابقة التي تعلمنها في الأعمال التطوعية؛ فقد تطوعت ثلاثة ملايين امرأة في الصليب الأحمر، وقامت أخريات بقيادة عربات الإسعاف، ورصد الطائرات للدفاع المدني، والقيام بالطهي والترفيه عن الجنود في مقاصف الهيئة العامة للخدمات العسكرية، بل وشاركت ثلاثمائة وخمسون ألف امرأة بالعمل في أفرع الجيش الأمريكي المختلفة، إذ كانت هناك فروع نسوية في قوات الجيش والبحرية وحرس السواحل ومشاة البحرية، بالإضافة إلى فيلق التمريض في الجيش والبحرية، هذا بالطبع غير اضطلاعهن بالمسئولية الأسرية عندما ترك الرجال الحياة المدنية[٥٦].

وبعد تجنيد نحو اثنى عشر مليون شاب ورجل أمريكي في الحرب العالمية الثانية، أصبح هناك إدراك عام لأن عمل المرأة وحده هو الذي يمكنه سد فجوة الاحتياج إلى الأيدي العاملة، ووصل الأمر إلى حد أن الحكومة نفسها هي التي قامت بحملة دعائية كبرى لإغراء النساء بالعمل، وأكد المجلس الحربي للعمل عزمه على أن يقرر للمرأة التي تعمل في وظيفة كان يشغلها رجل من قبل أجرًا يعادل أجر الرجل، وأصدر مكتب الإعلام الحربي ملصقات ونشرات وإعلانات عن هذه الوظائف للنساء، كما تم التنويه إلى هذا الأمر في الأعمال السينمائية والروائية والإعلانات في وسائل الإعلام المختلفة، وهى أمور لم تكن موجودة من قبل في المجتمع الأمريكي[٥٧].

وكانت إليانور في أثناء الحرب العالمية الثانية تحث النساء دومًا من خلال عمودها على العمل في مصانع الذخيرة، والتطوع في الأعمال الخدمية الموازية للأعمال الحربية[٥٨]. ولم تكتف بذلك، وإنما حثتهن على أن يجعلن لأنفسهن مكانًا في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك بتمكنهن من إتقان المهن المختلفة التي كانت مقصورة على الرجال، وانتقدت بشدة ما كان يُروج من أنه بانتهاء الحرب ستعود النساء مرة أخرى إلى بيوتهن، ويتولى الرجال الإمساك بدولاب العمل والإنتاج، ودعت إلى اشتراك الرجال والنساء على حدٍ سواء في دراسة أساليب التنمية التي توصل الشعب الأمريكي برجاله ونسائه إلى الرفاهية الكاملة في المستقبل القريب بعد الحرب، خصوصا أن النساء سيكون لهن معيل يساعدهن على أعباء الحياة، وبالتالي يمكنهن التزود بالتعليم والتثقيف[٥٩].

لكن بنهاية الحرب العالمية الثانية برزت الحاجة إلى تقليص حجم القوات المسلحة الأمريكية، وساد شعور عام بضرورة إعادة تنظيم أمور الدولة لتجنب إهدار مواردها، فكان هذا التوجه سببًا في تقليص دور المرأة في الإدارة الحكومية والعمل، خصوصا أن حكومة الرئيس هاري ترومان Harry Truman (١٩٤٥ – ١٩٥٣) كانت تفتقر إلى روابط التعاطف مع المُصلحات النسائيات، لكن فى المقابل أدى ذلك إلى رغبة الأجيال النسوية الجديدة في تحدى تلك المعوقات، وعلى الأخص الدفاع عن المكتسبات التي حققتها الحركة النسوية على مدار أكثر من عقد من الزمان فيما يخص العمل والمساواة في الحقوق[٦٠]، وهنا سيكون لإليانور دور في الدفاع عن تلك المكتسبات من خلال دفاعها عن الحريات المدنية.

ثالثًا: إليانور وقضايا الحريات المدنية:

كانت إليانور ترى أن القيمة الحقيقية للإنسان تكمن في اتصاله بالآخرين، وعضويته بالجمعيات التي تساعدهم، "فهذه هي القيمة الحقيقية للحياة والوطن، وهو ما ينتج شعورًا بالراحة الجسدية والأمان العام"[٦١]. وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة مكونة من أعراق مختلفة، إلا أنها كان لديها

قلق كبير بسبب العرق الأسود الذي يشكل أكبر المجموعات العرقية في البلاد عددًا بعد البيض. فعلى الرغم من أن القوانين تفرض المساواة بين المواطنين، إلا أن الواقع الفعلي كان على عكس ذلك، ولذا دعت إليانور إلى مواجهة هذه القضية بصراحة حتى يعم السلام الاجتماعي بشكل حقيقي من خلال القضاء على التفاوت والمظالم الاجتماعية[٦٢].

وكما كانت إليانور ترى أن التعليم، وتحسين مستوى معيشة هذا العرق الأسود هما أهم تلك الوسائل التي يمكن بها مواجهة تلك المشكلة، فبرفع المستويين الفكري والجسدي سيتمكن الزنوج من الاندماج بشكل حقيقي وفعال في المجتمع، "فلا يكفي فقط منح من عانوا أجورًا ومنازل أفضل، وإنما لابد من منحهم التعليم والتدريب والفهم، ثم نتوقع منهم تولي المسئولية الكاملة، فلابد أن تصل البلاد إلى المرحلة التي تكون فيها المساواة هي المعيار السائد بين جميع البشر"[٦٣].

وقد برهنت على حصافة رأيها من خلال قناعتها بأن الديمقراطية الحقة تقدم حقوقًا أساسية لكل مواطن تتمثل في المساواة أمام القانون، والمساواة في التعليم، وفي عقد العمل وفقًا لقدرات كل شخص، وفي المشاركة من خلال الاقتراع في الحكومة، وهي لا تدرى كيف يمكن للحكومة الأمريكية خوض حروب من أجل نشر تلك الأفكار في الوقت الذي تُمنع فيه عن مواطنين أمريكيين، لكنها من جانب آخر دعت الزنوج إلى التحلي بالصبر، وأن يوطنوا أنفسهم على عدم توقع تحقيق المعجزات بين عشية وضحاها، لكن ليس معنى ذلك وقوفهم مكتوفي الأيدي، وإنما يجب عليهم المضي قدمًا في محاربة التمييز والتحيز، وإزالة القيود التي لا معنى لها، خصوصاً أنه أصبح هناك كثير من الزنوج المتعلمين الذين يمكنهم أن يصبحوا قادة بين شعبهم[٦٤].

وحين دارت رحى الحرب العالمية الثانية احتلت قضية الحريات المدنية مكانًا بارزًا في أنشطة إليانور؛ لأنها كانت ترى أن الحريات المدنية باتت مهددة جدًا في تلك الأوقات أكثر من أي وقت مضى، خصوصًا أنها قد

اختفت من بلدان أخرى في أوروبا التي تشتعل فيها الحرب، وكانت ترى أنه يجب أن يُعاد تقييم هذه الأمور في الولايات المتحدة التي تراها حارسة للحرية والديمقراطية، ولذا فلابد من مراجعة النفس في هذا المجال من وقت لآخر، لأن الحريات المدنية تؤكد على حرية الفرد التي هي أساس الديمقراطية الأمريكية"[٦٥]. ومن هذا المنطلق كانت إليانور تدافع عن أي مضطهد بغض النظر عن لونه أو عرقه أو جنسه، فأعلنت أنه لابد من نشر فكرة "أننا نحارب من أجل الحرية، وأن علينا التحرر من التمييز بين شعوب العالم بسبب العرق، أو اللون، أو الدين"، وكانت ترى أن شعوب العالم بدأت في ثوراتها لرفع نير الاحتلال عن أعناقها، وأنهم يشعرون بأنه يجب أن تنظر الولايات المتحدة إليهم كبشر، كما يجب عدم نسيان أن هذه الشعوب هم شركاؤها في التنمية في عالم ما بعد الحرب"[٦٦].

وكانت إليانور تطلق تلك المبادرات في وقت أثَّرت فيه ما أسمته "الدموية اليابانية"على مزاج الأمريكيين بعد ضرب أسطولهم في بيرل هاربر فى (٧ ديسمبر ١٩٤١). وكان من نتيجة ذلك أن تم إنشاء مكاتب لتصنيف ولاء كل من هم من أصل ياباني، أو من الموالين لليابان، غير أن إليانور كانت رافضة لتلك السياسات، وأكدت على أنه سوف يتم استيعاب الأمريكيين من أصل ياباني، وأنه تم احتواء الإضرابات التي تمت في مراكز نقل اليابانيين، والتي لاقت اهتمام كثير من الصحف، وأكدت كذلك على المساواة في الحقوق بين جميع البشر، وأن الأمريكيين من أصل ياباني هم مواطنون أمريكيون، تعلموا في المدارس والكليات الأمريكية، ولم يعرفوا بلدًا آخر غير الولايات المتحدة، وأخذت تدلل على حجتها بالأرقام، إذ قالت إن نسبة ٧٢% منهم لم يذهبوا قط إلى اليابان، وأغلب نسبة الـــ ٢٨% الباقين ذهبوا إلى اليابان في زيارات قصيرة وعادوا، ثم تؤكد مرة أخرى على أنه لابد: "ألا يُنظر لأي شخص في الولايات المتحدة على أساس العرق أو الدين، فالكل مواطنون لهم الحق في الحريات الأساسية، والعدالة ، وتكافؤ الفرص، ولكل شخص الحق في قيادة حياته الخاصة كما يحلو له، وبالتالي فلابد أن نحب

للآخرين ما نحب لأنفسنا"[٦٧].

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية لم يحدث.ما كان متوقعًا من إحلال السلام الشامل والعادل، ولذا كتبت إليانور على أن دور الليبرالية التي تعتنق أفكارها- أصبح صعبًا للغاية، خصوصا في الولايات المتحدة التي تراها رائدة الديمقراطيات في العالم، نظراً لما تتمتع به من غنى في المصادر والثروات الطبيعية، ولتلك المكانة التي وصلت إليها في وقت قصير، وهو ما جعل كل أنظار العالم تتجه إليها. وعلى الرغم من انحسار الحرب العالمية الثانية بما شهدته من ويلات، فلازالت القوة هي الحَكم الفصل في كثير من القضايا، وهنا يبرز دور الليبرالي الذي ترى أن عليه التفكير أفضل من الآخرين لاستخراج أفضل الحلول، والتي ترى أنها تتبلور جميعها حول الإيمان بالديمقراطية والحرية[٦٨].

وكان طرح إليانور لمثل تلك الأفكار في وقت تزايدت فيه الانتقادات ضد الرئيس ترومان (١٩٤٥- ١٩٥٣) الذي خلف زوجها بعد أن وافته المنية، وذلك بعد أن رأى الجناح الليبرالي في الحزب الديمقراطي أن أداء الرئيس الجديد مخيب في التعامل مع مسألة اعتصامات وإضرابات العمال والموظفين التي عمت أرجاء البلاد بعيد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وعودة الجنود إلى بلادهم ،وتحويل توجهات البلد الاقتصادية من الإنتاج الحربي إلى الإنتاج المدني. فصرحت إليانور علناً بأن الرئيس يجمع حوله الأشخاص الخطأ[٦٩]. وكانت غضبة إليانور تلك هى وجمعٌ كبير من المثقفين ناتجة بسبب عزم الرئيس ترومان على فض اعتصامات العمال بالقوة، فقاموا بالتنديد بمثل هذه الأفكار التي كانوا يتندرون عليها في الاتحاد السوفييتي وألمانيا، إذ لم يكونوا يتصورون: "كيفية قمع اعتصام لأناس مسالمين في دولة مدنية بمثل هذه الأفكار العسكرية المتسلطة"، ثم قادوا تلك الحملة في مجلس الشيوخ الذي رفض الفكرة بنسبة ٧٠: ١٣ صوتاً[٧٠].

أيضًا كان من بين ما رأت إليانور أنها مخاطر تهدد الحريات المدنية في الولايات المتحدة بعيد انتهاء الحرب العالمية الثانية ما عرف باسم

"اختبارات الولاء loyalty tests"، وما تبعها من رقابة حكومية على الصحف والأفكار، بل وعلى المواطنين أنفسهم بدعوى الحماية من توغل الأفكار الشيوعية. وقد عارضت إليانور هذا التوجه، ورأت أنه لا ينبغي في الديمقراطيات أن تحشد الحكومة فيها من يدينون لها بالولاء فقط، وكذلك لا ينبغي اتهام الناس بدون دليل، والحكم عليهم بالخيانة دون إعطائهم الفرصة لإحضار الشهود، والدفاع عن أنفسهم، لأنها ترى أن حرية تداول المعلومات أفضل بكثير من الحصول على المعلومة من الصحافة المطبوعة التي تخضع للرقابة، وأن التمييز العنصري والديني أصبح ظاهرًا في البلاد بسبب تلك السياسات، ولذا دعت إلى ضرورة التحرك بسرعة لمواجهة هذا التمييز، والقضاء عليه[٧١].

ولم تكتف إليانور بالمعارضة الفكرية، بل تزعمت حركة نشطة داخل الحزب الديمقراطي هدفت إلى تنحية الرئيس ترومان عن الحكم، فقد كانت تعتقد أن مكتب الحزب الديمقراطي يمثل السبيل الآمن للبلاد للمضي قدمًا للمستقبل، وأن الليبراليين الدوليين هم من يستطيعون جلب عالم يسوده السلام، وأنها ستعمل على دعم مرشحي حزبها[٧٢]، ولذا أعلنت صراحة تأييدها هنري دالاس لانتخابات ١٩٤٨، والذي كان يحمل مشروع "الاتجاه الثالث"؛ لأنها رأت أنه الأقدر على قيادة البلاد في تلك المرحلة، وأنها خَبرت فكره، وتعرف توجهاته، ومقدرته على اختيار الرجال الأكفاء، ومقدرته الاقتصادية حتى لا تعود البلاد لفترات الكساد والحروب، وكذلك لكي تسعى بخطوات منظمة وثابتة نحو الأمن والسلام، والحفاظ على الحريات المدنية[٧٣].

وعلى الرغم من خسارة دالاس الانتخابات وفوز ترومان، فقد أصبح اسم إليانور مرادفًا لقضايا الدفاع عن الحريات المدنية، كما كانت القوة الكامنة وراء الجناح الليبرالي في الحزب الديمقراطي، ففي الحملة الانتخابية للرئاسة عام ١٩٤٨ توسل لها هاري ترومان لدعمه حينما أعلنت دعم دالاس، وكما تولت إدارة حملتى أدلاي ستيفنسون الانتخابيتين في عامي ١٩٥٢ و ١٩٥٦، واللتين خسرهما أمام الرئيس أيزنهاور (١٩٥٣-

١٩٦١)، وحصل جون كيندي على دعم جناحها الليبرالي وفاز في انتخابات ١٩٦٢. وكانت تفعل كل ذلك على الرغم من رفضها تولي مناصب مرموقة كعضوية مجلس الشيوخ ، أو كنائب للرئيس مقابل ذلك، بل كانت ترى أن مشاركتها في قضايا حقوق الإنسان بالأمم المتحدة خير خاتمة تتوج بها حياتها زاخرة العطاء[٧٤].

رابعًا: إليانور وحقوق الإنسان في القانون الدولي:

احتلت قضية حقوق الإنسان ركنًا ثابتًا وأصيلًا في كافة الاجتماعات التي عُقدت بشأن إنشاء منظمة الأمم المتحدة ابتداءً من تصريح الأطلنطي في الرابع عشر من أغسطس ١٩٤١، وحتى مؤتمر سان فرانسيسكو التأسيسي في الخامس والعشرين من أبريل وحتى السادس والعشرين من يونيو ١٩٤٥[٧٥]. وفي العام التالي(١٩٤٦)، أنشأت الأمم المتحدة لجنة خاصة تُعنى بحقوق الإنسان مدفوعة بما روعت به الحرب العالمية الثانية البشرية بسبب ملايين الضحايا الذين سقطوا، وقد وقع الاختيار على إليانور روزفلت لتمثل الولايات المتحدة في تلك اللجنة لما لها من دور بارز في قضايا اللاجئين، وتاريخ طويل في العمل الاجتماعي، وجهود هائلة في الدعوة إلى العدالة الاجتماعية، والحقوق والحريات المدنية، ووضع المرأة[٧٦].

وكانت إليانور قد كرست حياتها بعد وفاة زوجها للأعمال ذات الصلة بالأمم المتحدة، فقد أدركت بعد عام من وفاته أنه كان يفضلها فكرًا في الأمور السياسية، وعلى الرغم من اختلافهما في كثير من الأمور ووجهات النظر، لكن في نهاية المطاف كانت أهدافهما واحدة ومتشابهة إلى حد كبير، لكنها تعلمت منه عدم إتباع أي خط بشكل أعمى، وإنما تلعب الظروف والمستجدات دورًا كبيرًا في تعديل المسارات أو تغييرها، ومن ثم كانت ترى أن العمل في الحياة العامة أفضل لكونه غير نمطي، ولذا فإنها عندما قبلت العمل في الأمم المتحدة فقد كان لاعتقادها أنه آن الأوان للاستفادة من خبرات العمر التي تراكمت عبر السنين، وتقديمها إلى الأمة، وإلى شعوب العالم فهي تعرف بالطبع كم تعب زوجها من أجل تدشين تلك المنظمة الدولية

للقضاء على الحروب وإحلال السلام، وبجانب ذلك فقد رغبت من مشاركتها في هذه المنظمة التأكيد على دور المرأة في تحقيق التفاهم اللازم لمنع الحروب في المستقبل[٧٧].

وترى إليانور أن لجنة حقوق الإنسان التي أنشاها المجلس الاقتصادي الاجتماعي Economic and Social Council التابع للأمم المتحدة نتجت من فلسفة ترى أن هناك أناساً كثيرين في جميع أنحاء العالم لا يتمتعون بالحقوق الأساسية والمتأصلة لجميع الأفراد، إذ لا يمكن لأحد أن يعيش بدون الكرامة والحرية، ولذلك ففي الاجتماع الأول للمجلس الاقتصادي والاجتماعي في لندن فى عام ١٩٤٦ كان عدد أعضاء تلك الجنة تسعة ، حضر منهم سبعة، وفور اجتماعهم انتخبوا إليانور رئيسًا لتلك اللجنة، كما تم الاتفاق على أن يطلق عليها اسم "اللجنة النووية Nuclear Commission"، وأن تكون مهمتها الأساسية الإعداد للمشروع الأساسي لحقوق الإنسان[٧٨].

وقد ظهرت أولى المشكلات أمام اللجنة بسبب عدم حضور ممثل الاتحاد السوفييتي الاجتماع، وقد أناب مكانه شابًا صغيرًا كان مجرد سكرتير أول للسفارة السوفيتية، لكن قبل ثلاثة أيام من انتهاء الاجتماع حضر المندوب الروسي، واكتشفوا أنه لم يكن له حق التصويت، مما دعا إليانور إلى شطب اسمه من السجل، خصوصاً بعد أن دار خلاف حول آلية التصويت التي يريدون اعتمادها في اللجنة، إذ قدم الممثل السوفييتي عدة تنازلات فى مقابل أن تكون آلية التصويت بالإجماع، وكان هذا معناه في رأي إليانور فشل مهمة اللجنة قبل أن تبدأ؛ لأن المندوب السوفييتي كان منزوع صلاحيات التصويت، فكيف يصبح هناك تصويتًا بالإجماع؟[٧٩].

وقدمت اللجنة عددًا من التوصيات مثل ترجيح فكرة أن يكون اختيار الأعضاء كأفراد مستقلين، وليسوا كممثلين لحكوماتهم، وكذلك الاتفاق على كتابة وثيقة حقوق الإنسان، وأن توضع بها معايير تصلح للغرض الذي وضعت من أجله في جميع أنحاء العالم، لتكون واحدة من أعظم أسباب الاحتكام بين الأمم التى يمكن أن تقود إلى السلام. كذلك أن يكون عدد

أعضاء اللجنة ثمانية عشر عضوًا بكامل هيئتها بعد جدال عميق مع الاتحاد السوفييتي، الذي كان يرغب في زيادة حصة أعضائه. وكان التشكيل النهائي لهذه الدول الأعضاء، والذي عرض على اجتماع المجلس الاقتصادي والاجتماعي المنعقد في ليك سكسس بنيويورك في يناير ١٩٤٧، هو: الصين، وشيلي، ومصر، وفرنسا، والهند، وإيران، ولبنان، وبنما، والفلبين، وأوكرانيا، وأوروجواي، واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، ويوجوسلافيا، والمملكة المتحدة، والولايات المتحدة، وتم إقرار إليانور رئيسًا للجنة، والدكتور و. ب. س. شانج من الصين نائبًا للرئيس، والدكتور شارل مالك من لبنان مقررًا[٨٠].

وفي هذا الاجتماع طالبت اللجنة شعبة حقوق الإنسان في الأمانة العامة بإصدار الكتاب السنوي الخاص بحقوق الإنسان، وتم تحويل هذا الأمر إلى لجنة للصياغة مشكلة من: الدكتور و. ب. س. شانج، والدكتور شارل مالك، والدكتور ك. س. تبوجي من الهند، وإليانور روزفلت نفسها. وقد اجتمعت اللجنة في يونيه ١٩٤٧، وشارك فيها مندوبان من الاتحاد السوفييتي وروسيا البيضاء دون أن يكون لهما حق التصويت على الوثيقة، لأن كليهما لم يكن مخولًا بذلك من حكومته، ثم التقت اللجنة مرة أخرى بسويسرا في ديسمبر من العام ذاته. وتشير إليانور إلى أن تلك الاجتماعات واللجان قد أخذت جهدًا ووقتًا كبيرين، ورأت أن الوثائق التي أرسلت إلى حكومات الدول الأعضاء في الأمم المتحدة استعدادًا للتصديق عليها في خريف عام ١٩٤٨ كانت مشرفة للغاية، وبالفعل تم التصديق عليها في العاشر من ديسمبر١٩٤٨ بموافقة ثمانٍ وأربعين دولة، وتحفظ ثماني وعدم اعتراض أية دولة[٨١].

كما إستغرقت لجنة الصياغة وقتًا طويلًا من "الجدل الحاد" ؛لأن أعضاءها تعبوا في اختيار الكلمات بسبب اختلاف اللغات والثقافات والمفاهيم والانطباعات. فلأن الوثيقة عالمية فقد كانت المحاولات متعددة وصعبة لاختيار الكلمات التي يمكن أن تكون مقبولة لأكبر عدد من الناس على

مستوى العالم، فبدلًا من قول أن الرجال متساوون مع النساء مثلًا، تمت الصياغة: "يولدِ جميع الناس أحرارًا ومتساوين في الكرامة والحقوق"، وكان ذلك في المادة الأولى. أما في المادة الثانية فقد فصلت بعض الشيء عن المادة الأولى بأن أكدت على حق كل إنسان في التمتع بجميع الحقوق والحريات المنصوص عليها في هذا الإعلان دونما تمييز من أي نوع سواء أكان بسبب العرق أو الجنس أو اللون أو اللغة أو الدين، وكذلك من حيث المنشأ أو الميلاد، أو الأصل الاجتماعي، أو الأصل الوطني ، أو الملكية، أو أي شيء كانتماء الدولة السياسي أو القانوني أو العسكري[٨٢].

وكانت إليانور ترى أن هناك ثلاثة بنود مهمة جدًا في تلك الوثائق؛ وهى المادة (١٥)، التي تنص على أن لكل فرد حق التمتع بجنسية ما، ويجب حماية أولئك الذين هم دون ذلك من قبل الأمم المتحدة. والمادة (١٦) التي تؤكد على حرية الفرد في الفكر والضمير، والاعتقاد ، وتغيير المعتقدات، وأن هذا حق مطلق ومقدس، والمادة (٢١) التي تعلن أن لكل فرد دون تمييز الحق في القيام بدور فعال في حكومة بلاده، وهذا يهدف إلى إعطاء ضمانات بأن حكومات الدول سوف تغير وفقًا لإرادة الشعوب كما هو موضح في الانتخابات التي يجب أن تكون دورية وحرة ونزيهة وبالاقتراع السري[٨٣].

أيضًا تشير الوثيقة إلى بعض البنود الأخرى ، وعلى سبيل المثال المادة (٢٣) التي تقول بأن لكل شخص الحق في العمل، وأن الدولة عليها واجب اتخاذ ما في وسعها من خطوات لكي تضمن لسكانها فرصة للعمل المفيد. والمادة (٢٤) التي تقول أن كل شخص له الحق في الحصول على أجر يتناسب مع قدرته ومهارته، وربما الانضمام إلى النقابات لحماية مصالحه. كذلك أشارت إلى بنودٍ أخرى من شأنها أن تغطى مسئولية الدولة عن الصحة، وإجراءات السلامة، الأمر الذي يجعل من واجب الدولة توفير تدابير الأمن للفرد من عواقب البطالة، أو الشيخوخة، أو الإعاقة، أو فقدان وسائل العيش الخارجة عن إرادة الفرد. وكذلك الحق في التعليم الذي يجب أن يكون مجانيًا وإلزاميًا، وتوفير التعليم العالي الذى يجب أن يكون متاحًا

للجميع دون تمييز على أساس العرق، أو الجنس، أو اللغة، أو الدين، أو المكانة الاجتماعية، أو المالية، أو الانتماء السياسي، وكذلك الحق في الراحة وأوقات الفراغ، والحق في تحديد ساعات العمل والأجازات مدفوعة الأجر، والحق في المشاركة في الحياة الثقافية للمجتمع، والتمتع بالفنون، والمشاركة في فوائد العلم[٨٤].

أيضًا شمل المشروع بنودًا أخرى مثل المادة (٥) التي تجرم حرمان الشخص من الحياة إلا إذا كان ذلك عقاباً على جريمة منصوص عليها في القانون، والمادة (٦) التي تجرم التشويه البدني للخارجين عن القانون، والمادة (٧) التي تحظر التعذيب والعقاب القاسي، أو اللا إنساني، والمادة (٨) التي تحظر الرق والعمل الجبري، مع استثناءات مسموح بها لهذا الأخير في حالة الخدمة العسكرية، وخدمات الطوارئ في أوقات الكوارث مثل الفيضانات أو الزلازل. كذلك كانت هناك مواد كالمادة (١١) التي تضمن حرية التنقل، وحرية اختيار محل الإقامة داخل دولة ما، والحريات العامة لكل شخص في العالم لمغادرة أي بلد بما في ذلك بلده. والمادة (٢٠) التي تجعل جميع أبواب الاتفاقية قابلة للتطبيق دون تمييز بسبب العرق أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو غير السياسي، والوضع، والملكية، أو الأصل القومي أو الاجتماعي، والمادة (٢١) التي تطلب أن تمتنع الدول عن الدعوة إلى الشيفونية الوطنية، أو العنصرية أو الدينية التي تشكل تحريضًا على العنف[٨٥].

وكانت سعادة إليانور غامرة حينما اعتمدت هيئة اليونسكو UNESCO أولى ثمار عمل اللجنة، وهو الإعلان العالمي لحقوق الإنسان؛ لأن هذا كان يعني عمل باقي اللجان في اليونسكو على تعريف مختلف بلدان العالم بهذه الوثيقة إعمالًا لمبدأ تطبيق شرعية القانون. أيضًا كانت سعادة إليانور لأن عدداً كبيراً من النساء كن يجلسن كمندوبات عن بلادهن، وهذا في رأيها كان تحولاً جيدًا لوضع المرأة كإنسانة في المقام الأول، ولذا ففي المؤتمر الثاني لليونسكو، الذي كان منعقدًا في مدينة كليفلاند بولاية أوهايو

الأمريكية في أول أبريل ١٩٤٩، طلبت إليانور من الجميع العمل على دراسة الوثيقة لتحويلها من مجرد بنود على الورق إلى واقع فعلي ملموس في حياة الناس العادية، واختتمت كلمتها بمقولة باتت من الأقوال المأثورة، إذ قالت: "إن الديمقراطية هي جعل حقوق الإنسان والحرية حقيقة واقعة...وأن الفشل هو ألا نعمل على تحقيق هذه الديمقراطية وتحسينها"[٨٦].

وبعد أن اطمأنت إليانور على مستقبل المشروع، بعد أن تم اعتماده ، وأصبح أمرًا واقعًا، استقالت باختيارها من رئاسة اللجنة في أبريل من عام ١٩٥١، إذ كانت ترى ضرورة إتاحة الفرص للآخرين، وعلى الأخص ممثلي البلدان الصغيرة، ورشحت مكانها الدكتور شارل مالك من لبنان، الذي انتخب بإجماع الأعضاء، وكرست آخر عشر سنوات من عمرها لمنصب مندوب الولايات المتحدة بالجمعية العامة للأمم المتحدة، وكذلك في جهود غير رسمية نيابة عن الأمم المتحدة[٨٧].

الخاتمة:

شكلت إليانور روزفلت نموذجًا فريدًا ومتميزًا في الإيمان بالعديد من القضايا الأخلاقية التي تمس البشر، فهي لم تنخرط في هذه الأعمال بوصفها زوج رئيس أو مسئول كبير، وإنما اكتسبت السلطة المخولة إليها من خلال الثقة بنفسها، والقضايا التي دافعت عنها، والإيمان بالدور الذي كانت تقوم به بدليل استمرار هذا الدور ، وذلك النفوذ بعد موت زوجها، بل زاد ذلك الدور بازدياد مشاركة النساء في الحياة العامة ومساهمتهن الفكرية والروحية لإذكائها مدفوعات بعدالة قضيتهن، وكانت الأدوار السياسية والاجتماعية والفكرية والتنظيمية التي قامت بها إليانور نبراسًا وأساسًا متينًا للوصول إلى تلك النجاحات، فانتزعت بذلك الصدارة، واقتنصت الريادة بصورة غير مسبوقة في الحركة النسوية الأمريكية، والتي انطلقت منها للعالمية، حتى أنه ما إن ذُكر لقب السيدة الأولى إلا وقفزت صورة إليانور روزفلت على الفور إلى الواجهة، سواء داخل الولايات المتحدة ، أو في أي مكان من العالم ربما إلى يومنا هذا.

وعلى سبيل المثال، فبعد موت زوجها في أبريل من عام ١٩٤٥، وتولي نائبه هاري ترومان الرئاسة الأمريكية خلفاً له، كان من الطبيعي أن تصبح زوج الرئيس الجديد (بِس ترومان) هي السيدة الأولى بحكم التقاليد والأعراف المتداولة في النظام الأمريكي، إلا أن سيدة البيت الأبيض الجديدة كانت صادقة مع نفسها، حيث لم تكن بمقدورها مقارعة حضور إليانور روزفلت الطاغي آنذاك في المشهد العام، حتى وإن كان الموت قد غيب زوجها فجأة في ذروة حضور شخصيته، فأبعدها ذلك بالتبعية عن مكانها كسيدة أولى بالبيت الأبيض. ولذا ففي أول ليلة قضتها أسرة ترومان في البيت الأبيض لم تستطع زوجة الرئيس الجديد النوم، كما فعل زوجها، بل جلست طوال الليل تفكر في هذا الوضع الجديد الذي طرأ على حياتها، فكيف يمكنها أن تحل محل إليانور روزفلت، وأن تصبح هي السيدة الأولى، خصوصا أن (بِس ترومان) لم تكن تملك من المؤهلات ما يمكنها من محاكاة إليانور روزفلت، ولذا فقد فضلت أن تعيش عيشة بسيطة تقليدية تهتم بالزوج والابنة، مع بعض الأعمال المنزلية والتمرينات الرياضية[٨٨]. أما الرئيس ترومان نفسه فقد وقَّر إليانور، وظل يناديها بلقب "السيدة الأولى"[٨٩].

فعلى مدار أكثر من خمسين عامًا من العمل العام جمعت إليانور من الشهادات والشارات والميداليات والتكريمات ما لم تجمعه أية امرأة أمريكية أخرى، كما تعرضت للانتقادات والاستهزاءات بصورة لم تحدث لامرأة من قبل. وكان هذا راجعًا إلى مساهماتها الكبيرة والكثيرة في الأنشطة السياسية ، والحركات النسائية ، ومجموعات الحقوق المدنية وغيرها، ولذلك فقد دعى البعض إلى إطلاق لقب "السيدة الأولى في العالم عليها في الذكرى المئوية الأولى لولادتها؛ وذلك لأن كثيرات ممن لقبن بهذا اللقب بعدها ومنهن جيهان السادات في مصر كن يسرن على خطاها في هذا المضمار[٩٠].

وفي الحادي عشر من أكتوبر من عام ١٩٨٤عمت الاحتفالات إحياءً للذكرى المئوية لميلاد إليانور روزفلت، فأقام أفراد وجماعات وهيئات ومؤسسات فعاليات عدة في مختلف أنحاء الولايات المتحدة في إطار الأنشطة

التي أطلق عليها "إسهامات إليانور روزفلت في تحسين أحوال البشر"، وذلك من خلال أنشطتها في الخدمة العامة حتى منصب مندوب الولايات المتحدة بالجمعية العامة للأمم المتحدة، فكانت بذلك السيدة الأكثر نشاطاً في تاريخ الولايات المتحدة. وكان من بين تلك الفعاليات توفير قائمة من الكتب والأفلام الوثائقية عنها، وعرضها في مكتبة بساحة الأمم المتحدة بنيويورك طوال عام الذكرى، وكان هناك ملصق منتشر في كل مكان مكتوب عليه: "إليانور روزفلت بطلة التغيير الاجتماعي، وحقوق الإنسان، وشراكات التعاون الدولي"، وفيه بعض الصور لها في هذه القضايا، وسيرة ذاتية مختصرة[٩١].

وهذه الفعاليات إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى الأثر الذي تركته إليانور روزفلت في نفوس اللاحقين عليها، واعترافاتهم وإشاداتهم بالأدوار التي لعبتها، وكيف أنها استطاعت تغيير المفاهيم القائمة آنذاك، وخلق روح جديدة قوامها "أن الديمقراطية هي جعل حقوق الإنسان والحرية حقيقة واقعة...وأن الفشل هو ألا نعمل على تحقيق هذه الديمقراطية وتحسينها".

الهوامش:

١ ***الولايات المتحدة في عهد الرئيس فرانكلين روزفلت: دراسة تاريخية لإرهاصات قيام دولة عظمى ١٩٣٢ – ١٩٤٥***، ***رسالة ماجستير***، إشراف: أ.د. جمال محمود حجر؛ أ.د. صلاح أحمد هريدي، كلية الآداب فرع دمنهور – جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٨.

2 *"Anna Eleanor Roosevelt Papers"*, ***Franklin D. Roosevelt Library*** (Hyde Park, New York).

3 John Ferris, *"Discovering the Past in the Papers of First Ladies"*, ***Magazine of History***, Vol. 15, No. 3, First Ladies (spring, 2001), p. 27

٤ انظر هذا الموضوع بالتفصيل في:

4 Eleanor Roosevelt, ***the Autobiography of Eleanor Roosevelt*** (New York: Harper & Brothers Publishers, 1961), Chap.1.

٥ انظر هذا الموضوع بالتفصيل في:

James Roosevelt, Sidney Shalett, ***affectionately, FDR: A Son's Story of a Lonely Man*** (New York: Harcourt, Brace & Com, 1959), pp. 30, 33, 37.

٦ سارة م. إيفانز، ***الحرية ونضال المرأة الأمريكية***، ترجمة: أميرة فهمي، مراجعة: شويكار محمد زكي (القاهرة: الدار الدولية للنشر والتوزيع، ١٩٩٢)، ص٢٦٣.

7 Eleanor Roosevelt, ***the Autobiography of Eleanor Roosevelt, op.cit,*** p. 87.

8 Fran Burke, *"Eleanor Roosevelt, October 11, 1884-November 7, 1962-She Made a Difference"*, ***Public Administration Review***, Vol. 44, No. 5 (Sep. - Oct., 1984), pp. 366, 367.

9 Eleanor Roosevelt, ***The Autobiography of Eleanor Roosevelt***, ***op. cit***, p.111;

James Roosevelt and Others, ***op. cit***, p.23.

10 Eleanor Roosevelt, *"Why Democrats Favor Smith: As a Practical Idealist"*, ***North American Review***, v. 224, no. 4 (November, 1927), pp. 472- 475.

11 Fran Burke, ***op.cit***, p. 366.

12 Bernard Bellush, *"An Interpretation of Franklin D. Roosevelt"*, in: Donald Sheehan & Harold C. Syrett (ed) , ***American Historiography: Papers Presented in Honor of Allan Nevins*** (New York: Columbia University Press, 1960), pp.290- 294.

١٣ انظر هذا الموضوع بالتفصيل في: أحمد جلال بسيوني، **مرجع سابق**، الفصل الثاني.

14 Eleanor Roosevelt, *"I Want You to Write to Me"*, ***Woman's Home Companion*** (August, 1933), p. 4.

15 ***ibid.***

16 Fran Burk, ***op. cit***, pp. 368.

١٧ سارة م. إيڤانز، **مرجع سابق**، ص٢٦٤.

18 Maurine Beasley, *"Eleanor Roosevelt's Vision of Journalism: A Communications Medium for Women"*, **Presidential Studies Quarterly**, Vol. 16, No. 1, the Media and the Presidency (winter, 1986), p. 66, 67.

19 Eleanor Roosevelt, *"Keepers of Democracy"*, ***Virginia Quarterly Review*** (Jan, 1939), pp. 1-3.

٢٠ سارة م. إيڤانز، **مرجع سابق**، ص٢٦٤.

21 ***loc. cit***. p.69.

22 Eleanor Roosevelt, *"What Religion Means to Me"*, ***Forum*** (December 1932), pp. 322- 324.

٢٣ وزير العمل ١٩٣٣ – ١٩٤٥، وكانت أول إمرأة تتولى منصب وزير في التاريخ الأمريكي.

24 Mildred W. Abramowitz, *"Eleanor Roosevelt and the National Youth Administration 1935-1943: An Extension of the Presidency"*, ***Presidential Studies Quarterly***, Vol. 14, No. 4, Campaign '84: The Contest for National Leadership, Part Four, (fall, 1984), pp. 569, 570.

25 Eleanor Roosevelt, *"Subsistence Farmsteads"*, ***Forum*** (April. 1934), pp. 199-201.

26 ***ibid.***

27 Eleanor Roosevelt, *"The New Governmental Interest in the Arts: A Speech before the twenty-Fifth Annual Convention of the American Federation of Artists"*, ***American Magazine of Art*** (September, 1934), p. 47.

28 Eleanor Roosevelt, *"Are We Overlooking the Pursuit of Happiness?"*, ***Parent's Magazine*** (September 1936), p. 21.

29 Eleanor Roosevelt, *"Old Age Pensions: A Speech Before the D.C. Branch of the American Association for Social Security, the Council of Social Agencies, and the Monday Evening Club"*, ***Social Security***, (February, 1934), p. 3.

30 ***ibid***, p. 4.

31 Eleanor Roosevelt, *"Are We Overlooking the Pursuit of Happiness?"*, ***op.cit*** p. 21.

32 Eleanor Roosevelt, *"Good Citizenship: The Purpose of Education"*, ***Pictorial Review*** (April, 1930), p. 4.

33 ***ibid***.

34 Eleanor Roosevelt, *"Keepers of Democracy"*, ***op. cit***, p. 4

35 Eleanor Roosevelt, *"This Troubled World"*, ***New York: Kinsey***,(1938).

36 Eleanor Roosevelt, *"The Importance of Background Knowledge in Building for the Future"*, ***Annals of the American Academy of Political and Social Science***, Vol. 246, Making the United Nations Work (Jul., 1946), pp. 9-12.

37 Joan M. Erikson, *"Nothing to Fear: Notes on the Life of Eleanor Roosevelt"*, ***Daedalus***, Vol. 93, No. 2, the Woman in America (spring, 1964), p. 781.

38 Eleanor Roosevelt, *"How to Take Criticis"*, ***Ladies Home Journal*** (November 1944), p. 155, 171.

39 Eleanor Roosevelt, *"In Defense of Curiosity"*, ***the Saturday Evening Post***, (August 24, 1935), p. 8.

40 ***loc. cit***.

41 Eleanor Roosevelt, *"In Defense of Curiosity"*, ***op. cit***, p. 8.

42 Eleanor Roosevelt, *"What Ten Million Women Want?"*, ***Home Magazine*** (March 1932), pp. 19-21

43 Eleanor Roosevelt, *"Women Must Learn to Play the Game as Men Do"*, ***Red Book Magazine*** (April 1928), pp. 78, 79.

44 Eleanor Roosevelt, *"How to Interest Women in Voting"*, ***Women's Democratic Campaign Manual, 1924. Washington: Democratic Party, National Committee 1924-1928,(1924)***, p. 102, 103.

45 ***loc. cit.***

٤٦ سارة م. إيڤانز، **مرجع سابق**، ص٢٥٣- ٢٥٥.

47 Maurine Beasley, ***op. cit***. p.66.

48 ***ibid***. p.67.

49 Fran Burk, ***op. cit***, pp. 369.

50 ***loc. cit***.

51 Eleanor Roosevelt, *"What I Hope to Leave Behind"*, ***Pictorial Review*** (April, 1933), p. 4, 45.

52 ***ibid***.

53 Eleanor Roosevelt, *"What Ten Million Women Want?"*, ***op. cit***, p. 20

54 Eleanor Roosevelt, *"What Does the Public Expect from Nursing?"*, ***The American Journal of Nursing***, Vol. 34, No. 7 (Jul., 1934), pp. 637, 638.

55 ***ibid***, pp. 639, 640.

٥٦ سارة م. إيڤانز، **مرجع سابق**، ص٢٨١.

٥٧ ***المرجع السابق***، ص٢٨٢، ٢٨٣.

58 Maurine Beasley, ***op. cit***. p. 71.

59 Eleanor Roosevelt, *"Women in the Postwar World: Foreword"*, ***Journal of Educational Sociology***, Vol. 17, No. 8 (Apr., 1944), pp. 449, 450.

٦٠ سارة م. إيڤانز، **مرجع سابق**، ص٣٠٧.

61 Eleanor Roosevelt, *"What I Hope to leave behind"*, ***op. cit***, p. 4.

62 Eleanor Roosevelt, *"The Negro and Social Change", a* ***Speech before the National Urban League Opportunity*** (January 1936), p. 22.

63 ***ibid***, p, 23.

64 Eleanor Roosevelt, *"Race, Religion and Prejudice"*, ***New Republic*** (May11, 1942), p. 630.

65 Eleanor Roosevelt, *"Civil Liberties--The Individual and the Community"*, ***Address to the Chicago Civil Liberties Committee, March 14, 1940"***, p. 173 -182.

66 ***loc. cit.***

67 Eleanor Roosevelt, *"A Challenge to American Sportsmanship"*, ***Collier's*** (October 16, 1943), p. 21.

68 Eleanor Roosevelt, *"Liberals in This Year of Decision"*, ***the Christian Register*** (June, 1948), p.26.

69 William E. Leuchtenburg, ***In the Shadow of FDR: From Harry Truman to Ronald Reagan*** (Ithaca: Cornell University Press, 1983), pp. 23, 24.

70 David McCullough, ***Truman*** (New York: Simon& Schuster, 1992), pp. 503- 505.

71 Eleanor Roosevelt, *"Liberals in This Year of Decision"*, ***op. cit***, pp. 27, 28.

72 Eleanor Roosevelt, *"Why I Do Not Choose to Run"*, ***Look*** (July 9, 1946).

73 Eleanor Roosevelt, *"Plain Talk about Wallace"*, ***Democratic Digest*** (April. 1948), p. 2.

74 John Ferris, ***op. cit***, pp. 26, 27.

٧٥ بالتفصيل عن هذا الموضوع انظر:

M. Glen Johnson, *"The Contributions of Eleanor and Franklin Roosevelt to the Development of International Protection for Human Rights"*, ***Human Rights Quarterly***, Vol. 9, No. 1 (Feb, 1987), pp. 19- 26.

76 Sally Gilbert and Kathy Shollenberger, *"Eleanor Roosevelt and the Declaration of Human Rights: A Simulation Activity"*, ***Magazine of History***, Vol. 15, No. 3, First Ladies (Spring, 2001), pp. 35, 36

77 Eleanor Roosevelt, *"Why I Do Not Choose to Run"*, ***op. cit***.

78 Eleanor Roosevelt, *"The Promise of Human Rights"*, ***Foreign Affairs***, Vol. 26, No. 3 (Apr., 1948), pp. 470.

79 ***ibid***, p 471.

80 ***ibid***, p. 472.

81 ***ibid***, pp. 472, 473.

82 Eleanor Roosevelt, *"Making Human Rights Come Alive"*, ***The Phi Delta Kappan***, Vol. 31, No. 1 (Sep., 1949), p. 24, 25.

83 Eleanor Roosevelt, *"The Promise of Human Rights"*, ***op.cit***, p 474, 475.

84 ***ibid***, p 475.

85 ***ibid***, p 476.

86 Eleanor Roosevelt, "*Making Human Rights Come Alive*", ***op. cit***, pp. 23, 24, 27.

٨٧ انظر بالتفصيل في:

M. Glen Johnson, ***op. cit***, pp. 27 ff.

88 Jhan Robbins, ***Bess & Harry: An American Love story*** (New York: G. P. Putnam's Sons, 1980), pp. 78, 95- 97.

89 William E. Leuchtenburg, ***op. cit***, pp. 11, 13.

90 Fran Burke, ***op. cit***, p. 365.

91 The Editor, *"Eleanor Roosevelt 100 Years"*, ***Feminist Teacher***, Vol. 1, No. 1 (Fall 1984), p. 21.

حادثة قبض السلطات العثمانية في البصرة على عبدالعزيز أفندي بن سالم البدر وكيل حاكم إمارة الكويت ٢٩ مايو ١٩٠٢م

كما تُصَوِّرُها المصادر المحلية والبريطانية مقارنةً بوثيقةٍ ألمانية (*)

د. سلطان فالح متعب الأصقه

وزارة التربية – الكويت

مقدمة:

تَتَصَدَّى ورقات هذا البحث لحادثة القبض على عبد العزيز أفندي بن سالم البدر وكيل حاكم إمارة الكويت في البصرة، والتي وَقَعَت في صفر ١٣٢٠هـ/ مايو ١٩٠٢م، وهي التي مَرَّ عليها المؤرخون والباحثون (العرب تحديداً) مروراً سريعاً، ربما لاحتسابهم إياها أنها حادثةٌ ذات طرف ليس بفاعلٍ كغيرها من الحوادث، وبعض الباحثين لم يأتِ على ذكرها ألبتة، على أننا نجد في الوثائق البريطانية وكتابات بعض الغربيين من جاء بتفصيلٍ لبعض نواحيها. وكل أولئك من الغربيين والعرب لم يحاول جَمْعَ مواقف الأطراف الأربعة ذات الشأن بموضوع الحادثة، فهناك الطرف الكويتي المتمثل بحاكمها الشيخ مبارك الذي وقع وكيله في السجن، وهناك الطرف العثماني الذي تولّى عملية القبض على وكيل الشيخ، وهناك الطرف البريطاني الذي أظهر تَدَخُّلاتٍ أثارت غضباً لدى الباب العالي، وهناك طرفٌ ألمانيٌّ خفي يُظْهِرُ موقفَهُ بتقريرٍ حول الحادثة، رفعَهُ قنصل ألمانيا في البصرة

(*) مجلة المؤرخ المصرى، عدد يوليو ٢٠١٥

إلى وزارة خارجية بلاده. والحقيقة أن هذا البحث يحاول الموائمة بين مواقف الأطراف الأربعة، ويسعى جَهْدَه لتبيان الحقيقة، أو على الأقل تَلَمُّس طريقها، من خلال الإجابة على تساؤلات ثلاث؛ أولاها ما مثّلته الحادثة بالنسبة لحاكم الكويت. وثانيها البحث في أسباب اهتمام العثمانيين بحادثة القبض المذكورة بطريقة صريحة فصيحة. وثالثها البحث في أسباب اهتمام الإنجليز بوكيل الشيخ، الأمر الذي ظهر على هيئة تدخّل مكشوف غير مرغوبٍ به من السلطات العثمانية في الأستانة. وسيكون اتّكاء البحث على الوثائق البريطانية والمصادر المحلية التي تناولت الحادثة، ومن ثَمَّ سيحاول البحث مقارنة تلك المصادر والوثائق بوثيقة الألمانية تضمَّنَت تقريراً مرفوعاً للخارجية الألمانية يتناول الحادثة. وأَحْسَبُ أن هذا الصنيع مما يُجَلِّي حقيقة مثل تلك الحوادث التاريخية، وأَحْسَبُهُ، أيضاً، مما يشيرُ بالاهتمام لحوادث قد تكون ذات أثرٍ فاعلٍ في الوقائع التاريخية المهمة، وإن كانت تلك الحوادث لها طرفٌ بعيدٌ في التأثير بسير وقائع التاريخ في المنطقة المعنية بالاهتمام في هذا البحث. وأشير هنا أنني أخذت الوثائق العثمانية مترجمة للعربية من مركز البحوث والدراسات الكويتية، والبريطانية وقمت بترجمتها، والفرنسية أيضاً واستعنت بمترجمٍ لتعريبها، والألمانية من ذات المركز أيضاً وقد ترجمها لي المركز الثقافي الألماني في الإسكندرية. وعليه تَمَّ تقسيم البحث إلى مباحث ثلاث، الأول مُمَهِّدٌ لما يليه من مبحثٍ ثانٍ وثالث، ثم قَفْله بخاتمة تأتي على النتائج التي تمَّ التوصل إليها بعد تطوافٍ على حوادث البحث.

المبحث الأول:مُمَهِّدَات البحث.

١- الواقع التاريخي في المنطقة؛ في الفترة:ذو القَعدَة ١٣١٨، محرم ١٣٢٠هـ/ مارس ١٩٠١، حتى مايو ١٩٠٢م.

عُقِدَت معاهدة الحماية البريطانية على الكويت بين حكومة بريطانيا والشيخ مبارك في العاشر من رمضان ١٣١٦هـ / ٢٣ يناير ١٨٩٩م (١). وعلى الرغم من كونها معاهدة سرية، إلا أن الحكومة العثمانية وَقَفَت على تحركات الوفد البريطاني الذي وَصَلَ الكويت (٢)؛ عبر الإخباريات التي

جاءتها بها السفينة العثمانية «زُحاف[٣]»؛ التي كانت متواجدة حين وصول السفينة البريطانية «لورانس Lawrence[٤]»؛ والتي أقلّت العقيد ميد LT.Col. Malcolm Meade[٥] ليبرم اتفاقَ حكومته مع الشيخ مبارك، فاشتمَّت الدولة العثمانية أنَّ ثَمَّةَ ارتباطٍ معينٍ قد تَمَّ بين الطرفين،فاستَشْعَرَت الدولة أن ذلك الاتفاق هو بمثابة رغبة بريطانية في بَسْطِ نفوذها على الكويت، واستهداف بريطاني لضرب سيادة الدولة العَلِيَّة في الخليج [٦]،مما دعا العثمانيين إلى إعادة حساباتهم تجاه الكويت [٧]. فتواصلت جهود الدولة لتوكيد سيادتها على الكويت في الأشهر القليلة التي تَلَت توقيع المعاهدة [٨]، مما ولَّدَ توتراً في الموقف بين السلطات العثمانية والشيخ مبارك إلى حدٍ كبير[٩]. ومع حلول عام١٣١٧ هـ/ ١٩٠٠م، ظهرت وقائع كثيرة تتعلق بها أكثر من قرينةٍ على أن الدولة العثمانية بدأت تقف موقف التَّضَادّ من مبارك بن صباح، الذي هَيَّأَ لها الفرصة لذلك؛ حين بدأ الشيخ مبارك بسلسلة تحركات أدت إلى توغله في داخل وسط جزيرة العرب؛ إذ استغل حاكم الكويت علاقته مع بريطانيا بعد أشهر من التصديق على الاتفاقية لتكون أساساًلسياسته الجديدة في مقاومة السلطات العثمانية، ولمدّ نفوذ الكويت إلى القبائل الصحراوية في جزيرة العرب[١٠]،فكان أن بدأت المناوشة بينه وبين أمير حائل ونجد عبد العزيز بن رشيد [١١]، هذا على الرغم من أن الحكومة البريطانية كانت قد أصدرت في جمادى الأول ١٣١٨هـ/ سبتمبر ١٩٠٠م خطاباً تحذيرياً إلى الشيخ مبارك؛ تخبره فيه بعدم رغبتها بالمشاركة في مظاهرات استعراض القوة إلى جانبه [١٢]. والحقيقة أن الدولة العثمانية ما كانت لتَسْكُتَ عن تحرّكِ مبارك لمحاربة عاملها وحليفها ابن رشيد؛إذ أمرت الدولة الشيخَ، عبر رسالة تحذيرية له، بالتَّخلِّي عن فكرةِ الهجوم تلك والعودة إلى بلاده. لكنه اعتذر وتعلَّلَ باستفزازهِ من قِبَلِ ابن رشيد،فإن مبارك لا يستطيع، ساعتها، أن يقف حِيالَ استفزازات عَدُوّه دونما دعٍ أو صَدٍّ مِنْ قِبَلِهِ[١٣].فسار مبارك وهو يظن أنه منتصرٌ على ابن رشيد لا محالة [١٤].وفي ٢٧ ذي القعدة ١٣١٨هـ / ١٧ مارس ١٩٠١م نشب القتال الشديد

بين قوات بن رشيد وقوات مبارك في الصريف (١٥).ولكن نتيجة تلك المعركة كانت منذ بدايتها لصالح ابن رشيد (١٦)، في مقابل فرار مبارك الصباح من المعركة منهزماً (١٧). وظهر جلياً في هذه المعركة الدور البريطاني والعثماني الذي أَبَانَ عن شديد المنافسةِ بين هاتين القوتين العظمتين؛ فرغم تحفظّات الإنجليز، فإنهم ساندوا شيخ الكويت، في مقابلِ مساندة العثمانيين للأميرِ ابن رشيد. وبَدَتْ مصلحة بريطانيا ظاهرة في إضعاف ابن رشيد وتشجيع أعمال مبارك الهجومية ضده بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ويعتقد آداموف Adamoff قنصل روسيا في البصرة(١٨)أن بريطانيا لها مصلحة في إضعاف جبل شمر وأن بريطانيا تقف وراء مبارك لهذا السبب (١٩). وكان السعي إلى إضعاف هذه الإمارة إحدى المهمات السياسية البريطانية في شبه الجزيرة العربية، ويتقَوّي هذا القول إذا علمنا أن الإنجليز كانوا يشعرون بالقلق من إمارة حائل بوصفها تابعة مخلصة للدولة العثمانية، فأخذوا يؤيدون خصم العثمانيين المتمثل في الشيخ مبارك؛ الأمر الذي كان له تأثير هام، إن لم نقل حاسم(٢٠). ولذا قرر بعض المؤرخين بأن اتفاقية الحماية البريطانية على الكويت قد فتحت المجال لبريطانيا للتدخل، ليس في شؤون الكويت وَحَسْب، إنما في شؤون نجد وجنوب العراق أيضاً(٢١)، ويَعْضُد هذا القول ما أوردَتْهُ الوثائق من أن وجود السفن الحربية الإنجليزية كان مِن شأنِهِ خَلْق تشجيعٍ للشيخِ مبارك ليتحركَ إلى نجد ويناوئ ابن رشيد، ومن ورائه يناوئ الدولة العثمانية نفسها(٢٢).

وسرعان ما عادت هذه المغامرة بنتائج وخيمة على الشيخ مبارك في الداخل؛ إذ اتخذت الدولة العثمانية من انخذال مبارك في معركة الصريف فرصة سانحة لتحقيق أمنيتها(٢٣)؛ فأصدرت إرادة سَنِيَّة في مطلعِ عام ١٣١٩ هـ / صيف ١٩٠١م، تقضي ببحث تأسيس المباني الرسمية في الكويت، إبَّان اجتماع المجلس الوزاري الخاص، والذي جاء فيه: «أن مبارك باشا أصبح يميل إلى الإنجليز بعد تَغَلُّب ابن رشيد عليه، وأن هناك سفينتين حربيتين للإنجليز، وتم افتتاح وكالتين بحريتين لهم في الكويت ترفعان العلم

الإنجليزي، وأن ذلك ناجمٌ عن إهمالِ الدولة العَليَّة في إقامة الدوائر الرسـمية فيها؛ من جماركَ وميناءٍ حتى الآن (٢٤)». ونظراً لِرُسُوِّ المراكـب الحربيـة البريطانية في ميناء الكويت، أصبح مشهوراً أنَّ الشيخ مبارك عازمٌ على أن يكون في تبعية الحكومة البريطانية. كما أن الشيخ لديه علمٌ بـأن الحكومـة العثمانية وسلطاتها في البصرة وكافة المطلعين على حالهِ يعرفون تقرّبه مـن بريطانيا (٢٥). فتحركت السفينة العثمانية «زحاف» من البصـرة فـي ١٠ جمادى الأول ١٣١٩هـ/ ٢٤ أغسطس ١٩٠١م، ووصلت إلى الكويت (٢٦)، وفي ذات الوقت أَعَدَّت السلطات العثمانية في العراق حَشْـدَ القوات بقيادة أحمد فيضي باشا (٢٧)، تلك القوات التي كانت مستعدة للهجوم على الكويـت والسيطرة عليها بقواتها العسكرية (٢٨)في حال نَأَىَ شيخ الكويت بجانبه عما أَتَتْ بِهِ السفينة «زُحاف» من إِلْزَامِهِ بقبول السيادة العثمانية؛ والتي سَتُفْرَض عليه بالقوة حال رَفْضه إيَّاها(٢٩)؛تلك التحذيرات التي أَوْصَلَها إليه كلٌ مـن السيد رجب النقيب(٣٠)والأميرالاي نجيب (٣١) واللذان كانـا علـى مـتن «زحاف» يحملان إلى مبارك تهديداً صريحاً بَعَثَ بِهِ معهما وزير الخارجيـة العثمانية توفيق باشا «يطلب فيه من مبارك باشا الحضور إلـى إسـطنبول، وتهديده إنْ هو استَنْكَفَ عن الحضور؛ فإنه لاقٍ معاملة زَجْرِيَّة لا محالة(٣٢)». وكانت المقيمية البريطانية قد أُبْلِغَتْ من قِبَلِ الشيخ مبارك بمجيء«زحاف»، وما حملته من تهديدات. ولمواجهة هذا الخطر فُوِّضَ قائد السفينة البريطانيـة المسلحة بيرسيوس**Perseus** (٣٣)، وكان آنذاك في الكويت، بتعليمات مـن حكومَتِهِ بأنْ يَمنع أيّ نزولٍ للقوات العثمانية إلى الكويت،وبالقوةِ إذا اقتضـى الأمر (٣٤).فوصلت بيرسيوس**Perseus** (٣٥)، وأصدر قبطانها إنذاراً إلى القائد العثماني الموجود على متن «زحـاف» بعـدم إنـزالِ القـوات فـي الكويتِ(٣٦)، ذلكَ أنَّ السلطات الإنجليزية في الهند قررت الحَيْلولَة دونَ إجراءِ أيَّة مفاوضات بين الشيخ مبارك وبين النقيب (٣٧).

وعليه جاءت الإجراءات التي اتخذتها الدولة العثمانيـة ضـد تلـك الصراحة الواضحة من قِبَلِ حاكم الكويت في إعلان مصادمته لها،بـأن قـام

الباب العالي في رمضان ١٣١٩هـ/ ديسمبر ١٩٠١م بمنع تصدير التمر والرُّزّ والجبوب من البصرة إلى الكويت؛ بسبب انحراف مبارك الصباح عن دائرة الطاعة، وهو الذي تحقق انحرافه بعد قفول السفينة زحاف من الكويت(٣٨). ثمَّ انتقل العثمانيون بمناوراتهم إلى اتجاه آخر فيما بين يناير ومارس ١٩٠٢م/ شوال وذي الحجة ١٣١٩هـ، تَمَثَّل ذلك الاتجاه بالضغط على الشيخِ مبارك من خلال سيطرة القوات العثمانية على مواقع حول مدخل شط العرب(٣٩)، وهي من أفضل المواقع في الخليج العربي لِرُسُوِّ السفن، وتقع تلك المواقع في أم قصر(٤٠) وجزيرة بوبيان(٤١) وسفوان(٤٢)، على مشارف المنطقة الواقعة بين أراضي العراق العثماني وحدود إمارة الكويت(٤٣). وشَرَعَ العثمانيون في بناءِ ثُكُنات عسكرية في تلك المناطق، التي كان من السهل تحويلها إلى قلاع(٤٤). ويبدو أن الإجراءات المستمرة التي اتخذتها الحكومة العثمانية في البصرة لمواجهة ميول الشيخ مبارك للإنجليز قد هزَّت معنوياته؛ ففي ذي الحجة ١٣١٩هـ / مارس ١٩٠٢م عرض الشيخ مبارك رشوةً يقال أنها بلغت ١٠ آلاف ليرة عثمانية(٤٥) عن طريق ضابط عثماني(٤٦) ليوصلها إلى مصطفى نوري باشا(٤٧)،والي البصرة الجديد، لإقناعه بتقديم تقريرٍ لصالح الشيخ إلى السلطان، ووقف التهديدات العثمانية لأراضيه، ولمصالحته عموماً مع السلطان. ويبدو أن الوالي رفض الرشوة(٤٨).ثم ازدادت السلطات العثمانية بالبصرة وضوحاً في الردِّ على مَيْلِ الشيخ مبارك للإنجليز ضدها؛ ففي ٢١ صفر ١٣٢٠هـ / ٢٩ مايو ١٩٠٢م تم القبض على وكيل الشيخ مبارك في البصرة(٤٩)، فكان لها وَقْعٌ على حاكم الكويت. وهي حادثة القبض التي يعتني بها هذا البحث، وتبيانها آتٍ في السطور القادمات.

٢-التعريف بعبد العزيز بن سالم البدر.

عبد العزيز أفندي السالم البدر،ينحدر من عائلةٍ كويتية مرموقة، آل البدر(٥٠)، المنتمون إلى أسرة القناعات(٥١)في الكويت. أصبح وكيلاً خاصاً وممثلاً للشيخ مبارك في البصرة منذ ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م في البصرةِ(٥٢).

كرَّسَ عبد العزيز البدر نشاطه واهتمامه بشؤون أراضي الشيخ مبارك حول البصرة والقضايا العالقة في المحاكم العثمانية الخاصة بتلك الأراضي(٥٣).عُرف بالذكاء والنفس الأبيَّة، والنشاط الملحوظ في عمله لدى الشيخ؛ وكثيراً ما كَلَّفَهُ مبارك أن يَأْتِيَهُ برسائلِ التلغراف المرسلة له من الباب العالي عن طريق البصرة(٥٤)؛ ومن ذلك ما حفِظَتْه الوثائق من خبرِ مرافقة عبد العزيز البدر لمحسن باشا والي البصرة (٥٥)، في زيارته للشيخ مبارك في الكويت، في ذي الحجة ١٣١٧، محرم ١٣١٨هـ/ نهاية أبريل ومطلع مايو ١٩٠٠م، حاملاً معه نيشان من الباب العالي لشيخ الكويت، وبشرى بتكريمه من قِبَلِ الدولة العليَّة بلقب باشا ميرميران(٥٦)، مع مُرَتَّب (معاش) كل سنة مائة وخمسين كارة تمر، بمقدَّم خمس سنوات(٥٧). وحفظت الوثائق خبر مرافقته لأحمد باشا النقيب(٥٨)، في ربيع الآخر ١٣١٨هـ/ أغسطس ١٩٠٠م، لدى وصولهِ إلى الكويت ليخبرانه بترتيبات عبد العزيز بن رشيد العسكرية المُوَجَّهَة ضد الشيخ مبارك(٥٩). كما أَرَّخَت الوثائق إتيان البدر بتلغرافٍ من الباب العالي، في٣ ذي القعدة ١٣١٨هـ/ ٢٢ فبراير ١٩٠١م، يطلب فيها من الشيخ مبارك أن يَصْطَلِحَ مع عبد العزيز بن رشيد أمير حائل ونجد، آنذاك(٦٠). ومنها ما ذكرته الوثائق بمرافقته لمحسن باشا والي البصرة في زيارته لمنزل الشيخ مبارك في الكويت فيصفر ١٣١٩هـ/ مايو ١٩٠١م(٦١). كما كان هو الآتي بتلغراف الدولة العثمانية المبعوث من إسطنبول في رمضان ١٣١٩هـ/ ديسمبر ١٩٠١م(٦٢)، والذي تطلب الدولة فيه من مبارك، بصيغة التهديد، ما كان أتى به النقيب ومبعوث الدولة من طلب السلطات العثمانية لمبارك، مما ذكرته السطور السابقة حين مرَّ البحث عن خبر السفينة زحاف. ولما كان وكيل الشيخ هذا يبعث له منذ عام ١٣٢٠هـ/ مطلع ١٩٠٢م بالإخباريات المُنْبِئَة عن تطورات الأوضاع في البصرة من الجانب العثماني والإنجليزي، وأيضاً الألماني، وكان يبعث له كذلك عن تحركات وكيل ابن رشيد لدى سلطات البصرة العثمانية، ويذكر له مؤامرات كانت تُحاك ضد مبارك من قِبَلِ السلطات العثمانية هناك (٦٣). ولمَّا

كان يقوم باستلام الرسائل من مبارك ويرسلها لــوالي البصــرة والســلطات العثمانية الأخرى، كان يقوم قبل ذلك بعرضها على القنصل البريطاني فــي البصرة [٦٤].

المبحث الثاني: حادثة القبض على عبد العزيز بن سالم البدر في ٢١ صفر ١٣٢٠هـ/ ٢٩ مايو ١٩٠٢م، كما تُصوِّرها الكتابات التاريخيــة المحليــة والوثائق البريطانية.

في ٢١ صفر ١٣٢٠هــ / ٢٩ مايو ١٩٠٢م قَبَضَ رجــال الــدَّرَك التابع للسلطات العثمانية بالبصرة على عبد العزيز أفندي بن سالم البدر؛ وكيل الشيخ مبارك في البصرة [٦٥] لحصولهم بحوزتــه علــى جريــدة عربيــة محظورة تدعى الخلافة [٦٦]، والتي كانــت تطبــع فــي لنــدن Khilafat Newspaper of London[٦٧]،وتنشر في بعض أرجاء الدولة العثمانيــة؛ تحريضاً عليها [٦٨]، وكان وكيل الشــيخ مبــارك ينــوي تقــديمها للشــيخ مبارك[٦٩]، والتي كان الشيخ يتلقاها بصفةٍ دورية [٧٠]. وكما يقول المــؤرخ عبد العزيز الرشيد [٧١]أن هذا الوكيل ما كاد «يقدم بَدَل الاشتراك [اشــتراك الصحيفة بالبريد] حتى وصل الخبر إلى والي البصرة [نوري باشا] الــذي بعث في الحال من يقتحم بيت وكيل الشيخ مبارك ليفتش دفاتره وأوراقه التي كان من بينها كتابٌ من مبارك فيه الحَطّ الشديد على السلطان عبد الحميــد، والكلام الخشن على سياسته الخرقاء [هكذا]... فقبضوا عليه وزجُّــوه فــي السجن [٧٢]». وكان هذا العمل ضربة قاسية لنفوذ شيخ الكويت. ولم تكن هذه الحادثة خلواً من الدلالة السياسية؛ فقد كان من بين الأوراق التي أخذت مــن بيت الوكيل ما يلقي الضوء على علاقة الشيخ بحكومــة بريطانيــا [٧٣]؛ إذ اكتشفت السلطات العثمانية إيصالات الاشتراك في هذه الجريدة، مع الــدعوة الموجهة لمبارك من لندن لحضور احتفالات تتــويج الملــك إدوارد الســابع وجلوسه على العرش [٧٤]. ويقال أن الشيخ يوسف الإبراهيم [٧٥]وراء تلــك الوشاية التي أُوقِع بها وكيل الشيخ مبارك [٧٦]. وقد أُخْطِرَ مبارك بــالقبض على وكيله بينما كان هو في المحمرة [٧٧]يتصدى لإحدى عمليات القرصــنة

ضد قارب كويتي [٧٨]، ثم أبرق الشيخ للوالي مصطفى نوري باشا يطلب تفسيره لاعتقال وكيله، فأجاب الوالي بأن أمراً سلطانياً قد وَصَلَهُ بالاعتقال[٧٩]. وقضى عبد العزيز بن سالم البدر في السجن، ولم يُطلَق سراحه إلا في سنة ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م [٨٠].

وتكاثرت أقوال مؤرخي الحادثة حول أسبابها وحيثياتها، فمن قائل أنها بِتَسَبُّباتٍ جاءت على إثْرِ وشايةٍ بالوكيل من أعداء الشيخ مبارك، نكايةً بالأخير [٨١]، ومن قائلٍ بأنه ساعة وقوع حادثة القبض هذه فإن السلطات لم تجد دليلاً من الوثائق التي تم التَحَفُّظ عليها ما يدين الوكيل البدر، وذهب آخرون إلى أن عبد العزيز البدر أو أخوه [٨٢] قام بإتلاف الوثائق المشينة، وقال البعض بأن من ضمن الوثائق التي حصلت عليها السلطات ما يتعلق ببساتين الشيخ مبارك في البصرة؛ والتي كانت من المشاكل العالقة بين مبارك والسلطات العثمانية هناك.وأبدى آخرون تعاطفهم مع الوكيل؛ فعلَّقوا قائلين بأن السلطات العثمانية قَسَت في تعاملها مع الوكيل ساعة القبض عليه، وساعة محاكمته، وساعة زَجّه بالسجن الانفرادي.

أما ما تَعَلَّقَ بأمر القبض الذي وُصِفَ بأنه نتاج وشاية مُدَبَّرَة، وهو التحليل الذي ذهب إليه المؤرخ الشيخ عبد العزيز الرشيد،من أن الأمر ناجمٌ عن كثرة أعداء الشيخ مبارك في البصرة [٨٣]. وكذا أَسْنَدَ حسين خلف الشيخ خزعل [٨٤]ذات الأمر إلى التَسَبُّبات نفسها، فقال:((بعض المعادين للشيخ مبارك من أهالي البصرة، وبتحريضٍ من يوسف الإبراهيم، أبلغوا، خبر تقديم الوكيل لبدل الاشتراك بجريدة الخلافة، إلى والي البصرة مصطفى نوري باشا، فأصدر الوالي المذكور أمره في الحال بتحري دار عبد العزيز السالم البدر[٨٥])). وإلى هذا السبب أرجع بونداريفيسكي Bondarevsky. G.[٨٦] وقوع الحادثة، إذ يرى أن الوكلاء الإنجليز قد أثبتوا بأن مرسل الوشاية إلى الأستانة بشأن وجود جريدة الخلافة في بيت عبد العزيز أفندي السالم البدر، والتي أدَّت إلى اعتقال رجل مبارك المقرَّب ووقوع هذا النزاع، هو يوسف الإبراهيم نفسه. كما أشار ذلك الكاتب بأن معلومات القنصلية الإنجليزية تفيد

بأن هذه الوشاية قد تمت بالتنسيق مع ابن رشيد [٨٧]. ومجموعة الوثائق التي رجع لها سلطان القاسمي[٨٨] التي رجع إليها تشيرُ إلى أن القنصل البريطاني بالبصرة أفاد بأن وكيل الشيخ مبارك قد دُسَّت له الصحيفة من طَرَفِ رجال الأمير عبد العزيز بن رشيد وأنصاره في البصرة، وبتدبير الأتراك [٨٩].وهو الأمر الذي أكدته الوثائق التي جمعها روبن بيدويل Robin Bidwell[٩٠] بأن السلطات البريطانية في البصرة تَيَقَّنت من أن وشاية وراءها الأمير ابن رشيد أوقَعَت بوكيل شيخ الكويت بالبصرة في قبضة السلطات العثمانية هناك[٩١]. ويُعَلِّق حسين خلف الشيخ خزعل بأن السلطات وأعداء مبارك بالبصرة فعلوا كلَّ ذلك بالوكيل؛ نكاية بالشيخ مبارك الصباح [٩٢].

أما من ذَهَبَ إلى أنه ساعة وقوع حادثة القبض لم تجد السلطات دليلاً من الوثائق يدين الوكيل البدر، وآخرون ذهبوا إلى أن الوكيل أو أخوه قام بإتلاف الوثائق المشينة. وهو ما ذهب إليه المؤرخ عبد العزيز الرشيد من أن عبد العزيز أفندي البدر تمكن بيقظته، أثناء البحث والتفتيش دون أن يشعر به أحد، من إتلاف الكتاب الذي فيه حطّ شديد على السلطان عبد الحميد، والكلام الخشن على سياسته، التي وصفها الرشيد بـ ((الخرقاء)). بل وذهبَ إلى أن المهاجمون مع كونهم لم يجدوا على الوكيل حُجَّة، فإنهم قبضوا عليه وزَجّوه في السجن [٩٣]. ومِثْله حسين خلف الشيخ خزعل حين قال ((وبالرغم من عدم العثور على أي مستند يستحق الحساب عليه، فقد زُجَّ به في السجن [٩٤])). والوثائق التي أوردها القاسمي تذهبُ إلى أن شقيق الوكيل تمكّنَ من الهرب ومعه جريدة الخلافة [٩٥]. وهو الأمر الذي وَكَّدَهُ أوكنور Sir N. O'Conor[٩٦]سفير بريطانيا في الأستانة [٩٧]، وعَضَدَه تقريرراتيسلو Wratislaw[٩٨] قنصل بريطانيا في البصرة [٩٩].

ولتكون المسألة على هيئة تدبيرٍ مسبقٍ لوقوعها، وأنها نكايةً بالشيخ مبارك قال البعض بأن من ضمن الوثائق التي حصلت عليها السلطات ما يتعلق ببساتين الشيخ مبارك في البصرة، فصادرتها؛ وهي من ضمن ما عَلِقَ من مشكلاتٍ تنازعتها السلطات العثمانية هناك مع مبارك. وإلى ذلك ذهب

بونداريفيسكي.G Bondarevsky. حين رأى أن الأمر تَعَقَّدَ عندما أضحى على هيئة تنكيلٍ، غير مباشر، بالشيخ مبارك، لَمَّا. صودِرَت كل الأوراق والمستندات الموجودة في بيت الوكيل، والتي لا تتعلق فقط بالبدر ومبارك، بل وأيضاً بقضية بساتين النخيل. وقد ضَمَّت الأوراق المُصادَرَة وثائق تثبت حقّ أسرة الصباح في تمَلُّكِ كلّ المزارع، التي كانت تُدِرُّ دَخْلاً كبيراً على حكّام الكويت، وبالأخصِّ مبارك(١٠٠)، وأن الوالي رفض تسليمها وبقيت في مقر الحاكم العام(١٠١). وتذهب الوثائق البريطانية في تقاريرها إلى أنه تم ضبط ما لدى وكيل مبارك من أوراق تتضمن وثائق ملكية تتعلق بأراضي الشيخ في الفاو(١٠٢). وذكر لوريمر Lorimer (١٠٣) ذكرٌ لوقوع حجج أملاك الشيخ مبارك الموجودة في العراق في يد السلطات العثمانية التي تولَّت مهمة القبض على وكيل الشيخ (١٠٤).ويذكر القنصل راتيسلو Wratislaw أن الشيخ مبارك اِدَّعى أن مِن بينِ الأوراق التي تم ضبطها في منزل وكيله بالبصرة كانت هناك وثائق وسَنَدَات ملكية تتعلق بأملاكه في تركيا، وأن هذه السَّنَدَات لم تُسَلَّم له. وهناك أوراق أخرى تمَّ تمزيقها بموجب أوامر الوالي، ولم تُضَمَّن في إضبارة القضية(١٠٥).

أما ما أبداه البعض من تعاطفٍ مع الوكيل؛ بتعليقهم القول بأن السلطات العثمانية قَسَت في تعاملها مع الوكيل ساعة القبض عليه، وساعة محاكمته، وساعة زَجّه بالسجن الانفرادي، فقد ذكر المؤرخ عبد العزيز الرشيد أن السلطات العثمانية زَجَّت بالوكيل في سجنٍ ضيِّقٍ، على الرغم من أنهم لم يجدوا عليه حُجَّة (١٠٦). وكذا قال حسين خلف الشيخ خزعل أنه بالرغم من عدم العثور على أي مستند يستحق الحساب على الوكيل، فقد زُجَّ به في السجن، وضُيِّقَ عليه أشد التضييق، وعومل معاملة قاسية جداً، وأسندوا إليه تُهَماً أقل عقابها الإعدام (١٠٧). ويبدي بونداريفيسكي .Bondarevsky .G تعاطفه لحبس الوكيل، فيذكر أنه استمرَّ حَبْسهُ في زنزانةٍ قذرةٍ وضيِّقَةٍ مع عتاة المجرمين (١٠٨)،ويزيد بأنه حُكِمَ عليه عشر سنوات من الحبس الانفرادي الصارم في قلعة (١٠٩). وكذا قال قنصل بريطانيا بالبصرة في أحد

تقاريره[١١٠]. ويبعث القنصل نفسه في يوليو ١٩٠٢م، إلى السير أوكنور Sir N. O'Conor سفير بريطانيا في الأستانة بتقريرٍ سِريٍّ يذكر فيه أن البدر حُقِّقَ معه وتقرَّرَ تقديمه للمحاكمة بتهمة جنائية، وأنه الآن محبوسٌ في السجن الداخلي مع بقية المجرمين في انتظار وصول الأوامر السلطانية من القسطنطينية [١١١].

وعليه؛ فإن المصادر المحلية التي أرَّخَت لحادثة القبض، وأيضاً الوثائق البريطانية التي دوَّنَت حيثياتها، تُظْهر التَّوْكِيد لبراءة عبد العزيز البدر وكيل الشيخ مبارك بالبصرة مما نُسِبَ إليه، مُعتمدة في ذلك على أسباب وقوعها الناجم عن وشاية أعداء مبارك بالبصرة، وعلى أن السلطات لم تجد ما يدين الوكيل حال القبض عليه. أما الوثيقة الألمانية فإنها تأتي بتفاصيل لم تأتِ بها المصادر والوثائق السابقة. وبالرجوع إلى التفاصيل التي أتت بها الوثيقة الألمانية يمكن إدراك الحقيقة، أو على الأقل تلمس طريقها، من خلال مقارنتها بمواقف المؤرخين المذكورين ومراسلات سلطات بريطانيا المدوَّنة في وثائقها، وهو ما يسْبُرَه المبحث التالي.

<u>المبحث الثالث:</u>نظرٌ تأريخيٌّ مقارن، من خلالِ وثيقةٍ ألمانيةٍ سَجَّلَت الحادثة.

رَفَعَ قُنْصل ألمانيا في البصرة السيد س. ريخرز Richarz[١١٢] بتقريرٍ إلى وزارة الخارجية يلقي الضوء على الحادثة، وعلى أسباب وقوعها، فجاء هذا التقرير الألماني مغايرٌ إلى حدٍّ كبير للمصادر المحلية، ومباين تقريباً للوثائق البريطانية. فيقول تقرير ريخرز بأن أسباب الحادثة آتية بعد أن تَمَّ إثبات ((مواقف الوالي السابق للبصرة محسن باشا، والتي كانت مخالفة تماماً لمصلحة الحكومة العثمانية فيما يتعلق بمسألة الكويت، وفي عدم بُيان ذلك الوالي [محسن باشا] لحقيقة مواقف مبارك التي كانت تَميلُ بشكلٍ واضح للإنجليز،والتي هي في ذات الوقت مناهضة للدولة العلية[١١٣])). وتنبه تلك الوثيقة بأن هناك نقاط مهمة حول الوالي السابق محسن باشا، واجبٌ التوقف عندها لإثبات حادثة الرشوة المقدمة له عن طريق مبارك[١١٤].

ويُكمِل التقرير المرفوع للخارجية الألمانية، وصفه لوقوع حادثة القبض على البدر، قوله:((أن عبد العزيز السالم لَعِبَ دوراً مريباً [مشكوكاً في أمره] كوسيطٍ، منذ بداية تطور المراحل المختلفة لمشكلة الكويت، بين الشيخ مبارك وبين والي البصرة السابق محسن باشا، هنا بدأت الشكوك تساور الحكومة العثمانية وسلطاتها في العراق ؛ نظراً للظروف المعروفة لديها والمحيطة بالموضوع منذ بداية العام الماضي [١٩٠١م]. وعندما عُزِلَ محسن باشا (في سبتمبر ١٩٠١م)، استقوى شعور الريبة بوضوح،مما يدل على أن الوالي السابق كان متواطئاً مع مبارك ووكيله في إخفاء جَلِيَّة أمرهم، وزاد الوضوح جلاءً بسلوك وكيل مبارك المريب،والذي تنبه له الوالي الجديد مصطفى نوري باشا، فأمر الوالي، منذ حوالي عشرة أيام (٢٩ مايو ١٩٠٢م)، لتفتيش منزل عبد العزيز السالم. وبحسب مصادر آتيةٍ من مناصب قيادية، فقد تم التحفظ على عددٍ من المخطوطات الفاضحة والمشينة للوكيل شخصياً، وكذلك لمحسن باشا بالاسم (١١٥))).

إذن؛ فالتقرير الألماني يثبت أن رشوةً قُدِّمَت من الشيخ مبارك لوالي البصرة السابق محسن باشا، وهي غير الرشوة التي عرضها مبارك على والي البصرة اللاحق نوري باشا. والحقيقة أن ذلكم التقرير الألماني تؤيده وثيقة فرنسية تذكر حادثة الرشوة تلك، وتقول بأن مبارك أعطى سبعة آلاف جنيه لفيضي باشا، وخمسة آلاف لمحسن باشا؛ ليحافظ مبارك على عدم تبعيته للدولة العثمانية (١١٦). وهو الأمر الذي أيَّدَهُ بعض المؤرخين المتأخرين (١١٧)، وأيَّدَتْهُ الوثائق التي أتى بها سلطان القاسمي (١١٨).

كما يثبت التقرير الألماني أمر تفتيش السلطات العثمانية منزل عبد العزيز السالم، واطلاعهم على عددٍ من المخطوطات الفاضحة والمشينة. إذن؛ فالتقرير يخالف ما أورده المؤرخ عبد العزيز الرشيد من أن المفتشين لم يجدوا على الوكيل البدر حجّة، ويخالف أيضاً ما أورده بالمثل حسين خلف الشيخ خزعل من أن السلطات لم تعثر لدى الوكيل على مستند يستحق الحساب. إذ أثبت التقرير الألماني أن ثَمَّة مخطوطات فاضحة ومشينة وُجِدَت

في منزل الوكيل، ولعل هذه الفاضحة والمشينة التي قال عنها المؤرخ الرشيد بأنها خطابٌ من الشيخ مبارك في الحطّ على السلطان عبد الحميد وسياسته، التي وصفها الرشيد بالخرقاء. وسنجد تأييداً للتقرير الألماني في الوثائق البريطانية التي أوردها لوريمر Lorimer قائلاً أنه كان من بين الأوراق المضبوطة ببيت الوكيل ما يُلقي الضوء على علاقة الشيخ مبارك بالحكومة البريطانية (١١٩). ويؤيده مؤرخ متأخر ذكر بأن بعض الوثائق المصادرة، من بيت الوكيل، فيها ما يَنُمُّ عن وجود ثمَّةَ تعاون بين الإنجليز ومبارك (١٢٠). كما يؤيده أيضاً بونداريفسكي Bondarevsky. G. الذي ذكر بأن السلطات اكتشفت، حال دهمها منزل الوكيل، إيصالات الاشتراك في جريدة الخلافة، مع الدعوة الموَجَّهة إلى مبارك من لندن لحضور حفل تتويج إدوارد السابع وجلوسه على العرش(١٢١).

ومن خلال ذلك التطواف، من المهم أن نصل إلى مجمل الإجابة على التساؤلات الثلاثة التي طرحها البحث في مقدمته، وهي تساؤلات حول ما مَثَّلته الحادثة بالنسبة لحاكم الكويت، والسلطات العثمانية وبريطانيا. ويمكن الإجابة عنها من خلال المرور على سؤال الشيخ مبارك لوالي البصرة عن أسباب القبض على وكيله، فتلقى الردّ بأن هذه إرادة السلطان (١٢٢). وقد عزا الشيخ مبارك القبض على وكيله إلى قبوله (قبول مبارك) الحماية البريطانية، ولذلك طلب الشيخ تدخل بريطانيا من أجل إطلاق سراح الوكيل. وكان من رأي المستر دنيسون (١٢٣)، الذي تمت استشارته، أنه ليس من المحتمل الاستجابة لطلب إطلاق سراحه، واقترح إبلاغ الباب العالي بأن الحكومة البريطانية تعتبر استمرار احتجاز وكيل شيخ الكويت عملاً من أعمال الاضطهاد ضد حاكمٍ تربطه بها علاقات ودية. وقد تمت الموافقة على هذا الاقتراح من جانب الحكومة البريطانية في أغسطس ١٩٠٢م (١٢٤).

وقد كان لتلك التدخلات رداً لدى مصطفى نوري باشا والي البصرة الذي كان يوصي جميع سائليه بعدم التدخل؛ لأن الأمور تسير بحسب القانون، والأهم من ذلك أنها تسير بحسب الأوامر الشخصية الصادرة من السلطان

ذاته [١٢٥]. وقد أثار أمر وكيل الشيخ مبارك وتدخل الإنجليز فيه غضب رجالات الدولة العثمانية والباب العالي خاصة عندما كَشَفَت تلك الحادثة الصلة الوثيقة بين الشيخ مبارك وبريطانيا [١٢٦]. خصوصاً وأنه أثناء جلسة المحاكمة لوكيل الشيخ في البصرة في ٢٥ أغسطس تليت مجموعة من الوثائق والمستندات التي تم العثور عليها لدى المتهم، والتي لا تثبت فقط تكليف مبارك لوكيله بالفعل بالاشتراك بجريدة الخلافة، بل وتشهد أيضاً على أن الشيخ مبارك أعطى وكيله تعليمات بالتوجه إلى القنصل البريطاني وطلب مساعدته إذا ما واجه أية صعوبات مع السلطات العثمانية [١٢٧]، وهو الأمر الذي اتكأت عليه السلطات العثمانية بأن الشيخ مبارك متورط في مناهضة الدولة العلية والوقوف إلى جانب الإنجليز [١٢٨].

الخاتمة:

بعد المرور على ممهدات حادثة القبض على وكيل الشيخ مبارك بالبصرة، واستنطاق حيثيات حوادثها، وتتَبُّع مواقف السلطات العثمانية والبريطانية والألمانية منها، نفهم أن تلك الحادثة على الرغم من قِصَرِ مدتها الزمنية، وعلى الرغم، أيضاً، من عدم اهتمام الباحثين بها كغيرها، فإنها تُعَدّ حادثةً مهمة؛ لاستجلائها مدى التوتر الذي حصل في الدوائر العثمانية بُعَيدَ تنفيذ أمرِ القبض والتحفُّظ على الأوراق الموجودة في حوزة وكيل مبارك، مما جَلَّى للسلطات العثمانية مدى متانة العلاقة بين شيخ الكويت وبريطانيا، وهو الأمر الذي كانت تعلمه تلك السلطات، ولكنها وجدت الآن ما ينفي أيّ تبرئة لشيخ الكويت، الذي صار في تبعية الإنجليز، في مقابل مناهضة الدولة العثمانية، وهو الأمر الذي تَجلَّى، خصوصاً بعد عزل والي البصرة الأسبق محسن باشا، وبعد وقوع وكيل الشيخ في قبضة السلطات العثمانية. ولعلَّ هذه الأوراق التي تُحُفِّظَ عليها قد رَجَّت الإنجليز أيضاً، يظهر ذلك حين بدا تدخلهم واضحاً لإطلاق سراح وكيل الشيخ، وهو التدخل الذي أدى إلى امتعاض السلطات العثمانية بالبصرة والأستانة. ومن تلك الحادثة يظهر اهتمام وزارة الخارجية الألمانية التي وصلها تقرير قنصلها ببغداد عن طريق سفارتها

بالأستانة، يظهر كيف اهتمَّت وعَضَدت الموقف العثماني باتهاماته التي سدَّدَها تُجاه الشيخ ووكيله ووالي البصرة الأسبق محسن باشا.

الهوامش:

(١) لوريمر، ج. ج. (ت.ن. بلا)،دليل الخليج (القسم التاريخي، ط(بلا)، ترجمة ديوان حاكم قطر، ج٣، مطابع علي بن علي، الدوحة، ص ١٥٣٣. وسلدانها، ج. (١٩٩٠م)،شؤون الكويت ١٨٩٦ / ١٩٠٤م، ترجمة: فتوح الخترش، ط٢، ذات السلاسل، الكويت، طبع مسبوقاً بعنوان ((التاريخ السياسي للكويت في عهد الشيخ مبارك))، ص ٧٢.

(٢) انظر: زكريا، جمال، (٢٠٠١م)،تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ج٢، ط٢، ، دار الفكر، القاهرة، ص ٣٢٦ .

(٣) زحاف: سفينة حربية عثمانية قديمة، كانت تَمْخُر عُبَاب الخليج العربي بسلام قبل معاهدة الحماية البريطانية على الكويت. وهناك وصفٌ لهذه السفينة لدى الوثائق الفرنسية.

الأرشيف الفرنسي لوزارة الخارجية في باريس:

Paris AE.NS.Mascat, 6(cont.D), Anners.Du 9th Septembre 1901. Rouet, Vice،Consulat de France a Bagdad, No, 133, telegramme, communiqe a l'Ambassade .

أيضاً تجد لها وصفاً لدى: وهبة، حافظ،(١٩٥٦م)،جزيرة العرب في القرن العشرين، ط٣، د. ن (بلا)،ص ٨٦ . والزركلي، خير الدين، (١٩٩١م)،شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز، ١٩٩١م، ج١، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت ،ص ١٢١ . وخزعل، حسين خلف الشيخ، (١٩٩٦١م)،تاريخ الكويت السياسي، ج٢، ط(بلا)، دار مكتبةالهلال، بيروت،ص ٢٦، ص ٨٥. والسعيدان، حمد، (١٩٧٠م)،الموسوعةالكويتية المختصرة، ج٢، ط١، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ص ٧٢٣. وإبراهيم، عبد العزيز عبد الغني، (١٩٨٨م)،أمراء وغزاة، قصة الحدود والسيادة الإقليمية في الخليج دراسة وثائقية، ط١، دار الساقي، بيروت، ص ٧٤. وبونداريفيسكي، غيورغي، (١٩٩٤م)، الكويت وعلاقاتها الدولية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ط١، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت، ص ١٩٤ .

(٤) لورانسLawrence : من سفن البحرية الملكية الهندية البريطانية، وهي من طلائع سفن ما عرف بالخدمات الملكية البحرية للهند R.I.M.S. كان من واجباتها أن تُقِلّ القوات العسكرية وتعمل على، ما أَسْمَتْهُ، مكافحة الرقيق في الخليج العربي. وكانت قد رَسَت في ميناء أبوظبي سنة ١٨٨٧م بأمرٍ من المقيم السياسي البريطاني لتستطلع خبر الزيارة التي قام بها الجنرال الفارسي حاجي أحمد خان الذي زار دبي ثم أبو ظبي والتقى شيخيها، وقد تسربت معلومات الزيارة بأن هدفها ضرب النشاط التجاري البريطاني في الخليج العربي. انظر: دليل الخليج (القسم التاريخي)، ج ٧، ص ٣٨٣٥. وإبراهيم، عبد العزيز عبد الغني،(١٩٨٢م)،سياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي، ط١، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ص ٢٨، ص ٢٥٠، ٢٥١ .

(٥) العقيد ميد: LT.Col. Malcolm Meade . هو المقيم السياسي البريطاني في بوشهر . تولى منصبه هذا ما بين ١٨٩٧، ١٩٠٠م . وكان من أشد المتحمسين لأفكار اللورد كرزون . انظر:لوريمر،دليل الخليج (القسم التاريخي)، ج٧، ص ٣٩٢٦ . والعقيد ميد يذكر في الوثائق والمصادر والمراجع برتبة عقيد وأحيانا رائد .

(٦) الشناوي، عبد العزيز، (١٩٩٧م)،الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها،ج٣، ط(بلا)، الأنجلو المصرية، القاهرة، ص ١٣٩٧ .

(٧) الأرشيف العثماني بإسطنبول، Y.PRK.BSK، يلدز، القصر الهمايوني، متفرق، برقم ٣٦٧٤، تاريخ ١٢ جمادى الأول ١٣١٩هـ (يوافق: ٢٦ أغسطس ١٩٠١م) .

(٨) ويلسون، أرنولد، (ت. ن. بلا)،الخليج العربي، تعريب: عبد القادر يوسف، ط (بلا)، مكتبة الأمل، الكويت،ص٤٠٥ .

(٩) الشناوي،الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج٣، ص ١٣٩٥ .

(١٠) انظر:

Al.Ghanim, Salwa, The Reign of Mubarak Al‹Sabah Sheikh of Kuwait 1896‹1915. I.B.Tauris Publisher's, London. New York, p. 81.

(١١) الأمير عبد العزيز المتعب بن رشيد: سادس حكّام إمارة آل رشيد في حائل منذ ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م. تولى الحكم بعد وفاة عمِّهِ محمد العبد الله الرشيد، وكان في ذاك الوقت أميراً على نجد والقصيم ونواحيها. والأمير عبد العزيز بن رشيد شجاعٌ

وداهيةٌ دهياء، وكان على جانبٍ من الحِنْكَةِ والمعرفةِ. لُقِّبَ بـــ ((الجنازة))؛ ولكنه مع ذلك كان قاصر الحظ، ومع قصور حَظِّهِ فقد ذَلَّلَ صِعاب الأمور وألَانَ الخُطوبَ العِظام. ومع شجاعته وجسارته فإنه يُؤخَذ عليه صِفة البَطْش التي لم يَتَوَرَّع خلالهـــا عن سفك دماء الكثيرين ظلماً وتجبراً. توفي الأمير عبد العزيز آل رشـــيد فـــي ٢٠ صفر ١٣٢٤هــ / ١٤ إبريل ١٩٠٦م في معركة ((روضة مهنا)). انظر: الدخيل، سليمان بن صالح، (١٩٦٨م)،القول السديد في إمارة آل رشيد(طبع ملحقاً بكتـــاب: نبذة تاريخية عن نجد لضاري الرشـــيد)، ط١، دار اليمامـــة، الريـــاض،ص ١٥٣، ١٥٤.

(١٢) سلدانها،شؤون الكويت، ص ١١٥ . أيضاً: برقية من حكومة الهنـــد إلـــى وزارة الهند في لندن، تأريخ ٨ أكتوبر ١٩٠٠م.

Bidwell, Dr. robin, Secretary of the Middle East Center, Cambridge. The Affairs of Kuwait 1896، 1905, Edited with new material and a new introduction, Vol. 2 (1902, 1905), Frank Cass And Company Limited, London, 1971. P. 46.

(١٣) سلطان القاسمي، سلطان بن محمد، (٢٠٠٤م)،بيان الكويت، سيرة حياة الشيخ مبارك الصباح، ط١، الناشر: المؤلف، الشارقة،ص ١٢٨. وانظر: الحاتم، عبد الله، (١٩٨٠م)،من هنا بدأت الكويت، ١٩٨٠م، ط٢، مطابع القبس، الكويت، ص ٢٥٨ .

(١٤) (جريـــدة التـــايمز) The Times. 16th May 1901. The Fighting In Arabia.وانظر: دروملين، فان، (١٩٩٤م)،الملك ابن ســـعود والجزيـــرة العربيـــة الناهضة، ترجمة: ويسي آي . سي، ط (بلا)، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ص ٤٧. رضا، علي بن غلوم، (٢٠٠٧م)،أخبار الكويت رسائل علي بن غلـــوم رضـــا الوكيل الإخباري لبريطانيا في الكويت ١٨٩٩ / ١٩٠٤م، تحرير وتقـــديم عبـــد الله يوسف الغنيم، ط(بلا)، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت،ص ١٩٧، ص ٢٠١، ص ٢١١، ص ٢١٣، ص ٢١٥.

(١٥) الصريف: موقعها في شمال شرقي بريدة من ناحية الشمال، وغربي وادي الرمَّة. والصريف تقع في وادٍ يسمى باسمها ويبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب خمسة أميال وعرضه ميلاً واحداً. وفيها آبار صالحة للشرب. انظر: لوريمر،دليل الخليج(القســـم

الجغرافي)، ج5، ص ١٨٧٢، ١٨٧٣.

(١٦) from Gaskin, in 2nd April 1900 . I.O.L.R/R/15/1/473,fos.424, 425,

وانظر: الدخيل،القول السديد، ص ١٥٣ . والرشيد، عبد العزيز، (ت. ن. بلا)،تاريخ الكويت، بحواشي ابن المصنف: يعقوب عبد العزيز الرشيد، ط (بلا)، دار مكتبة الحياة، بيروت،ص ١٦٣ . والقناعي، يوسف، (١٩٨٨م)،صفحات من تاريخ الكويت، ط٥، ذات السلاسل، الكويت،ص ٣٢ .

(١٧) الأرشيف العثماني بإسطنبول، Y,A,HUS، يلدز، معروضات، خصوصي، برقم ٥٤/ ٤١٤، تأريخها على الطريقة العثمانية للبرقيات: ١٨ مـــارس ١٣١٧ رومـــي. وتذكر تقارير القناصل البريطانيين التي أوردها سلدانها حول المعركة، إذ يقــول: ((زحف الشيخ مبارك، والتقى بابن رشيد في معركة، هُزِمَ فيها هزيمةً نكراء)). انظر: سلدانها،شؤون الكويت ١٨٩٦ / ١٩٠٤م، ص١١٧، ١١٨. وانظر أيضاً: فاسلييف، ألكسي، (١٩٩٥م)،تاريخ العربية السعودية، ط١، شركة المطبوعــات، بيــروت،ص ٢٧٤. والدخيل، القول السديد...، ص ١٥٤.

(١٨) آدموف Adamoff: ضابطٌ روسيٌّ من سلاح المدفعية، زار في ١٨٩٧، ١٨٩٨م بوشهر والبصرة سعياً لزيادة الأطباء الروس فيها. كان أوّل من أُسْنِدَت له مهمة تولي وكالة القنصلية الروسية في بغداد سنة ١٨٩٩م، كما تولّى منصب قائم بأعمال القنصلية الروسية في بغداد من مارس ١٩٠٣م إلى مايو ١٩٠٤م. انظر: لوريمر،دليل الخليج (القسم التاريخي)، ج٧، ص ٣٩٥٥. وإبراهيم،وسياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي ١٨٥٨/ ١٩١٤م، ص ٢٨٨، ٢٨٩.

(١٩) فاسلييف،تاريخ العربية السعودية، ص ٢٧٤ .

(٢٠) المرجع السابق، ص ٢٧٢ .

(٢١) زكريا،تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ج٢، ص ٣٢٥ .

(٢٢) F.O.371/149 مذكرة تخص الكويت ١١ كـانون الأول / ديسـمبر ١٩٠٥م، سردٌ عام / النشاط التركي / التفاهم مع تركيا وألمانيا .

انظر: الأعظمي، وليد، (١٩٩١م)،الكويت في الوثائق ابريطانيــة ١٧٥٢ / ١٩٦٠م،ط١، رياض الريس للكتب والنشر، لندن وقبرص،ص ٢٦ .

(٢٣) الرشيد،تاريخ الكويت، ص ١٦٨ .

(٢٤) الأرشيف العثماني بإسطنبول، DUIT، يلدز سراي همايون، برقم ٨، ٢ / ٦٩، تأريخ: غرة ربيع الآخر ١٣١٩ هـ، (١٧ يوليو ١٩٠١م) .

(٢٥) غلوم رضا،رسائل علي بن غلوم رضا، ص ٢٤٥، ٢٤٧.

(٢٦) الأرشيف الألماني في وزارة الخارجية ببرلين، A.1, Nr. 165, No. 6, Piera 572، القنصلية الألمانية القيصرية في ٩ يوليو ١٩٠٢ بعد الظهر، بغداد في ١٢ يوليو ١٩٠٢م إخبارية بتأريخ ١٢ / ٧، بيرا ١٧٢، بيروت، دمشق عن طريق Cspl، من Richarz، قراءة: ثيرابيا ٦ يوليو ١٩٠٢م مارشال Marschall .

(٢٧) أحمد فيضي باشا: هو قائد الفيلق السادس في بغداد، وهو الذي تولى الإشراف على تجهيز القوات وإعداد السفن لنقل الجنود عبر نهر الفرات إلى ناحية الكويت في الوقت الذي سيرت فيه زحاف . وكان فيضي باشا قد عُيِّنَ بمنصب مشير الجيش السادس في بغداد، كما عُيِّنَ والياً في اليمن . انظر: العزاوي، عباس، (١٩٥٥م)،تاريخ العراق بين الاحتلالين، ج٨، ط (بلا)، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، ص ١٣٠ .

(٢٨) (جريدة التايمز) The Times, 11 October 1901. The Persian Gulf. Semla 30 Sep .

(٢٩) الأرشيف العثماني بإسطنبول، Y,PRK,BSK، يلدز، أوراق متفرقات، همايوني، برقم ١١ / ٣٦٧٤، بتاريخ ٢٢ جمادى الأول ١٣١٩ هـ، (يوافق: ٥ سبتمبر ١٩٠١م) .

(٣٠) رجب النقيب: السيد رجب أفندي نقيب أشراف البصرة. كان له وضعه ومنزلته الرفيعة لدى السلطات العثمانية في العراق، وكان بمنزلة السفير لها لدى الأمراء العرب ومشايخهم. حصل في سنة ١٨٩٩ م على رتبة ((إسطنبول بياسي))، كما حصل على وسام ((وسام المجيدية)) من الطبقة الأولى . انظر: لوريمر،دليل الخليج(القسم التاريخي)، ج٤، ص ٢٢١٥ . أيضاً: العزاوي،تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص ١٢٩ .

(٣١) الأميرالاي نجيب باشا: هو أخو والي البصرة، آنذاك، محسن باشا. عن:

الأرشيف العثماني بإسطنبول، Y,A,HUS، يلدز، معروضات، خصوصي، برقم ٦٨ / ٤٢١، تأريخ ٢٤ شعبان ١٣١٩ هـ، (٥ ديسمبر ١٩٠١م) .

(٣٢) الوثيقة العثمانية السابقة.

والحقيقة أن التهديد الذي حمله النقيب والأميرالاي كان يُخير الشيخ مبارك بين أمورٍ ثلاثة لا رابع لهم: إما أن يسافر إلى الأستانة فيُعَيَّنَ فيها عضو في مجلس شورى الدولـــة، وإما أن يسافر إلى أي بلدٍ يريدها والحكومة العثمانية تقوم باحتياجاته، وإلا استخدمت الدولة ضده القوة الفعالة في حال رفضه أحد الأمرين. انظر: الرشيد،تاريخ الكويت، ص ١٧٠، ١٧١ .

(٣٣) السفينة بيرسيوسPerseus: من سفن البحرية الملكية البريطانية في الهند، تابعة لرئاسة بومباي العسكرية، ولها مَهَمَّات عسكرية وأمنية في الخليج العربي، مخوّلةٌ في استكمال طاقم السفن البريطانية الرئيسية (سفنكس وبومني) في مياه الخليج العربي، وهي مزوَّدَة بمدافع إضافية للطوارئ. انظر: إبراهيم،أمراء وغزاة، قصة الحدود والسيادة الإقليمية في الخليج، دراسة وثائقية، ص ١٧٥.

(٣٤) (جريدة التايمز) The Times, Sep 27th 1901. Turkey And Persian Gulf, British Cruiskr's Action , from our Correspondent.

(٣٥) رسالة من حكومة الهند(ضمن محفوضات مكتب الهند) بتأريخ ١٠ أغســطس ١٩٠١م .

Bidwell, Op, Cit, vol. 1, part. 3, p. 73 .

(٣٦) الأرشيف العثماني بإسطنبول، I,DAH، إرادة داخليـــة، بـــرقم ١٩ CA ١٣١٩ / ٥٠، تأريخ ١٥ جمادى الأول ١٣١٩هـــ، (يوافق: ٢٩ أغسطس ١٩٠١م).

(٣٧) بونداريفيسكي،الكويت وعلاقاتها الدولية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القـــرن العشرين، ص ٢٤٤ .

(٣٨) الأرشيف العثماني بإسطنبول، Y,A,HUS، يلدز، معروضات، خصوصي (دَار صدارت عظمى / شفر يلمي عدد)، برقم ٢٩ / ٤٢٣، بتأريخ ١١ رمضان ١٣١٩ هــ، (يوافق: ٢٣ ديسمبر ١٩٠١م) .

(٣٩) شَطُّ العرب: الذي يتصل بالخليج العربي مكوناً التقاءً لنهـــري دجلـــة والفـــرات، ويشكل متنفساً فسيحاً ومتسعاً للعراق ؛ مقارنةً بدجلةَ والفراتِ . انظر: لوريمر،دليـــل

الخليج (القسم الجغرافي)، ج١، ص ١٢١، ١٢٣ . وبونداريفيسكي،الكويت وعلاقاتها الدولية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ص ٢٧، ٢٨ .

(٤٠) أم قصر: مدينة صغيرة جنوبي العراق، وهي منفذها على الخليج العربي. وقد كان فيها قصر كبير قريب على البحر، وكان البحارة يعرفون أنهم وصلوا إلى هذه المدينة بدلالة رؤيتهم لهذا القصر. وهي اليوم مقسمة بين الكويت والعراق. انظر: الفرحان، راشد، (١٩٩٦م)،معجم الأماكن الكويتية،ط (بلا)، د . ن (بلا)، الكويت، ص ٢٣ .

(٤١) جزيرة بوبيان: أكبر الجزر الكويتية، كبيرة منخفضة، طولها ٢٦ ميلاً وعرضها ١٢ ميلاً، تقع في الركن الشمالي الغربي من الخليج العربي، يفصلها خور عبد الله عن مصب شط العرب وعن الأراضي العراقية . والجزيرة محرومة من الماء العذب . وفي كثير من الأحيان يغمر البحر شواطئها وتكثر فيها المستنقعات . وسميت ((بو بيان)) من البيان وهو الظهور، وكلمة (بو) بدلاً من (أبو) أي ذات بيان . انظر: لوريمر،دليل الخليج (القسم الجغرافي)، ج١، ص ٤١١، ٤١٢ . الفرحان،ومعجم الأماكن الكويتية، ص ٤٦ .

(٤٢) سفوان: وتنطق أيضاً صفوان . قرية عراقية تقع على أرضٍ مرتفعة، وتبعد ١٧ ميلاً عن الزبير، و٥٦ ميلاً شمال الجهرة في أرض الكويت . وسفوان اليوم هي نقطة الحدود بين الكويت والعراق . انظر: لوريمر،دليل الخليج (القسم الجغرافي)، ج٦، ص ٢٠٨٢ .والفرحان،ومعجم الأماكن الكويتية، ص ٨٩ .

(٤٣) سلدانها،شؤون الكويت ١٨٩٦ / ١٩٠٤م، ص ١٧٧ .

(٤٤) I.O.L.P.S/10/51/1855/372 From Sir O'Conor to the Marquess of Lansdown, 16 May 1904 .

(٤٥) انظر: سلدانها،شؤون الكويت ١٨٩٦ / ١٩٠٤م، ص ١٩٧ .

(٤٦) هو الضابط محمد بك مصطفى .

(٤٧) والي البصرة مصطفى نوري باشا: من كبار ضباط الفيلق السادس ببغداد . ويقال أن له يدٌ في عزل محسن باشا والي البصرة الذي سبقه، فتولى ملف الكويت . كما قيل أن نوري كان مناوئاً لمبارك الصباح . انظر: لوريمر،دليل الخليج (القسم

التاريخي)، ج٤، ص ٢٢١٤ . وبونداريفيسكي، الكويت وعلاقاتها الدولية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ص ٢٤١ .

(٤٨) سلدانها،شؤون الكويت ١٨٩٦ / ١٩٠٤م، ص ١٩٧ . ولوريمر، دليل الخليج (القسم التاريخي)، ج٣، ص ١٥٤٩. الخترش،فتوح، (١٩٨٤م)،تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ١٨٩٠ / ١٩٢١ م، ط٢، ذات السلاسل، الكويت، ص ٧١.

(٤٩) لوريمر،دليل الخليج (القسم التاريخي)، ج٣، ص ١٥٤٩ .

(٥٠) آل البدر: أسرة كويتية مشهورة معروفة من القناعات (كما سيأتي تبيانه في هامشة آتية)، ومنهم رجالات اشتهروا على مرِّ تاريخ الكويت إلى هذا اليوم، ومنهم من تَسَنَّمَ مناصب مهمة في الدولة. كان لهم فريج (= شارعٌ أو حارةٌ) باسم فريج البدر في الكويت القديمة. انظر (على سبيل المثال): السعيدان،الموسوعة الكويتية المختصرة، ج١،ص ١٦٩.

(٥١) القناعات: من العائلات الكويتية المشهورة، وتُلْفظ القاف جيماً في اللهجة الكويتية الجناعات. وينقسمون إلى عدة أسر: المطوَّع، والبدر، والعيسى، والصالح، والأيوب، والجاسم، والمسلَّم. وكتب في منشأهِم ومجيئهم للكويت الشيخ يوسف بن عيسى القناعي في كتابه ((صفحات من تاريخ الكويت))، ص ٨٩، ٩٧. وانظر: السعيدان،الموسوعة الكويتية المختصرة، ج١، ص٣٤٦، ٣٦٥.

(٥٢) السعيدان،الموسوعة الكويتية المختصرة، ج١، ص ١٦٩.

(٥٣) انظر: القاسمي،بيان الكويتسيرة حياة الشيخ مبارك الصباح، ص ٢٤٢.

(٥٤) الرشيد،تاريخ الكويت، ص١٨٠.

(٥٥) محسن باشا: والي البصرة بالنيابة آنذاك، وتولى الولاية رسمياً من ١٩٠٠ م إلى ١٩٠١ م. انظر: لوريمر،دليل الخليج (القسم التاريخي) ج٤، ص ١٢١٢. أيضاً: تقرير مرفق برسالة مستر راتسلو بتأريخ ١٦ سبتمبر ١٨٩٩م، سلدانها،شؤون الكويت ١٨٩٦ / ١٩٠٤م، ص ٩٦.

(٥٦) مير ميران: رتبة تُمنَح من قبل الدولة العلية نظير الخدمات المقدمة للحكومة، ومير ميران تعني: أمير الأمراء . انظر: بركات، مصطفى، (٢٠٠٠م)،الألقاب والوظائف العثمانية،ط(بلا)، دار غريب، القاهرة،ص ٦٨ .

(٥٧) غلوم رضا،رسائل علي بن غلوم رضا، ص ١٦١، ١٦٣.

(٥٨) أحمد باشا النقيب: هو أحمد بن السيد محمد سعيد آل طالب، وهو أحد أخوة رجب باشا النقيب، نقيب البصرة، كان من مُقَرَّبي الشيخ مبارك. انظر: الشمري، خليف، (٢٠٠٦م)،المستودع والمستحضر في أسباب الخلاف بين مبارك الصباح ويوسف الإبراهيم ١٨٩٦ / ١٩٠٦م،ط(بلا)، دار نينوى، دمشق، ص ٢١٢.

(٥٩) غلوم رضا،رسائل علي بن غلوم رضا، ص ١٧٧.

(٦٠) المصدر السابق، ص ٢١٥.

(٦١) المصدر السابق، ص ٢٣٧.

(٦٢) المصدر السابق، ص ٢٧٧.

(٦٣) القاسمي،بيان الكويت، ص ٢٣٣.

(٦٤) القاسمي،بيان الكويت، ص ٢٤٠.

(٦٥) انظر: الرشيد،تاريخ الكويت، ص ١٨٠ . والسعيدان،الموسوعة الكويتية المختصرة، ج١، ص ١٧٠ .

(٦٦) جريدة الخلافة: صحيفة سياسية أنشأت في كانون الثاني / يناير ١٨٨١م وتطبع في لندن على أربع صفحات مخطوطة بيد صاحبها لويس صابونجي، وهو أول كاهن نصرانيّ يدخل في سلك الصحافة من جميع كهنة الطوائف النصرانية الشرقية . وكانت له صداقة قوية مع قنصل بريطانيا في صيدا وامتدحه في قصيدة . كما عمل على خدمة مصالح بريطانيا نحو سنتين في مصر إبان الثورة العرابية فتوطدت علائقه بالمستر بلنت ؛ فالرجل عميلٌ مخلص بلا مرية للإنجليز . وكان قد جعل شعار جريدته تلك ((حرية واستقلال، نجاح وإقبال))، وافتتحها بآيةٍ من القرآن (! ! !) • لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب • . وكانت الصحيفة تترجم إلى اللغات التركية والفارسية والهندية . انظر: الفيكونت فيليب دي طرازي، (١٩١٣م)،تاريخ الصحافة العربية، ج٢، ط(بلا)، المطبعة البيروتية، بيروت،ص ٤٧، ٤٩، ص ٢٥١، ٢٥٢ . وطباعتها بتلك اللغات حتى يستشري شررها في الأقطار الإسلامية .

(٦٧) رسالة رقم ١٤٠، بتاريخ ٣٠ مايو ١٩٠٢م، من السير أوكنور سفير بريطانيا في الأستانة، إلى الماركيز لانسدون.

Bidwell, Op, Cit, vol.2, p.87.

ورسالة أخرى برقم ١٥٧، بتاريخ ١٣ يوليو ١٩٠٢م، من راتيسلو إلى أوكنور

Bidwell, Op, Cit, vol.2, p.94.

(٦٨) لوريمر،دليل الخليج (القسم التاريخي)، ج٣، ص ١٥٤٩ .

(٦٩) رسالة من القنصل البريطاني في البصرة راتيسلو، بتأريخ ٢ يونيو ١٩٠٢م .

Bidwell, Op, Cit, Vol. 2, pp. 87, 91.

(٧٠) بونداريفيسكي،الكويت وعلاقاتها الدولية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ص ٣٤٤،٣٤٥ .

(٧١) عبد العزيز الرشيد: هو عبد العزيز بن أحمد الرشيد البَدَّاح، الحنبلي السلفي؛ عالم ومؤرخ. ولد عام ١٣٠١ هـ/ ١٨٨٣ م. من رموز الكويت ومفاخرها. ذهب للدعوة إلى الله في أرجاء كثيرة، ومنها اندونيسيا، وتوفاه الله هناك عام ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٨ م. انظر: آل عثيمين، صالح عبد العزيز، (٢٠٠١م)،تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة، ج٣، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت،ص ١٨٠٩.

(٧٢) الرشيد،تاريخ الكويت، ص ١٨٠، ١٨١ .

(٧٣) لوريمر،دليل الخليج (القسم التاريخي)، ج٣، ص ١٥٤٩ .

(٧٤) بونداريفيسكي،الكويت وعلاقاتها الدولية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ص ٣٤٥.

(٧٥) يوسف الإبراهيم: هو يوسف العبد الله الإبراهيم، شيخ الدورة، يرجع نسبه إلى العناقر من بني تميم. وهو من أخوال الشيخ محمد حاكم الكويت وأخوه جراح اللذان قتلهما شقيقهما مبارك الصباح ١٨٩٦م. وهو من كبار تجار الكويت، وأحد دهاتها وشجعانها. وقد توفي عام ١٩٠٦ م. انظر: ابن عيسى، إبراهيم، (١٩٩٩م)،تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ووفيات بعض الأعيان وأنسابهم وبناء بعض البلدان من ٧٠٠ هـ إلى ١٣٤٠ هـ،ط(بلا)، الأمانة العامة، الرياض،ص ٢١٥.

(٧٦) بونداريفيسكي،الكويت وعلاقاتها الدولية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين،ص٣٤٩ .

(٧٧)رسالة رقم ١٤٢، بتاريخ ١١ يونيو ١٩٠٢م، من السير أوكنور سفير بريطانيا في الأستانة، إلى الماركيز لانسدون.

Bidwell, Op, Cit, vol.2, p.87, 88.

و المحمرة: يطلق عليها عربستان، وتسمى المحمرة، يحكمها بنو كعب. في أواخر القرن التاسع عشر كانت المحمرة مركزاً تجارياً يلفت الأنظار ومستودعاً رئيسياً لتجارة الأسلحة إلى إيران والعراق. والمحمرة تسمى اليوم بـــ ((خورَّم شهِر)). انظر: بيريبي، جان جاك، (١٩٥٩م)،الخليج العربي، ترجمة: نجدة هاجر و سعيد الغز، ط١، المكتب التجاري، بيروت،ص ١١٠، ١١١.

(٧٨) الخترش،تاريخ العلاقات السياسية البريطانيـــة الكويتيـــة ١٨٩٠ / ١٩٢١ م، ص ٧١.

(٧٩) Bidwell, Op, Cit, vol.2, p.87, 88.

(٨٠) الرشيد،تاريخ الكويت، ص ١٨٠. أيضاً: خزعل،تاريخ الكويت السياســـي، ج٢، ص ٦٢.

(٨١) ستأتي تسمية القائلين بتلك الأسباب، وتسمية واصفي حيثياتها.

(٨٢) أخو الوكيل اسمه يوسف السالم البدر. انظر: خزعل، تاريخ الكويـــت السياســـي، ج٢، ص ١٥٥.

(٨٣) الرشيد،تاريخ الكويت، ص ١٨٠.

(٨٤) حسين خلف الشيخ خزعل: مؤرخ، من أهل المُحَمَّرة، أو عَرَبْستان: (خرَّم شهر حالياً)، وجدُّه لأمِّهِ الشيخ خزعل خان حاكم المحمرة. عمل فـــي مديريـــة الإرشـــاد بالكويت في الخمسينات والستينات. صنف كتاب ((تاريخ الكويت السياســـي)) فـــي خمسة مجلدات.

(٨٥) خزعل، تاريخ الكويت السياسي، ج٢، ص ٦٢.

(٨٦) بونداريفيسكي Bondarevsky. G: غيورغي بونداريفيسكي؛ مستشرقٌ روسيٌ له عدة كتابات تتعلق بالكويت والخليج العربي، وكتب دراسة عن سكة حديد برلين/ بغداد. عمل مستشار للشؤون الإسلامية في الحكومة الروسية، كما كان عضو في أكاديمية العلوم الروسية. صُرِعَ في حادثة اغتيال حين سطا لصوص على بيته بموسكو في أغسطس ٢٠٠٣م، عن عمر يناهز ٨٣ عاماً.

(٨٧) بونداريفيسكي،الكويت وعلاقاتها الدولية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن

العشرين، ص ٣٤٩.

(٨٨) سلطان القاسمي: هو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، وحاكم إمارة الشارقة الحالي. من أشهر مصنفاته((بيان الكويت، سيرة الشيخ مبارك الصباح))، و ((القواسم والعدوان البريطاني)).

(٨٩)بيان الكويت، ص ٢٤٣.

(٩٠) بيدويل Robin Bidwell: مستشرقٌ بريطانيٌ، وُلِدَ سنة ١٩٢٩م، نشر العديد من الكتب المعتمدة على جمع وثائق الأرشيف البريطاني، والتي تناولت في أكثرهاشؤون الخليج العربي والجزيرة. مات سنة ١٩٩٤م.

(٩١)رسالة رقم ١٤٠، بتاريخ ٣٠ مايو ١٩٠٢م، من السير أوكنور سفير بريطانيا في الأستانة، إلى الماركيز لانسدون.

Bidwell, Op, Cit, vol.2, p.87

أيضاً: رسالة رقم ١٥٧، بتاريخ ١٤ يوليو ١٩٠٢م، من راتيسلو إلى السير أوكنور

Bidwell, Op, Cit, vol.2, p.94.

(٩٢) خزعل،تاريخ الكويت السياسي، ج٢، ص ٦٢.

(٩٣) الرشيد،تاريخ الكويت، ص ١٨٠.

(٩٤) خزعل،تاريخ الكويت السياسي، ج٢، ص ٦٢.

(٩٥) القاسمي، بيان الكويت، ص ٢٤٣.

(٩٦) السير أوكنور Sir N. O'Conor: سير نيقولا رودرك أوكنور، الذي تولى منصب سفير السفارة البريطانية في الأستانة في الأول من يوليو ١٨٩٨م . انظر: لوريمر، دليل الخليج(القسم التاريخي) ج٧، ص ٣٩٢٤ .

(٩٧)رسالة رقم ١٤٠، من السير أوكنور سفير بريطانيا في الأستانة، إلى الماركيز لانسدون.

Bidwell, Op, Cit, vol.2, p.87

(٩٨) راتيسلو Wratislaw: القنصل البريطاني في البصرة. تولى مهامه هذه من ٢٢ سبتمبر ١٨٩٨م حتى أول أغسطس ١٩٠٣م . كان كثير التباهي بتقاريره على غير معنى. انظر أنموذجاً من بعض مراسلاته الدالة على ذلك لدى: لوريمر،دليل الخليج (القسم التاريخي)، ج٧، ص ٣٩٤٥ .

أيضاً: Bidwell, Op, Cit, vol. 1 , part. 2, pp.17,18.

(٩٩)رسالة رقم ١٥٣، من اراتيسلو قنصل بريطانيا في البصرة، إلى حكومة الهند

البريطانية.

Bidwell, Op, Cit, vol.2, p.92.

أيضاً: رسالة رقم ١٥٧، بتاريخ ١٤ يوليو ١٩٠٢م، من راتيسلو إلى السير أوكنور.

Bidwell, Op, Cit, vol.2, p. 94.

(١٠٠) بونداريفيسكي،الكويت وعلاقاتها الدولية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ص ٣٤٤.

(١٠١) المرجع السابق، ص ٣٤٥.

(١٠٢) سلدانها،شؤون الكويت ١٨٩٦ / ١٩٠٤م، ص ١٩٩.

الفاو: هي مفتاح شط العرب، وآخر العمران من جهة الشط . انظر: دليل الخليج (القسم الجغرافي)، ج٢، ص ٦٩٢، ٦٩٨.

(١٠٣) لوريمر Lorimer : جورج لوريمر؛ من كبار الموظفين البريطانيين في الهند. عَهِدَ إليه المكتب البريطاني الذي كان يدعى ((قسم الخدمات المدنية بحكومة الهند البريطانية)) بجمع ما لديه عن علاقات بريطانيا ببلاد الخليج، فأخرج كتابه ((دليل الخليج)) . مات سنة ١٩١٤ م. انظر: الزركلي،شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز، ج١، ص ١٣١. أيضاً: زكريا،تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ج١، ص ٢٧.

(١٠٤) لوريمر،دليل الخليج (القسم التاريخي)، ج٣، ص ١٥٤٨.

(١٠٥)رسالة رقم ١٥٣، بتاريخ ٢٩ مايو ١٩٠٢م، من راتيسلو قنصل بريطانيا بالبصرة إلى حكومة الهند البريطانية.

Bidwell, Op, Cit, vol.2, p.92

(١٠٦) الرشيد،تاريخ الكويت، ص ١٨٠.

(١٠٧) خزعل،تاريخ الكويت السياسي، ج٢، ص ٦٢.

(١٠٨) بونداريفيسكي،الكويت وعلاقاتها الدولية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ص ٣٤٥.

(١٠٩) المرجع السابق، ص ٣٥١.

(١١٠) سلدانها، شؤون الكويت ١٨٩٦ / ١٩٠٤م، ص 200.

(١١١) رسالة رقم ١٥٧، بتاريخ ١٤ يوليو ١٩٠٢م، من راتيسلو إلى أوكنور .

Bidwell, Op, Cit, vol.2, p.94.

(١١٢) س. ريخرز Richarz: أول قنصل ألماني مُعَيَّن في بغداد في ٢٠ ديسمبر

١٨٩٥م . وقد كان رجلاً خاصاً لمهامٍ معينة ولا صلة له بالخدمات القنصلية الألمانية . ويذكر عنه أنه رجلٌ تسهلُ استثارته سياسياً . انظر: لوريمر،دليل الخليج(القسم التاريخي)، ج٧، ص ٣٩٥٧ .

(١١٣) الأرشيف الألماني في وزارة الخارجية ببرلين، A.1, Nr. 165, No. 6, Piera 572، القنصلية الألمانية القيصرية في ٩ يوليو ١٩٠٢ بعد الظهر، بغداد في ١٢ يوليو ١٩٠٢م إخبارية بتأريخ ١٢ / ٧، بيرا ١٧٢، بيروت، دمشق عن طريق Cspl، من Richarz، قراءة: ثيرابيا ٦ يوليو ١٩٠٢م مارشال Marschall .

(١١٤) نفس الوثيقة الألمانية السابقة.

(١١٥) نفس الوثيقة الألمانية السابقة .

(١١٦) الأرشيف الفرنسي في وزارة الخارجية بباريس، AE, NE, Mascate 3، 7, Consulat de France A Bagdad, N'6،Vice، رسالة من نائب القنصل الفرنسي في بغداد (جي . رواي)، بتأريخ ٥ يوليو ١٩٠١م .

(١١٧) زكريا،تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ج٢، ص ٣٣٣.

(١١٨) القاسمي،بيان الكويت، ص ٢٤٢.

(١١٩) لوريمر،دليل الخليج، ج٣ (القسم التاريخي)، ص ١٥٤٨.

(١٢٠) زكريا،تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ج٢، ص ٣٢٧.

(١٢١) بونداريفيسكي،الكويت وعلاقاتها الدولية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ص ٣٤٥.

(١٢٢) سلدانها،شؤون الكويت ١٨٩٦ / ١٩٠٤م،ص ١٩٩ .

(١٢٣) المستر دنيسون: هو الكابتن جون دنيسون قبطان الطراد البريطاني ملبومين الرابض في بوشهر. انظر: سلدانها،شؤون الكويت ١٨٩٦ / ١٩٠٤م، ص ١٠٠ . أيضاً: بونداريفيسكي،الكويت وعلاقاتها الدولية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ص ١٤٧ .

(١٢٤) سلدانها،شؤون الكويت ١٨٩٦ / ١٩٠٤م، ص ١٩٩، ٢٠٠ .

(١٢٥) بونداريفيسكي،الكويت وعلاقاتها الدولية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ص ٣٤٥ .

(١٢٦) لوريمر،دليل الخليج(القسم التاريخي)، ج٣، ص ١٥٤٩ .

(١٢٧) بونداريفيسكي،الكويت وعلاقاتها الدولية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ص ٣٥٠ .

(١٢٨) زكريا، تاريخ الخليج العربي الجديث والمعاصر، ج٢، ص ٣٢٧ .

كشاف المصادر والمراجع

الوثائق غير المنشورة:

الوثائق العثمانية:

الأرشيف العثماني بإسطنبول، Y,A,HUS، يلدز، معروضات، خصوصي، برقم ٥٤/ ٤١٤، تأريخها على الطريقة العثمانية للبرقيات: ١٨ مارس ١٣١٧ رومي.

الأرشيف العثماني بإسطنبول، DUIT، يلدز سراي همايون، بـــرقم ٨، ٢ / ٦٩، تأريخ: غرة ربيع الآخر ١٣١٩ هـــ، (١٧ يوليو ١٩٠١م).

الأرشيف العثماني بإسطنبول، Y.PRK.BSK، يلدز، القصر الهمايوني، متفرق، برقم ٣٦٧٤، تاريخ ١٢ جمادى الأول ١٣١٩هــ (يوافق: ٢٦ أغسطس ١٩٠١م).

الأرشيف العثماني بإسطنبول، I,DAH، إرادة داخلية، برقم ١٩ CA ١٣١٩ / ٥٠، تأريخ ١٥ جمادى الأول ١٣١٩هـــ، (يوافق: ٢٩ أغســـطس ١٩٠١م).

الأرشيف العثماني بإسطنبول، Y,PRK,BSK، يلـــدز، أوراق متفرقـــات، همايوني، برقم ١١ / ٣٦٧٤، بتاريخ ٢٢ جمادى الأول ١٣١٩ هـــ، (يوافق: ٥ سبتمبر ١٩٠١م).

الأرشيف العثماني بإسطنبول، Y,A,HUS، يلدز، معروضات، خصوصي، برقم ٦٨ / ٤٢١، تأريخ ٢٤ شعبان ١٣١٩ هـــ، (٥ ديسمبر ١٩٠١م).

الأرشيف العثماني بإسطنبول، Y,A,HUS، يلدز، معروضات، خصوصي (دار صدارت عظمى / شفر يلمي عدد)، برقم ٢٩ / ٤٢٣، بتأريخ ١١ رمضان ١٣١٩ هـــ، (يوافق: ٢٣ ديسمبر ١٩٠١م).

الوثائق البريطانية:

I.O.L.R/R/15/1/473,fos.424, from Gaskin, in 2nd April 1900.

I.O.L.P.S/10/51/1855/372 From Sir O'Conor to the Marquess of Lansdown, 16 May 1904.

الوثائق الفرنسية:

الأرشيف الفرنسي لوزارة الخارجية في باريس:

Paris AE.NS. Mascat, 6 (cont.D), Anners. Du 9th Septembre 1901. Rouet, Vice .Consulat de France a Bagdad, No, 133, telegramme, communiqe a l'Ambassade.

الأرشيف الفرنسي لوزارة الخارجية بباريس:

Consulat de France A ، 7, Vice،AE, NE, Mascate 3 Bagdad, N'6، رسالة من نائب القنصل الفرنسي في بغداد (جي. رواي)، بتأريخ ٥ يوليو ١٩٠١م.

الوثائق الألمانية:

الأرشيف الألماني لوزارة الخارجية في برلين:

A.1, Nr. 165, No. 6, Piera 572، القنصلية الألمانية القيصرية في ٩ يوليو ١٩٠٢ بعد الظهر، بغداد في ١٢ يوليو ١٩٠٢م إخبارية بتأريخ ١٢ / ٧، بيرا ١٧٢، بيروت، دمشق عن طريق Cspl، من Richarz، قراءة: ثيرابيا ٦ يوليو ١٩٠٢م مارشال Marschall.

ثانياً: **الوثائق المنشورة**

الوثائق المنشورة باللغة الأجنبية.

The Affairs of Kuwait 1896, 1905, Edited with new material and a new introduction, Vol. 2 (1902, 1905), Frank Cass And Company Limited, London, 1971.

Bidwell, Dr. robin, Secretary of the Middle East Center, Cambridge.

الوثائق المنشورة باللغة العربية:

الأعظمي، وليد حمدي، (١٩٩١م)، الكويت في الوثائق ابريطانية ١٧٥٢ / ١٩٦٠م، ، ط١، لندن وقبرص، رياض الريس للكتب والنشر، لندن وقبرص.

رضا، علي بن غلوم، (٢٠٠٧م)، أخبار الكويت رسائل علي بن غلوم رضا الوكيل الإخباري لبريطانيا في الكويت ١٨٩٩ / ١٩٠٤م، ط (بلا)، تحرير وتقديم عبد الله يوسف الغنيم، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت.

سلدانها، ج. ج. (١٩٩٠م)، شؤون الكويت ١٨٩٦ / ١٩٠٤م، ترجمة: فتوح الخترش،ط٢، ذات السلاسل، الكويت،. طبع مسبوقاً بعنوان ((التاريخ السياسي للكويت في عهد الشيخ مبارك)).

القاسمي، سلطان بن محمد، (٢٠٠٤م)، بيان الكويت: سيرة حياة الشيخ مبارك الصباح،ط١، الناشر: المؤلف، الشارقة.

لوريمر، ج ج. (ت.ن. بلا)،دليل الخليج (القسمين: التاريخي والجغرافي)، ترجمة ديوان حاكم قطر،ط (بلا)، مطابع علي بن علي، الدوحة.

المصادر العربية، والمعرَّبَة:

ابن عيسى، إبراهيم، (١٩٩٩م)، تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ووفيات بعض الأعيان وأنسابهم وبناء بعض البلدان من ٧٠٠ هـ إلى ١٣٤٠ هـ، ط (بلا)، الأمانة العامة، الرياض.

آل عثيمين، صالح عبد العزيز، (٢٠٠١م)، تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة، ج ٣، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت.

خزعل، حسين خلف الشيخ، (١٩٦١م)، تاريخ الكويت السياسي، ج٢، ط (بلا)، دار مكتبة الهلال، بيروت.

الدخيل، سليمان بن صالح، (١٩٦٨م)، القول السديد في إمارة آل رشيد (طبع ملحقاً بكتاب:نبذة تاريخية عن نجد لضاري الرشيد)، ط١، ، دار اليمامة، الرياض.

دروملين، فان، (١٩٩٩م)، الملك ابن سعود والجزيرة العربية الناهضة، ترجمة: ويسي آي. سي، ط (بلا)، دارة الملك عبد العزيز، الرياض.

الرشيد، عبد العزيز، (ت. ن. بلا)، تاريخ الكويت، بحواشي ابن المصنف: يعقوب عبد العزيز الرشيد،ط (بلا)، دار مكتبة الحياة، بيروت.

الزركلي، خير الدين، (١٩٩١م)، شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز، ١٩٩١م، ج١، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت.

دي طرازي، الفيكونت فيليب، (١٩٨٨م)، تاريخ الصحافة العربية، ج٢، ط (بلا)، المطبعة البيروتية، بيروت.

القناعي، يوسف، (١٩٨٨م)، صفحات من تـاريخ الكويـت، ط٥، ذات السلاسل، الكويت.

وهبة، حافظ، (١٩٥٦م)، جزيـرة العـرب فـي القـرن العشرين،ط٣، د. ن (بلا)، القاهرة.

ويلسون، أرنولد، (ت. ن. بلا)، الخليج العربي، تعريب: عبد القادر يوسف، ط(بلا)، مكتبة الأمل، الكويت.

المراجع العربية، والمعربة:

إبراهيم، عبد العزيز عبد الغني، (١٩٨٢م)، أمراء وغزاة، قصـة الحـدود والسيادة الإقليمية في الخليج دراسة وثائقية،ط١، دار الساقي، بيروت.

إبراهيم، عبد العزيز عبد الغني، (١٩٨٢م)، سياسة الأمن لحكومة الهند فـي الخليج العربي،ط١، دارة الملك عبد العزيز، الرياض.

بركات، مصطفى، (٢٠٠٠م)، الألقاب والوظائف العثمانيـة، ط(بـلا)، دار غريب، القاهرة.

بونداريفيسكي، غيورغي، (١٩٩٤م)، الكويت وعلاقاتها الدولية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ط١، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت.

بيريبي، جان جاك، (١٩٥٩م)، الخليج العربي، ط١، ترجمة: نجدة هاجر و سعيد الغز، المكتب التجاري، بيروت.

الحاتم، عبد الله، (١٩٨٠م)، من هنا بدأت الكويـت، ط٢، مطـابع القـبس، الكويت.

الخترش، فتوح(١٩٨٤م)، تاريخ العلاقات السياسية البريطانيـة الكويتيـة ١٨٩٠ / ١٩٢١ م،ط٢، ذات السلاسل، الكويت.

زكريا، جمال،(٢٠٠١م)، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ج٢،ط٢، ، دار الفكر، القاهرة.

السعيدان، حمد،(١٩٧٠م)، الموسوعة الكويتية المختصرة، ج٢، ط١، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت.

الشمري، خليف، (٢٠٠٦م)، المستودع والمستحضر في أسباب الخلاف بين مبارك الصباح ويوسف الإبراهيم ١٨٩٦ / ١٩٠٦م، ط(بلا)، دار نينوى، دمشق.

الشناوي، عبد العزيز، (١٩٩٧م)، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها،ج٣، ط(بلا)، الأنجلو المصرية، القاهرة.

العزاوي، عباس، (١٩٥٥م)، تاريخ العراق بين الاحتلالين، ج٨، ط(بلا)، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد. المطبوعات، بيروت.

الفرحان، راشد، (١٩٩٦م)، معجم الأماكن الكويتية، ط١، د. ن (بلا)، الكويت

فاسلييف، ألكسي، (١٩٩٥م)، تاريخ العربية السعودية، ط١.

المراجع الأجنبية:

Al.Ghanim, Salwa, **The Reign of Mubarak Al،Sabah Sheikh of Kuwait 1896،1915.** I.B.Tauris Publisher's, London. New York,

الصحف الأجنبية:

The Times. 16th May 1901. The Fighting In Arabia.(جريدة التايمز)

The Times, 11 October 1901. The Persian Gulf. (جريـــدة التـــايمز) Semla 30 Sep

The Times, Sep 27th 1901. Turkey And Persian (جريـــدة التـــايمز) Gulf, British Cruiskr's Action , from our Correspondent.

النقل النهري في مصر
في عصر محمد علي باشا [*]

د. الشيماء محمد بدوى
كلية الآداب – جامعة كفر الشيخ

اهتم محمد علي باشا بالنقل النهري كثيراً؛ وذلك لأهميته وكونه من أهم وسائل الانتقال في البلاد؛ حيث تعددت الأغراض التي استخدمت فيها المراكب، فبالإضافة إلى استخدامها في نقل المحاصيل ولوازم الزراعة والبضائع في شتى أنحاء القطر المصري، استخدمت أيضاً في نقل الجنود والركاب سواء داخل البلاد المصرية، أو بين مصر والسودان، كما استخدمت أيضاً في نقل السياح الأجانب الذين وفدوا إلى البلاد[١]، كذلك استخدم النقل النهري في البريد، وتبادل المراسلات وخصوصاً بين القاهرة والإسكندرية، ففي عام ١٢٥٢هـ/ ١٨٣٦م أرسل إبراهيم باشا إلى أرتين بك ناظر التجارة والأموال الخارجية بالإسكندرية في تلك الفترة اقتراحات بمجموعة من الإصلاحات لتسهيل حركة النقل والتجارة والسياحة النهرية[٢].

وقد توسع محمد علي باشا في إنشاء العديد من الترع والقنوات لاستخدامها في عمليات النقل النهري، وتأتي على رأسها ترعة المحمودية التي استخدمت كطريق للمواصلات النيلية ما بين الإسكندرية وداخل البلاد، مما زاد من أهمية ميناء الإسكندرية، واتساع حركة التجارة بها، إذ كانت ترعة المحمودية تحمل حاصلات البلاد، بالإضافة إلى التوسع في الري الصيفي [٣].

كما حرص محمد علي باشا على بقاء المياه في ترعة المحمودية،

---

[*] مجلة المؤرخ المصرى، عدد يوليو ٢٠١٥

وتقسيم المياه بينها وبين ترعة الخطاطبة للحفاظ على الزراعة الصيفية إلى جانب حركة الملاحة بها، ولذا صدرت اللوائح التي تشدد على ضرورة متابعة المياه بها بحيث لا تنخفض عن ١٢ ذراعاً، وهو الحد الأدنى المسموح به لسير المراكب فيها منعا لغرقها، ونتيجة لذلك قام محمد علي بتعيين مهندس مسئول عن متابعة منسوب المياه في ترعة المحمودية وتقسيم المياه بينها وبين باقي الترع حرصا منه على وجود المياه عند المنسوب المحدد لضمان سير المراكب بها [٤].

كذلك اهتم محمد علي باشا بحفر الترع وتعميقها سنوياً[٥]، حتى أنه سأل ذات مرة عن "الأوسطة الأجنبي الذي باشر إنشاء الكراكة اللازمة لتطهير ترعة المحمودية، واستدعاه إلى مصر لإنشاء كراكة أخرى فيها، وعما إذا كان قد انتهى من إنشاء كراكة مصر أم لا؟ ومتى يمكن القدوم إليه"[٦].

أيضاً تم إنشاء عدد من القناطر على بعض الترع في القليوبية والفيوم والجيزة وأسيوط وجرجا وقنا لضبط مستوى المياة وتوزيعها، بالإضافة إلى القناطر الخيرية بغرض الحفاظ على منسوب المياه بالممرات المائية، وبالتالي العمل على تحسين الملاحة في الترع، والنهوض بفرعي دمياط ورشيد[٧].

أولاً: **تصنيع المراكب وبيعها للأهالي:ــ**

اهتم محمد علي باشا بصناعة المراكب المستخدمة في النقل النهري، فأنشأ ترسانتين إحداهما في بولاق[٨]، والأخرى في الإسكندرية لصناعة السفن اللازمة لنقل المحاصيل والبضائع المختلفة داخل البلاد[٩]، حيث بلغ عدد المراكب التي كانت تسير في نهر النيل ما يزيد على ثلاثة الآف مركب استخدمت في عمليات النقل، ولم تخاطر بالنزول في البحر المتوسط[١٠].

وكانت الأوامر تصدر من محمد علي باشا إلى الترسانة بسرعة تصنيع المراكب التي تحتاج إليها البلاد، وتحديد حمولة كل مركب، وأيضاً الفترة التي تستغرقها عمليات التصنيع، حيث أصدر محمد علي باشا أوامره

إلى ناظر ترسانة الإسكندرية بما يلي: " إننا نأمركم بإنشاء عشرين سفينة نيلية تصلح لشحن ذخيرة تتراوح بين ٢٥٠ و ٣٠٠ إردب، ويصرف جهودكم في إكمالها في ثلاثين يوماً وإرسالها إلى هنا ....فعليكم جمع جميع النجارين والقلفاتية وتسخيرهم في إنشاء السفن المطلوبة" ، كما أرسل أيضاً إلى كل من محافظ دمياط ورشيد، وطلب منهما سرعة إنشاء عشر سفن بكل منها، وإرسالها له[١١]، كما بلغت عدد المراكب التي صنعت بترسانة بولاق ما يزيد على ١١١٥ مركباً[١٢].

وكانت هذه المراكب مقسمة إلى نوعيين؛ أحدهما خاضع للحكومة، وأطلق عليه مراكب الميري، والآخر كان تابعاً للأهالي، وأطلق عليه البراني، وكلا من النوعيين خضعا لنفس القوانين واللوائح التي سنتها الحكومة لتيسير عمليات النقل[١٣].

وكانت المراكب الميرية بعد تصنيعها يتم توزيعها على رؤساء المراكب بالضمان على العهد التابعين لها، فيحصل كل ريس مركب على وصل يدون فيه اسم العهدة التابع لها، وحمولة المركب الخاصة به، وعدد أفرادها ويسجل ذلك في العهدة التابع لها والأشوان الرئيسية، وعند مرورهم بالعطف[١٤].

أما المراكب البراني فبيعت في البداية بالتقسيط للأهالي، وكان سعر المركب يحدد طبقاً لحمولتها، ويتم تقسيط المبلغ على عدد من السنوات وصل إلى خمس سنوات في بعض الأحيان، حيث حققت الترسانة أرباحاً كبيرة من خلال تصنيع المراكب وبيعها للأهالي بلغت حوالي ٥٩٦٠ كيساً[١٥] سنوياً، بالإضافة إلى القسط السنوي، والذي بلغ حوالي ٥١٠٠ كيس، وبعد انتهاء السنوات الخمس تصبح هذه المراكب ملكاً للأهالي بشرط تسديد أقساطها كاملة[١٦].

وفي حالة عدم قدرة الأهالي على تسديد الأقساط السنوية، أو تأخرهم في دفعها، فكانت تُعطَى لهم بعد نهاية كل سنة فترة سماح من ثلاثة إلى أربعة أشهر، وفي هذه الفترة كانت الحكومة تستخدم المراكب في المصالح.

الميرية حتى يتم تسديد ماعليها من أقساط، ثم تعود مرة ثانية لأصحابها من الأهالي(١٧).

وبعد فترة بحثت الحكومة عن طريقة أخرى لبيع المراكب للأهالي غير البيع بالتقسيط نظراً لانقطاع المورد المالي بعد انتهاء فترة التقسيط، ولرغبتها في استمرار تدفق الأموال إلى خزانة الحكومة؛ لذا استبدلت الحكومة هذه الطريقة بطريقة أخرى وهي البيع من خلال الضمان؛ حيث يتقدم الشخص الذي يريد الحصول على مركب بدفع مبلغ من المال يكون بمثابة ضمان للحصول على المركب لمدة ثلاث سنوات، وهذا النظام أشبه بنظام تأجير المراكب، حيث يتم تحصيل رسوم سنوية لصالح الحكومة تورد للترسانة التي حصل الشخص منها على المركب(١٨).

وقد رأت الحكومة أن النظام الثاني أفضل لأنه يُعد مورداً مالياً مستمراً بعكس بيع المراكب للأهالي بالتقسيط لمدة خمس سنوات، فبعد انتهاء هذه الفترة تصبح المركب ملكا لهم، أما في حالة تأجيرها في النظام الثاني فإن الشخص يمتلك فقط حق الانتفاع، وفي حالة عجزه عن دفع الأموال المقررة سنوياً تخصم الأموال من مبلغ الضمان الذي دفعه في البداية، وكانت تترك له فترة سماح تمتد إلى ثلاثة أشهر في أول سنتين، وفي السنة الثالثة تزداد الفترة إلى أربعة أشهر، وبعد انتهاء فترة التأجير تعود المركب مرة ثانية إلى الترسانة ليعاد تأجيرها للأهالى من خلال دفع الضمان(١٩).

كما عين معاون بالأشوان الرئيسية لكي يتولى تقييد قائمة بالمراكب الكبيرة والصغيرة، وأسماء رؤسائها وشهرتهم، ومقدار حمولاتها، وتولى أيضاً البحث عن المراكب الجديدة، وتقييدها بالسجلات، مع تدوين أية مخالفات تصدر ضد أي من رؤساء المراكب سواء أكانت سرقة أو إهمال، وترفع هذه السجلات لحاكم البحر لمنع تأجير المراكب مرة ثانية لأي من رؤساء المراكب المخالفين، بالإضافة إلى ذلك تم تعيين كل من صراف ومخزنجي وقباني وقواص بمصلحة المرور لضبط المخالفات التي تصاحب الشحن بالمراكب، ولضمان عمليات الجرد والاستلام، وضمان وصولها إلى

الأماكن المحددة لها[٢٠].

وكانت الترسانة تتولى صيانة المراكب.سنوياً، وتعفى المراكب أثناء فترة الصيانة من دفع الأموال المقررة عليها، لذا كان محمد على باشا حريصاً على توفير المواد الخام اللازمة لعمليات الصيانة، وذلك لسرعة الانتهاء من صيانة المراكب حتى لا يسبب ذلك خسائر سواء في نقل المحاصيل، أو خصم مدة الصيانة من البقايا التي كانت توجد على كل مركب[٢١].

ولسرعة الانتهاء من تصليح المراكب فقد تم تعيين عدد من الصناع المهرة بلغ عددهم ٦ أنفار بكل من ترسانتي الإسكندرية وبولاق، وبلغت أجورهم ١٢٥ قرشاً في الشهر واختصوا بتصليح وصيانة المراكب النهرية[٢٢]، وفي حالة الحاجة إلى المزيد من الصناع كان محمد علي يرسل إلى نظار الأقسام لتوفير العدد اللازم، واشترط أن تتراوح أعمارهم ما بين ١٦إلى ١٨ عاماً، كما اشترط أيضاً أن يتمتع هؤلاء بقوة أجسادهم، وخلوهم من الأمراض، كما أرسل أحد الأفراد إلى الخارج لتعلم صناعة المراكب، ثم العمل بالترسانة بعد عودته إلى البلاد[٢٣].

كذلك تم انشاء عدد من مراكز الصيانة على طول الممرات المائية بالوجة القبلي، بالإضافة إلى رشيد ودمياط، إذ كان يرسل إلى القبودانات قبل فيضان النيل الخامات التي يحتاجون إليها في عمليات الصيانة والتصليح ومنها مائة قنطار من القار وخمسة قناطير من القطران، وعشرة قناطير مسامير، بالإضافة إلى لأقمشة المستخدمة في تصنيع الأشرعة، وتتم عمليات التصليح للمراكب بغض النظر عما إذا كان ريس المركب معه الأموال اللازمة التي تعادل تكلفة التصليح، إذ كان يؤخذ عليه سند، ويرسل هذا السند إلى ناظر شونة بولاق، وتخصم تكلفة الصيانة دون زيادة من أجره الذي يحصل عليه[٢٤].

ثانياً: أجور المراكب وعدد أفرادها : ــ

استخدمت الحكومة كلاً من المراكب الميري والبراني في نقل المحاصيل والبضائع المختلفة، وكانت قيمة أجور هذه المراكب تحسب طبقاً لما تحدده الحكومة، إذ كان يتم استقطاع الخمس من محاصيل ومواشي القرى وتخصص لصالح النقل بالمراكب(٢٥).

وفي عام ١٢٥٧هـ/ ١٨٤٠م صدر قرار من محمد علي أقر فيه بإعطاء المراكب سواء الميري أو البراني أجرهم كاملا على حسب حمولتها، حيث كان يستقطع الثلث أو الربع من أجورها، كما حدد القانون صرف أجر المراكب في أوقاتها، وأكد محمد علي على ضرورة عدم تأخير صرف العرابين التي كانت تعطى مقدماً لرؤساء المراكب سواء مراكب الميري أو البراني، إذ كان يصرف للمراكب الميري ربع الأجر مقدماً، والثلث للمراكب البراني، ثم تحصل على باقي أجورها من الترسانة بعد خصم ما عليها من أموال(٢٦).

كما كان محمد علي يصرف لصالح رؤساء المراكب جزءاً من المحاصيل حسب حمولة مراكبهم كجزء من رواتبهم، وتسمى (الخبزة)، فالمركب التي تزيد حمولتها عن ٧٠٠ إردب يحصل ريسها عن كل ١٠٠ إردب نصف إردب من الغلال، والمركب التي تقل عن ذلك يُحصل ريسها ثلثي إردب من الغلال أو من الذرة، أما إذا كانت المركب محملة بالأحجار أو الفحم أو الآلات أو المسكة فتقدر قيمة الخبزة أموالاً، وتصرف لريس المركب، وكانت تخصم قيمة الخبزة من العربون الذي يحصل عليه ريس المركب مقدماً والذي كان يقدر بالثلث في المراكب البراني، والربع في المراكب الميري(٢٧).

كذلك اتخذ المجلس العالي التابع له النقل النهري قراراً بتشجيع رؤساء المراكب الذين يعملون بالضمان على العهد التابعين لها خصوصاً في المراكب الميرية بإعطاء كل ريس مركب عن كل إردب تحمله مركبه ٣ فضة(٢٨)، وكل قنطار نصف فضة، ويتم تجميع مقدار ما تم شحنه على مدار الشهر، ويدون ذلك في وصل، ويصرفه في نهاية كل شهر من العهدة

التابع لها المركب؛ وذلك حرصاً على سرعة نقل البضائع(٢٩).

وقد اختلفت قيمة الأجور الشهرية التي يحصل عليها كل من ريس المركب وأفراد الطائفة الذين يعملون على المراكب البراني عنها في المراكب الميري، حيث ارتفعت أجور العاملين على المراكب البراني كما يوضح الجدول التالي مما أثر على عدد العاملين على المراكب الميري، والتي كانت تعاني عجزاً كبيراً في الأعداد المطلوبة للعمل عليها، وهروبهم من العمل(٣٠).

جدول رقم (١)

جدول الأجور الشهرية لأفراد المركب

المراكب البراني

الوظيـــفة	الأجر بالقرش
الريس	١٠٠ -١٥٠
أفراد الطائفة	٧٥

المراكب الميري

الوظيـــفة	الأجر بالقرش
الريس	٦٠
أفراد الطائفة	٤٠

المصدر: ديوان الجفالك : الكود الأرشيفي ٢٠٠٠٠٢٠ - ٣٠٠٦، سجل بعنوان لائحة عن عملية البحور عامر وتاريخ ذلك من ابتدى عام ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م المقتضى الأمر الصادر من الأعتاب الكتخداوية وعن بيان بجهات بموجب التعريفة القديمة ، ص ١.

ويتضح من الجدول السابق انخفاض أجور أفراد المراكب الميري لحوالي النصف بالنسبة لأجور أفراد المراكب البراني؛ ولذا كانت مراكب الميري تعاني عجزاً كبيراً في توفير الأعداد اللازمة لها، وقد فطن محمد علي إلى ذلك، ووجد أن السبب في عزوف الأفراد عن العمل في المراكب الميري هو انخفاض أجورهم، لذا قرر زيادة أجور المراكب الميري بمقدار الثلث ابتداءً من رمضان ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م، ثم يزداد الأجر مرة ثانية بمقدار النصف ابتداءً من ذي القعدة من نفس العام، مع زيادة الأجور سنوياً بمقدار النصف، وبهذا عمل محمد علي على رفع أجور أفراد المراكب الميري في محاولة منه لجذبهم للعمل على المراكب الميري، ومنع تأخير

عمليات النقل المختلفة، ومن ناحية أخرى تقليل الفجوة بين أجور المراكب الميري والمراكب البراني(٣١).

كما حرص محمد علي على تطبيق السياسة الجديدة لأجور المراكب الميري من خلال إصدار أوامره بإعداد تقارير نصف شهرية عن المراكب التي تم شحنها، والتي وصلت إلى الأماكن المحددة لها، ومقدار الأجور التي صرفت لأفرادها، مع مراقبة كل من العمد والمشايخ والوكلاء ومديري المديريات بكل مديرية لتنفيذ سياسة محمد علي بزيادة أجور أفراد المراكب الميري، وإرسال تقارير شهرية بذلك متضمنة أيضاً مقدار أجورهم، وشحنهم، ومدى تشهيلهم في عمليات النقل(٣٢).

وقد تم تحديد أجور المراكب طبقاً لحمولتها، وأماكن وجود الأشوان، فكلما زادت المسافة بينها وبين الأشوان الرئيسية كلما ارتفع أجر المركب، بالإضافة إلى وجود هذه الأشوان في أماكن تمثل خطورة على المراكب قد تعرضها للغرق، فضلاً عن شدة الحاجة إليها خصوصاً في مواسم الحصاد أو الزراعة، حيث لجأ محمد علي إلى إغراء رؤساء المراكب بمضاعفة أجور النقل حتى بلغت أربعة أضعافها في الأماكن التي تزداد خطورتها، وذلك تحت إشراف كل من ناظر البحر ورؤساء المراكب المتعهدين بكل مديرية(٣٣).

فقد تضاعف أجر المراكب التي استخدمت في نقل حاصلات أشوان كل من اسنا وكوم بيرو الصلية وإدفو والرمادي(٣٤) وحمرات وفرشوط، ودمياط ورشيد في قنطرة حماد وبريتال ومطوبس وفارسكور، أما بالنسبة لأشوان الصناعية والسلامية وأولاد عمر فقد بلغت أجرة المراكب بها ثلاثة أضعاف الأجر، كما بلغت الأجور أربعة أضعافها للمراكب التي تمر من الترع التالية: بحر يوسف واللاهوت ومويس وشبين والترع الصغيرة التي تتفرع منها والبوهية ورويس ودمنهور والترع المتفرعة منها والمحمودية لما بها من خطورة(٣٥).

ولحرص محمد علي على عدم تأخير عمليات النقل، فقد أكد على

صرف أجور أفراد المركب، وعدم تأخيرها؛ وذلك بسبب هروب أفراد العديد من المراكب سواء أكانت الميري أو البراني بسبب عدم صرف أجورهم، حيث تقدم الريس محمد التركي بالشكوى هو وتسعة أخرون من رؤساء المراكب من أنهم قاموا بعمليات نقل للبضائع، وبالرغم من حصولهم على وصل من الترسانة بذلك، ولكنها ترفض إعطاءهم أجورهم المستحقة(٣٦).

وقد صدرت اللوائح والقوانين التي حددت حمولة كل مركب، وأيضاً عدد الأفراد اللازمين لها، وأطلق عليهم أفراد الطائفة، والذين اختلفوا طبقاً لحمولة المركب، إذ كانت المراكب التي تزيد حمولتها عن ١٩٠ إردباً يتكون طاقمها من ريس ومسهل بالإضافة إلى عدد من الطوائف طبقاً لحمولتها، أما المراكب التي تقل حمولتها عن ١٩٠ إردباً فكان طاقمها لا يشتمل على مسهل، وتكتفي فقط بالريس، بالإضافة إلى باقي أفراد الطائفة الذين يتناسبون مع حمولة المركب كما هو موضح بالجدول التالي(٣٧).

جدول رقم (٢) عدد أفراد المركب طبقاً لحمولتها.

الحمولة بالأردب	عدد أفراد المركب
١٤٠٠- ١٦٠٠	١٦
١٢٠٠- ١٣٠٠	١٥
٩٥٠ - ١١٠٠	١٣
٧٥٠- ٩٠٠	١٢
٦٠٠ - ٧٠٠	١١
٤٠٠ - ٥٥٠	١٠
٣٠٠ - ٣٥٠	٨
٢٠٠ -٢٥٠	٧
١٠٠ - ١٩٠	٥
٥٠ - ٨٠	٤
١ - ٤٠	٣

المصدر: محفظة الميهي: وثيقة رقم ٤٨/ ١ الميهي، صورة لائحة منظمة بمعرفة ترسانة بولاق وتقدمة إلى

الجمعية العمومية عن ترتيب طوايف المراكب باعتبار حمولة وما صار ترتيبه إلى كل حمولة، ص ١.

ومن خلال الجدول السابق يتضح لنا وجود علاقة طردية بين حمولة المركب وعدد أفراد الطائفة، فكلما زادت حمولة المركب ازداد عدد أفراده.

ولم تلتزم المراكب بهذا العدد في حالة تحميلها بالذهب، حيث كان يتضاعف عدد أفراد الطائفة بغض النظر عن حمولة المركب(٣٨).

وقد شدد محمد علي باشا على أن يلتزم كل مركب سواء أكانت ميرياً أم برانياً بعدد أفراد الطائفة الذين يتناسبون مع حمولة المركب، إذ كان ريس المركب يتعرض للعقاب إذا وجد لديه عجز في أحد أفراد مركبه(٣٩).

وطبقاً لذلك تم تعيين قبودانين عند كل من شبرا ومصر القديمة يختص كل منهما بتفتيش المراكب الميري والبراني لمراقبة عدد الطوائف، ومناسبته لحمولة المركب، وفي حالة العجز كان يرسل ريس المركب المخالف إلى ترسانة الإسكندرية لتوقيع العقاب عليه من قبل ناظر الديوان وقبودان الإسكندرية، وتعفى المراكب البراني من هذا الشرط في حالة تحميلها بالبضائع الخاصة بالأهالي(٤٠).

وكانت غالبية المراكب تعاني عجزً كبيرً في توفير العمالة اللازمة لها مما أدى إلى قيام محمد علي باشا بإصدار قرار بإعفاء كل من يعمل من أفراد الطائفة ورؤساء المراكب وأقاربهم من أعمال السخرة والتجنيد الإجباري(٤١)، حيث ذكر:" فاستصوب أن يصدر أوامر أكيدة إلى كافة المديريات قبلي وبحري والعهد والجفالك وغيره بالتنبيه على مشايخ النواحي وحكام الأخطاط بساير الأطراف بعدم التعرض إلى المراكبية وعدم أخذ عيالهم إلى الترع والجسور والجهادية" كما أمر بالبحث عن الهاربين من أفراد المركب(٤٢).

ثالثاً: تنظيم عمليات نقل البضائع من خلال المراكب:

اتخذت الحكومة مجموعة من الإجراءات لتسهيل نقل المحاصيل والبضائع وسرعته من خلال المراكب، ومنها تحديد أماكن وجود الأشوان

بكل قرية، والتي اشترط في إقامتها أن تكون بالقرب من الممرات المائية لسهولة شحن المراكب(٤٣)، كما وجد بكل شونة كيال ووزان لكيل أو وزن المحاصيل، وحصر المعدات والأدوات التي كانت تنقل من مكان لآخر طبقاً لحاجة البلاد في القطر المصري(٤٤).

كما تم تحديد فترات محددة للشحن والتفريغ، وعلى كل المراكب الالتزام بها، حيث كانت تتركز عمليات الشحن والتفريغ في شهور يونيو ويوليو وأغسطس (بشنس وباؤونة وأبيب ومسرة) لنقل المحاصيل من الأشوان الفرعية إلى الأشوان المركزية(٤٥).

ولضمان عدم تأخر نقل المحاصيل تم عمل سركي (أمر تشغيل) يسجل فيه تاريخ إقلاع المركب، ووزنها، وحمولتها، وعند وصول المركب إلى المكان المطلوب كانت تتم إعادة وزن حمولتها، وتسجيل تاريخ وصولها بالسركي، وكانت تقدر الفترة الزمنية التي تستغرقها المركب مع إضافة بعض الأيام تحسباً لأي ظروف طارئة، ومن يتجاوز كل الفترة للوصول إلى الأماكن المحددة له كان يتعرض للعقاب من قبل ناظر الترسانة(٤٦).

ونتيجة لوجود القناطر على نهر النيل، بالإضافة إلى شدة تيار المياه – في بعض الأحيان –لجأت الحكومة إلى وضع إشارات على النهر؛ اثنين منها أمام القناطر، وأخرى خلفها، وهذه الإشارات عبارة عن عدد من البراطيم، فإذا كانت هذه البراطيم أو الإشارات مرفوعة، فهذا يعني أن المراكب الكبيرة ترسو بالبر، ويكون المرور من خلال القبودان المسئول عن ذلك، أما إذا لم تكن الإشارات مرفوعة، فتمر المراكب من بين البراطيم المخصصة للمرور، كما شدد محمد علي على منع وقوف المراكب لفترات طويلة في منطقة الجرف بنهر النيل مما ينتج عنه تكدس المراكب، وتعطيل سيرها أثناء ذهابها إلى ترعة المحمودية، وعودتها فيها، وبالتالي تعطيل عمليات النقل، وبناءً عليه تم تعيين أحد أفراد الترسانة لتنظيم حركة المرور بمنطقة الجرف(٤٧).

أما أثناء الليل فقد تم وضع فوانيس عوضاً عن الإشارات، والسماح

للمراكب الصغيرة فقط بالعبور ليلاً، أما المراكب الكبيرة فكانت ترسو بالبر حتى الصباح تفادياً لحدوث أية خسائر(٤٨).

ولهذا تم ترتيب عدد من القبودانات المسئولين عن رفع ونزول الإشارات التي تدل على شدة تيار المياه والرياح من الأمور التي تعوق حركة مرور المراكب، وتؤثر عليها، واشترط في هؤلاء القبودانات الخبرة، والإلمام بأمور المناخ والطقس(٤٩).

ونظراً لتزايد تأخير المراكب عن الوصول في الفترات المحددة لوصولها، وكثيراً ما عُزي أسباب ذلك إلى سوء الطقس والمناخ، لذا اقترحت الحكومة تعيين عدد من المسئولين عن تدوين حالة الطقس يومياً خلال ساعات اليوم من الصباح حتى الظهر، ومن الظهر حتى المغرب، حيث تم تعيين ثلاثة مسئولين عن حالة الطقس بإقليم الصعيد، وسمي هذا الشخص بالقنجة (أي المسئول عن تدوين حالة الطقس)، وواحد بدمياط، وواحد ببحر شبين، وساعد القنجة في عمله كاتب وناظر وقباني وكيال و ١٦ نفراً من الطوائف، بالإضافة إلى مسهل وريس(٥٠)، وأسند لهؤلاء الموظفين – القنجة ومساعديه- تدوين الطقس اليومي، بالإضافة إلى كيل المحاصيل التي يتم شحنها بالمراكب، وتحديد الفترة الزمنية التي تستغرقها كل مركب للوصول إلى المكان المحدد لها(٥١).

كما خصص لهؤلاء الموظفين – القنجة ومساعديه – رواتب شهرية لقاء قيامهم بأعباء وظيفتهم وهي كما يوضحها الجدول التالي:

جدول رقم (٣)

الأجور الشهرية لكل من القنجة ومساعدوه

الوظيفة	الأجر بالقرش
القنجة	١٣١٠
الناظر	١٠٠٠
الكاتب	١٢٥
القباني	١٢٥
الكيال	١٠٠
الريس	١٠٠
المسهل	٦٠
أفراد الطائفة	٥٠

المصدر: محفظة الميهي: وثيقة رقم ١/١١ الميهي، تقرير شاكر شاكر أفندي مدير أشغال المحمودية، ص٢.

ولحراسة الطرق النهرية تم تعيين عدد من القبودانات والعساكر لحراستها، ومنع سرقة المراكب، حيث خصصت ١٥مركباً بكامل أفرادها مختلفة الأحجام لتطوف داخل الممرات النهرية لتيسير حركة المراكب بها وحمايتها [٥٢].

ونتيجة شكوى رؤساء المراكب من تعدي القبودانات والعساكر عليهم، وتعرضهم للسرقة، تم اختيار ٢٩ من رؤساء المراكب أطلق عليهم الرؤساء العمد، واختصوا بالتفتيش على الترسانة والأشوان، ومراقبة الأوزان، لمنع السرقة، وإنقاذ المراكب التي تتعرض للغرق، وتأمين الطرق النهرية، وتوزيع المراكب على الأشوان طبقاً لكمية المحاصيل التي توجد بها، وذلك ما بين الوجهين القبلي والبحري، كما أشرفوا على تعيين سبعة من رؤساء

المراكب بمعاونيهم للإشراف أيضاً على حركة النقل النهري، ومنع تأخر المراكب في نقل المحاصيل، بالإضافة إلى سرعة إنقاذ المراكب التي تغرق، وتم توزيعهم ما بين الوجهين القبلي والبحري؛ ففي الوجه القبلي عُين الريس حسن أبو جويلي، ويشرف على المنطقة من بولاق وحتى بنوب الحمام، ومن بنوب الحمام حتى جرجا الريس غزالي شاهين، ومن جرجا إلى أسوان الريس علي أبو عبد الله، وفي الوجه البحري عين الريس بسيوني مصطفى من باسوس حتى الزقازيق وفرع النيل الشرقي، أما القنطرة وترعة مويس حتى دمياط فكانت تابعة للريس علي مقبول، ومن الفرع الغربي للنيل من بولاق حتى رشيد أسند للريس عبدالله عبد العاطي، وذلك نظير أجر شهري قدر بـــ ٥٠٠ قرش لكل منهم(٥٣).

وللإسراع في نقل المحاصيل تم تعيين عدد من الشيالين بكل شونة اختصوا بشحن وتفريغ المراكب، واختلف عددهم على حسب كل شونة وما بها من محاصيل؛ إذ تم تخصيص بكل من شون بولاق والإسكندرية وبالأقاليم الوسطى ومديرية قبلي شيخ للشيالين يساعده خمسة أنفار، مهمتهم سرعة شحن وتفريغ المراكب على حسب أسبقية الوصول، وخصصت لهم أجور من ٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ قرش على حسب كمية الغلال بالأشوان(٥٤).

كما خضع النقل النهري لإشراف حاكم البحر، الذي يقوم بمراقبة أعمال كل من المتعهدين والمعاونين ورؤساء المراكب وموظفي الأشوان، وكذلك كان عليه التأكد من تنظيم حركة المرور في نهر النيل سواء بنفسه، أو من خلال إرسال الجواسيس للتأكد من انتظام حركة المرور، ومقره في بولاق(٥٥).

رابعاً: العوائد الإمرارية:

وهي ضريبة فرضت على المراكب سواء الميري أو البراني أثناء مرورها في نهر النيل عند وصولها الحوض عند العطف، وتحددت قيمة هذه الضريبة طبقاً لحمولتها، فإذا كانت المركب محملة بالمحاصيل تدفع عن كل

إردب ٢٠ فضة سواء في حالة مرورها أو عند الإياب إذا كانت محملة مرة ثانية، وتدفع نصف العوائد إذا كانت المركب محملة بأقل من النصف، والعشر إذا كانت فارغة، أما إذا كانت المركب محملة بأشياء خاصة بالأهالي غير المحاصيل، فيتم تحصيل الخمس فقط منها، ويتم تحصيل هذه الضريبة فور مرور المراكب البراني عند العطف، أما المراكب الميري فكان ناظر الحوض يدون في سجل المراكب التي عبرت وحمولتها، والمديرية المشحون منها، ثم ترسل هذه السجلات إلى محمد على باشا ومديري المديريات لتحصيل العوايد منهم(٥٦).

ولذا صدرت الأوامر إلى الترسانة بالنقش على جانبي كل مركب سواء ميري أو براني مقدار حمولتها، ووضع لافتات من النحاس عليها يدون بها أيضاً مقدار الحمولة، ووضع رقم لها، ويدون ذلك بالسجلات لسهولة تحديد قيمة العوايد عند مرورها بالعطف(٥٧).

وقد تعرض رؤساء المراكب لدفع أكثر من نوع من الضرائب، فقد فرض عليهم خصم الثلث والربع من أجورهم في فصلي الشتاء والصيف على الترتيب، بالإضافة إلى ضريبة الفردة ، وفي عام ١٢٥٧هـ/ ١٨٤٠م صدر قرار من محمد علي أقر فيه إعطاء المراكب سواء ميري أو براني أجرها كاملا على حسب حمولتها، وإلغاء القرار السابق من استقطاع الثلث والربع من أجورها(٥٨).

خامساً: الإدارة وحالات الإهمال والفساد بالنقل النهري:

خضع النقل النهري لإشراف دقيق من محمد علي والمجلس العالي وحاكم البحر، إذ تم تعيين عدد من الموظفين لتيسير حركة النقل النهري، ومراقبة كل منهما أعمال الآخر، كما تم وضع عقوبات صارمة لمن يخطئ أو يثبت إهماله، فقد اعتبر القانون أن الإهمال يمثل جريمة كبرى، ولابد من عقاب المتسبب فيه؛ لأنه يؤدي إلى خسائر فادحة، ولذا تنوعت العقوبات ما بين عقوبات جسدية ومعنوية ومادية بلغت حد الطرد من العمل على حسب

قيمة الخسائر التي تسبب فيها المقصرون، ومكانتهم الوظيفية(٥٩).

وقد تعددت أنواع الإهمال أو الفساد بالنقل النهري من إهمال بعض الموظفين في القيام بواجبات عملهم إلى الاختلاس أو السرقة والغش ...وغيرها من الجرائم(٦٠).

وقد تدرج العقاب – في بعض الأحيان – من عقوبات معنوية إلى عقوبات مادية ثم عقوبات جسدية، حيث استخدم محمد علي باشا في البداية أسلوب التحذير والتهديد والوعيد لمن يقصر في مهام عمله؛ وذلك بإرسال رسائل تحذير إلى مديري الأقاليم بسبب تأخرهم في صرف أجور رؤساء المراكب مما نتج عنه تأخر وصول المراكب إلى الأشوان في المواعيد المحددة لها، وهو ما تسبب في تأخير نقل المحاصيل، فأرسل لهم محمد علي باشا تحذيراً جاء فيه : "....وإلا فليتحقق بإرسال جواب يبكيه ......أو أجرى شئ مخالف لأوامري فأنا جدير بالمعاملة التي يلزم إجراها في حقك لتكون عبرة للغير" (٦١).

ومع استمرار الإهمال وتكرار الأخطاء تم استخدام العقوبات المادية والجسدية، والتي تنوعت ما بين السجن والجلد والتغريم والتسخير في الأعمال والعزل؛ لردع المقصرين في أعمالهم، فقد عوقب الشيخ إسماعيل المغربل بعزله من عمله لقيامه بخلط الغلال بالتبن(٦٢).

وفي أحايين كثيرة اقترنت عقوبة الحبس بعقوبات مادية وجسدية وطالت جميع الموظفين، والذين كانوا في حالة إهمالهم لمهامهم يدفعون قيمة الخسائر التي تسببوا فيها، ثم يتعرضون للسجن مكبلين بالحديد في ترسانة بولاق(٦٣)، فكان عند أخذ الناظر أموالاً من رؤساء المراكب بدون وجه حق، فبعد أن يثبت عليه ذلك كان يعاقب عن كل ١٠٠قرش بالسجن لمدة سنة باللومان، وإذا اختلس الكيال أثناء عمليات الكيل أو الوزن، فكان يضرب الكيال ٢٥٠ كرباجاً، ويعاقب الناظر والكاتب أيضاً بالجلد ٣٠٠ كرباج، وسجنهم جميعاً باللومان لمدة سنة، كما عوقب أحد رؤساء المراكب بالحبس في ديوان الفاوريقات لاختلاسه بعض أتواب من القماش المحمل على مركبه

بعد إلزامه بدفع ثمنها أولاً[٦٤].

كما استخدم محمد علي باشا العقوبات الجسدية كالضرب أو الجلد لردع الموظفين الذين يقصرون في أداء أعمالهم، وكان يزداد عدد مرات الضرب أو الجلد بتكرار الأخطاء أو الإهمال، فكان في حالة هروب أحد أفراد المركب يعاقب ريس المركب بالجلد في أول مرة ١٠٠ كرباج، وفي المرة الثانية يضاعف له العقاب، وفي الثالثة يجلد ٥٠٠ كرباج، وإذا تبين أن سبب هروب أحد أفراد الطائفة عدم دفع ريس المركب أجره له يعاقب ريس المركب عن كل قرش بالجلد كرباجاً واحداً[٦٥].

كما كان يعاقب رؤساء المراكب الذين يتأخرون عن الوصول في المواعيد المحددة بالجلد ١٥ كرباجاً عن كل يوم تأخروا فيه، كما عوقب المعاونون على تأخرهم في صرف عرابين رؤساء المراكب مما ينتج عن ذلك تأخير شحن مراكبهم بالضرب ١٠٠كرباج ويضاعف العقاب إذا تكرر الإهمال[٦٦].

وللحفاظ على المراكب وحمولتها تم توقيع عقوبات صارمة على كل من يهمل في قيادتها وحمايتها؛ فعندما تعرض أحد المراكب بالحاصلات لدى ذهابه إلى عهدة مجول وجفالك القليوبية بعد شحنه من شلقان للسرقة، حكم على ريسه بالسجن لمدة سنتين مع تغريمه ٢٠٠ قرش[٦٧]، كما عوقب الريس على أبو القاسم بالحبس في مركبه؛ وذلك لأخذه العربون مقابل عملية شحن من نصف أول وجه قبلي إلى مصلحة المرور بالإسكندرية، ولم يتمم هذا الريس عملية الشحن، ولذا تم القبض عليه وسجنه في مركبه، وألزمه محمد علي برد العربون، وتسليم الشحنة [٦٨].

أما إذا كانت أسباب تلف أو تبديد حمولات المراكب خارجة عن إرادة القائمين عليها، فإنهم كانوا يعفون من أية عقوبات، فعندما غرقت إحدى السفن في عام ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م، وكانت محملة بـ ١٤ إردباً من العدس يقدر ثمنها بحوالي ٥٧٩٢ قرشاً و٣ بارات نتيجة فيضان النيل أعفي ريس المركب من دفع ثمن هذه الحمولة [٦٩].

كما حرم الموظف الذي يرتكب جرائم وبخاصة الاختلاسات أو السرقات أو الإهمال في واجبات وظيفته من أن يعمل في البحر مرة ثانية، حيث كانت تنشر نشرة عمومية إلى جميع رؤساء البحر بأوصاف الشخص الذي ارتكب المخالفة ونوعها ليكون عبرة لغيره بعد ذلك(٧٠).

ونتيجة لتكرار حالات الإهمال، وكثرة الشكاوى المقدمة من رؤساء المراكب نتيجة ظلم موظفي الشون أو الترسانة لهم قرر محمد علي باشا إنشاء المجلس العالي الخاص بأمور النقل النهري، وتكون من ناظر الترسانة وحاكم البحر ووكيله وثلاثة من أهل الخبرة؛ وهم الريس علي الجزار والريس حسن المصطيهي والريس هيكل، بالإضافة إلى عدد من الرؤساء العمد الموجودين ببولاق، ورؤساء الوجهين البحري والقبلي. ومن مهام هذا المجلس بجانب تيسير الأمور المتعلقة بعمليات النقل، ومراقبة أعمال الأشوان، والنظر في الدعاوي المقدمة إليه، وتوقيع العقاب على من تثبت إدانته، كما تمتع هذا المجلس بسلطة أعلى من سلطة حاكم البحر، حيث إن من سلطته توقيع العقاب عليه في حالة إخلاله بمهام وظيفته، واتخذ من ترسانة بولاق غرفة خصصت له كمقر لمناقشة الدعاوى المقدمة له، والنظر فيها كل يوم جمعة من كل أسبوع(٧١).

ومن خلال العرض السابق يتضح مدى اهتمام محمد علي بالنقل النهري بالبلاد حيث كان يمثل شريان الحياة في تلك الفترة لاعتماده عليه – بشكل كبير – في نقل الحاصلات الزراعية والبضائع المختلفة من أقمشة وأحجار، بالإضافة إلى نقل العساكر ......وغيرها؛ لرخص تكلفته وسرعته عن استخدام الحيوانات، لذا اهتم محمد علي بحفر الترع والممرات المائية التي استفادت منها البلاد سواء في حركة النقل، أو في تغيير نمط الزراعة المصرية من ري الحياض إلى الري الصيفي.

ونتيجة لاهتمام محمد علي بالنقل النهري فقد زاد ذلك من أهمية الإسكندرية كميناء تجاري خاصة بعد حفر ترعة المحمودية ووجود الأشوان الرئيسية بها كما وضع مجموعة من القوانين واللوائح التي التزم من خلالها

كل العاملين في النقل النهري بها، وشكل أكثر من هيئة تكون مسؤليتها حراسة الطرق النهرية، وتأمين حركة النقل.

وظل النقل النهري يتمتع بأهمية خاصة حتى إنشاء السكك الحديدية بالبلاد، والتي أخذت تزاحمه بل تفوقه من حيث الأهمية، واعتماد البلاد عليها.

الملاحق

ملحق رقم (١)

اختلاف سعر الشحن على حسب المسافة التي تقطعها المركب

جدول يوضح ثمن الفحم الحجري المرسل من الكومبانية إلى أشوان بالوجه القبلي

الجهة المرسل إليها واسم ريس المركب	أجر المركب بالقرش	ثمن الفحم	الكمية بالقنطار	أجر أفراد المركب بالقرش
إلى أشوان أسيوط بمركب الريس محمود صحاح	٣٨٧	٣١٠٠	٣١٠	٣٤٨٧
إلى أشوان قنا بمركب الريس علي نعمان	٣٣٧	١٥٠٠	١٥٠	١٨٣٧
إلى أشوان إسنا بمركب الريس عيسى الاجوي	٦٢٥	٢٥٠٠	٢٥٠	٣١٢٥
الإجمالي	١٣٥٠	٧١٠٠	٧١٠	٨٤٥٠

المصدر: ديوان المرور والسكة: الكود الأرشيفي ٠٠٠٠٢ - ٤٠٠٦، بعنوان صادر الدواوين، جرد أول صادر عموم المرور بالمحروسة، وثيقة بعنوان تابع ديوان المالية، بتاريخ١٩ شوال ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م، ص ١٦٣.

ملحق رقم (٢)

جدول يوضح كيفية تدوين المراكب التي تم شحنها باسم صاحبها، وعدد المرات التي تم فيها شحنها، ونوع حمولتها، وتاريخ وصولها، واسم الجهة التي شحنت منها، ورقم المركب.

اسم ريس المركب	رقم المركب	اسم الجهة التي شحنت منها المركب	مدة الشحن خلال شهر رمضان	عدد مرات الشحن
أحمد جامع	٢٧٧	على بيان الأثر	١٤- ١٦	١
علي عسير	٥٧٧	ديوان المدارس	١٤	١
مراد علي	١٣٧	ديوان الجهادية	٢- ١٥	١
مجموعة من المراكب	٢٤٥	مديرية القليوبية	١٧- ٢١	١٠
محمد شهاب الدين	٤٧	بصمة خانة شبرا	١٥ – ١٦	١
مجموعة من المراكب	٣٤٨	المهمات الحربية	١٠- ١٣	٦
صالح إسماعيل العسكري	٥٧٩	ديوان المدارس	١٤ – ١٦	١
مجموعة من المراكب	٠٠٤	مخازن بولاق	١٦ – ١٩	٤
حسن سكران	١٥٦	فاوريقة الخرنفش	١٩ – ٢١	١
السيد نفوريس	٣٧٠	مأمور تسهيل المحمودية	٥- ١١	١
محمد إبراهيم	٤١٩	مديرية الغربية	٦- ١٥	١
تايب عيسى	١٨٥	مديرية الشرقية	٢٤ رمضان – ٤ شوال	١
ضياء أحمد وكرم عمر	٠٢١	فوريقة قليوب	٢٣ – ٢٩	١
أبو العلا عبد الجليل	٣٨٣	مديرية المنوفية	٧ -١٥	١
مجموعة من المراكب	٠٩٦	ديوان الكيلار	٢٩ – ٣٠ رمضان	٨
عرفة سعد	٣٧	رصيف بولاق	٢٢ رمضان – ٢ شوال	١
عبدالله خليفة	٨	جبل المرمر	١٩ رمضان– ٣ شوال	١
مجموعة من المراكب	٥٧٨	ديوان المدارس	١٤ – ١٦ رمضان	١١

المصدر: ديوان المرور والسكة: الكود الأرشيفي ٠٠٦٢٦٩ – ٤٠٠٦، حافظة عن بيان تواريخ ونمر المخاطبات الواردة من بعض الجهات بخصوص الإيضاح عن أجرة بعض مراكب ميري، وثيقة بعنوان بيان تواريخ ونمر المخاطبات الواردة من جهات مذكورة وما تحرر لهم بخصوص الإيضاح عن أجر مراكب الميري الجاري بالإجر بجرايد الورشة بتاريخ ١٢٦٦هـ/ ١٨٥٠م.

الهوامش:

(١) ديوان المرور والسكة: الكود الأرشيفي ٢٠٠٠٠٠ - ٤٠٠٦، جرد أول صادر عموم المرور بالمحروسة، ٢١ رمضان١٢٦٢هـ/ إلى ٢٠ رجب ١٢٦٣هـ، ص ٥؛ محافظ الأبحاث: محفظة رقم ٢ أبحاث السودان، وثيقة بعنوان دفتر رقم ٢٢ صادر المعية ترجمة المكاتبة التركية رقم ٢٧١ بتاريخ ١٣ جمادى الآخرة ١٢٤١هـ / ١٨٢٥م، ص ١٤.

(٢) معية سنية: الكود الأرشيفي ٠٠٣٥٠٤- ٠٠٠٣ ، وثيقة بعنوان من بونفور إلى أرتين بك ناظر التجارة والأموال الخارجية بالإسكندرية ، بتاريخ ٥ رمضان ١٢٥٢هـ/ ١٤ ديسمبر ١٨٣٦م.

(٣) أحمد عزت عبد الكريم وآخرون: تاريخ مصر الاقتصادي الحديث، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، ١٩٣٨م، ص ص ٩٨، ٩٩؛ محمد صبري: تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٥٠.

(٤) محفظة رقم ٦٩ لوائح وقوانين: قانون همايون، البند الثالث، ص ٤٣ ؛ محفظة الميهي: وثيقة رقم ٩٢/ ١ الميهي، وثيقة بعنوان ترجمة اللائحة التي نظمها مظهر بك ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦م .

(٥) محفظة الميهي: وثيقة رقم ٣٦/ ١الميهي، وثيقة بعنوان ترجمة المحرر أعلاه بتاريخ ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م.

(٦) أحمد حسن الدماصي : الاقتصاد المصري في القرن التاسع عشر ١٨٠٠- ١٨٤٠م ، ج ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٥٠.

(٧) محمد فؤاد شكري وأخرون: بناء دولة مصر محمد علي، تقديم: عبد الخالق لاشين، ق ١، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ٤٣، ٤٩١ تقرير بورينج (John Bowring) .

(٨) عمر طوسون: صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد على الجيش المصري البري والبحري، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ص ٦٣، ٦٤.

(٩) ديوان الجفالك: الكود الارشيفي ٠٠٠٠٣٧- ٣٠٠٦، جرد أول صادر الدواوين بديوان عموم الجفالك بالمحروسة، ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٥م ، ص ١٤.

(١٠) انجلو ساماركوز: وثائق البحرية المصرية في عهد محمد علي، مراجعة : حسين

محمود، ترجمة: ولاء عفيفي النحاس، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ١٣٠.

(١١) محافظ الأبحاث: محفظة رقم ١ ، معية تركي، دفتر رقم ٥، ترجمة الأمر الكريم رقم ٢٤١، وثيقة بعنوان من الجناب العالي إلى بلال أغا ناظر المراكب بالإسكندرية، بتاريخ ٢٥ رمضان ١٢٣٥هـ/ يناير ١٨٢٠م، ص ٢٠.

(١٢) أحمد الدماصي: مرجع سابق، ص ٥٠.

(١٣) ديوان الجفالك: الكود الأرشيفي٠٠٠٧٠١- ٣٠٠٦ ، وثيقة بعنوان قرار بخصوص أجرة تعمير الفلايك مطلوب ترسانة الإسكندرية ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م، ص ٢٠؛ محفظة الميهي: ملف رقم ٢٠، وثيقة رقم ١/٧٤ الميهي، وثيقة بعنوان إيراد ومنصرف الترسانة ببولاق بتاريخ ١٠ شوال ١٢٦٥هـ/ ٢٩ أغسطس ١٨٤٩م.

(١٤) ديوان المرور والسكة: الكود الأرشيفي ٠٠٦٢٦٩ – ٤٠٠٦ ، بعنوان حافظة عن بيان تواريخ ونمر المخاطبات الواردة من بعض الجهات بخصوص الإيضاح عن أجرة بعض مراكب الميري، بتاريخ ١٣ رمضان ١٢٦٦هـ/ ١٨٥٠م؛ محفظة الميهي: وثيقة رقم ١/١١ الميهي، تقرير شاكر شاكر أفندي مدير المحمودية، ص ص ٢، ٤.

(١٥) الكيس= ٥٠٠ قرش. أحمد الحتة : تاريخ الزراعة المصرية في عهد محمد علي الكبير، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٠، ص ٩١.

(١٦) محفظة الميهي: وثيقة رقم ١/٧٤ الميهي.

(١٧) ديوان الجفالك: الكود الأرشيفي ٠٠٠٧٠١ – ٣٠٠٦ ، دفتر قيد القرارات الصادرة من استشارة ديوان عموم الجفالك ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٨م، وثيقة بعنوان قرار بخصوص أجرة تعمير الفلايك مطلوب ترسانة الإسكندرية، ص ٢٠ ؛ محفظة الميهي: وثيقة رقم ٩٧/ ٩ الميهي .

(١٨) محفظة الميهي: وثيقة رقم ٩٧/ ٩ الميهي .

(١٩) محفظة الميهي: وثيقة رقم ٩٧/ ٩ الميهي .

(٢٠) ديوان المرور والسكة: الكود الأرشيفي ٠٠٠٠٠١ – ٤٠٠٦ ، صادر الدواوين، وثيقة بعنوان مدير ديوان خديوي اسكندرية، بتاريخ ١٣ صفر ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م، ص ص ٤ ، ٥ ؛ محفظة الميهي: وثيقة رقم ١/١١ الميهي، تقرير شاكر شاكر

أفندي مدير المحمودية، ص ص ١، ٢.

(٢١) ديوان المرور والسكة: الكود الأرشيفي ٠٠٠٠٠١ – ٤٠٠٦ ، صادر الدواوين، بتاريخ ٢٧ محرم ١٢٦٢هـ إلى ١٨ رمضان ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م، وثيقة بعنوان دفتر قيد التحريرات الصادرة من مصلحة المرور ١٢٦١هـ إلى سعادة أفندينا كتخداي جناب داوري، ص ص ١، ١٠٩ ؛ محفظة الميهي: وثيقة رقم ١/٧٤ الميهي.

(٢٢) ديوان الجفالك: الكود الأرشيفي ٠٠٠٧٠١ – ٣٠٠٦ ، دفتر قيد القرارات الصادرة من استشارة ديوان عموم الجفالك ١٢٦٤هـ/ ، وثيقة بعنوان قرار بخصوص أجرة تعمير الفلايك مطلوب ترسانة الإسكندرية، ص ٢٠ ؛ محفظة الميهي: وثيقة رقم ١/١١ الميهي، تقرير شاكر شاكر أفندي مدير المحمودية، ص ٢.

(٢٣) رءوف عباس: الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد علي، ج١، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٥م، أمر من محمد علي إلى عموم مأموري الأقاليم بتاريخ ٧ ربيع أول ١٢٤٦هـ/ ، ص ٣٠٤ ، وأيضاً أمر من محمد علي إلى رئيس المجلس بتاريخ ٦ محرم ١٢٥٢هـ/ ١٨٣٦م، ص ٤٢٦.

(٢٤) ديوان الجفالك: الكود الأرشيفي ٠٠٠٧٠١ – ٣٠٠٦ ، دفتر قيد القرارات الصادرة من استشارة ديوان عموم الجفالك ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٨م، وثيقة بعنوان قرار بخصوص أجرة تعمير الفلايك مطلوب ترسانة الإسكندرية، ص ٢٠ ؛ أمين سامي باشا: تقويم النيل، ج٢، ط ٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ٣٤٦.

(٢٥) ديوان الجهادية: الكود الأرشيفي٠٥٣٧٠١- ٠٠٠٧، أمر من محمد علي إلى سليمان أغا مدير الوادي لتسهيل النقل بالمراكب الميري، بتاريخ ذي القعدة ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م؛ محفظة الميهي: وثيقة رقم ١/١١ الميهي، تقرير شاكر شاكر أفندي مدير المحمودية، ص ص ١، ٢.

(٢٦) ديوان المرور والسكة: الكود الأرشيفي ٠٠٠٠١- ٤٠٠٦، صادر الدواوين بتاريخ ٢٧ محرم ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦م، ص ١٠٩؛ محفظة الميهي: ملف رقم (١)، وثيقة رقم ٦٤/ ١، بعنوان المقتضى إصدار أوامر كرام كتخداوية عنه لحضرات المديرين ونظار الدواوين والمصالح والجفالك والعهد وحضرة المتعهدين كما يأتي

الإيضاح أدناه ؛ ديوان الجهادية: الكود الأرشيفي١٠٠٠٠١ – ٠٠٠٧ ، صادر الدواوين، ج١ ، دفتر قيد الجوابات الصادرة من ديوان الجهادية إلى كافة دواوين المحروسة وإسكندرية ورشيد ودمياط، وثيقة بعنوان محافظ رشيد بتاريخ ٢٧ شعبان ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م، ص ٣٤.

(٢٧) محفظة الميهي: وثيقة رقم ١/١١ الميهي، تقرير شاكر شاكر أفندي مدير المحمودية، ص ص ٢، ٣.

(٢٨) الفضة أو البارة بفس المعنى حيث كان القرش = ٤٠ بارة أو فضة .أحمد الحتة: تاريخ الزراعة المصرية في عهد محمد علي ، ص ٩١.

(٢٩) محفظة الميهي: وثيقة رقم ١/١١ الميهي، تقرير شاكر شاكر أفندي مدير المحمودية، ص ص ١، ٢.

(٣٠) ديوان الجفالك : الكود الأرشيفي ٠٠٠٠٢٠- ٣٠٠٦، سجل بعنوان لائحة عن عملية البحور عامر وتاريخ ذلك من ابتدى عام ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م المقتضى الأمر الصادر من الأعتاب الكتخداوية وعن بيان بجهات بموجب التعريفة القديمة، ص ١؛ محافظ الأبحاث: محفظة رقم ١ ذوات، دفتر رقم ٧٤١ ديوان خديوي، وثيقة بعنوان من الديوان الخديوي إلى خليل أفندي ناظر الترسانات بتاريخ ٢٩ ذي الحجة ١٢٤٣هـ/ يناير ١٨٢٨م، ص ٢٤٦.

(٣١) ديوان الجهادية: الكود الأرشيفي٠٥٣٧٠١- ٠٠٠٧، أمر من محمد علي إلى سليمان أغا مدير الوادي لتسهيل النقل بالمراكب الميري، بتاريخ ذي القعدة ١٢٦٣هـ/. ١٨٤٧م.

(٣٢) ديوان الجهادية: الكود الأرشيفي٠٥٣٧٠١- ٠٠٠٧، أمر من محمد علي إلى سليمان أغا مدير الوادي لتسهيل النقل بالمراكب الميري، بتاريخ ذي القعدة ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م ؛ محفظة الميهي: وثيقة رقم ١/٥١ الميهي، ترجمة الأمر الكتخداوي الوارد إلى سعادة أفندي البك المحافظ المؤرخ في عام ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٥م، نمرة ٣.

(٣٣) ديوان الجفالك: الكود الأرشيفي ٠٠٠٠٢٠- ٣٠٠٦، سجل بعنوان لائحة عن عملية البحورعامر وتاريخ ذلك من ابتدى عام ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م المقتضى الأمر الصادر من الأعتاب الكتخداوية وعن بيان بجهات بموجب التعريفة القديمة ، ص

١٤؛ ديوان الجهادية: الكود الأرشيفي ٠٥٣٧٠١- ٠٠٠٧، أمر من محمد علي إلى سليمان أغا مدير الوادي لتسهيل النقل بالمراكب الميري، بتاريخ ذي القعدة ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م.

(٣٤) الرمادي: وهي تنقسم إلى الرمادي بحري وقبلي من توابع إدفو بصعيد مصر. محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد القدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥، ق٢، ج٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤، ص ص ٢١٣، ٢١٤.

(٣٥) ديوان الجفالك : الكود الأرشيفي ٢٠٠٠٠٢٠- ٣٠٠٦، سجل بعنوان لائحة عن عملية البحور عامر وتاريخ ذلك من ابتدى عام ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م المقتضى الأمر الصادر من الأعتاب الكتخداوية وعن بيان بجهات بموجب التعريفة القديمة ، ص ١٤.

(٣٦) محافظ الأبحاث: أبحاث السودان ، محفظة رقم ٢، ملف ٣، دفتر رقم ٧٣٥ ديوان خديوي، ترجمة الإفادة رقم ٣٦٦، وثيقة بعنوان من مأمور ديوان الخديوي إلى خليل أفندي ناظر الترسانات، بتاريخ غرة ربيع الأول ١٢٤٣هـ/ ، ص ٦، انظر أيضاً: رءوف عباس: الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد علي، ج ٢، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٦م، أمر منه إلى عموم نظار الأقسام ومديري الأقاليم المصرية بتاريخ ٤ جماد أول ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م، ص ص ١٣٦، ١٣٧.

(٣٧) محفظة الميهي: وثيقة رقم ٤٨/ ١ الميهي، صورة لائحة منظمة بمعرفة ترسانة بولاق وتقدمة إلى الجمعية العمومية عن ترتيب طوائف المراكب باعتبار حمولة وما صار ترتيبه إلى كل حمولة، ص ١.

(٣٨) محفظة الميهي: وثيقة رقم ٤٨/ ١ الميهي، صورة لائحة منظمة بمعرفة ترسانة بولاق وتقدمه إلى الجمعية العمومية عن ترتيب طوائف المراكب باعتبار حمولة وما صار ترتيبه إلى كل حمولة، ص ١.

(٣٩) ديوان الجهادية: الكود الأرشيفي ٠٥٣٧٠١ – ٠٠٠٧، بعنوان أمر من محمد علي إلى سليمان أغا مدير الوادي لتسهيل النقل بالمراكب الميري، بتاريخ ذي القعدة ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م؛ محفظة الميهي: لائحة ترتيب طوائف المراكب.

(٤٠) محفظة الميهي: لائحة ترتيب طوائف المراكب.

(٤١) ديوان الجفالك : الكود الأرشيفي ٢٠٠٠٠٠- ٣٠٠٦، سجل بعنوان لائحة عن عملية البحور عامر وتاريخ ذلك من ابتدى عام ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م المقتضى الأمر الصادر من الأعتاب الكتخداوية وعن بيان بجهات بموجب التعريفة القديمة ، ص ١.

(٤٢)؛ محافظ الأبحاث: محفظة رقم ١ ذوات، دفتر رقم ٧٤١ ديوان خديوي ، وثيقة بعنوان من الديوان الخديوي إلى خليل أفندي ناظر الترسانات بتاريخ ٢٩ ذي الحجة ١٢٤٣هـ/ يناير ١٨٢٨م، ص ٢٤٦؛ محفظة الميهي: وثيقة رقم ١/٤٨ الميهي، لائحة ترتيب طوايف المراكب.

(٤٣) ديوان الجفالك: الكود الأرشيفي ٢٠٠٠٠٠- ٣٠٠٦، لائحة عن عملية البحور عامر بتاريخ ١ ربيع ثان ١٢٦٤هـ/ ٧ مارس ١٨٤٨م إلى ١٧ شعبان ١٢٦٤هـ/ ١٩ يوليو ١٨٤٨م، ص ٢؛ محافظ الأبحاث: محفظة رقم ١، دفتر رقم ٥ معية تركي، ترجمة الأمر الكريم رقم ٢٤١، وثيقة بعنوان من الجناب العالي إلى بلال أغا ناظر المراكب بالإيكندرية، بتاريخ ٢٥ رمضان ١٢٣٥هـ/ ، ص٢٠.

(٤٤) محفظة الميهي: وثيقة رقم ١/١١ الميهي، تقرير شاكر أفندي مدير المحمودية، ص ٣؛ ديوان الجفالك: الكود الأرشيفي ٣٧٠٠٠٠- ٣٠٠٦، جرد أول صادر الدواوين بديوان عموم الجفالك بالمحروسة ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٥م، ص ١٤.

(٤٥) ديوان الجفالك: الكود الأرشيفي ٢٠٠٠٠٠- ٣٠٠٦، لائحة عن عملية البحور عامر بتاريخ ١ ربيع ثان ١٢٦٤هـ/ ٧ مارس ١٨٤٨م إلى ١٧ شعبان ١٢٦٤هـ/ ١٩ يوليو ١٨٤٨م، ص ٢.

(٤٦) ديوان الجفالك: الكود الأرشيفي ٢٠٠٠٠٠- ٣٠٠٦، بعنوان لائحة عن عملية البحور عامر وتاريخ ذلك من ابتدى عام ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م المقتضى الأمر الصادر من الأعتاب الكتخداوية وعن بيان بجهات بموجب التعريفة القديمة، ص ١؛ الكود الأرشيفي ٢٨٦٧٠٠- ٣٠٠٦، وثيقة رقم ١٩٧، صورة حكم من جمعية الحقانية إلى حافظ بك وكيل ديوان الجفالك وإلى مفتش الترسانة بتاريخ ٣ ذي الحجة ١٢٦١هـ/ ٣ ديسمبر ١٨٤٥م ؛ محفظة الميهي: ملف رقم (١)، وثيقة رقم

٦٤/ ١، بعنوان المقتضى إصدار أوامر كرام كتخداوية عنه لحضرات المـديرين ونظار الدواوين والمصالح والجفالك والعهد وحضرة المتعهدين كما يأتي الإيضاح أدناه.

(٤٧) ديوان المرور والسكة: الكود الأرشيفي ٠٠٠٠٠٢ – ٤٠٠٦، صادر الدواوين، جرد أول عموم المرور بالمحروسة، وثيقة بعنوان تـايع الترسـانة ببـولاق، بتـاريخ ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م، ص ١٦٢؛ محفظة الميهي: ملـف رقـم٤، قـانون مـرور المراكب بالقناطر، وثيقة رقم ١٣٢/١ الميهي ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م.

(٤٨) محفظة الميهي: ملف رقم٤، قانون مرور المراكب بالقناطر، وثيقـة رقـم ١٣٢/١ الميهي ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦.

(٤٩) محفظة الميهي: ملف رقم٤، قانون مرور المراكب بالقناطر، وثيقـة رقـم ١٣٢/١ الميهي ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م.

(٥٠) محفظة الميهي: وثيقة رقم ١١/١ الميهي، تقريـر شـاكر شـاكر أفنـدي مـدير المحمودية، ص ص ٢. ٥٠ .

(٥١) محفظة الميهي: وثيقة رقم ١١/١ الميهي، تقريـر شـاكر شـاكر أفنـدي مـدير المحمودية، ص ص ٢. ٥١ .

(٥٢) محفظة الميهي: وثيقة ١١/١ الميهي، تقرير شاكر شاكر أفندي مدير المحمودية، ص ص ١، ٣.

(٥٣) محفظة الميهي: وثيقة رقم ١١/١ الميهي، تقريـر شـاكر شـاكر أفنـدي مـدير المحمودية، ص ص ١، ٣.

(٥٤) ديوان الجفالك: الكود الأرشيفي ٠٠٠٠٢٠– ٣٠٠٦، بعنوان لائحـة عـن عمليـة البحور عامر وتاريخ ذلك من ابتدى عام ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م المقتضـى الأمـر الصادر من الأعتاب الكتخداوية وعن بيان بجهات بموجب التعريفة القديمة، ص ٣.

(٥٥) محفظة الميهي: وثيقة رقم ١١/١ الميهي، تقريـر شـاكر شـاكر أفنـدي مـدير المحمودية، ص ص ٢، ٣.

(٥٦) محفظة الميهي: وثيقة رقم ٣٦/ ١ الميهـي، ترجمـة المحـرر أعـلاه بتـاريخ ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م.

(٥٧) محفظة الميهي: وثيقة رقم ٤٠/ ١ الميهي، ترجمة إفادة في الشورا بتاريخ شـوال

١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م ؛محفظة الميهي: وثيقة رقم ٣٦/ ١ الميهي، ترجمة المحرر أعلاه بتاريخ ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م.

(٥٨) محفظة الميهي: ملف رقم (١)، وثيقة رقم ٦٤/ ١، بعنوان المقتضى اصدار أوامر كرام كتخداوية عنه لحضرات المديرين ونظار الدواوين والمصالح والجفالك والعهد وحضرة المتعهدين كما يأتي الإيضاح أدناه؛ محفظة الميهي: وثيقة رقم ١/١١ الميهي، تقرير شاكر شاكر أفندي مدير المحمودية، ص ٢.

(٥٩) محفظة الميهي: ملف رقم ١٨، وثيقة رقم ١/٦٥ الميهي، وثيقة بعنوان ترجمة شقة الجمعية الحقانية الواردة للمعية بتاريخ ١٠ محرم ١٢٦٤هـ/ ١٨ ديسمبر ١٨٤٧م، نمرة ٧٤ تركي.

(٦٠) محفظة الميهي: وثيقة رقم ٤١/ ١ الميهي، وثيقة بعنوان ترجمة الأمر العالي الصادر خطاباً إلى سعادة أفندينا الباشا مدير الجهادية رقم ٢٣ شوال ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م، نمرة ١٣، صار منظور خلاصة الجمعية الحقانية.

(٦١) رءوف عباس: الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد علي، ج ٢، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٦م، أمر منه إلى عموم نظار الأقسام ومديري الأقسام المصرية في ٤ جماد أول ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م، ص ١٥١.

(٦٢) محفظة الميهي: وثيقة رقم ١/١١ الميهي، تقرير شاكر شاكر أفندي مدير المحمودية، ص ص ٢، ٧.

(٦٣) محفظة الميهي: وثيقة رقم ٤٨/ ١ الميهي، لائحة طوائف المراكب، ص ص ١، ٣.

(٦٤)محفظة الميهي: وثيقة رقم ١/١١ الميهي، تقرير شاكر شاكر أفندي مدير المحمودية، ص ص ٤، ٧.

(٦٥) محفظة الميهي: وثيقة رقم ٤٨/ ١ الميهي، صورة لائحة منظمة بمعرفة ترسانة بولاق وتقدمة إلى الجمعية العمومية عن ترتيب طوائف المراكب باعتبار حمولة وما صار ترتيبه إلى كل حمولة، ص ١.

(٦٦) محفظة الميهي: وثيقة رقم ١/١١ الميهي، تقرير شاكر شاكر أفندي مدير المحمودية، ص ص ١، ٧.

(٦٧) ديوان الجفالك: الكود الأرشيفي الكود الأرشيفي ٢٠٠٠٠٢٠- ٣٠٠٦، بعنوان لائحة عن عملية البحور عامر وتاريخ ذلك من ابتدى عام ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م المقتضى

الأمر الصادر من الأعتاب الكتخداوية وعن بيان بجهات بموجب التعريفة القديمة، ص ١.

(٦٨) ديوان المرور والسكة: الكود الأرشيفي ٠٠٠٠٠٢ – ٤٠٠٦، صادر الدواوين، جرد أول عموم المرور بالمحروسة، بتاريخ ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٥م، ص ٥٦.

(٦٩) ديوان الجفالك : الكود الأرشيفي ٠٠٢٨٣٤- ٣٠٠٦، وثيقة رقم ٢٥٤، أمر من محمد علي باشا إلى إبراهيم أغا مدير جفالك الشرقية بتاريخ ٦ ربيع الثاني ١٢٥٩هـ/ ٦ مايو ١٨٤٣م.

(٧٠) محفظة الميهي: وثيقة رقم ١/١١ الميهي، تقرير شاكر أفندي مدير المحمودية، ص ص ٥، ٧.

(٧١) محفظة الميهي: وثيقة رقم ١/١١ الميهي، تقرير شاكر أفندي مدير المحمودية، ص ص ١، ٢.

الحرم الهمايوني
نشأته ودوره في تدهور الدولة العثمانية(*)

د. غالب عبد أحمد العربيات
قسم العلوم الأساسية- كلية السلط للعلوم الإنسانية
جامعة البلقاء التطبيقية

تمهيد

لم يعرف التاريخ دولة تتكرر فيها الدهشة والحيرة نشأةً وانهياراً كما يتكرر مع الدولة العثمانية، التي قامت فجأة وتوسعت فجأة وانهارت فجأة،علماً بأنها الدولة الوحيدة التي طوت الآفاق وسابقت الأيام في قيامها، فمن سكودا(*) في الشمال الغربي للأناضول كقبيلة هائمة إلى استانبول (القسطنطينية) كدولة تولت إمارة الجهاد(1).

صحيح أن حكام العالم عامة والمسلمين خاصة كان للنساء الدور الرئيس والمباشر إما في خروج الحاكم بالنصر أو مكللاً بعطر الفساد خبثاً، وكم من دولة هزتها ودمرتها غانية أو فاتنة، غير أن تجاوزات نساء قصور سلاطين آل عثمان فاقت ما سبقها ، وجبت جهاد الجيوش العثمانية وتوسعاتها التي شملت ثلاث قارات (أوروبا – أفريقيا – آسيا).

لقد كان لملوك الفرس دور في انتقاء النساء، وكان جهاز إدارة الحاكم الخاصة يتزيّن ويتجملّ لغانية ، ربما لأكثر من سنة ، ريثما تنال لقاء لا يزيد أكثر من ساعات، وبعد ذلك إما أن تترفع على العرش كمحظية، وإما غانية تمُزق أشلاءها بإشارة واحدة من العاهل الساساني.

(*) مجلة المؤرخ المصرى، عدد يوليو ٢٠١٥

والأمر نفسه بالنسبة لسلاطين المماليك الذين اعتمدوا للحصول على الجواري إما بالأسر وإما كضريبة تفرض على المهزوم أمامهم. وكم من مرة انكسر أمامهم المغول ، أما والفرنجة فقد انكسروا مرات متلاحقة، فغدت نساؤهم ومحظيلتهم أوروبيات الهوى والانتماء.

لم يكن سلاطين المماليك أول من اعتمد سياسة إبقاء أسيرات الحروب التي شنوها على أعدائهم في الداخل والخارج هي المصدر الوحيد للحصول على الجواري، بل سبقتهم إلى تلك الخطوات أمم كثيرة، ويُعد العرب من جملة الأوائل في الاحتفاظ بالأسيرات حتى القبائل البدوية كانت هي الأخرى تحتفظ بهن للبيع أو المبادلة(٢).

شغف سلاطين المماليك بجمع الجواري الحسان لدرجة أن السلطان قلاوون أهتم بعد انتصاره على أعدائه بجمع أجمل الجواري، وبصفة عامة أكثر سلاطين المماليك من بيع الجواري ولاسيما الجواري السود، كما أكثروا من اقتناء النساء الجميلات(٣).

غير أن سلاطين آل عثمان تفوقوا على مَنْ سبقهم من الأمم في اقتناء النساء، لكنه لم يعرف عنهم أنهم باعوا نساء أو فتحوا سوقاً لبيع النساء عامة والذكور خاصة (الرق) (٤)، وكان السلاطين العثمانيين مغرمين بالنساء البيض، ففي سنة ١٥٣٣م استدعى السلطان سليمان القانوني خير الدين برباروس إلى استانبول ليتولي منصب قائد عام للأسطول العثماني، وفي طريقه عرّج برباروس على إحدى جزر اليونان وغنم أميرة فاصطحبها معه إلى استانبول، ووضعت وسط القصر الهمايوني(٥)، وتجمعوا حولها يتفرجون على جمالها وبيضاها(٦).

صحيح أن ملوك وقياصرة وأباطرة دول وإمبراطوريات سبقوا سلاطين آل عثمان في تخصيص أجنحة خاصة بمحظياتهم، لكن العثمانيين برعوا في اقتناء جواري أوروبيات وتزوجوا بأجملهن، والجارية التي تلد ولداً تصبح هانم، ومن تلد أنثى ترسل إلى سراي الدموع (قصر الدموع)، ويذكر لنا ابن بطوطة أنه زار بورصة سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٣م وأنه لم يرَ

محظيات، وإنما قابل زوجة الغازي أورخان عندما زار إذنيق، وكانت زوجة الغازي بيلون خاتون تدير شؤون السراي، لأن الغازي اتخذ مدينة إذنيق مركزاً لعملياته العسكرية(٧).

لقد جسد سلاطين آل عثمان ظاهرة حب النساء في أبنائهم لدرجة أنها غدت وراثية فيهم، فحالما يلد طفل يرسلونه إلى المرضعات اللواتي يشرفن على تربيته لدرجة أنهم يحجبونه من أمور الدولة، وإذا أسعفه الحظ ويصبح سلطاناً، يوقع على الفرمانات وهو يعيش بين الحريم(٨)، فالسلطان سليم الثاني ١٥٦٦-١٥٧٤م قضى الثماني سنوات من حكمه ما بين الخمر والنساء، وقد توفي في الحمام الذي افتتحه يوم وفاته حيث كان يجري خلف جاريته، فانزلقت قدمه ودق عنقه(٩).

بالغت المصادر والمراجع بشأن تعلق السلاطين العثمانيين وولعهم بالمرأة، ولا سيما بعد فتح القسطنطينية، وقد اتبع السلاطين وسائل سياسية مكنتهم من إقامة دولتهم، منها :

١) تبادل الأراضي.

٢) المصاهرة (زوجوا أعداءهم وتزوجوا من أعدائهم).

٣) أغرم السلاطين العثمانيون بالنساء الشقراوات.

٤) التسامح في كثير من المواقف مع أهل الذمة. (١٠)

لقد كوّن بعض السلاطين عائلات نموذجية لم يتمكن ملوك فارس وأباطرة بيزنطة سابقاً ولا قياصرة روسيا من مجاراتهم في هذا المجال، وكانوا ملتزمين بطاعة الوالدة وتفضيلها على الناس كافة لدرجة كبيرة، فجيشوا كماً كبيراً من الجواري لخدمتها، وكانوا في أثناء الأعياد تسرع الجواري إلي السلطان لتقبيل يديه لنيل البقشيش أو العيدية.

إذا أردنا أن يشفع لهن السلطان الحاكم، فعليهن عبور الشفاعة من خلال والدة السلطان، ولكن بعد أن عهد السلطان منذ أواخر القرن السادس عشر للصدر الأعظم قيادة الجيوش وإدارة شؤون الدولة، بدأنا نرصد تراجع هيبة

سلاطين الدولة العثمانية، كما ارتمي عدد من هؤلاء السلاطين نتيجة النزاع النفسي ومراقبة الخدم له إلي الانزواء والعيش داخل دائرة الحرملك[١١]، وتذكر لنا المراجع المقربة من السلطان سليمان الثالث أن زوجته اليهودية كانت تدفعه للغرق في مستنقع النساء[١٢] حتي ينصرف عن تدبير شؤون الدولة، كما أن بيعه للمناصب وتعيين الفاسدين فيها، يعد دليلاً قطعياً يؤكد لنا أن الأمر دبرته لا شك الصهيونية العالمية فكيف الوصول إلى ما وصلت إليه روكسلانه من نفوذ وهي تعلم (اللغة والخياطة والحياكة والعزف على الغيتار والعود) لولا وجود جمعية علمية خفية تقف من ورائها[١٣].

غير أن أحمد رفيق في تاريخه (عثماني بيوك تاريخي) ينفي ذلك ويقول إن مراحل السلاطين الأوائل وحتى مطلع القرن الثامن عشر لم يكن هناك أي أثر للطروحات التي جمع المؤرخون على التستر بها.

ويقول هذا تستر خلف بربرية الصهيونية التي كانت مشردة حائرة تبحث عن مستقر يجمعها وينهي تشردها[١٤].

ولم يكن السلاطين العثمانيون وحدهم من تطلع للمواصفات الجسدية كالجمال والبياض أولاً ثم إلى الطول والقد الممشوق والواسعة والخصر إلى ما هناك من مواصفات جسدية جذابة، وتناسوا عن قصد أو دون قصد الأصالة والحسب والنسب، ولهذا تفاوتت أعمال السلاطين العثمانيين، في حين دأبوا جميعهم على أمور رئيسة ثلاثة.

١) الزواج بالأجنبيات والحقوا بزوجاتهم أسماء إسلامية.

٢) تأمين حاجيات السراي الهمايوني.

٣) تخصيص أموال كافية لخزينة الحرم الهمايوني[١٥].

وبناء على ما تقدم من دلائل ثابتة وحقائق واقعة، فإن قيام السلطان الحاكم بشرب دم أخيه، عادة لم تعرفها القبيلة العثمانية، ألا أن محمد الفاتح أقر قانون سنة ١٤٦٢م بأحقية قتل الحاكم لأخوته، ويرد معظم المؤرخين هذه العادة إلى الزواج من الأجنبيات، فالفاتح تزوج بعدة نساء (جيجك خانون

وسماها زخوس وأنجب منها جام وبنتين، وتزوج من فتاة روسية (كلوزاليا) يهودية أنجب منها ولدين إبراهيم مات صغيراً وبيازيد أو من ذكر في بعض المصادر (بايزيد) تولى الحكم إثر وفاة والده محمد الفاتح وتصارع مع أخيه جام الذي هرب إلى مصر ومنها إلى الفاتيكان فدفع بايزيد مبالغ مالية كبيرة للبابا الذي دس له السم(١٦).

ومن أبرز من أفاض في قضية الزواج لدى العثمانيين عثمان بك، وقد قسم مؤلفه إلى عدة أقسام، لمح إلى الرسول تلميحاً مباشراً، كما أشار إلى الحياة الزوجية لدى الأتراك عامة والسلاطين خاصة ، كما أكد تعدد الزوجات، وأن السلاطين امتلكوا في قصورهم جواري من مختلف الجنسيات، ولاسيما دول إيطاليا وبولونيا وروسيا، والنمسا والقليل من الإنكليزيات(١٧).

وقد استند السلاطين العثمانيون في تعداد الزوجات إلى القيمة المعنوية، ونقلاً عن محمد سعيد الحمزاوي الذي ذكر ما ورد عن ذكر لفظة الأم في القرآن الكريم (٢٣) مرة، ولفظة الزوجة (١٦) مرة، ولفظ النساء (٣٧) مرة ولفظ الأنثى (١٨) مرة، ولفظ الأخت (١١) مرة(١٨)، الي غيرة من تكرار لفظ الابنة البنت أكثر من مرة الأمر الذ يعد مبرراً قوياً لنشأة الحرم السلطاني في الدولة العثمانية.

أيضا أشار البحث سابق الذكر إلى أن السلاطين العثمانيين منذ اتخاذهم بورصة عاصمة لدولة غير قائمة قانونياً(١٩) عملوا علي تاسيس بلاط سلطاني يليق بفتوحاتهم. وبعد أن كانو لا يملكون قصوراً قبل قدومهم إلى الأناضول. كما أخذوا في اقتباس نظام الحرم السلطاني من الدول التي سبقتهم، كما اقتبسوا المراسيم الملكية من الفرس، كما طبقوا سياسة الخصيان وديلسز (أي الخرس صناعياً " قطع اللسان ") ، والطرش صناعياً (أي ثقب الأذن فهي بدعة عثمانية)، وتذكر لنا المصادر أن بعض السلاطين كانوا يصطحبون معهم من ٥-١٠ من الخرس و٥-١٠ من الطرش، ويؤكد لنا سجلات الديوان الهمايوني وجود أعداد من هؤلاء الشبان في معية السلطان

ناهيك عن الخصيان السود أو البيض[٢٠].

تنامى السراي الهمايوني بشكل مخيف بعدما أحال السلطان سليمان القانوني قيادة الجيوش وإدارة الدولة للصدر الأعظم: فلقد ازداد عدد الطباخين من ٣٧٥ إلى ٩٢٠ طباخاً وقيس أيضاً على الخصيان السود الذي يستقدمون من السودان ويقوم اليهود بإجراء عملية الخصي لهم في مدينة دمياط المصرية[٢١].

لقد برز السراي الهمايوني كقاعدة أساسية ورئيسة في توطيد الدولة، فالسلطان محمد الفاتح بعد سقوط القسطنطينية بيده سنة ١٤٥٣م قام بزيارة كنيسة أيا صوفيا وفي طريقه إليها رأى بأم عينيه عمليات السلب والنهب التي تمارس في المدينة وفور عودته استدعى أبرز علمائه وهو العالم محمد بن مصطفى الشهير بليس زاده التوقيعي، وطلب إليه وضع قانون ينظم شؤون الدولة، فقام بإعداده العالم محمد بن مصطفى وجاء في ثلاثة أبواب.

الباب الأول: في بيان مراتب الأكابر والأعيان.

الباب الثاني: في بيان المراسم الخاصة بالسلطان.

الباب الثالث: في بيان ما يتعلق بالجرائم وفي كل ما يخص أرباب المناصب[٢٢].

إذا كان السلاطين الأوائل لم يبنوا قصوراً (سراي) خاصة بإدارتهم، فإن الفاتح هو أول سلطان بدأ رسمياً بإنشاء قصر (سراي) بدولته، فبدأ أولاً بهدم دير قديم مهمل ، وعلي أنقاضه أتم بناء سراي رائع، الا انه رغم جماله رفض الدخول إليه، وأمر بتحويله إلى قاعة تدريب لعناصر الدوشرمه (الدفشرمه). [٢٣]

ثم قرر السلطان محمد الفاتح بناء سراي (قصر) آخر سماه سراي الطوب قابي أي (باب المدفع) لأنه يشرف على بحر مرمره ومضيقي البوسفور والدردنيل كحارس أمين عليهم، وقد جعل له ثلاثة (أبواب) وقسمه إلى ثلاثة أقسام:

١) أندرون، وهو القسم الداخلي.

٢) بيرون، وهو القسم الخارجي وفيه قسم السلاملك (للضيوف).

٣) الحرملك، أو الحرم الهمايوني وهو قسم الحريم السلطان وزوجاته ووصيفاتهم والمحظيات والطواشية (الخصيان) بيض وسود[٢٤].

وقد دوّن على باب همايون السلطان عبارة مفادها (السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم) [٢٥].

ويُعد القرن الخامس عشر بداية اقتناء الجواري والمحظيات لدى السلاطين العثمانيين، وقد كثرت أعدادهن يوماً بعد يوم لدرجة أن أعدادهن زادت عن ٥٠٠ جارية مضافاً إليهم الخصيان (سود وبيض) [٢٦] والحراس (ديلسز) بدون لسان و(قولا قسز) الطرش[٢٧].

كما حرص بعض السلاطين العثمانيون على تنظيم اقتناء الجواري والمحظيات، واقتدوا في ذلك بسلاطين المماليك، وكان عدد من السلاطين العثمانيين يهتمون بتوافر الشروط وضرورة الالتزام بالأصول من حيث الجمال والحسب والنسب، وعينوا من أجل هذا شخص كان مهمته الأساسية هي الإشراف على ذلك الحرم الهمايوني ، وسموه (آغا الكزلار) أي آغا البنات، وحذر نظام السراي الهمايوني استرقاق الجواري المسلمات أو بيعهن لذمي[٢٨].

لم تفد المصادر العثمانية، بأن جارية مسلمة تم شراؤها كجواري ، أو بيعها لاي من أهل الذمة، أو أن جارية تم إجبارها علي معاشرة السلطان. ويستدل المؤرخ التركي علي كمال مرام أن صافيناز التونسية دخلت السراي الهمايوني كهدية للسلطان عبد العزيز قدمها له رجل السياسة والأعمال محمود عياش باشا، وحينما طلبها للمعاشرة رفضت طلبه[٢٩]، فلم يغصبها، وكان السلطان عبد الحميد الثاني مغرماً بها فتوسط لدى والدة السلطان (برتونبال) لمساعدته في الزواج من صافيناز،التي نجحت بمهمتها تلك،وبعدما تزوجها سماها فاطمة وعرفتها المصادر والمراجع بأنها فاطمة

المغربية[٣٠].

إن قراءة هادئة للمصادر التي تتحدث عن السراي الهمايوني ترغم القارئ على التوصل الي قناعة مفادها أن ما كان يحدث في هذا السراي الهمايوني من جانب بعض سلاطين آل عثمان فاق في بعض الأحيان كثيراً ما فعله الأكاسرة والأباطرة والقياصرة والخلفاء العرب. لكن هذا لا يعني أن البحث يسوغ تصرفات البعض الآخر، خاصة وأن أولئك السلاطين كان لديهم حوالي ٢٣،٩٧٥،٠٠٠ كم٢من الأراضي وملايين البشر، حيث أننا سرعان ما نجد أن العالم الأوروبي أخذ منذ أوائل القرن السادس عشر يتطور، في حين أن سلاطين أل عثمان ورعاياهم منذ ذلك الوقت في تراجع مستمر[٣١].

لقد حمل الراغبون بشراء رضا الملوك والأمراء والسلاطين هدايا متنوعة ومختلفة وفي مقدمة ما حملوه كانت الجواري ثم الذهب والفضة، ولم ترفض هدية واحدة أهديت إلى ولاة الأمر والشأن، وتضيف المصادر والمراجع أن نسبة الجواري التي أهديت زادت عن ٨٥% والخمس عشرة الباقية تنوعت ما بين الذهب والفضة، في حين قام العلماء في الغرب بإهداء أعمالهم العلمية لولاة الشأن فقط[٣٢] غير مصحوبة بأي من الجواري.

أما بشأن زواج السلاطين العثمانية من الأوروبيات، فمن المستحيل إحصاء زواجات كل سلطان، وقد أفاد علي كمال مرام في مؤلفه، أن عدد من سلاطين ال عثمان تزوج بخمس زوجات ناهيك عن المحظيات[٣٣]، في حين ذكر محمود عامر في مؤلفه مستنداً على المصادر التركية أنه قلما عاشر السلطان محظية من محظياته لمرتين متتاليتين، لأنه من غير الممكن حصول ذلك مهما كانت الجارية رائعة الجمال، ففي القصر مئات الجواري إضافة إلى عشرات المحظيات يفدن إلى السراي الهمايوني يومياً[٣٤]، إلا انه في حالة ذهاب السلطان إلى بورصة للترويح عن نفسه فيصطحب معه جاريته المفضلة[٣٥].

لم يكن السلطان سليمان القانوني أو أبنه سليم الثاني مغرماً بجمع الجواري كالسلطان الناصر محمد بن قلاوون، وتفيد المصادر أن أبن قلاوون

امتلك لنفسه ألف جارية وأنشأ لهن قاعات سبع يشرفن على الميدان وباب القرافة.

صحيح أن السلاطين العثمانيين أكثروا من الجواري الحسان واقتصر زواجهم على المسيحيات بدءاً من السلطان المؤسس عثمان ١٢٨١-١٣٢٤م وحتى السلطان محمد رشاد ١٩٠٩-١٩١٨م، لكنهم أيضاً اختاروا الأكثر جمالاً في العالم آنذاك، وقد قارن أحد المؤرخين بين سلاطين بني عثمان وخلفاء العرب، فقال (إن الخلفاء العرب كانوا يختارون زوجاتهم من بنات الأسر العليا في مملكتهم أو فيما يجاورها من بلدان، وكانوا كثيراً ما يرجعون إليهن في المشورة، على حين أن بعض السلاطين العثمانيين ما كانوا يهتمون بحسن الاختيار، ولا يراعون أصول نساءهم، ومالوا الي المحظيات[٣٦].

بالطبع لا يمكن لنا أن نغفل إملاءات روكسلانه على زوجها السلطان سليم الثاني، أو مراد الثالث وتأثير صافية عليه، هذه التأثيرات وغيرها انعكست بصورة سلبية على تطور الدولة العثمانية، التي جرجرتها النساء الأوروبيات إلى مأزق حضاري لا مفر منه[٣٧].

تذكر أليف كروتييه أنها قراءة بعمق أسرار الحرملك من خلال قصر الطوبقابي تكشف لنا عن كثير من تفاصيل ذاك السراي الحافل بالمآسي من جهة والأفراح والليالي الملاحّ من جهة أخرى[٣٨].

وأشارت الباحثة أليف أن تعدد الزوجات ظاهرة انتشرت بكثرة في المدن العربية والإسلامية، وأن هذه البلدان رغم مآسي تعدد الزوجات الذي دأبت عليه، ولم تتعظ منذ وقت مبكر لهذه الظاهرة السلبية. ألا أن ما حدث في تركيا الحديثة، والصين، حيث مُنع الزواج بغير واحدة وأن العصمة بيد المرأة، يعد تطوراً ايجابياً في مفاهيم الرجل الشرقي.

ويدار الحرملك بإمرة والدة السلطان الحاكم، وهي التي تأمر آغا الكزلار بتجهيز الجواري للعرض أمام السلطان الذي يجلس على شرفة غرفته يختلس النظر إلى الجواري والمحظيات، فإذا أعجب بإحداهن

يخبروالدته بذلك، فتأمر بتجهيزها وتدريبها على كيفية التعامل مع السلطان لإدخال السعادة إلى قلبه وبالكاد يعاشرها ليوم أو لمرة واحدة، لأنه يتصور أن في قصره أجمل منها، وهكذا كان السلاطين يقضون أيامهم ولياليهم من جارية إلى محظية وهكذا.

وكان السلطان الحاكم يتزوج بأربع نساء، ويطلق عليهن" دوائر باش قادين "، اي (رئيسة النساء) علي نسق (أم المؤمنين)

وهي أربع دوائرهي:

١- زوجة من زوجاته الأربع دائرة خاصة.

٢- دوائر باش إقبال (للمحظيات).

٣- دوائر قزلار (دوائر البنات) وهي مخصصة للفتيات اللواتي قد يرشحن لدرجة المحظيات.

٤- قادين أفندي (السيدة المرأة) وهي دائرة معدة للمحظيات اللواتي يعجب السلطان بإحداهن يوم يرغب بمعاشرة جديدة(٣٩).

وقد أشارت المصادر العثمانية، والفرنسية، وغيرها من المصادر أن السلاطين العثمانيين غالباً لم يكونوا يعرفون أولادهم أو نساءهم، فالسلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥م) قيل أن له ثلاثمئة طفل، والبعض أفاد أن له مئة سرير لمائة طفل. أما بيهم فيذكر أرقاما مغايرة(٤٠).

ظاهرة الخصي:

لم تعرف البشرية مأساة أكثر بشاعة من هذه الظاهرة، التي اتسمت بالاستمرارية، فهي ترافق المخصي طوال حياته، وتحوله إلى نوع ثالث من الإنسانية، ومن الجدير بالذكر أنه هناك مخصي خلقاي خُلقوا على هذا النحو من أرحام أمهاتهم، ولكن ما نقصده في دراستنا هذه ذلك المخصي على أيدي جبابرة من رجال، في حين علي الجانب الرباني الخصي للرجل يعد عند البعض نوع من الطهارة الربانية إذا اقتنع بها الرجل بمحض إرادته، وهناك كذلك خصيان خصوا أنفسهم (الرهبنة) من أجل ملكوت السماء(٤١). كم أن

قراءة لتاريخ الخصيان يتبين لنا أن بعض الأشخاص ولاسيما المسيحيون عمدوا إلى خصي أنفسهم تقرباً بالله، لأن توريليان لاهوت القرن الثاني صرح أن ملكوت السماء مفتوح للخصيان، وتفيد بعض المصادر أن هذا النداء زاد من الرهبنة لدى المسيحيين.

لقد انتقلت ظاهرة الخصي من الشرق عبر فارس إلى الصين، وقد عمد الفرس إلى خصي الأسرى الأيونيين، وقد لجأ الخصيان إلى تقديم العذارى الجميلات للملوك، لأن الملك الفارسي قورش عندما استولى على بابل صرّح أن الخصيان قد يكونون أكثر الخدم إخلاصاً، لأنهم غير قادرين على الإنجاب وتكوين أسر خاصة بهم(٤٢).

علماً بأن بعض من ولاة المسلمين طبقوا سياسة الخصي لمن يقومون برعاية كل من مسجد البيت الحرام والمسجد النبوي بمكة والمدينة، لأنه في ضوء بعض الفتوي والرؤية الدينية الإسلامية لا يجور الاحتكاك بالنساء اللواتي يزرن هذه المساجد المقدسة (مكة والمدينة) (٤٣).

وفي سنة ١٤٩٧م أرسل السلطان العثماني يلدرم بازيد الأول كسوة الكعبة الشريفة مع صرة من الأموال (ذهب) لخدام مكة وفقرائها، غير أن الأشراف حرموا الخدم الخصي من نصيبهم، فبلغ الخبر إلى السلطان يلدرم بايزيد الذي خصهم بعطفه وأرسل لهم أموالاً خاصة بهم(٤٤).

لم يقتصر خصي الشبان على بعض المناطق الإسلامية، فعلى سبيل المثال ففي الصين كانت بكين مقتصرة السكن بها فقط على الذكور، وكان معظمهم من الخصي ولاسيما خلال جكم سلالة مينغ (١٣٦٨-١٦٤٤م). وعلى الرغم من أن السلاطين العثمانيين أكثروا من الخصيان (بيض وسود)، إلا أن بعض محظياتهم أقامت علاقات عاطفية مع بعض الخصيان، ولاسيما المحظيات اللواتي ينجبن إناث فقط حيث ارسالهن إلى قصر الدموع، وكان قصر (سراي) الدموع حافل بالخصيان الذين أُوكلت إليهم اقتياد المحظيات لهذا القصر المنفي كنوع من العقاب(٤٥).

تدهور الدولة العثمانية منذ عهد سليمان القانوني:

لدى قراءة تاريخ نشأة الدولة منذ ان كانت إمارة في مدينة سكودا الواقعة في الشمال الغربي للِأناضول مروراً بسراي بورصة وإدنيق وإزمير ثم اخيرا استانبول. يتبين لنا أن هذه الدولة تحولت منذ عهد السلطان سليمان القانوني إلى ساحة لإبراز المفاتن أمام السلطان، الذي ترك شؤون دولته للصدر الأعظم المنحدر أصلاً من الإنكشارية التي جمعت بموجب نظام الدوشرمه (الدفشرمه) ولاسيما بعدما أسند السلطان سليمان القانوني شؤون الدولة أن صدر الأعظم الذي تفرد يوماً بعد يوماً بالإدارة وازداد غرق السلطان في نهود الغواني.وبتشجيع منهن ومن والدة السلطان وحتى زوجته أسهمت في ذلك.

لقد تزايد توافد المحظيات الأوربيات من مختلف دول أوروبة الشرقية والغربية وشكلت فرق والدويلات الإيطالية نسبة زاد عن (٦٥%) من محظيات القصر، وفي الغالب كانت المحظيات الفرنسيات والإيطالية يهوديات المنشأ والهوى(٤٦).

ولقد قدمن المحظيات خدمات جلى لدولهم، فإذا كانت المحظية فرنسية الأصل تحسنت علاقات الدولة مع فرنسا وقس على ذلك، وبهذا الصدد يذكر فيردون أكو ذان وإن سياسة الدولة العثمانية كانت حكراً على زوجة السلطان الحاكم(٤٧).

وقد توصل معظم الباحثين في تاريخ الدولة العثمانية الي نتيجة مفادها أن محظية السلطان الحاكم أو أم السلطان الحاكم كانت تدير شؤون الدولة مع الصدر الأعظم ويضربون مثالاً على ذلك ما تعرضت له الجزائر من حصار فرنسي سنة (١٨٢٧م) استمر حصارهما ثلاث سنوات دون أن يحرك السلطان محمود الثاني أي ساكن حيال هذا الحصار(٤٨).

أما بالنسبة لدور المحظيات اليهوديات، فقد عملن بهدوء على ترهل الدولة شيئاً فشيئاً، فروكسلانه اليهودية أقنعت سليم الثالث بضرورة ترك

شؤون الدولة للصدر الأعظم أسوة بملوك أوروبا، ومن قبلها نور اليهودية زوج السلطان سليم الثاني شجعته على شرب الخمرة والغرق في متاهات القصر، ومراد الثالث ترك شؤون الدولة لزوجته الفاتيكانية، والسلطان محمد الرابع اضطر إلى التخلص من جدته لكي يلهو دون رادع ، وهناك أيضاً زوجة السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠م) (كوسم) التي عجلت بوفاته، حتي يزداد نفوذها وتنفرد بالحكم، وتحكمت في مصير الدولة العثمانية في عهد ابنها إبراهيم الأول (١٦٤٠-١٦٤٨م) ، ودار صراع شديد بين كوسم هذه ووالدة السلطان محمد الرابع الصياد[٤٩] مما كان بالغ الأثر السلبي علي الدولة العثمانية.

كما أجمع مؤرخو الدولة العثمانية من غير الأتراك علي أن الدولة العثمانية اغتيلت اغتيالاً، وحمّلوا السلطان سليمان القانوني مسؤولية فتح باب الترهل، وإذا كان انهيارها قد تم في النصف الثاني للقرن التاسع عشر، فلأن أوروبة لم تكن بعد قد تخلصت من مشكلاتها[٥٠].

الخاتمة

لا شك أن الإنسان ميال إلى اللهو والمجون، فالعثمانيون الذين طُردوا من أواسط آسيا ساقتهم الأقدار للوصول إلى أعالي الأناضول بشجاعتهم، وساعدهم وقوف المنظمات الآخية والأكراد والعرب إلى جانبهم ضد الدولة البيزنطية المنقسمة على ذاتها، وبهذا النهج كون العثمانيون دولتهم، وبذاك السلوك الحربي الممزوج بالعاطفة الدينية أولاً والرغبة بالتخلص من خمول وعبث المماليك قبل العرب، والانطواء تحت الراية العثمانية ثانياً.

ولكن سرعان ما ترهلت هذه الدولة العثمانية، وجدنا من السلاطين من يقول (استانبول تكفيني)، وخيّرات الولايات الغنية تتوافد إلى القصور السلطانية أطناناً أطنان، وأصبحت والدة سلطان أو زوجة حاكمة فعلية للدولة وتوجه سياستها،ليغدو السراي الهمايوني شيئاً فشيئاً ألعوبة بأيدي نساء أوروبيات أسهمن بصورة غير مباشرة في تزايد ترهلها ثم انهيارها في نهاية

المطاف .

أرجو أن يدفع قراء هذه دراسة ودور الحرملك في إسقاط الدولة ، الي إعادة النظر في تاريخ الدولة العثمانية على الصعيد السياسي.أما على الصعيد الاجتماعي فنجد أن المرأة كانت في بعض الأحيان رخص المتاع من جهة ووسيلة لتحقيق مآرب سياسية وتجاهل تام للجسد الإنساني من جهة أخرى في كثير من حقب لدولة العثمانية، وأما مقولة إن المرأة نصف المجتمع فهذا في الدول الراقية التي يحكمها القانون. أما في بعض المجتمعات الإسلامية الأخرى فإن المرأة هي كل المجتمع وليس نصفه فإلقاء نظرة على زوجات الملوك والأمراء السلاطين والرؤساء في العالم الإسلامي يُرى أن زوجاتهم هن كل الدولة وأن أقرباءها هم أصحاب الشأن فيها، وما يطرح على أنها الأم أو الزوجة أو الأخت أو الابنة فهذه شعارات لا تلامس أرض الواقع، فالسلطان عبد الحميد الثاني قال إن خميرة الخيانة دماغ المرأة، ولهذا أكثر من الزواج وأكثر من قتلهن.

وأما على الصعيد الإنساني فقد جسدته المرأة اليهودية في إيواء أبناء جلدتها، فوالدة السلطان بايزيد الثاني ابن محمد الفاتح (١٤٨١-١٥١٢م) أصدر فرماناً يحذر من الاعتداء على اي يهودي، وأباح لليهود حرية الدخول إلى مملكته على ذمته عندما اتهم فرديناند بالغباء لأنه طرد اليهود من الأندلس سنة (١٤٩٨م)، وها هي روكسلانه اليهودية تستصدر في عهد سليم الثالث أمراً بإيواء اليهود، وها هو ابنها يعهد لليهود الشؤون المالية والضرائبية في قصره (قصر كل الدولة) الهمايوني.

وعلى الصعيد الديني، فمعظم النساء الأوروبيات تزوجن بالسلاطين واشترطن الاحتفاظ بدينهن، فوالدة السلطان محمد الفاتح بعد موت مراد الثاني (١٤٢٣-١٤٥١م) تركته وعادت إلى بلادها، وها هي إيميه والدة محمود الثاني طلبت منه أن يبني لها كنيسة في (بي اوغلو) وطلبت منه دفنها فيها، وقس على ذلك من زوجة عثمان الأول حتى زوجة محمد وحيد الدين قبيل سقوط الدولة العثمانية.

الهوامش :

*سكودا: منطقة إقليمَ تمتاز بسُهولِها الخصبة الواسعة المتاخمة للدَّولةِ البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية، وكان الهدفُ أن تكون هذه القبيلة حاجزًا بشريًّا من خطرِ البيزنطيين . للمزيد انظر:محمودعامر ،اغتيال الدولة العثمانية دمشق ،٢٠١٤، ص٩.

(١) دارت مشادات حادة بين المماليك الذين لقبوا بأمراء الجهاد مع العثمانيين الذين تلقبوا أمراء حدود، وحالما سقطت القسطنطينية سنة ١٤٥٣م انتُزع مصطلح أمراء الجهاد من المماليك بحجة أن سقوط القسطنطينية بأيدي المسلمين أكبر من الانتصار في عين جالوت سنة ١٢٥٨م، للمزيد، أحمد جودت باشا، تاريخ جودت، استانبول ١٣٠٩هـ، ج٣، ص١٧٠.

(٢) للمزيد، اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الظاهر، دراسة وتحقيق أحمد حطيط، بيروت ١٩٨٦م، ج٢، ص ١٣١ و ٣٦١.

(٣) نعيم زكي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، نشر الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣م، ص ٢٢٤. (شراء الفتيات).

(٤) أرشيف رئاسة الوزراء، استانبول، ملفات الجواري منذ سنة ١٤٧٨م، وهي سنة افتتاح قصر الطوب قابي حتى سنة ١٨٥٦م سنة افتتاح سراي دولمه بغجه.

(٥) همايون، مؤلفة من لفظتين، هما: منطقة، ويون: سعيد، وزيادة الإيضاح، جلوس همايون معناها الجلوس السلطاني، سفرهمايون يعني سفر السلطان، وهلما جرى.

(٦) عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمة محمود عامر بيروت ١٩٨٨، ص١١٢ وما بعد.

(٧) نور العلي، تشكيلات السراي الهمايوني، رسالة دكتوراه لم تنشر، دمشق ٢٠١٤م، ص٨١ وما بعد.

(٨) المرجع نفسه، ص٣٩، إن افتقار الدولة العثمانية بعد سقوط القسطنطينية إلى إنجاب الرجال، فالرجال نتائج وليس أسباب، والأوروبية أنجبت أشباه رجال لهذا سقطت الدولة (استنتاج استمد من حكمت قفلجملي (التاريخ العثماني، تعريب فاضل لقمان، دار الجليل للطباعة، دمشق ١٩٨٧م، ص٢٥-٢٦، ولزيادة الإيضاح منذ ١٢٩٩م حتى ١٩٠٤م لم يتزوج سلطان عثماني بامرأة مسلمة، محمود عامر، الدولة العثمانية تتهم سلاطينها.دار الصفدي ٢٠٠٣ص ٨٩ ومابعد

(٩) فيردون تولبنتشي، عشق السلاطين، مرجع سابق، ص٢٥٩، للعلم أن السلطان سليم الثاني عندما افتتح الحمام الهمايوني كان برفقته جواري أبرزهن روسية وكورسيكية وفتاة كورجيه، وقد انتقتهم له زوجه نورباتو، للمزيد المرجع السابق، ص ٢٦٢.

(١٠)محمد جميل بيهم ،فلسفة التاريخ العثماني ،مكتبة صادر ،بيروت ١٩٣٥ ص ٨٩ ومابعدها.

(١١)دوسون، تاريخ الدولة العثمانية (د.ت) الجزء السابع، ص٦٣ وما بعدها.

(١٢)محمود عامر، الماسونية ويهود الدونمه، دمشق ٢٠٠٧م، ص٢٠ وما بعدها.

(13) ZekeriyaKitapçI, Abbasi Hila Fe Tindese Lçulkau Hatun Larive Tüksultanlar Ikony, 1995.

(١٤)أحمد رفيق عثمانلي بيوك تاريخي،، استانبول ١٢٩٨هــ، ج١، ص١٥٧.

(١٥)يذكر محمد جميل في مؤلفه فلسفة التاريخ العثماني إن مخصصات الحرم السلطان بلغت ١٢،٨٤٨،٠٠٠ أقجة،بيروت ١٩٥٤ ج٢ص٢٧، والأقجة: هي عملة فضية سكها الغازي أورخان سنة ١٣٢٧م في بورصة، وأبطلها السلطان مراد الرابع للمزيد انظر: Midhatsertoğl, ResimliosmanlITarIhi, Ankara 1958s.10. (مدحت سرت أوغلو، التاريخ العثماني المصور، انقرة ١٩٥٨م .

(١٦) محمود عامر، الدولة العثمانية تتهم سلاطينها، دمشق ٢٠٠٣، ص١١١.

(١٧)عثمان بك، الأتراك ونساؤهم، عاش عثمان في كنف زوج والدته الصدر الأعظم محمد قبرصلي، وقد أدت دوراً مهماً في الأوساط الدبلوسية، الجدير بالذكر أن كتابات عثمان بك جاءت كمذكرات، وقد ترجمت إلى عدة لغات، استفدنا من النسخة التركية (د.م) سنة ١٦٧٨م، ص١٥٧.

(١٨) محمد سعيد الحمزاوي، رعاية الإسلام للمرأة، دمشق ١٩٧٢م، ص٥٧-٥٩.

(١٩)يقصد بالقانونية، أي لا تملك قانوناً، لأن حكامها آنذاك لم يكونوا موقنين بأنهم قد يصلون إلى ما وصلوا إليه.

(٢٠)سجلات الديوان الهمايوني، إحصاء للعاملين فيه، سجل ٢٨ ، ص١٦.

(٢١) Atabey, Tarib-I Ata (TarikEnderan) istanbul 1213.s.156(ترجمة: عطا بك، تاريخ عطا (تاريخ أندرون) استانبول ١٢٩٣م، ص٢١٥٦ أما الأندرون فيعني القسم الداخلي للسراي الهمايوني، أما بيرون فيعني القسم الخارجي للسراي وما بينهما يسمى قسم البيرون، للمزيد، نور العلي، تشكيلات السراي الهمايوني،مرجع سابق ، ص٦٤.

(٢٢)خليل ساحلي أوغلي، محمد الفاتح قانون نامه، مجلة دراسات المجلد الثالث عشر، العدد الرابع عمان ١٩٨٦ ص١١١.

(٢٣)الدوشرمه:(devşirme) الواو تلفظ فاءً، وتعني القطف، الخطف، الجمع، ويقضي نظامها على جمع الشباب المسيحيين ممن تراوحت أعمارهم (٨-١٨) ويدربون في السراي الهمايونية للمزيد انظر:

Mehmet ZekipakalIn, TarihDeyimleriveterimlerIsőzlü, istanbul 1946. c.1.s 444. (محمد ذكي بقالين، قاموس المصطلحات والأساليب، استانبول، ١٩٤٦م، جلد١، ص٤٦.

(٢٤)نور العلي، تشكيلات السراي الهمايوني، رسالة دكتوراه، مرجع سابق، ص٤٦.

(25) Ismail HakkIuzunçarş III, Osmanl Idevletsaray Teşkilat I, Ankara, 1952.s.288.

(٢٦) IsmailHakkIuzunçarş III, Osmanl Idevletsaray 292. (مرجع سابق).

(٢٧)كان السلطان لدى خروجه للنزهة الداخلية يصطحب عدداً من الحراس الخرس والطرش، ولم تفدنا المصادر عمن أفتى للسلاطين العثمانيين بقطع اللسان وثقب الأذن للمزيد :

MustaFaőzcan, dilsiz, kulaksizNerdengeldiler, istanbul 1968.s.149.

مصطفى اوزجان، الخرس والطرش من أين جاؤوا استانبول ١٩٦٨م، ص١٤٩ .

ملحوظة: يحملّ مصطفى أوزجان، المسلمين العرب (رجال الدين طبعاً) مسؤولين افتاء قطع اللسان وثقب الأذن للطواشية، مستنداً إلى فتوى علي الجمالي للسلطان سليم الأول بضرورة محاربة المماليك لأنهم يكتبون آيات الله على نقودهم، وللعلم علي الجمالي حلبي من أصل يهودي، كان ضليعاً بالعربية ومتقناً للقرآن وأحاديث النبوة ، للمزيد مصطفى اوزجان، الخرس والطرش من أين جاؤوا مزجع سابق، ص١٩٥.

(٢٨)اوزجان، المرجع نفسه، ص٢٣٧.

(٢٩)مقارنة باليهودية التي تسارع للزواج بأي مسؤول مسلم لخدمة اليهود، والعربية لا ترضى الزواج إلا بركوبها على هودج، والآلاف العرب في سجون السلطات عبد الحميد الثاني، أما بشأن طلب السلطان للمعاشرة فتدعى عند الملوك والسلاطين والأمراء بالعطف الملكي السامي، وهو المصطلح مقتبس من الأمم التي سبقت العثمانيين (الباحث).

(٣٠) محمود عامر، الدولة العثمانية، تاريخ ووثائق، دمشق ٢٠٠١م، ص ٢١١.

(٣١) سامي بولوط اوغلو، التعالي السلطاني وتداعياته، استانبول ١٩٢٧م، ج١، ص١١٨.

(٣٢)أحمد راضي الجلالي، هدايا الملوك والأمراء، البصرة، ١٢٩٧هـ/١٨٧٩م، للاطلاع على محتوياته، استانبول، مكتبة نور عثمانية، رقم ٥٧٩ ورقة ١٣ وما بعدها.

(٣٣)علي كمال مرام، أمهات السلاطين، استانبول ١٩٩٧، ص٣٥١ فقرة (Gençosman) الشاب عثمان، وبعض الصفحات الأخرى اللاحقة.

(٣٤)محمود عامر، الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص١١٠-١١١.

(٣٥)فيردون تولبنتشي، عشق السلاطين، مرجع سابق، ص ١٤٣.

(٣٦) سعود محمد العصفور، بحث الجواري في العصر المملوكي، جامعة الكويت، قسم التاريخ (د.ت تاريخ) ص١١.

(٣٧)تدحرج الدولة العثمانية أوصلها إلى نقطة ألاعودة إلى الماضي أو البقاء في واقعها المتخلف بحسب إدعاءات أوروبة، فتطورها يقتضي منها الأخذ بالأساليب الحديثة وتطور الدولة العثمانية يعني تبديل جلدها.

(٣٨)أليف كروتييه، عالم الحريم، ترجمة علي خليل، دار الكلمة للنشر، دمشق، ٢٠٠٥،ص١٣٢.

(٣٩) محمود عامر، الدولة العثمانية، تاريخ ووثائق،مرجع سابق، ص٨٠.

(٤٠)أليف كرتيينه، ص١٢٤، ويذكر بيهم في مؤلفه أنه أمر بخنق ١٩ أخ من أخوته ودفنهم في حفرة والده، ص١٦، وفي هذه الحالة يرجح رواية أليف كروتييه، فحسب المصادر كانت زوجة صاخيه تشجعه على المعاشرة في حين تفردت بالسلطة .

(٤١)أليف كرتيينه، عالم الحريم، مرجع سابق، ص١٦٨.

(٤٢)المرجع السابق نفسه، ص١٦٩.

(٤٣)أليف كرتييه، مرجع سابق، ص١٧٠.

(٤٤)أشارت الباحثة التركية إلى الخصي في خدمة مساجد مكة والمدينة، وتعد لفتة السلطان يلدرم بايزيد إلى إكرام هؤلاء الخصي أول خطوة تذكر بهم، ولم يثبت أن الخصي كما يسمح له حمل المال، ولزيادة الاطلاع، سجلات المحاكم الشرعية (استانبول – حلب – دمشق) علماً بأن الباحثين لم يعثروا على وثيقة تدل على ذلك في سجلات طرابلس الشام، ولربما لم يدرك بعض الباحثين أن الخصي اقتصرت خدمتهم على قصور الملوك والأمراء.

(45) Zeyatsülimoğlu, sarayhumayundahusyIdeviri, istanbul 1939.s.64.

زياد سليم اوغلو، دور الخصي في السراي الهمايوني، استانبول ١٩٣٩م، ص٦٤.

(٤٦) Ali kemal, padişahAnalarI أمهات السلاطين، مرجع سابق، ص٥٠ وما بعد.

(47) FeridunAkozansarayTopkapIsiyasiilgisi, Ankara 1958.s.165

(فيردون اكوذان، علاقة سراي الطوب قابي السياسية، أنقرة، ١٩٥٨م) ص١٦٥.

(٤٨)فوالدته (إيميه) تمت إلى جوزفين زوجة نابليون بصلة القرابة، فالجميع يعلم أن الجزائر حوصرت ثلاث سنوات، وبعد سقوطها وجه للفرنسيين خطباً خجولة جداً.محمود عامر والدولة العثمانية أو الدولة العثمانية تتهم سلاطينها ص١٩٥ و١٤٦

(٤٩)أفاد المصادر أن طورخان وأيضاً كوسم يهوديتان تلاعب بشؤون الدولة بشكل سافر وعلني للمزيد، أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ترجمة صالح السعداوي استانبول ١٩٩٩م، ج١، ص٥٥-٥٦، وأيضاً محمود عامر الماسونية، ويهود الدونمه، سورية ٢٠٠٥م، ص٦٧ وما بعدها.

(٥٠) محمود عامر، اغتيال الدولة العثمانية، دمشق ٢٠١٤، ص١٥ وما بعدها.

قائمة المصادر والمراجع

- الترءعزيز سامح، الأتراك العثمانيون في أفريقية الشمالية، ترجمه محمود عامر، بيروت، ١٩٨٨م.
- العصفور، سعود محمد، الجوراي في العصر المملوكي، جامعة الكويت(د.ت).
- العلي، نور، تشكيلات السراي الهمايوني،رسالة دكتوراه(غير منشورة)، دمشق، ٢٠١٤م.
- اكوزان، فيردون ،علاقة سراي الطوب قابي السياسية، أنقرة، ١٩٥٨م.
- اوزجان، مصطفى، الخرس والطرش من أين جاؤوا ،استانبول، ١٩٦٨م.
- اليوسفي، محمد زيد ،نزهة الناظرة في سيرة الملك الظاهر ،تحقيق أحمد حطيط بيروت ١٩٦٨م.
- بولوط ، اوغلو سامي ، التعالي السلطان وتداعياته ،استانبول، ١٩٢٧م.
- بيهم، محمد جميل ،فسفلة التاريخ العثماني ،الكتاب الأول بيروت، ١٩٥٣م.
- فلسفة التاريخ العثماني ،والكتاب الثاني بيروت، ١٩٥٤م.
- تولبنتستي، فيردون ،عشق السلاطين ،دار الروائع بيروت، ١٩٦٦م.
- الجلالي، أحمد راضي ،هدايا الملوك والأمراء ،البصرة، ١٢٧٩هـ/١٨٧٩م.
- جودت باشا، أحمد ،تاريخ جودت استانبول، ١٣٠٩هـ.
- الحمزاوي، محمد سعيد ،رعاية الاسلام للمرأة ،دمشق ١٩٧٢م
- دوسون ،تاريخ الدولة العثمانية (د.ت).
- رفيق، أحمد ، عثمانلي بيوك تاريخي ،استانبول، ١٢٩٨ه.
- زكي، نعيم، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر

العصور الوسطى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.
- ساحلي اوغلي، خليل ،محمد الفاتح قانون نامة، مجلة دراسات ، المجلد الثالث عشر العدد الرابع ،عمان، ١٩٨٦م.
- سليم أوغلو، زياد ، دور التاحصي في السراي الهمايوني، استانبول، ١٩٣٩م.
- عامر، محمود ،الدولة العثمانية ، تاريخ ووثائق، دمشق، ٢٠٠١م.
- ---------- ، الدولة العثمانية تتهم سلاطينها، دمشق، ٢٠٠٣م.
- ---------- ، الماسونية ويهود الدونمة، دمشق، ٢٠٠٧م.
- ---------- ، اغتيال الدولة العثمانية، دمشق، ٢٠١٤م.
- عثمان بك ، الأتراك ونساؤهم (د.م)، ١٩٧٨م.
- عطا بك ، تاريخ عطا ،استانبول، ١٢٩٣هـ.
- قفلجملي، حكمت ، التاريخ العثماني، تعريب : فاضل لقمان ،دار الجليل للطباعة، دمشق، ١٩٨٧م.
- كروتييه، أليف ،عالم الحريم،ترجمة: علي خليل،دار الكلمة للنشر،(د.م)،(د.ت).
- مرام، علي كمال، أمهات السلاطين ،استانبول،١٩٩٧م.

Zeyyatselimoğlu, sarayhumayunda ***huseyINdeviri***, istanbul, 1939.

تقييم المساهمات العثمانية فى حركة الفكر السياسى الاسلامى بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر (*)

د. محمد السيد سليم
كلية الاقتصاد والعلوم السياسية – جامعة القاهرة

المتأمل لمسيرة الفكر السياسى الاسلامى من رحيل ابن خلدون فى أوائل القرن الخامس عشر، لايجد مفرا من استنتاج أن هذا الفكر قد شهد انحسارا واسعا منذ تلك الفترة. ولايقصد بالانحسار هنا الاختفاء الكلى للفكر ولكن يقصد به تراجع موجه التدفق الهائل للمفكرين الجدد، وعدم تقديم أفكار جديدة والاكتفاء بترديد وشرح الأفكار القديمة. فحجم وتنوع الفكر السياسى الاسلامى منذ القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر كان أقل بكثير مما كان قبلا. وفى ذلك يقول آنتونى بلاك أنه مابين القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر، كان الفكر السياسى الاسلامى محدودا بالمقارنة بالفكر السابق عليه، وبالفكر اللاحق عليه. فبعد ابن تيمية وابن خلدون كانت الأفكار الجديدة محدودة.[١]

ولعل تلك المقولة لن تكن أكثر وضوحا مما كانت عليه فى حالة الفكر السياسى الذى ظهر فى الدولة العثمانية. فلم تقدم هذه الدولة أسماء لمفكرين جدد يعتد باسهاماتهم فى مسيرة الفكر السياسى الاسلامى، وكان انتاجها فى هذا المجال مجرد اعادة تدوير لأفكار سابقة، وذلك خلافا لما كان عليه الفكر السياسى الاسلامى فى العصر المملوكى، بل وفى العصرين الصفوى والقاجارى. فالفكر السياسى بالنسبة لمعظم من ظهر من المفكرين فى العصر العثمانى كان مسألة هامشية، و ماقدموه فى الأغلب لم يكن جديدا بل كان فى

(*) مجلة المؤرخ المصرى، عدد يوليو ٢٠١٥

بعض الأحيان منقولا واختلط فيه العام بالخاص.ومع انبعاث الفكر السياسى الاسلامى فى القرن الثامن عشر زادت المساهمات العثمانية ولكنها ظلت محدودة بالمقارنة بعمليات الانبعاث التى حدثت خارج الدولة العثمانية. بيد أن الفكر السياسى الاسلامى العثمانى شهد طفرة محدودة مع مقدم عصر انبعاث الفكر السياسى الاسلامى فى القرن التاسع عشر، وكانت تلك الطفرة بالأساس نتيجة "صدمة الغرب."

ويهدف هذا البحث أولا الى اثبات مقولة تراجع الفكر السياسى الاسلامى فى اطار الدولة العثمانية، والى تحديد أسباب هذا التراجع وآثاره على تلك الدولة من ناحية وعلى العالم الاسلامى عموما.

(١) مظاهر انحسار الفكر السياسى الاسلامى فى الدولة العثمانية

كان العصر العثمانى، هو عصر الانحسار الكبير فى الفكر السياسى الاسلامى. فلم يظهر خلال هذا العصر سوى عدد محدود من المفكرين. ويمكن حصر هؤلاء المفكرين فى صنفين. الأول هو من كان عثمانيا بحكم الجنسية، والثانى من لم يكن عثمانيا، ولكنه عاش فى العصر العثمانى. وسنعمد الى شرح "الفكر السياسى" لهؤلاء المفكرين لكى نبرهن على صحة مقولتنا.

بالنسبة للصنف الأول، تشير موسوعة برنستون للفكر السياسى الاسلامى الى أربعة أسماء كان لها اسهام مبكر فى الفكر السياسى[٢]. وفى مقدمة هؤلاء تشير الى طورسون بك (١٤٥٣-١٤٩٩) كأحد أوائل مفكرى الدولة العثمانية. ولكن تأمل مساهماته يوضح أنه كان مؤرخا و ليس له اى اسهامات فى الفكر السياسى اذ لم يصدر سوى كتاب واحد بعنوان تاريخ محمد الفاتح، [٣] وهو كتاب فى التاريخ وليس فى الفكر السياسى، ولكنه أشار بشكل عابر الى عدد محدود من النصائح السياسية للسلطان بايزيد الثانى على غرار أدب نصائح الملوك فى المرحلة التأسيسية للفكر السياسى الاسلامى. كما تأتى الموسوعة على ذكر أبو السعود أفندى (١٤٩٠-١٥٧٤) . وكان أبو السعود هو مفتى الدولة العثمانية فى عهد السلطان

سليمان القانونى. وقد قام بدور كبير فى "أسلمة" القوانين العثمانية، واصدار الفتاوى. ولعل من أهم فتاويه تلك المتعلقة بالسماح بمشـاهدة الأراجـوز، وبشرب القهوة، وكان كلاهما من الأمور المستحدثة فى ذلك الوقت.(٤) ولكن ليس له أى اسهام فكرى سياسى. كما تشير الموسوعة الى حماميدزه اسماعيل ديد افندى Dede Effendi (١٧٧٨-١٨٤٦) وتؤكد أن له كتاب فى شئون الحكم. والحق ان ديد أفندى كان موسيقارا وليس له أى كتابات فى الفكـر السياسى سواء الاسلامى أوغيره. ولعل أهم من أتى اسمه فى الموسوعة من المفكرين العثمانيين هو على أفنـدى قينـاليزاده Ali Effendi kinalizade (١٥١١-١٥٧٢)، وله عدة مؤلفات أهمها كتاب الأخلاق العليـا.(٥) وقـد تأثر على أفندى فى تأليفه للكتاب بكتب أخرى سابقة مثل كتـاب مسـكويه تهذيب الأخلاق، وكتاب نصير الدين الطوسـى،(١٢٠١-١٧٤٧)، أخـلاق ناصرى، وكتاب الفارابى المدينة الفاضلة. ويقـول أحـد شـراح فكـره أن الفصول الثلاث هى ترجمة لمضمون الكتب الثلاث فى أقسامه الثلاث على التوالى.(٦) فالكتاب مقسم الى ثلاثة أقسام هى الأخـلاق الفرديـة، أخـلاق الأسرة، وأخلاق الدولة. فى القسم الأول تناول على أفندى أصول الأخـلاق المثالية التى يجب أن يكون عليها الفرد، وفى القسم الثانى شرح مايجب أن تكون عليه الأسرة من تضامن وانصياع لـلأب، لأن المجتمـع لـيس الا تضامن عدد من الأسر مع بعضها، وأن رب الأسرة عليه أن يمارس دورا قياديا فى توجيه أسرته. أما فى القسم الثالث، فقد قدم فيه نمـوذج المدينـة الفاضلة على أنه النموذج المثالى للدولة المثالية، وأشار الى الحاكم الفاضـل رئيس المدينة والى طبقاتها فقال ان تلك المدينة تتألف من أربع طبقات هى، أهل العلم، وأهل السيف، والتجار، والحرفيين. وهم يشـكلون معـا المدينـة الفاضلة أو ماأسماه "نُظام العالم".

وتشير الموسوعة الى مصطفى على، وهو مصطفى على بن أحمـد بن عبد المولى (١٥٤١-١٦٠٠)،ويسمى أحيانـا جـاليبولولو Gelibolulu لأنه ولد فى جاليبولى، باعتباره أحد مفكرى السياسة العثمانيين. وقد اهـتم

عدد من الباحثين بدراسة فكر مصطفى على، ويظهر من كتاباتهم أنه كان مؤرخا وشاعرا، ولم يكن مفكرا اسلاميا اللهم الا فيما ندر حيث ألف أول كتاب فى أدب نصيحة السلاطين فى الدولة العثمانية.(٧) تخلى مصطفى على عن طموحاته العلمية فى مرحلة مبكرة ودخل فى خدمة السلاطين العثمانيين منذ أن دخل فى خدمة الأمير سليم، الذى أصبح فيما بعد السلطان سليم الثالث، بعد أن قدم له أول ديوان شعر له باسم الشمس والقمر . ثم دخل فى خدمة لالا مصطفى باشا، المعلم السابق للأمير سليم، لمدة عشرين عاما رحل معه خلالها الى المشرق العربى ومصر. عاد مصطفى على الى استانبول ومنها عمل فى البوسنة حاكما عسكريا كمكافأة له على ديوان النثر الذى كتبه باسم المناظر السبعة.، ثم عاد الى استانبول وتنقل بين الوظائف الحكومية المتعددة بعد أن اعتاد الحصول على الوظائف بعد اهداء دووايــن شعره لمن بيدهم مقاليد التعيين. ودخل مرة أخرى فى خدمة لالا مصطفى باشا حيث اصطحبه فى حملته الى شيرفان سنة ١٥٧٨ ضد الدولة الصفوية. واستمر مصطفى على يعمل فى وظائف حكومية متعددة لمس خلالها الفساد المستشرى فى الدولة العثمانية، ولم يبدأ فعليا فى ممارسة نشاطه الفكرى الا فى نهاية الثمانينات من القرن السادس عشر بعد يأسه من العمل الحكومى، ألف مصطفى على عدة كتب خلال تلك المرحلة، كانت كلها مخصصة للفت نظر الكبار فى استانبول اليه، وهى كتاب النصر، وهو تسجيل لأعمال الحملة التى شارك فيها ضد الدولة الصفوية، النصح للسلاطين، وهو كتاب فى النصائح السياسية أصدره سنة ١٥٨١ ووجهه الى السلطان مراد الثالث (تولى الحكم بين عامى١٥٧٤-١٥٩٥)، وكتاب تجمع البحار على مظاهر الاحتفال، وهو وصف لحفلات الختان التى كان ينظمها السلاطين لأبنائهم وقد كتبه بناء على طلب الباب العالى أثناء اقامته فى بغداد، ودون أن يشاهد تلك الحفلات، ثم كتاب ملحمة أعمال الفنانين، ثم أصدر آخر اعماله جوهر التاريخ سنة ١٥٩٢، فى أعقاب ثورة الانكشارية التى دمرت استانبول، وهو الكتاب الذى أدخله فى زمرة المؤرخين.(٨) ومن ثم يظهر ان كتاب النصح

للسلاطين ، هو الكتاب الوحيد الذى ألفه فى عالم السياسة، كما أنه أول كتاب فى أدب النصيحة كتب فى الدولة العثمانية. ألف مصطفى على كتابه محملا بأمثلة محددة فى واقع الدولة العثمانية، بخلاف كتب أدب النصيحة السابقة فى الفكر السياسى الاسلامى وكتاب قيناليزاده الأخلاق العليا، التى كتبت فى شكل نصائح أخلاقية عامة. وفى الكتاب عبر مصطفى على عن سخطه على "اضمحلال" النظام العثمانى وضرب أمثلة على ذلك أهمها سوء الادارة، وانتشار ظاهرة الحصول على المناصب الحكومية بل والعسكرية مقابل الرشاوى، وادمان من حصلوا على تلك المناصب تلقى الرشاوى أيضا، وفقدان العملة العثمانية (آقجه Akce)، قيمتها، وتفاوت أسعار السلع فى مختلف أنحاء الدولة، وعدم قيام المحتسبين بوظائفهم فى الأسواق، وتمتع بعض المتنفذين من التجار بحماية خاصة، مما يؤثر على كل الطبقات، كما أشار الى سوء سلوك " الكتبة"، وهم الذين يقومون بتقديم عرائض الرعية الى السلطان، بما يشمل تعاطيهم الأفيون جهارا، وهو مايشمل طبقة الانكشارية أيضا. كما أدان سلوك من يقومون بجمع الذكور من مختلف البلدان لكى يعملوا فى تلك الطبقة وصفهم بأنهم "طغاة." وأشار مسئولية "الصدر الأعظم" فى الاشراف على أراضى الدولة وحسن اختيار من يديرون المقاطعات مؤكدا على ضرورة أن يطبق العدالة كما نص عليها فى القرآن الكريم. واعتبر أن السلطان هو المسئول الأول فى الدولة وذكره بالتزاماته نحو اصلاح الدولة وبضرورة ممارسة الحزم لضبط أحوالها وضرورة عدم ترك الأمور للصدر الأعظم. والتأكد من بناء الدولة على أساس العدالة، والاستحقاق، وتطبيق القانون، ونصحه بأن يحيط نفسه بالأعوان المتعلمين الصالحين، وأن يرسل العسس لتفقد أحوال الرعية، وأن يعامل "العلماء" معاملة كريمة حيث أنهم عماد الدولة، وأن يختار حكام المقاطعات من بين أفضل الناس وأكثرهم خبرة بشئون الحرب والادارة، وطالب السلطان ببناء ادارة مركزية واحدة تحت اشرافه خوفا من انفصال بعض أجزاء الدولة. ولم ينس مصطفى على أن يضرب مثالا بذاته حيث استعرض كفاءاته التى تؤهله

لمناصب أعلى لم يتمكن من الحصول عليها بسبب غياب أسلوب التعيين على أساس الكفاءة، وقاله انه عرض كفاءاته الأدبية على ثلاثة سلاطين ولم يجد استجابة منهم . (٩) ومن ثم، فالكتاب لم يكن منزها من المصلحة الشخصية، مما يقطع بأنه لو كان قد حصل على المناصب التى طلبها لما ألف الكتاب. كما أن مصطفى على لم يكن مفكرا سياسيا حيث أن معظم أعماله لم تكن فى هذا المجال، وحين أصدر كتابه الوحيد فى هذا المجال فانه كان تعبيرا عن بلوغه حالة اليأس من الترقى فى الوظائف. وأخيرا، فان الكتاب الغربيون يشيرون كثيرا الى هذا الكتاب باعتباره أول انذار بتدهور الدولة العثمانية، وأن التدهور قد أتى من داخلها وليس نتيجة مؤامرات خارجية.

والحق أن حسن بن طورخان الاقحصارى (٩٥١-١٠٢٥ هجرية ،١٥٤٤-١٦١٦م) والمعروف أحيانا باسم حسن كافى الاقحصارى، والذى أشارت اليه أيضا الموسوعة، كان أهم المفكرين السياسيين الذين ظهروا فى الحقبة العثمانية. نشأ الاقحصارى فى بلاد البوشناق (البوسنة بالاسم الحالى)، و كانت تابعة للدولة العثمانية آنذاك. ومن أهم كتبه كتاب أصول الحكم فى نظام العالم. وهذا الكتاب هو رسالة تدعو الى الاصلاح و التغيير موجهة الى السلطان العثمانى. وقد أرجع الاقحصارى تأليفه للكتاب الى ماشاهده من اختلالات فى العالم الاسلامى. وفسر تلك الاختلالات فى ضوء "أولا الاهمال فى العدالة والضبط لحسن السياسة، وسببه عدم تفويض الأمور الى أهاليها، والثانى المسامحة فى المشاورة والرأى والتدبير، وسببه العجب والكبر فى الكبراء واستنكافهم عن مصاحبة العلماء والحكماء، والثالث هو السماهمة فى تدبير العسكر واستعمال آلات الحرب عند محاربة الأعداء، وسببه عدم خوف العسكر من الأمراء، ثم سبب جميع الأسباب وغاية مافى الباب، طمع الارتشاء ورغبة النساء." ومن ثم خلص الاقحصارى الى أن هناك أربعة أصول لنظام السياسة هى: العدل، و المشاورة وحسن التدبير، ووجوب استعمال آلات الحرب و القتال وتدبير العسكر، وطلب العون والظفر من الله تعالى. (١٠)

وأخيرا، تشير الموسوعة الى حاجى خليفة (١٦٠٨-١٦٥٧ م)، المعروف أحيانا باسم Katib Celebi. وله كتاب باسم دستور العمل لإصلاح الخلل. وهو رسالة كتبها الى السلطان محمد الرابع سنة ١٦٥٣. ويتضح من الرسالة تأثره بمقدمة ابن خلدون وبالذات ما تعلق بنشأة وسقوط الدول حيث شبه الدولة بجسم الإنسان، والذى يأخذ دورة من النمو والاضمحلال. قال خليفة، وان كان بشكل غير مباشر، أن الدولة العثمانية تمر بالدور الأخير حيث ينتشر فيها الفساد واستغلال الفلاحين. وقدم عدة مقترحات لوقف هذا التدهور أهمها إعادة بناء الدولة على أساس الحكم الحازم والعادل فى آن واحد، وحل المشكلات الاجتماعية التى ورثها السلطان مراد الرابع، مع إصلاح مالية الدولة على أساس مبدأ توازن الموازنة العامة للدولة، وزيادة الإنتاج الزراعى، وتخفيض عدد أفراد الجيش العثمانى.[١١]

كذلك يمكن أن نضيف الى قائمة المفكرين العثمانيين، وان كان اسمه لم يرد فى الموسوعة، لأنه لم يظهر فى استانبول، وانما فى مصر، عبد الرؤوف المناوى، (٩٥١-١٠٣١ هجرية، ١٥٤٥-١٦٢٢). ألف المناوى كتاب الجواهر المضية في بيان الآداب السلطانية. فى هذا الكتاب أشار المناوى الى الإمامة حيث قال ان نصب الأمام عند الإمكان واجب لأن "ماوجب من نحو اقامة الحدود وسد الثغور وحفظ النظام وغير ذلك لايتم الا به، ومايتم الواجب المطلق الا به وكان مقدورا عليه فهو واجب." كما أشار المناوى الى طرق انعقاد ونصب الامام، وما جب للملك على الرعية، كما تحدث عن الوزارة وولاة الحرب وغيرهم. وجه المناوى نصائح أخلاقية للحاكم حيث طالبه بالحرص على اصلاح بطانته وتلقين عماله فضيلة العدل، مع اعتبار الامام (الملك) مسئولا عن"ظلم حاشيتك وولاتك، على نحو مأنت مسئول عن ظلمك للناس".[١٢] ويوضح تأمل أفكار المناوى أنها ليست جديدة، وهو يشير صراحة الى اقتباسها من الماوردى، والجوينى، والغزالى وغيرهم، وهو مايتأكد بمجرد قراءة الكتاب.

أما بالنسبة للصنف الثانى من المفكرين، يمكن حصر عدة أسماء أولها

جلال الدين الداوانى (١٤٢٧-١٥٠٢)، وقد نشأ وعاش فى شرقى الأناضول و عمل فى ظل ممالك متعددة بعضها شيعى وبعضها سنى، ولكنه كان سنيا، مما أسهم فى تهميش فكره مع صعود الدولة الصفوية. وقد ألــف كتــاب أحكام الجلالي، أو أخلاق الجلالي. وقد خصص الجزء الرابع مــن الكتــاب للحديث عن سياسة الملوك.(١٣) وفى الكتاب عظم الداوانى من شأن العقل، واعتبره حلقة الوصل بين السماء والأرض وأنبل ما لقه الله فى الإنســان. كما عظم من مقام الملوك بصفتهم ظل الله فى أرضه، كما قسم الحكومات الى صنفين، هما الحكومة الفاضلة، وهى حكومة الامامة حيث يعــد الامــام بالفعل ظل الله فى الأرض، وفيها يتم تقسيم العمل بين الأفراد بحيث يحقــق كل منه طموحه. أما النوع الثانى فهو الحكومة غيــر الفاضــلة أو حكومــة الطغيان. أشار الداوانى أيضا الى الصفات الواجب توافرها فى مــن يــرأس الحكومة الفاضلة وهى، التركيز الشديد، والمعرفة الصحيحة، والحزم الشديد، والصبر على الشدائد، والثراء، وطاعة الجنود له، والسمو. كما أشــار الــى الوسائل التى يمكن من خلالها تحقيق تلك الصفات واعتبر أن الصفات الأربع الأولى أساسية للحاكم. كما اعتبر أن تلك الصفات متوافرة بالفعل فى السلطان أوزون حسن، الذى كان يحكم وقت اصدار الكتاب فى استمرار واضح لفكرة محورية دول الحاكم فى النظام السياسي حتى أنه قال ان علاقة الحاكم فــى النظام السياسى مثل علاقة الطبيب الجراح بالمرضى. كما اعتبر أن توحــد أفراد المجتمع تحت قيادة الحاكم أساسية لنجاحه، وأن على الحاكم أن يجعــل كل طبقة تقوم بدورها التى هى مؤهلة له ولاتتخطى هــذا الــدور. أضــاف الداوانى أن المجتمع ينقسم الى أربع طبقات "متساوية" هى، العلماء فى كــل التخصصات الدينية والدنيوية، والجنود، والتجار، والمزارعين. ويجــب أن تقوم كل طبقة من تلك الطبقات بدورها ولاتتخطاه لأن ذلك يتسبب فى خلل شديد فى المجتمع، وهذا هو دور الحاكم ويحققه من خلال العدل، وهو بدوره يتحقق من خلال عشرة قواعد هى أنه فى كل حالة ينظرها يجب أن يضــع نفسه فى مكان المظلوم ولايرضى له مالايرضاه لنفسه، وأن يسارع بالفصل

فى المنازعات لأن تأخير العدالة هو بمثابة انكار لها، ألا يمضى معظم وقته فى ممارسة اللذات الحسية لأن من شأن ذلك تدمير الدولة، وأن يتخذ القرارات على أساس الرأفة وليس الانتقام، وأن يسعى فى ارضاء الناس كطريق لارضاء الله، ولكنه يجب ألا يرضى الناس على حساب باغضاب الله، وأن يكون معيار أحكامه هو العدل ولكن العفو أفضل من العدل اذا ماطلبه منه أحد أن يعفو عنه، أن يحيط نفسه بالصالحين ويستمع الى نصائحهم، وأن يضع كل انسان فى مكانه الصحيح ولايضع السفلة فى المناصب العليا، وأن يتأكد أن أعوانه لايظلمون أحدا.

ويمكن أن نضيف الى قائمة المفكرين الذين ظهروا فى العصر العثمانى فضل الله الخونجى والذى ظهر فى تبريز وبخارى. هاجر الخونجى من تبريز الى بلاد الأوزبك سنة ٩٠٦ هجرية (١٥٠١ م) بعد تأسيس الدولة الصفوية فى فارس، وكرس حياته لمعارضة الصفويين واعادة المذهب السنى الى فارس وأدى به ذلك الى تأييد السلطان العثمانى سليم الأول ضد الصفويين فى معركة جالديران سنة ٩١٩ هجرية (١٥١٤ م) بل حرضه على ضم فارس الى الدولة العثمانية. ألف الخونجى كتاب سلوك الملوك. وفيه قدم الخونجى للحكام السنة دليلا عمليا فى بناء نظام الحكم. ولكن هذا الدليل لم يضف جديدا الى ماكان معروفا بالفعل فى عصره.[١٤]

ولكن يرى بعض الدارسين أن الفكر السياسى الاسلامى لم ينحسر خلال العصر العثمانى بل يشير بعضهم الى أن هذا العصر كان ذاخرا بالأفكار. ويدللون على ذلك بتعدد كتابات العلماء فى اطار "النصح السلطانى" منذ القرن السادس عشر. ومن ذلك رسالة على بن عطية بن الحسن الحداد الحموى المعروف بابن علوان (٨٧٣-٩٣٦ هجرية، ١٤٦٨-١٥٣٠ م) الى السلطان العثمانى سليم الأول يذكره بمسئوليته تجاه الرعية وينكر على العثمانيين اغتصاب الحقوق ويدعوهم الى تغيير المنكرات. ويشير أنصار هذا الرأى الى تطور أسلوب النصح فى القرن الثامن عشر نحو الدعوة الى مناهضة الاستبداد ورفض الظلم. ومن ذلك رسالة عبد الغنى

النابلسى المتوفى سنة ١١٤٣ هجرية (١٧٧٠ م) بعنوان تخيير العباد فى سكنى البلاد والذى أجاز فيها الهجرة من القرى احتجاجا على الظلم. كذلك كتابات أبى المواهب الحنبلى المتوفى سنة ١١٤٦هجرية (١٧٧٣ م)، وخليل البكرى الصديقى المتوفى سنة ١١٢٨ هجرية (١٧١٥ م) لمعارضة سياسات الولاة والسلاطين. [١٥] ويقول مهند مبيضين، وهو من أهم من دافع عن هذا الرأى، "الفكر السياسى الاسلامى المتمثل فى رفض الاستبداد لم يولد مع مدفع نابوليون ولكنه موجود منذ القرن السادس عشر". [١٦]

وفى السياق ذاته تشير نللى حنا الى أن الفكر السياسى لم ينقطع فى مصر العثمانية، وبالذات من القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر. فقد شجع العثمانيون مختلف أنواع الكتابة "التى تدعم الايديولوجية الاجتماعية التى تحث على طاعة الحكام والانصياع لأوامرهم." وتشير الى كتابات الشيخ أحمد الدمنهورى التى جاء بها ان الدولة العثمانية أقرب ماتكون الى الخلافة الراشدة من حيث تمسكها بالشريعة ورعيتها للعلماء. كما تشير الى كتاب مجهول المؤلف باسم راحة الروح وسلوة القلب المجروح جاء فيه أن "الرعية دون سلطان كالجسد بلا روح. [١٧] كما تشير الى مفكر آخر وهو محمد حسن أبو ذاكر وله كتاب مجهول الاسم قدم فيه فكرا لم يكن يتسق مع فكر السلطة الحاكمة. هذا بالاضافة الى كتاب آخرين مثل عبد الوهاب الشعرانى وعبد الرؤوف المناوى، ويوسف المغربى، والاسحاقى، وان كانت تشير أيضا الى أن كتاباتهم السياسية كانت محدودة حيث ركزوا على الكتابة الدينية البحتة. وتضيف نللى حنا أن التعبير الفكرى لدى المتعلمين المنتمين الى الطبقة المتوسطة قد اتسع فى مصر العثمانية. فقد طرح هؤلاء أفكارا اجتماعية ذات بعد سياسى تخص قطاعات عريضة من الناس، انتقدت الأوضاع الاجتماعية القائمة، كما اتبعوا منهج الملاحظة فى الوصول الى أفكارهم. كما تقول، "كان موقف اولئك الكتاب تعبيرا عن تأثير القاعدة الشعبية اتسم بالطابع غير الرسمى ونقل أحاسيس سكان المدينة معبرا عن السخط الذى اعتمل فى النفوس على ألوضاع القائمة، مما كان يناقض كتابات

المنتسبين الى مؤسسة السلطة." [١٨] وقد استمدت نللى حنا تلك النتائج من الحالة المصرية، وبالذات مدينة القاهرة، ولكنها تؤكد أن الأمر لم يكن يختلف كثيرا فى المدن الأخرى مثل حلب، ودمشق، واستانبول. [١٩]

كذلك يذكر محمد صبرى الدالى أنه بعد استيلاء العثمانيين على مصر سنة ١٥١٧ م وفى اطار الصراع العثمانى الصفوى الذى اتخذ أبعادا سنية-شيعية ألف عدد من المشايخ المصريين عددا من الكتب يؤيدون فيها الدولة العثمانية باعتبارها دولة سنية ويناهضون الدولة الصفوية باعتبارها دولة شيعية. ومن أهم تلك الكتب كتاب ابن حجر الصوفى الأزهرى (ت سنة ١٥٦٦ م) بعنوان الصواعق المحرقة فى الرد على أهل البدع والزندقة[٢٠] . ونضيف اليه كتابه الاعلام بقواطع الاسلام. [٢١] فى هذين الكتابين ركز ابن حجر الهيثمى على تفنيد الفكر الشيعى المتعلق بالامامة وأكد على وجب اقامة الامامة اما باختيار أهل الحل والعقد أو بولاية العهد، وأكد على شرعية خلافة أبى بكر. وهذا الكتاب واحد من عدة كتب ألفت لدعم الدولة العثمانية فى صراعها مع الدولة الصفوية. [٢٢]

والحق أن مايشير اليه أنصار الرؤية السابقة لاينهض دليلا على وجود فكر سياسى اسلامى حقيقى فى الدولة العثمانية. فهم يشيرون الى رسائل ونصائح كتبها بعض العلماء الى السلاطين أو الولاة، وهو مالايرقى الى تشكيل فكر سياسى متكامل. فلم يشر أى من هؤلاء الى الامامة أو الشورى أو غيرها من القضايا التى كانت تشغل بال المفكرين فى ذلك العصر، باستثناء المناوى، والذى لم يقدم أى أفكار جديدة فى كتابه. كذلك فان المفكرين الذين ظهروا خلال تلك الفترة لم يتركوا أثرا يعتد به على حركة الفكر السياسى الاسلامى العام. فقد كانت اضافاتهم محدودة فى مجال السياسة. كما أن بعضهم ظهر فى هوامش العالم الاسلامى، وبالتالى لم يترك أثرا على المركز، ومن نشأ فى المركز لم يكن له تأثير كبير لشيوع ثقافة النقل والتقليد.

وتشير مادلين زيلفى فى كتابها عن طبقة العلماء العثمانيين فى إلفترة

من سنة ١٦٠٠ حتى سنة ١٨٠٠، الى عدم وجود أى اسهام فكرى سياسى أو غير سياسى لهؤلاء العلماء بل تشير الى أن برامج المدارس الدينية التى تخرج هؤلاء كانت تدور حول قواعد النحو والصرف فى اللغة العربية، والتفسير، والفقه، والحديث، والمنطق والبلاغة، وعلم الكلام المقصور على الحديث فى الالهيات. (٢٣) كما يقول رفيق العجم فى مقدمته لكتاب محيى الدين محمد بن بهاء الدين عن شرح فقه أبى حنيفة الى " أن كثير من النقاد والباحثين والمحققين فى مجال العلوم الاسلامية وتجديد اللغة العربية والنهضة اعتبر أن العصرين المملوكى والعثمانى كانا عصرى انحطاط نضبت فيهما القرائح واقتصر فيهما الجهد على الترديد والتقليد والتصنع فى اللغة. ولم يستطع الأعاجم هؤلاء أن يفعلوا فى لغة غريبة عن ذهنيتهم وطبعهم فعلا مؤثرا، ان فى المعانى أو فى البنيان." ويشير الى ظهور عدد من المؤلفات الشرعية والعقلية، ولكنها اما تركز على تفسير الكتاب والسنة أو تقدم شروحا على بعض المقاطع الفلسفية والمنطقية." (٢٤) كذلك توضح قراءة كتاب جورجى زيدان بعنوان مصر العثمانية، والذى استعرض فيه الحياة الفكرية فى مصر العثمانية، أنه لم يكن هناك مفكرون يتناولون القضايا السياسية، وانما فقهاء ركزوا على قضايا العبادات وشرح التراث. (٢٥) وينضم نبيل راغب الى هذه التحليلات فى سياق عرضه لتطور الثقافة المصرية بقوله، " والحديث عن الثقافة المصرية فى العصر العثمانى ذى شجون لأنها عاشت أحلك فتراتها، لأن معرفتها بالعلوم الطبيعية والعقلية كانت هزيلة ومنعدمة فى أحيان كثيرة لأن العثمانيين سعوا أساسا لعسكرة المجتمع المصرى لحماية أطراف الامبراطورية من أى مساس بها، ولذلك ترك المجال الثقافى خاليا للعلوم اللغوية والشرعية ذات الطابع النقلى ...وظل هذا الوضع الكئيب المريض سائدا منذ بدايات القرن السادس عشر الى بدايات القرن التاسع عشر." (٢٦) وفى رسالته عن الحركة العلمية فى مصر فى القرن السابع عشر الميلادى، أى فى ظل الحكم العثمانى، سعى ناصر عثمان الى اثبات أن العصر العثمانى فى مصر شهد حركة علمية والرد

"على المزاعم التى تدعى أن شعلة العلم قد انطفأت تماما فى مصر والـدول العربية تحت ظل الدولة العثمانية".[٢٧] وقد أثبت بالاعتمـاد علـى الوثـائق التاريخية جهود العلماء فى تلك الفترة فى العلوم العقلية من علم كلام وفلسفة ومنطق وفلك ورياضيات وطب، وفى العلوم الاجتماعية كالتاريخ والجغرافيا، ولكنه لم يشر الى أى مساهمات للعلماء فى مجال الفكر السياسى أو الفسـلفة السياسية. وأشار الى ان المساهمات الجديدة للفقهاء اقتصرت على ايضـاح الموقف الشرعى للدين من التدخين وشرب القهوة، فضلا عن أن هذا العصر اتسم "بعدم تعمق العلماء فى دراسة الفلسفة ... ولذلك نرى أنه من العسـير جدا أن يكون ذلك العصر قد أنجب من يستحق أن يشار اليه بالبنان على أنه فيلسوف." [٢٨] ويفهم من سياق التحليل أن الأمر لم يقتصر على الفلسفة ولكن على أى حديث فى السياسة سوءا فى اطار فلسفى أو فى غيره. كذلك حاول محمد صبرى الدالى أن يسهم فى "افاقة أولئك الذي رددوا مقولة أن الصحوة الفكرية الثقافية فى مصر تعود فقط الى القرن الثامن عشر أو الى النصـف الثانى منه"، يقصد بذلك قدوم الغرب. حاول الدالى أن يفعل ذلك من خـلال تحليل فكر شهاب الدين الخفاجى (ت ١٠٦٩ هجرية، ١٦٥٨ م). ويتضح من التحليل أن الخفاجى كتب فى نقد الأوضاع السياسية والاقتصادية فى مصر فى عصره، وأنه رحل الى استانبول وتولى مناصب مهمة فى الدولـة مثـل قضاء سالونيك، وهناك ألف كتابه طراز المجالس تعرض فيـه لعـدد مـن القضايا العامة فى اطار من النصح والارشاد والنقد غير المباشر وأشار الى خطورة احتجاب الحكام عن عامة الناس، وأوصى الحاكم بأن يعين حاجبـا ذكيا لايحول بينه وبين "أحد من الأحرار." [٢٩] وباستثناء ذلك، فـان تأمـل الكتاب يوضح أنه ليس فيه حديث يعتد به فى السياسة. ويضيف الـدالى أن الخفاجى تخلى عن نقد أوضاع الدولة العثمانية لتوليه مناصب رسـمية فـى الدولة، ثم عاد الى مصر وتولى منصب قضاء عسكر، ولمـا طـرد مـن المنصب عاد الى نقد الأوضاع فى مصر وفى الدولة عموما، فى عدة كتـب أشار فيها الى الفساد المتمثل فى أساليب التعيين فى الوظـائف، كمـا انتقـد

الدولة العثمانية لأنها لم تهب لنجدة مسلمى الأندلس وبالذات حين اصدر الملك فيليب الثالث مرسوما سنة ١٦٠٩ يأمر فيه ماتبقى من مسلمى الأندلس بمغادرتها فى خلال ثلاثة أيام فىى كل ذلك لايشير الدالى الى ان الخفاجى قدم فكرا سياسيا اللهم الا الاشارة الى خطورة احتجاب الحكام عن عامة الناس، وأن انتقاداته كانت مرتبطة بأوضاعه الرسمية فى الدولة. فعندما تولى المناصب تخلى عن النقد السياسى. ويقول الدالى فى ختام بحثه أن الخفاجى " لم يقدم عملا كاملا عن أوضاع عصره كما لم يقدم حلولا شاملة للسلبيات والمشاكل التى تحدث عنها، بل كان النقد عنده هو الأساس، وكانت الحلول جزئية ومتفرقة على عكس مافعل بعض علماء استانبول أمثال مصطفى أفندى، والاقحصارى، وقوجى بك، وحاجى خليفه." [٣٠] ولايشير كل ذلك الى أى مساهمات ذات بال للخفاجى فى الفكر السياسى تبرر القول أن حالة الخفاجى من شأنها افاقة من يرون أن الصحوة الفكرية فى العالم الاسلامى جاءت مع مع مقدم الغرب.

ولعل من أهم الأسماء التى يسوقها أنصار مقولة عدم انحسار الفكر السياسى الاسلامى، هو عبد الوهاب الشعرانى (٨٩٨-٩٧٣ هجرية، ١٤٩٢-١٥٦٥ م). وقد خصص الدالى كتابا مستقلا لتحليل فكره السياسى. ولد الشعرانى فى مصر وعاش ثلث حياته فى ظل الدولة المملوكية وعمل مع السلطانين الغورى وطومان باى حتى سقوط الدولة سنة ١٥١٧، وعاش ثلثى حياته فى ظل الدولة العثمانية بعد أن ضمت مصر الى أملاكها وشاهد السلطان سليم الأول وهو يدخل القاهرة وعاش أيضا فى عهد السلطان سليمان القانونى. كان الشعرانى من كبار عصره من المتصوفة وألف ١٥٢ كتابا تناول فى بعضها المسائل السياسية مما حدى ببعض الدارسين الى اعتبار أنه كان من المفكرين السياسيين فى عصره، ودليلا على أن الفكر السياسى الاسلامى لم ينحسر فى العصر العثمانى. ومن كتبه التى تناولت المسائل السياسية، الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر، واليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، والطبقات الكبرى. فى تلك الكتب عرف

الشعرانى السياسة بأنها حكم الناس والحكم بينهم، وبأنها فن التعامل مع الناس، و فن التعامل مع السلطة. وناقش أشكال نظم الحكم حيث قسمها الى قسمين، حكم بالشريعة وحكم بالسياسة الحكمية أو الناموس الوضعى من قبل نزول الأديان، وأكد أن الحكم بالسياسة الحكمية لايجب استعماله فى ظل وجود الشرائع. فالحكم يجب أن يستند الى الشريعة. وتناول مسألة الامامة مشيرا الى ضرورة وجوده "لأن الله أمرنا باقامة الدين ولاسبيل الى اقامته الا بوجود الامام...ومالايتوصل الى الواجب الا به فهو واجب. فاتخاذ الامام واجب." (٣١) كذلك كتب الشعرانى مدافعا عن ضروروة طاعة السلطان حتى لو كان جائرا، وقصر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على استعمال القلب واللسان دون اليد. (٣٢) ويشير الدالى الى أن الشعرانى "بالغ فى اظهار الخنوع للحكام بل منافقتهم وأنه كان يزداد انصياعا وذلة للحكام بمرور الزمن"، وأن خطابه السياسى كان "مجاملا الى أقصى حد، بل وخاضع ومستسلم." ويسوق دليلا على ذلك أنه أسقط شرط القرشية من الصفات الواجب توافرها فى الامام مجاملة للعثمانيين، كما أنه امتدح السلطان الغورى فى حياته وذمه بعد مقتله على يد العثمانيين. (٣٣) ويخلص الدالى أيضا الى أن الشعرانى "نقل عن سابقيه، والنقل فى مثل هذه الأمور جائز." (٣٤) وهذه نتيجة مهمة تشير الى أن مجرد اصدار كتب تتضمن آراء سياسية لايدل بالضرورة على وجود فكر سياسى مالم يكن ثمة جديد فى تلك الكتب. والحق أن مطالعة كتب الشعرانى تؤدى الى النتيجة التى خلص اليها الدالى. فمعظم كتبه لايتعلق بالسياسة، ومنها كتابه درر الغواص على فتاوى سيدى على الخواص. (٣٥) وماجاء فى بعض تلك الكتب عن السياسة ليس الا تلخيصا لما قاله من سبقوه. اذا تأملنا كتابه الميزان، نجده لايتحدث فى السياسة الا فى باب السير فى الجزء الثالث فى خمس صفحات من خمسمائة صفحة، وماقال بها ليس به جديد، ولايتضمن الا شرحا لأفكار من سبقوه. (٣٦)

(٢) انحسار الفكر السياسى الاسلامى فى الدولة العثمانية مقارنا بالدول المملوكية والصفوية والقاجارية

من الملاحظ أن الانحسار الذى شهده الفكر السياسى فى الدولة العثمانية لم يميز الدولة المملوكية، وهي التى سبقت الدولة العثمانية، ولم يميز أيضا الدولتين الصفوية والقاجارية التان عاصرتا تلك الدولة مما يدل على أن الانحسار كان ظاهرة تميزت بها الدولة العثمانية عن غيرها لأسباب سنشير اليها بعد قليل.

فيرى بعض الدارسين أن الانحسار شمل العصر المملوكى أيضا فالمماليك ركزوا على بناء الاقطاعيات والتكايا والمساجد، وأنهم أثروا بشكل سلبى على تطور الفكر. فقد توقف جهد المفكرين عند الجمع والتصنيف والتنقيح وتقديس التراث، ولم تتعد الاضافات نطاق الشروح والحواشى على المتون. وباختصار صنع "المماليك أكبر قدر من الجمود والمحافظة والتخلف على الجبهة الحضارية." (٣٧) كما يشيرون الى "التخلف على الجبهة الحضارية للأمة الاسلامية فى العصرين المملوكى والعثمانى." (٣٨)

والحق أن تلك الرؤية لاتتفق مع واقع الفكر السياسى الاسلامى فى العصر المملوكى الذى بدأ سنة ١٢٥٠ م واستمر حتى سنة ١٥١٧م . فقد شجع المماليك المفكرين . يجب أن نتذكر أن ابن خلدون أتم تأليف كتابه العبر فى ظل دولة المماليك فى مصر، وأن سلاطين المماليك وفروا له أدوات التأليف. كما أن ابن تيميه ظهر فى اطار الدولة المملوكية أيضا. كذلك ألف نجم الدين ابراهيم بن على بن أحمد الطرسوسى المعروف باسم نجم الدين الطرسوسى (٧٢١-٧٥٨ هجرية، ١٣٢١-١٣٥٧ م) فى دمشق كتاب تحفة الترك فيما ينبغي أن يعمل به في الملك. (٣٩) ضف الى ذلك أبو العباس أحمد بن على القلقشندى (٧٦٥-٨٢١ هجري، ١٣٦٤-١٤١٨ م)، مؤلف كتاب صبح الأعشى في صناعة الانشاء وكتاب مآثر الانافة في معالم الخلافة . وكذلك محمد بن خليل الأسدى، مؤلف كتاب التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار، والذى ألفه سنة ٨٥٤ هجرية (١٤٥٠ م). (٤٠) وكذلك كتاب بدر الدين العينى (٧٦٢ - ٨٥٥ هجرية - ١٣٦١ -١٤٥١م)، المعروف باسم السيف المهند

في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي[٤١]. وقد عمل العيني فى حقبة السلطان الظاهر برقوق والسلطان الأشرف برسباى، من المماليك البرجية .كذلك ألف محمد بن عبد الوهاب بن عبد اللطيف، ويكنى أبى الفضل ويلقب بالكاتب الأعرج، (توفى سنة ٩٢٥ هجرية، ١٥١٩ م)، كتاب تحرير السلوك فى تدبير الملوك[٤٢] وفيه بين أساس الحكم الصالح. والكتاب ينتمى الى الحقبة المملوكية بالأساس اذ أن مؤلفه توفى بعد عامين من بدء الحقبة العثمانية. وفى ذلك يقول نبيل راغب، " أسهمت السلطنة المملوكية بدور كبير فى تطور الحضارة الاسلامية وثقافتها....وقد امتازت الدولة المملوكية الثانية التى عرفت بالبرجية (١٣٨٢-١٥١٧)، على سالفتها الدولة المملوكية الأولى والتى عرفت بالبحرية (١٢٥٠-١٣٨٢) بما أنجبت من حركة ثقافية جديدة فى كتابة التاريخ والاجتماع والاقتصاد بفضل قدوم ابن خلدون الى القاهرة...وتأثيره فى تلميذه تقى الدين المقريزى وغيره من المعاصرين الذين تتلمذوا عليه. وقد اتضح ذلك فى كتاب عنوانه النزاع والتخاصم فينا بين بني أميه وبني هاشم، حيث أرجع المقريزى مشكلة اسلامية كبرى الى جذور قبلية قديمة...وتواصل هذا المد الثقافى القومى فى مؤلفات تلاميذ المقريزى والتابعين له." [٤٣]

يرجع الفارق بين العصرين المملوكى والعثمانى فى مجال الفكر السياسى الى التكوين الاجتماعى والفكرى لكل من المماليك والأتراك العثمانيين. فالمماليك جاءوا الى البلاد العربية كأطفال عبيد استقدمهم الأيوبيون من آسيا الوسطى والقوقاز، وفى تلك البلاد تعلموا اللغة العربية واعتنقوا الاسلام، وأصبحوا طبقة عسكرية حاكمة، ولكنها جزء من النسيج الاجتماعى اذ أصبحوا لايعرفون لهم وطنا غير البلاد التى يعيشون فيها، ولايعرفون لغة غير العربية ودينا غير الاسلام. ومن ثم دافعوا عن تلك البلاد ضد الغزاة ووفروا لها الحماية، كما شجعوا المفكرين والأدباء والعلماء. وكان منهم خير الدين التونسى، الذى ينتمى الى أصول شركسية، ولكنه أصبح من كبار المفكرين المسلمين.

كذلك شهدت الدولة الصفوية التى تأسست سنة ١٥٠٠ م علـــى يـــد الشاه اسماعيل الصفوى، وخليفتها الدولة القاجارية ازدهـــارا فـــى تأســـيس وتطوير الفكر السياسى الشيعى. فقد دعى الشاه اسماعيل علماء الشيعة الى الحضور الى دولته الجديدة للمساهمة فى نشر المذهب الشيعى. وكـــان مـــن هؤلاء على الكركى الذى أتى من جبل عامل فى لبنـــان. وهنـــاك أجـــاز الكركى للفقهاء فى حالة الغيبة اقامة الحدود، والقضاء، وصلاة الجمعة، وأخذ الخراج. وقد غادر الكركى ايران فى عهد الشاه اسماعيل ثم عاد اليها بعد وفاة الشاه وتولى ابنه طهماسب الحكم . عاد الكركى هذه المـــرة بصـــفته "نائب الامام" بناء على قرار من الشاه طهماسب. وقد منحتـــه تلـــك الصـــفة الولاية المطلقة في شؤون النظام والامة وجعلت مشروعية النظـــام تابعـــة للفقيه. وهى فكرة جديدة تماما فى الفكر السياسى الشيعى الذى ل يكن يقـــر باقامة الدولة فى عصر غيبة الامام أو اجازة من يحل محله فى غيابه. ولكن الكركى أقر للشاه طهماسب للكركى بالولاية المطلقة النائبة عـــن الإمـــام، وصرح الشاه بأن "معزول الشيخ (الكركى) لا يستخدم ومنصوبه لا يعزل". كما كتب الشاه الى الكركى رسالة فى نهاية سنة ٩٣٩ هجرية (م) يقـــول فيها: "الى من اختص برتبة أئمة الهدى فى هذا الزمان...نائب الامام...نأمر جميع السادات العظام والأكابر والأشراف الفخام والأمراء والوزراء وجميع أركان الدولة أن يقتدوا بالمشار اليه ويجعلوم امامهم ويطيعـــوه فـــى جميـــع الأمور...". كما أصدر فرمانا عاما جاء فيه "ان مخالفـــة خـــاتم المجتهـــدين وارث علوم سيد المرسلين نائب الأئمة المعصـــومين لازال كاســـمه العلـــى عاليا، وعدم متابعته يعتبر ملعونا بكل تأكيد ومطرودا من الدولة ومحاســـبا ومعاقبا." (٤٤)

وقد كتب الكركى لأول مرة متحدثا عن الامام ونائبه فى كل أمر دينى مهم يتعلق بالشرع، وأنه ليس المهم من يتولى تطبيق الأمر الدينى، بل المهم تطبيقه. فقال فى كتابه جامع المقاصد فى شرح القواعد، "حكم الإمام يشمل نائبه. وهو كل مهم ديني تعلق غرض الشرع بحصوله ولا يقصد عين مـــن

يتولاه." [٤٥] ويضيف أنه "يجوز للفقيه الجامع للشرائط أن يتولى تطبيق الأحكام فى زمن الغيبة." [٤٦] كما أجاز الكركى الجهاد "سواء كان الامام ظاهرا أو مستورا."، وأجاز أن يقوم الامام أو نائبه بمهادنة الكفار للضرورة." [٤٧]

وطوال عهد الدولة الصفوية والدولة القاجارية التى تلتها (١١٩٣-١٣٢٦ هجرية، ١٧٧٩-١٩٢٥ م) تجدد الجدل بين الاخباريين والأصوليين. ففى جانب الاخباريين، الذين يرون ان الفقه هو ماصدر عن الامام المعصوم وحده ويرفضون الاجتهاد، رفض الميرزا محمد أمين الاسترابادى المتوفى سنة ١٠٢٣ هجرية، سنة ١٦١٤ م فكرة نائب الامام مستندا الى أن الامام المهدى لم يتحدث عنها، وأن رسائل الامام الثانى عشر قد خلت من الاشارة اليها. ففى كتابه الفوائد المدنية حدد الاسترابادى تسعة أدلة حاول من خلالها البرهنة على خطأ رأى الأصوليين لعل أهمها هو عدم ظهور دلالة قطعية و إذن في جواز التمسك في نظريات الدين بغير كلام العترة الطاهرة عليهم السلام و لا ريب في جواز التمسك بكلامهم عليهم السلام فتعين ذلك....الدليل الثاني : الحديث المتواتر بين الفريقين : (إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي : كتاب الله عز و جل و عترتي أهل بيتي لن يفترقا حتى يردا علي الحوض) و معنى الحديث كما يستفاد من الأخبار المتواترة أنه يجب التمسك بكلامهم، إذ حينئذٍ يتحقق التمسك بمجموع الأمرين. و السر فيه : أنه لا سبيل إلى فهم مراد الله إلا من جهتهم عليهم السلام لأنهم عارفون بناسخه و منسوخه و الباقي منه على الإطلاق و المؤول و غير ذلك، دون غيرهم، خصهم الله و النبي صلى الله عليه و آله بذلك." [٤٨] من الواضح أن الآسترابادى يعتبر أنه لاسبيل الى الوصول الى الأحكام الشرعية الا السماع من الأئمة وأنه لايجوز للفقهاء الاستنباط الأحكام بأنفسهم. ومن ثم فهو يرفض أى دور للفقيه. كذلك، ظهر الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملى (١٠٣٣-١١٠٤ هجرية، ١٦٢٤-١٦٩٣ م)

ليمثل أحد أبرز المفكرين الاخباريين الشيعة فى كتابه تفصيل وسائل الشيعة الي تحصيل مسائل الشريعة المشهور بوسائل الشيعة.وفى الكتاب اقتبس العاملى قول المحقق الحلى المشار اليه سابقا وأعاد تأكيده.[٤٩]

لكن التيار الأصولى، الذى يجيز للفقيه أن يحل محل الامام فى كل او بعض وظائفه ومن ثم يجيز الاجتهاد، وجد أكبر سند له فى مؤلفات محمد باقر المجلسى (١٠٣٧-١١١١هجرية، ١٦١٦-١٦٩٨) ، ومحمد باقر البهبهانى (١١١٨-١٢٠٦ هجرية، ١٧٠٥-١٧٩١م)، المعروف باسم الوحيد البهبهانى. ففى مؤلفه بحار الأنوار كتب المجلسى عن فضل العقل وأكد أن الله يحاسب الناس على قدر عقولهم، وأشار الى جواز الرجوع الى رواة الأخبار والفقهاء الصالحين، ورغم تسليمه بأنه ليس هناك شىء الا ورد فيه كتاب أو سنة وأن علم كل ذلك عند الامام ، فانه قال أنه يجوز للفقهاء استنباط الأحكام مما جاء فى الكتاب والسنه وأحاديث المعصومين، بل زاد على ذلك بأن وضع الدولة تحت اشراف الفقهاء[٥٠] من ناحيته فان البهبهانى انتصر صراحة للتيار الأصولى فى عدد من مؤلفاته لعل من أهمها كتابيه الفوائد الحائرية، والرسائل الفقهية، حيث عدد فيهما فوائد الاجتهاد العقلى الذى يقوم به الفقهاء لفهم أصول الدين.[٥١]

من ناحيته انحاز الشيخ الشيخ جعفر كاشف الغطاء(١١٥٦-١٢٢٨ هجرية، ١٧٤٣-١٨١٣ م) الى التيار القائل بالنيابة العامة للفقيه عن الامام المهدى بما فى ذلك الجهاد، وذلك فى كتابه كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء. رأى كاشف الغطاء أن الفقهاء المجتهدون ينوبون عن الامام. فيجوز لهم جمع الزكاة وحماية حقوق الفقراء، كما أن "الفقيه الجامع للشرائط"، " ينوب عن الامام فى تنفيذ الأحكام"، [٥٢]، "كما أن له فى جواز النقل والحمل خصوصية لقيامه مقام الامام وهو ولى عن فقراء أهل الاسلام وتجىء اليه الحقوق من كل مقام"[٥٣] وبهذه الصفة يجيز الفقيه للسلاطين الحكم، فقد اعتبر أن السلطان مأذون من قبل الحاكم الشرعى "والفقيه الجامع للشرائط. ومن ثم يجب طاعته... وتجب على الناس اعانته ومساعدته ان

احتاج اليهم ونصرته ومن خالفه فقد خالف العلماء الأعلام ومن خالف العلماء الأعلام فقد خالف، والله، الامام." (٥٤) وأضاف أن من الواجب قيام المجتهدين فى مقام الجهاد الدفاعى عن الاسلام والمسلمين " أو المـأذون منهم"، (٥٥) ويضيف ومن خالفهم فقد خالف امامهم." (٥٦) وبهذه الصفة أجاز للسلاطين أخذ الخراج والزكاه والقيام بالجهاد للدفاع عن بلاد المسلمين ولكنهم يفعلون ذلك باجازة من الفقهاء. ومن ثم فقد منح السلطان القاجارى فتح على شاه، ثانى سلاطين الدولة القاجارية (١١٨٣ - ١٢٥٠ هجرية، ١٧٧٢ - ١٨٣٤م)، والذى عاش فى عهده، القاجار اجازة للحكم باسمه باعتباره نائبا عن الامام. بذلك أجاز كشاف الغطاء قيام الدولة فى عصر الغيبة، كما منح الفقهاء دورا عاما فى تلك الدولة، ولكنهم لايباشرون هذا الدور مباشرة وانما يخولون السلاطين القيام به.

وفى القرن التاسع عشر ــ أى فى عهد الدولة القاجارية، شهد الفكر السياسى الشيعى الاثنى عشرى تحولا نوعيا بظهور نظرية ولاية الفقيه العامة على يد النراقى . فقد مثل أحمد بن محمد النراقى (١١٨٥-١٢٤٥ هجرية، ١٧٧١-١٨٢٩ م) بداية النقلة النوعية الثانية فى الفكر السياسى الاثنى عشرى حيث نقل هذا الفكر من نظرية النيابة العامة المحدودة للامام الى نظرية عموم ولاية الفقيه. قدم النراقى أفكاره عن عموم ولاية الفقيه فى كتابه عوائد الأيام فى بيان قواعد الأحكام. وفى هذا الكتاب ركز على بحث كيفية أداء وظائف الامام فى عصر الغيبة، وأعطى الفقهاء وظائف الامامة الكبرى قائلا، "المقام الثانى فى بيان وظيفة العلماء الأبرار والفقهاء الأخيار فى أمور الناس ومالهم فيه الولاية على سبيل الكلية، فنقول وبالله التوفيق أن كلية ماللفقيه العادل توليه وله الولاية فيه أمران أحدهما كلما كان للنبى والامام الذين هم سلاطين الأنام وحصون الاسلام فيه الولاية وكان لهم فللفقيه أيضا ذلك الا ماأخرجه الدليل من اجماع أو نص أو غيرهما." (٥٧) بل انه أضاف ما يجعل الفقيه يقوم أيضا بكل الوظائف التى لم يحدد لها مأمور معين يقوم بها. قال النراقى، "كل فعل متعلق بأمور العباد فى دينهم أو دنياهم ولابد

من الاتيان به...ولم يعلم المأمور به ولا المأذون فيه، وظيفة الفقيه وله التصرف فيه والاتيان به." (٥٨) وبعبارات قاطعة فى أن ولاية الفقيه عامة غير مقيدة وان الفقيه هو " نائب عام"(٥٩) قال النراقى أن الفقيه هو " وارث الانبياء او امين الرسل وخليفة الرسول وحصن الاسلام ومثل الانبياء وبمنزلهم والحاكم والقاضى والحجة من قبلهم وأنه المرجع فى جميع الحوادث وأن على يديه مجارى الأمور والأحكام ... انهم خير خلق الله بعد الأئمة وأفضل الناس بعد النبيين وفضلهم على الناس كفضل الله على كل شئ وكفضل الرسول على أدنى الرعية." (٦٠) وأضاف جاعلا الفقهاء فى المرتبة الأعلى فى الدولة فى ظل غيبة الامام المعصوم، " الأمور التى هى وظيفة الفقهاء ومنصبهم ولهم الولاية فيه كثيرة يعلم مواردها مما ذكر ونذكر هنا بعضها فمنها الافتاء فلهم ولايته وعلى الرعية وجوب اتباعهم فى فتاويهم وتقليدهم فى أحكامهم ...لاشك أن علوم العلماء علوم الأئمة." (٦١)

لاقت نظرية عمومية ولاية الفقيه ردود أفعال مختلفة فى الفكر الشيعى كانت امتدادا للشقاق التاريخى الاخبارى الأصولى . فقد أيد الأصوليون نظرية ولاية الفقيه العامة. وفى مقدمة هؤلاء رضا الهمدانى (المتوفى سنة ١٣١٠ هجرية، ١٨٩٢ م) فى كتابه مصباح الفقيه. أكد الهمدانى فى سياق حديثه عن توزيع الزكاة على دور الفقيه كنائب عام عن الامام فقال ان الزكاة توصل الى " الفقراء من قبل الإمام عليه السلام أو نائبه الخاص في زمان الحضور أو نائبه العام وهو الفقيه الجامع للشرائط في زمان الغيبة." (٦٢) وأطلق على ولاية الفقيه مصطلح "القائمقامية"، وبرر تلك الولاية بألا يبقى الشيعة متحيرين فى زمن الغيبة. كذلك أيده محمد رضا الكلبايكانى فى كتابه البداية الي من له الولاية . استند الكلبايكانى اى أدلة عقلية يقول ان الطبيعة البشرية تؤدى الى وقوع التنازع، ومن ثم لابد لبشر من زعيم وحاكم وان لم يكن نبيا أو وصيا. (٦٣)

من ناحية أخرى، استمر الاخباريون فى معارضة نظرية ولاية الفقيه العامة. وكان فى مقدمتهم مرتضى الأنصارى (١٢١٦-١٢٨١ هجرية،

١٨٠١-١٨٦٤ م). فقد استعرض الأنصارى فى كتابه المكاسب الأدلة التى ساقها الكركى و النراقى لتأكيد ولاية الفقيه فقال، "هل يجوز أن يتولى من له النيابة فى عصر الغيبة ذلك (توزيع الخراج والمقاسمة)، أعنى الفقيه الجامع للشرائط،؟ قلنا لانعرف للأصحاب فى ذلك تصريحا، لكن من جوز للفقهاء حال الغيبة تولى استيفاء الحدود وغير ذلك من توابع منصب الامامة ينبغى له تجويز ذلك بشكل أولى لاسيما والمستحقون لذلك موجودون فى كل عصر." [٦٤] كما قال الأنصارى "المهم التعرض لحكم ولاية الفقيه بأحد الوجهين المتقدمين، فنقول: أما الولاية على الوجه الأول - أعني استقلاله في التصرف - فلم يثبت بعموم عدا ما ربما يتخيل من أخبار واردة في شأن العلماء مثل: " أن العلماء ورثة الأنبياء، و أن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ولكن ورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشئ منه أخذ بحظ وافر." وأضاف الأنصارى رافضا نسب ولاية الفقيه الى رويات عن الرسول والأئمة،، " وفي المرسلة المروية في الفقه الرضوي: " إن منزلة الفقيه في هذا الوقت كمنزلة الأنبياء في بني إسرائيل " وقوله عليه السلام في نهج البلاغة: " أولى الناس بالأنبياء: أعلمهم بما جاؤوا به * (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه) وقوله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثا: " اللهم ارحم خلفائي. قيل: ومن خلفاؤك يا رسول الله؟ قال: الذين يأتون بعدي، ويروون حديثي وسنتي "، وقوله عليه السلام في مقبولة ابن حنظلة: " قد جعلته عليكم حاكما " وفي مشهورة أبي خديجة: " جعلته عليكم قاضيا "، وقوله عجل الله فرجه: " هم حجتي عليكم وأنا حجة الله " إلى غير ذلك مما يظفر به المتتبع. لكن الإنصاف - بعد ملاحظة سياقها أو صدرها أو ذيلها - يقتضي الجزم بأنها في مقام بيان وظيفتهم من حيث الأحكام الشرعية، لا كونهم كالنبي والأئمة صلوات الله عليهم في كونهم أولى بالناس في أموالهم، فلو طلب الفقيه الزكاة والخمس من المكلف فلا دليل على وجوب الدفع إليه شرعا. نعم، لو ثبت شرعا اشتراط صحة أدائهما بدفعه إلى الفقيه مطلقا أو بعد المطالبة، وأفتى بذلك الفقيه، وجب اتباعه إن كان ممن يتعين تقليده ابتداء أو

بعد الاختيار، فيخرج عن محل الكلام. هذا، مع أنه لو فرض العموم فيما ذكر من الأخبار، وجب حملها على إرادة الجهة المعهودة المتعارفة من وظيفته، من حيث كونه رسولا مبلغا، وإلا لزم تخصيص أكثر أفراد العام، لعدم سلطنة الفقيه على أموال الناس وأنفسهم إلا في موارد قليلة بالنسبة إلى موارد عدم سلطنته. وبالجملة، فإقامة الدليل على وجوب طاعة الفقيه كالإمام عليه السلام- إلا ما خرج بالدليل - دونه خرط القتاد." (٦٥)

لم يقتصر الأمر على مسالة ولاية الفقيه، ولكنه شمل أيضا نشأة الفكر السياسى الشيعى الداعى الى الحكم الدستورى وذلك على يد الميرزا محمد حسين النائينى (١٢٧٣-١٣٤٥ هجرية، ١٨٦٠-١٩٣٦ م)، وهو من كبار الفقهاء المجتهدين الشيعة. ولكن فكره السياسى لم يكن يتسم بطابع مذهبى، وانما ركز على القضايا السياسية العامه للمسلمين. فرغم تسليمه بالقضية المركزية فى الفكر السياسى الشيعى، وهى الامامة المعصومة، الا أن فكرة الحكم النيابى الدستورى كانت هى الفكرة المحورية التى ركز عليها. وقد حاول النائينى أن ينشأ توافقا بين فكرة الامامة المعصومة وفكرة الحكومة الدستورية رغم أن تلك الأخيرة كانت مرفوضة من الفكر الشيعى الاثنى عشرى حتى ذلك الوقت. وقد عبر عن فكره الدستورى كتابه الأشهر تنبيه الأمة في تنزيه الملة . وقد تأثر النائينى بأفكار الأفغانى نتيجة اتصاله به مباشرة، كما تأثر أيضا بأفكار الكواكبى الى حد أن بعض الدارسين يجد تشابها بين كتاب طبائع الاستبداد للكواكبى، وكتاب تنبيه الأمة فى تنزيه الملة للنائينى. (٦٦)

انطلق النائينى من فكرة رفض الاستبداد الذى ظهر فى الأمة الاسلامية، كما قال، مع استيلاء معاوية ابن أبى سفيان على السلطة. ويقوم الاستبداد على أساسين الأول سياسى يتمثل فى انقياد الأمة لارادة السلطان استنادا الى القهر والغلبة، والثانى دينى يتمثل فى الانقياد الى تدليس بعض الفقهاء استنادا الى الدين.وفى المقابل فان الهيئة الدستورية المتمثلة فى المجالس التمثيلية هى الصيغة الراهنة التى توصل اليها تطور الحضارة

الإنسانية وفقا للمبادىء الطبيعية والقوانين الاسلامية والتى لاتناقض بينها. كذلك، وعلى غرار الكواكبى، قال النائينى ان أصل النظام الديمقراطى موجود فى الاسلام فى شكل "النظام الشوروى."

ومن ثم، يكمن الحل المثالى فى مواجهة معضلة الاستبداد فى بناء نظام الامام المعصوم. ولكن بما أن تلك الاقامة غير ممكنة لغيبة هذا الامام، فانه يلزم اقامة نظام دستورى صحيح يتأسس على تقسيم الدولة الى قسمين، قسم للناس وآخر للحاكم. يتضمن القسم الأول حق الناس، وهو الحكم الدستورى. أما القسم الثانى فانه يتضمن حق الحاكم. ومن ثم رأى النائينى أنه فى غيبة نظام الامام يصير النظام الدستورى البرلمانى الذى يستند الى القانون الاسلامى و آراء الشعب، هو النظام السياسى المثالى. ".[٦٧] بل انه من الممكن عنده ألا يكون الحاكم فى النظام الدستورى فى فارس شيعيا. فقد كان الهم الأكبر عنده هو هدم السلطة الجائرة واقامة النظام الدستورى أكثر من أن يكون الحاكم شيعيا. [٦٨]

والخلاصة أن النائينى طالب ببناء الدولة الاسلامية على أساس الدستور و الشورى المؤسسية التى يجسدها مجلس شورى منتخب تمثل فيه الأقليات الدينية، ويراقب الأموال العامة ويسن القوانين ويتأكد من مطابقتها للشريعة، كما وأكد على المساواة بين جميع أفراد الشعب وح رحريتهم، وعلى الفصل بين السلطات الثلاث.

وهكذ نرى أن الفكر السياسى الاسلامى ازدهر فى دولة المماليك ذات المذهب السنى، وفى الدولتين الصفوية والشيعية ذاتا المذهب الشيعى، أما فى الدولة العثمانية، فقد كانت الصورة جد مختلفة. فما هى أسباب عجز العثمانيين عن تطوير فكر سياسى اسلامى يسهم بشكل جدى فى حركة تطور هذا الفكر.

(٣) أسباب تراجع الفكر السياسى الاسلامى فى العصر العثمانى

جاء العثمانيون الأتراك الى البلاد العربية كغزاة فاتحين، دمروا فى

طريقهم تراث المماليك وقتلوا قادتهم ونهبوا ثروات البلاد العربية، على نحو مافعله سليم الأول فى مصر. عادوا الى بلادهم محملين بموارد العرب، وفى تلك البلاد احتفظوا بلغتهم، وعاملوا العرب باستعلاء، وكان جل همهم هو الحصول على الخراج من جيوب العرب، وكان توجههم الأساسى هو نحو أوربا وليس بلاد العرب. من ثم، لم تتوفر لديهم مقدرة لانتاج أو تشجيع انتاج فكر سياسى للمسلمين. اتسم العثمانيون الأتراك بعدة خصائص أدت الى تدهور حال الفكر السياسى فى حقبتهم. أول تلك الخصائص أن الدولة العثمانية كانت دولة ذات طابع عسكرى تقوم على فكره أولوية القوة العسكرية لتأمين الدولة والسيطرة على الشعوب الأخرى حتى أنها رغم أنها كانت دولة إسلامية إلا أنها غزت الدول الإسلامية الأخرى غزوا مسلحا ألحق بها الدمار وعاملتها كما لو أنها شعوب غير إسلامية. فيحكى المؤرخون أنه عندما غزا سليم الأول الشام ومصر ابتداء من سنة ١٥١٦، فانه عامل مسلمى تلك البلاد كما لو أنهم غير مسلمين وعاث تدميرا ونهبا وقتلا فى سكانها كما شنق سليم الأول طومان باى، سلطان مصر، على باب زويلة، على نحو ماوثقه ابن اياس حتى أنشد أحد الشعراء قائلا : "نبكى على مصر وسكانها، قد خربت أركانها العامرة، وأصبحت بالذل مقهورة بعدما كانت هى القاهرة." [٦٩] كذلك قام السلطان العثمانى سليم الأول بأسر ونقل آخر خليفة عباسى فى مصر، المتوكل على الله الثالث، معه إلى استانبول عندما رحل من مصر بعد احتلالها، ومن ثم نقل مقر الخلافة إلى عاصمة الدول العثمانية، إلا أن الخلافة لم تكن بالنسبة للعثمانيين إلا رمزا للسيطرة أكثر منه مضمونا فكريا للدولة الإسلامية

من ناحية ثانية، فإن العثمانيين لم يتقنوا اللغة العربية، لغة القرآن الكريم والسنة النبوية، مما خلق فجوة بينهم وبين العرب الذين ضموهم الى الدولة العثمانية. وقد لام جمال الدين الأفغانى العثمانيين على أنهم أسلموا دون أن يتحدثوا اللغة العربية. وقد أدى غياب اللسان العربى لدى الأتراك العثمانيين الى صعوبة تقديم مفكرين سياسيين قادرين على استخراج فكر

سياسى من الشريعة. ولنقارن ذلك بالاسهامات الكبرى التى قدمها علماء آسيا الوسطى للحضارة الإسلامية، كالبخارى، والترمذى، الذين أتقنوا لغة القرآن الكريم.

من ناحية ثالثة، ابتدع العثمانيون بعض الممارسات المؤسسية التى أدت الى سد منافذ احتمال ازدهار الفكر السياسى الاسلامى. فعنما زاد نفوذ الأتراك العثمانيين فى الأناضول ابتدعوا "المشيخة الاسلامية العثمانية" سنة ١٤٢٥ م فى عهد السلطان مراد الثانى، وكان محمد شمس الدين فنارى أفندى أول من تولى هذا المنصب. وكانت هذه المشيخة تعنى بمسائل تطبيق الشريعة واصدار الفتاوى. والأهم من لك أنها لم تكن تتمتع بالاستقلال بل كانت تابعة للسلطنة العثمانية تقدم الفتاوى على هوى السلاطين وتخدم أغراضهم السياسية. كانت المشيخة، كما يقول رؤوف عباس، "أداة السلطة فى مواجهة كل محاولة للاصلاح والتجديد.... كما نصب رجال الهيئة الدينية أنفسهم أوصياء على العقول وأحكموا اغلاق منافذ الاجتهاد." (٧٠) ولكنها كانت فى نظر محمود الدغيم تقوم بمهمة " الدفاع عن بيضة الاسلام، والتصدى للمارقين وأهل الأهواء خلال عدة قرون من الزمن." (٧١) وهذه المشيخة هى التى أصدر شيخها، فتوى للسلطان سليم الأول بشرعية غزو مصر والشام رغم أنهما جزء من دار الاسلام، كما صمت شيوخها عن التنكيل الذى حاق بالشوام والمصريين على يد سليم الأول، وكانوا خير عون للسلطان فى سد أى منافذ للاجتهاد والتجديد، بل أنهم تحت دعوى حماية الاسلام نكلوا بالمخالفين لهم فى الرأى من خلال اتهامهم بالكفر والزندقة على نحو ماتم فى اعلان امام الثقلين ابن كمال باشا، شيخ المشيخة العثمانية فى عهد السلطان سليمان القانونى كفر المنلا قابض العيسوى، مما أدى الى اعدامه سنة ١٥٢٤. كما هذه المشيخة هى التى أصدرت فتوى للسلطان سليمان القانونى بجواز قتل ابنه الأمير مصطفى على أساس أنه خارج على سلطة الدولة، فى اطار الصراع بين حريم السلطان على خلافة القانونى، مما أدى به الى أن يأمر بخنق ابنه. وباختصار فانه تحت دعوى حماية الدين

مارست المشيخة عملية ترويع للمفكرين المخالفين فى الرأى كما كانت جزء من صراعات القصر، مما أدى الى تراجع الفكر السياسى. وقد شهد عصر سليمان القانونى تدهورا اضافيا، كما يقول العالم العثمانى الشيعى التركى حاجى خليفه (وهو ذاته العالم المعروف باسم كاتب جلبى (١٠١٧ -١٠٦٨ هجريه، ١٦٠٩-١٦٥٧ م)، حيث تم ابطال دروس الحكمة بعد أن كانت تدرس مع علوم الشريعة تأسيسا على أن الحكمة من "الفلسفيات" ووضعت المشيخة بدلا منها دروس "الهداية"، و "أكمل الدين" مما أدى الى كساد سوق العلم فى الدولة العثمانية.[٧٢] وفى ذلك يضيف رؤوف عباس " لما كان العثمانيون رجال سيف وافدون جدد الى الاسلام، فان معرفتهم بالشريعة الاسلامية كانت محدودة، وعندما آل اليهم أمر العالم العربى كان لابد أن يستعينوا بالعلماء والفقهاء المتخصصين الذين يتوافر لديهم العلم بالشريعة الاسلامية. وهكذا ابتدع الأتراك تكوين"هيئة دينية" تقف حارسة للشرع وتعنى بتطبيق أحكامه. فتحول الدين على أيديهم الى "حرفة" والى سلك كهنوتى لم يعرفه الاسلام من قبل. ولم يتمتع رجال الهيئة الدينية باستقلال عن السلطة الادارية، بل كانو دائما طوع بنانها، يعملون فى خدمة أغراضها، ويقدمون الفتاوى التى توافق هوى السلاطين وتخدم أغراضهم السياسية.... لذلك لانعجب حين نجد العرب وقد تقوقعوا حول أنفسهم يجترون ذكريات عصور الازدهار الحضارى لعجزهم عن محاكاتها".[٧٣]

من ناحية رابعة، فإن الدولة العثمانية، أنشأت جدارا حاجزا بين العالم الإسلامى الواقع تحت سيطرتها والعالم الخارجى. وقد أسهم هذا الحاجز فى البداية فى حماية شمالى أفريقيا من خطر السيطرة الأسبانية البرتغالية والذى كان يهدد بأن يلقى شمالى أفريقيا مصير الأندلس. إلا أنه فى مرحلة لاحقة تحول الحاجز إلى حرمان العالم الإسلامى من التفاعل مع الحضارة الأوربية، ومن التقدم العلمى والصناعى الأوربى الذى بدأ يتبلور مع القرن السابع عشر. وبذلك لم يستطع العرب متابعة العلاقة الجدلية مع الغرب والوقوف على تقدمه الحضارى الذى تزامن مع التدهور الحضارى الاسلامى

(٤) انعكاسات انحسار الفكر السياسى الاسلامى على الدولة العثمانية وعلى العالم الاسلامى

مع تقوقع الدولة العثمانية على ذاتها وانعزالها عن عصر النهضة الأوربية بدأ ميزان القوى العالمى يتحول تدريجيا ضدها، وبالذات مع عصر السلطان سليمان القانونى (١٤٩٥-١٥٦٦ م)، أى مع ازدياد القوة الاقتصادية والعسكرية الأوربية نتيجة الثورات العلمية والفكرية والصناعية الأوربية. وبالتالى بدأت الدول الأوربية فى غزو العالم الاسلامى، وبدأ عصر الارتطام بين المسلمين والغربيين فى ظروف التفوق العسكرى والاقتصادى الأوربى. كانت الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٢١٢ هجرية، (١٧٩٨ م)بداية هذا الغزو. وقد أوضحت الحملة بجلاء الفجوة الهائلة بين العالم الاسلامى والعالم الأوربى. وابتداء من سنة ١٢٤٥ هجرية (١٨٣٠م) بدأت عملية السيطرة الأوربية المباشرة على الممتلكات العربية للدول العثمانية مع احتلال فرنسا للجزائر فى تلك السنة، ثم احتلالها تونس سنة ١٨٨١، واحتلال وبريطانيا لمصر سنة١٢٩٨ هجرية، سنة ١٨٨٢ م ثم السودان سنة ١٣٠٦ هجرية، سنة ١٨٨٩ م. ولم ينج العالم الاسلامى فى جنوب شرقى وجنوبى آسيا من الهجمة الاستعمارية. فقد ضمت بريطانيا بلاد الملايا سنة ١٢٣٩ هجرية، ١٨٢٤ م، ثم الامبراطورية الاسلامية فى الهند سنة١٢٧٣ هجرية، سنة ١٨٥٧ م، وكان تحت حكم المسلمين بقيادة الامبراطور بهادور شاه.

مع تفاقم ضعف الدولة العثمانية أطلق الأوربيون عليها اسم "الرجل المريض"، وظهر مصطلح "المسألة الشرقية" فى السياسة الدولية ليشير الى اختلاف الدول الأوربية حول أسلوب تقسيم الدولة العثمانية. وللتعامل مع هذا التهديد بدأت الدولة العثمانية فى محاولة إصلاح شئونها الداخلية. بيد أن هذه المحاولة فى ظروف الضعف والتراجع، لم تؤد إلا إلى مزيد من ضعف الدولة العثمانية، ومزيد من التدخل الأوربى فى شئونها.

ويمكن القول ان غياب مفكرين عثمانيين ذوى شأن فى قلب الدولة العثمانية، كان من العوامل التى أدت الى نجاح الجهود الأوربية فى اضعاف

الدولة، بل وتغيير نظمها كما سنرى لاحقا. فقد أدى ذلك الى ترك ساحة التعامل العثمانى مع أوربا، للساسة والدبلوماسيين العثمانيين الذين كانوا يميلون أصلا الى تبنى المفاهيم الأوربية. ومن ثم، فعندما طبقت التنظيمات العثمانية ابتداء من سنة ١٨٣٩، لم يسمع صوت مفكر قوى يدافع عن المفاهيم الفكرية الاسلامية.

(٥) انبعاث الفكر السياسى الاسلامى خارج اطار الدولة العثمانية

مع منتصف القرن الثامن عشر بدأت عملية انبعاث الفكر السياسى الاسلامى لأسباب ليس هناك مجال لشرحها فى هذا البحث. ولكن المهم بالنسبة لنا هو ان الانبعاث تم على ثلاثة مستويات، مستوى الحركات الفكرية السياسية، ومستوى المفكرين الذين بشروا بتجديد الفكر السياسى الاسلامى من خلال التعلم من الغرب، ومستوى المفكرين الذين قدموا مساهمات متكاملة أثرت حركة الفكر السياسى الاسلامى. فماذا كانت مساهمات العثمانيين فى المستويات الثلاث؟

أولا: مستوى الحركات الفكرية السياسية:

ظهرت فى العالم الاسلامى حركات نادت بتجديد الفكر السياسى الاسلامى أهمها الحركات الوهابية، والسنوسية، والمهدية، و الدهلوية، و الديوبندية، وحركة جامعة عليكرة الاسلامية، والحركة والفودية وغيرها. ويوضح تأمل تلك الحركات أن حركة واحدة منها لم تظهر بتشجيع من الدولة العثمانية. بل قام بعض تلك الحركات متحديا تلك الدولة بشكل صريح وفى مقدمتها الحركة المهدية والحركة الوهابية. كما أن حركات أخرى قامت متجاهلة الدولة العثمانية ولم تشر اليها من قريب أو بعيد، وفى مقدمتها الحركة الفودية التى قادها فى شمالى نيجيريا الحالية عثمان بن فودى، وكذلك الحركات الدهلوية والديوبندية فى الهند.

كانت الحركة المهدية كانت أشد الحركات عداء للدولة العثمانية. فقد اعبرت تلك الدولة كافرة أمر النبى بقتالها. قال محمد احمد المهدى فى

رسالته الى الشلالى باشا فى مايو سنة ١٨٨٢ م، " النبى صلى الله عليه وسلم أمرنا صريحا بقتال الترك وأخبرنا بأنهم كفار لمخالفتهم لأمر الرسول باتباعنا ارادتهم لاطفاء نور الله تعالى [٧٤]." وفى منشور آخر زاد على ذلك قوله، " النبى صلى الله عليه وسلم لما أجلسنى على كرسى المهدية أمرنى بجهاد الترك، وقال لى ان الترك كافرون، بل هم اشد الناس كفرا ونفاقا." [٧٥] وبدورها كذبت الدولة العثمانية دعوى المهدى، فأصدر السلطان عبد الحميد منشورا بهذا المعنى نشره فى البلاد الاسلامية. وعلى غرار محمد المهدى آمن التعايشى، خليفة المهدى، بكفر الأتراك وأسماهم "بأعداء الله الترك" ونص على ضروة قطع دابرهم . [٧٦] بالنسبة للحركة الوهابية، فانها لم تكن تعترف بشرعية الخلافة العثمانية بدليل أنها استولت على الحرمين الشريفين وأخرجتهما مؤقتا من سلطة تلك الخلافة، كما أنه حتى بعد خروجها من مكة والمدينة ثم اقامة الدولة السعودية الثانية، كانت تعتبر ان أمراء تلك الدولة هم الخلفاء. [٧٧]

أما الحركة الفودية التى قادها عثمان بن فودى فى شمالى نيجيريا الحالية فانها تجاهلت الدولة العثمانية. فقد أقامت خلافة فى سوكوتو موازية للخلافة العثمانية فى استانبول. ومن المؤكد أن ابن فودى كان قد طالع الآيات والأحاديث و كتابات المفكرين المسلمين التى تؤكد على وحدة الامامة، وهى الوحدة التى تمنع اقامة خلافتين فى آن واحد. وليس فى كتابات ابن فودى أى اشارة الى ولائه للخلافة العثمانية فى استانبول أو تبرير لاقامة خلافة موازية فى سوكوتو.

وبالمثل فان الحركات الفكرية فى الهند تجاهلت الدولة العثمانية أيضا. فقد تحدث شاه ولى الله الدهلوى، زعيم الحركة الدهلوية، عن الخلافة دون أن يشير الى موقفه من الخلافة العثمانية. فقد قال ان الخلافة هى أصل من أصول الدين العظيم كما قال فى كتابه ازالة الخفاء عن خلافة الخلفاء، ولكنه لم يشر الى الخلافة العثمانية التى كانت قائمة فى عهده. كما أن سيد أحمد خان، مؤسس حركة جامعة عليكرة الاسلامية عارض حركة الجامعة

الاسلامية التى كان الأفغانى ينادى بها. فقد كان يرى أن شئون مسلمى الهند هى شئون داخلية بحتة، ومن ثم، فانه ليس مطلوبا تدويل تلك الشئون فى اطار حركات خارجية مثل الجامعة الاسلامية. وعلى مسلمى الهند ألا ينخرطوا فى تلك الحركة كما عارض فكرة ان السلطان عبد الحميد الثانى هو خليفة مسلمى الهند. برر سيد أحمد خان موقفه بأن الانخراط فى حركة الجامعة الاسلامية سيثير على مسلمى الهند عداء بريطانيا، ومن ثم يعطل الهدف الأساسى وهو النهوض الداخلى. ولذلك انتقد الأفغانى سيد أحمد خان بشدة. [٧٨] وهنا اختلف محمد اقبال مع سيد أحمد خان حيث كان يركز على أهمية الوحدة الاسلامية، وعلى دعم الدولة العثمانية باعتبارها أكبر الدول الاسلامية. [٧٩]

ولكن الحركة السنوسية كانت أكثر الحركات ولاء للدولة العثمانية. فقد حرص محمد بن على السنوسى على طمأنه الدولة العثمانية من الهدف من انشاء الزوايا حيث كان يرى ضرورة مساندة تلك الدولة لكى تتمكن من مجابهة التحدي الأوربى. [٨٠] ولما تولى أحمد الشريف بن محمد الشريف بن محمد بن على السنوسى (١٨٧٣-١٩٣٣ م)، قيادة الحركة السنوسية ركز على فكرة الولاء للدولة العثمانية،."[٨١] ففى رسالة أرسلها فى ٢٩ صفر ١٣٣٥ هجرية الى أنور باشا، وزير الحربية العثمانى، قال فيها، "أتى الطليان للوطن وراسلنى وأرسل الى الأموال الهائلة فرجعتها كلها تعففا وطلبا لرضاء الله ورسوله وقمت بمعاضدة الدولة العلية ولله الحمد، وأمرت كافة أهل الوطن وقمت بجهدى ثم بعد ذلك قمت بنفسى للجهاد." [٨٢] بيد أن الدولة العثمانية تنازلت لايطاليا عن ولايتى طرابلس وبنغازى بموجب معاهدة لوزان الموقعة فى ١٨ اكتوبر سنة ١٩١٢ وأبلغت الشريف بأنها قد منحت البلاد الاستقلال وعليه تدبير أمورها. والغريب أنه مع نشوب الحرب العالمية الأولى عين السلطان العثمانى الشريف نائبا له فى شمالى افريقيا للاستفادة من جهوده . وبدوره خاض الشريف الحرب ضد الانجليز فى منطقة الحدود وذلك تحت ضغط من الدولة العثمانية لتخفيف الضغط عليها

فى الجبهة الأوربية، رغم ابلاغه للدولة عدم استعداده لخوض تلك الحرب لأنه يركز على مقاومة الايطاليين فى بلاده. فى البداية رفض الشريف دخول الحرب ضد الانجليز، ومن ثم حاول الأتراك اغتياله لتعيين حاكم سنوسى أكثر طوعا. ولكن الشريف رضخ فى النهاية للمطالب العثمانية، وهى مطالب تصب لمصلحة الدولة العثمانية وليس لمصلحة الليبيين. كيف نفسر سلوك أحمد الشريف فى خوض حرب ضد الانجليز فى مصر، على حساب حربه ضد الايطاليين فى ليبيا؟ من الواضح أن الشريف خاض الحرب على الجبهة المصرية، وهو يعلم أن ميزان القوى مع الانجليز ليس فى صالحه، كما أن العثمانيين لم يوفروا له أى عتاد حربى يمكنه من خوض المعركة. ولكنه تصرف تحت تأثير عقيدته عن الولاء للدولة العثمانية، واعتقد بالفعل أنه نائب السلطان العثمانى فى شمالى افريقيا. وفى رسالة كتبها الشريف بعد وضوح هزيمة قواته قال بفخر أنه بهذه الحرب "شغلنا أكبر عدو لمقام الخلافة ناوأها العديد من السنين" ."[٨٣] انتهى الأمر بالشريف الى النفى الى استانبول حيث منحه الخليفة محمد وحيد الدين النيشان المجيدى، ثم تحول عنه الى تأييد مصطفى كمال، والذى أساء اليه مما أدى الى هجرته الى الملك عبد العزيز فى نجد. ومن ثم يبدو أن ولاء السنوسية للعثمانيين كانت تحكمه اعتبارات مصلحية بحتة لاعلاقة لها بأفكار الحركة السنوسية.

ثانيا: مستوى المفكرين الذين بشروا بالتجديد من خلال التعلم من الغرب:

ظهر عدد من المفكرين الذين نادوا بضرورة التعلم من الغرب اذا كان للمسلمين أن يحلوا معضلة التفوق الغربى عليهم. هؤلاء لم يقدموا فكرا اسلاميا متكاملا وانما شكلوا مقدمة لانبعاث وتجديد هذا الفكر. وكان منهم المفكر الجزائرى محمد بن محمود بن محمد بن حسين (١١٨٩ - ١٢٦٧ هجرية، ١٧٧٥-١٨٥١ م) ، والمفكر المصرى رفاعة الطهطاوى، والمفكر التونسى خير الدين التونسى، والمفكر التركى محمد نامق كمال، والمفكر اللبنانى أحمد فارس الشدياق. ومن هؤلاء يحسب الثلاثة الأواخر للدولة العثمانية. فقد قدم العنابى فكره فى فترة كانت فيها الدولة العثمانية قد سلمت

بالاحتلال الفرنسى للجزائر. كذلك فان الطهطاوى يحسب لدولة محمد على فى مصر، ولم يقم بأى زيارة للدولة العثمانية، مثله فى ذلك مثل العنابى. أما خير الدين التونسى (١٢٢٤-١٣٠٧ هجرية، ١٨١٠-١٨٩٠ م)، فكان سياسيا ومفكرا تونسيا من أصول قوقازية تولى مناصب حكومية رفيعة فى تونس. وفيما بين عامى ١٨٥٣، ١٨٥٦ م سافر الى أوربا لمهام رسمية استثمرها فى التنقل عبر أوربا وتأمل أحوالها ومقارنتها بحال العالم الاسلامى. وبعد عودته أسهم فى الحركة الاصلاحية التى أدت الى اصدار الدستور التونسى سنة ١٨٦١ م، وهو أول دستور فى العالم الاسلامى، ثم عاد للسفر الى أوربا فى مهمات رسمية منذ سنة ١٨٦٢ م ثم عاد تونس حيث تولى منصب الوزير الأول بين عامى ١٨٧٣، ١٨٧٧ م ثم غادر تونس الى الآستانه حيث تولى منصب الصدر الأعظم فى الآستانة بين عامى ١٢٩٤-١٢٩٦ هجرية، (١٨٧٨، ١٨٧٩ م)، وقدم للسلطان عبد الحميد برنامجا اصلاحيا لاعادة تنظيم الدولة، ولكنه رفضه فترك المنصب وتفرغ للكتابة، وتوفى فى الآستانة سنة ١٨٩٠ م. أثمرت رحلات التونسى فى أوربا كتابه أقدم المسالك فى معرفة أحوال الممالك، والذى نشره فى تونس سنة ١٢٨٥ هجرية، ١٨٦٨ م. وفى الكتاب قدم التونسى أفكاره الاصلاحية. استعرض التونسى أحوال أوروبا منوها الى أن "الغرض من ذكر الوسائل التى أوصلت الأمم الأوروباوية الى ماهى عليه من المنعة والسلطة الدنيوية، أن نتخير منها مايكون بحالنا لائقا، ولنصوص شرعتنا مساعدا وموافقا، عسى أن نسترجع منه مأخذ من أيدينا، ونخرج باستعماله من ورطات التفريط الموجود فينا." . أضاف التونسى أنه ألف الكتاب لكى يحذر"ذوى الغفلات من عوام المسلمين من تماديهم فى الاعراض عما يحمد من سيرة الغير الموافقة لشرعنا...ان الأمر اذا كان صادرا من غيرنا وكان صوابا موافقا للأدلة لاسيما اذا كنا عليه وأخذ من أيدينا، فى وجه لانكاره واهماله، بل الواجب الحرص على استرجاعه واستعماله".[٨٤] نسب التونسى تقدم الفرنجة على المسلمين الى"المعارف الناتجة عن التنظيمات المؤسسة

على العدل والحرية."، "واللذان هما أصلان فى شـريعتنا، ومـلاك القـوة والاستقامة فى جميع الممالك." [٨٥] أكد التونسى أن أوروبا لم تكن متقدمة فى الزمانات القديمة، كما أن تقدمها ليس راجعا الى موقعها الجغرافى أو ديانتها المسيحية، ولكن ناشىء عن "التنظيمات المؤسسة علـى العـدل السياسـى، وتسهيل طرق الثروة، واستخراج كنوز الأرض بعلم الزراعـة والتجـارة، وملاك ذلك كله الأمن والعدل اللذان صارا طبيعة فى بلدانهم." [٨٦] وأضاف فيما بعد أن أساس التقدم الأوربى هو "الحرية" بشقيها الشخصى والسياسـى. والشق الشخصى يعنى "اطلاق تصرف الإنسان فى ذاته وكسـبه...ولايحكم عليه بشيء لاتقتضيه قوانين البلاد المتقررة لـدى المجـالس." أمـا الشـق السياسى فيعنى "تداخل الرعايا فى السياسات الملكية، والمباحثـة فيمـا هـو أصلح للمملكة." هذا بالاضافة الى وجود المجلس النيابى الذى يسن القـوانين التى تنظم علاقة الفرد مع الدولة، وعلاقة الأفراد مع بعضهم. [٨٧] ورأى أن العبرة فى كفاءة النظام هو بوجود العدل السياسى والمؤسسات والشورى من أهل الحل والعقد بصرف النظر عن شخص الحاكم. فحتى لو كـان الحـاكم فاقدا لقواه العقلية فان النظام يعمل بكفاءة لأنه ليس معتمدا على شخصه. وفى الوقت ذاته عزا معضلة العالم الاسلامى الى الاستبداد وبالتحديد الى "اطلاق يد الملوك لأنه مجلبة للظلم." وأكد أن هذا الاطلاق يتعارض مـع شـريعة الاسلام ومع مقتضيات العقل وقراءة خبرات الدول الأخـرى.[٨٨] خلاصـة القول ان التونسى أكد أن "وجود تنظيمات مؤسسة على العدل والمشورة" هو المدخل الأساسى لاصلاح حال الأمة الاسلامية، وهى، فى نظره، مسـائل أثبتت جدواها فى خبرات الأوربيين فضلا عن أنها تتفـق مـع الشـريعة وتناسب حال الأمة اليوم، بعكس مايدعى المعارضون للاصلاح. ولاغرابة أن السلطان عبد الحميد رفض تلك الأفكار.

كذلك ظهر المفكر التركى محمـد نـامق كمـال (١٢٥٦-١٣٠٥ هجرية، ١٨٤٠-١٨٨٨ م) الذي تثقف ثقافة إسلامية، كمـا تـأثر بفلاسـفة الثورة الفرنسية. كما كان أحد مؤسسى جماعة "العثمانيين الجـدد"، وهـى

جماعة كانت ترى أن حل معضلة الدولة العثمانية انما يكون بتطبيق الديمقراطية، والأخيرة هى التطبيق الصحيح للشورى فى الاسلام. ومن ثم كانت تسعى لتطبيق التحديث الغربى فى اطار دينى. كانت كتابات نامق كمال تسعى الى الاجابة على سؤالين يصبان فى السؤال الرئيسى فى الفكر السياسى الاسلامى فى ذلك الوقت وهما ماهي أسباب انحطاط الدولة العثمانية، وماهي الإصلاحات اللازم عملها في هذا السبيل لوقف الانحطاط؟ قدم نامق كمال اجابة محورية أساسها أن أسباب انحطاط الدولة العثمانية لايرجع الى التدخل الأجنبى فى الدولة ولكنه يعود الى غياب الحرية والديمقراطية. وأشار أن لكل انسان حقوق طبيعية أهمها حق الحرية، التى هى هبة من الله تعالى للبشر، ومن ثم لايمكن وقف انحطاط الدولة العثمانية الا من خلال إقامة دولة ذات دستور يكرس مفهوم الحرية، ومفهوم المساواة فى الحقوق بين أبناء الدولة العثمانية. وكان يرى ان النظام البرلمانى البريطانى هو السبب الحقيقى لكل ماأنجزته بريطانيا من تقدم، وأن تطبيقه فى الدولة العثمانية هو الطريق الأساسى للقضاء على الانحطاط العثمانى. كما دافع بشدة عن مفهوم "الوطنية العثمانية،" أى الانتماء الى الأرض والدفاع عنها واعطاء هذا الانتماء أولوية، وهو ماكان يعنى اعطاء فكرة الهوية الاسلامية التى تتخطى حدود الوطن الى حدود الأمة، مكانة أقل فى سلم أولويات النهضة. بيد أن نامق كمال قدم أفكاره فى اطار اسلامى اذ قال انه لايسعى الى مجرد تقليد أوربا لأن الحرية والديمقراطية هما التطبيق الصحيح للشورى فى الاسلام، بل انتقد حركة التنظيمات لأنها زادت من النفوذ الاقتصادى للمسيحيين، ودعى الى انشاء مؤسسات اقتصادية اسلامية ودعم التجار المسلمين.(٨٩)

وأخيرا، يمكن الاشارة الى أحمد فارس الشدياق (١٢١٩-١٣٠٤ هجرية، ١٨٠٤-١٨٨٧ م) مفكرا مسيحيا مارونيا لبنانيا اعتنق الاسلام، ونشر كتبا أشهرها كتابه الساق علي الساق فى ماهو الفارياق أو أيام وشهور وأعوام فى عجم العرب والأعجام. وقد تنقل الشدياق بين مصر وفرنسا

وبريطانيا وتونس ثم استقر فى استنابول حيث أصدر بها مجلة كنز الرغائب في منتخبات الجوائب. عاش الشدياق فى أوربا فترة من الزمن وخلص منها فى أحد مقالاته فى مجلة كنز الرغائب الى نتيجة محورية وهى "أن الافرنج هم أجود الناس عقلا وأحدهم ذهنا ،وأصفاهم قريحة وأسلمهم ذوقا وطبعا لأنا نراهم قد اتقنوا جميع الصنائع ...وكل مايمكن للانسان أن يتعاطاه من أسباب المعاش كالحراثة والزراعة والتجارة ونحوها." (٩٠) وأشار بالتحديد الى استعمال الآلة البخارية وماأحدثته من أثر فى التقدم الصناعى الأوربى. وفى كتابه كشف المخبأ عن فنون أوربا رأى أن هناك تقاليد لدى الأوربيين تسمو على مالدى المسلمين والشرقيين عموما، وتمنى أن يستفيد هؤلاء من تلك التقاليد. فقد عرض الشدياق لانضباط السلطة والأفراد فى أوربا، ثم عرض لاستبداد السلطة والأفراد فى بلاد المسلمين وضرب مثلا بما يفعله ناظر المدابغ، والمحتسب، والحاكم، والمطران، والضابط، والشرطى حيث يستطيع أى منهم أن يفعل مايشاء دون رقيب، وقال، "ليت شعرى، متى نصير نحن ولد آدم بشرا كهؤلاء البشر؟ ومتى نعرف الحقوق الواجبة لنا وعلينا؟ أنخال أن يكون معنى التمدن أن يكون الناس فى مدينة وفيها ذئاب وسباع؟."(٩١) ولكن الشدياق لم يكن منبهرا بالافرنج، اذ عاب عليهم بعض تقاليدهم الاجتماعية بل وصفهم "بأنه لم تزل تغلب عليهم حالة التوحش والهمجية مثل أكل الحيوانات القذرة (يقصد الخنزير)، وحلق اللحى، ومفرداتهم اللغوية السقيمة!. (٩٢) وفى مقال آخر له فى مجلة كنز الرغائب في منتخبات الجوائب فى مقال بعنوان "الصنائع" قال ان الأوربيين " فى العقل والفهم دوننا، أما فى الذوق فانهم دوننا بمراحل شاسعة." ولكن المدهش أنه فى الوقت ذاته فان الأوربيين أكثر تقدما فى مجال الصنائع، بل ان المسيحيين واليهود العثمانيين أكثر تقدما من نظرائهم العثمانيين فى هذا المجال. ومن ثم، نصح المسلمين العثمانيين بتعلم فنون الصنائع من أوربا.(٩٣) كما أشار الى قيم الحرية والمساواة بين المواطنين بصرف النظر عن الدين. وفى مقال آخر بعنوان " فى الترتيب والأدب"، دعى المسلمين

الى تعلم قيم الترتيب والانضباط من الأوربيين، فقال، الترتيب يقوم عند الافرنج مقام الأدب . كذلك يقوم الأدب عند سكان البلاد الشرقية مقام الترتيب، وعندى أن الترتيب بلا أدب خير من الأدب بلا ترتيب." (٩٤) ويقصد الشدياق بذلك أنك اذا قصدت الأوربى لقضاء مصلحة فانه يوضح لك بشكل صريح ماذا كان يستطيع أن يقوم بها، أما الشرقى، فانه يحسن استقبالك، ولكنه لايعطيك الا اجابات مراوغة، أو يتهرب منك.

ثالثا: مستوى المفكرين:

ظهر معظم المفكرين الذين قدموا فكرا اسلاميا متكاملا خارج نطاق الدولة العثمانية. وكان فى مقدمتهم جمال الدين الأفغانى، ولحقه ظهور التيار الاصلاحى ومثله محمد عبده، والكواكبى، وعلى عبد الرازق، والتيار الأصولى وعبر عنه محمد رشيد رضا، وحسن البنا، والمودودى. باستثناء الأفغانى ومحمد عبده لم يكن لأى منهم صلة بالدولة العثمانية. بل ان تلك الدولة نكلت بالأفغانى وبالكواكبى. ولم يظهر من المفكرين المسلمين سوى بديع الزمان النورسى، (١٢٩٠-١٣٧٩ هجرية، ١٨٧٣- ١٩٦٠ م) وهو مفكر من أصل كردى ظهر فى مرحلة متأخرة فى النصف الأول من القرن العشرين ." (٩٥) وقد دافع النورسى عن وضع السياسة فى خدمة الدين، فقال فى رسالة وجهها الى الرئيس التركى جلال بايار والذى كان قد انتخب حديثا ممثلا للحزب الديمقراطى، "اننا سعينا لأجل اسعاد هذه الأمة والبلاد بجعل السياسة أداة للدين، وفى وئام معه تجاه أولئك الذن جعلوا السياسة المستبدة أداة للالحاد وعذبونا." (٩٦) كما كان يرى أن الرابطة القومية تتعارض مع الرابطة الاسلامية. قال النورسى أن الحركة الكردية التى تقوم على أساس تمجيد العرق الكردى، تخالف الشريعة الاسلامية، ووصف الأكراد والأتراك بأنهم أبناء وطن واحد تربطهم "أخوة الاسلام." قال النورسى أيضا "نحن مسلمون والأتراك اخواننا، فلا تجعلوا الأخ يقتل أخاه." كما رفض اعتزاز الأتراك بالقومية الطورانية والعرب بالقومية العربية وأكد أن العرب والأتراك هم شركاء فى مسيرة واحدة والقومية المعتبرة عندى هى القومية

القائمة على أساس رابطة الاسلام لا على أساس رابطة الدم والعرق أو الأرض. والقومية لايجب أن تحل محل الإسلام ولكن أن تكون حامية للأخوة الاسلامية".(٩٧) كما كان يرى أن "النظام الاشتراكى والشيوعى يتعارضان مع الطبيعة البشرية. ان الاشتراكية تحطم بعض الأخلاق المقدسة".(٩٨)

ومن ثم يظهر ان مساهمة العثمانيين فى انبعاث الفكر السياسى الاسلامى، وان كانت محدودة أيضا، الا أنها كانت أكبر من مساهماتهم فى بلورة هذا الفكر منذ القرن الخامس عشر. كما أن مساهماتهم فى مجال التنبيه الى ضرورة التعلم من أوربا فاق مساهماتهم المباشرة فى مجال الفكر السياسى. فما هو السبب وراء هذا التغير؟ يمكن تفسير ذلك فى عامل رئيسى هو "صدمة الغرب." فهذه الصدمة سارعت من اضعاف الدولة العثمانية والتى اضطرت الى تبنى الاصلاحات الغربية فى شكل حركة التنظيمات. ومن ثم خفت قبضتها الاستبدادية على المفكرين، مما أدى الى تشجيع المفكرين على التعبير عن آرائهم. فالملاحظ أن معظم المساهمات فى مجال المناداة بالتعلم من أوربا ظهرت فى عصر تراجع الدولة العثمانية وقبولها تطبيق التنظيمات المفروضة عليها بعد هزائمها العسكرية المتتالية. ولكن الدولة لم تتسامح مع ظهور مفكرين يقدمون أفكار سياسية متكاملة مستمدة من الاسلام لأن مثل تلك الأفكار كانت تهدد شرعية الدولة. والدليل على ذلك اغتيال الكواكبى فى القاهرة سنة ١٩٠٢، ومحاولتهم حرق مطبعة مجلة المنار فى القاهرة، والتى كانت تنتقد العثمانيين.

ختام:

كان من المتوقع مع صعود الدولة العثمانية وهيمنتها على العالم العربى معتنقة الاسلام، أن تشهد حركة ازدهار للفكر السياسى الاسلامى تماثل ان لم تتفوق على حركة هذا الفكر فى الدول المملوكية والفارسية (الصفوية والقاجارية). ولكن لم يتحقق هذا التوقع. فما قدمه المفكرون الأتراك بل وغير الأتراك الذين عاشوا فى اطار الدولة كان محدودا، بل ولايرقى أحيانا الى مرتبة أن يصنف كفكر سياسى اسلامى. هذا باستثناءات قليلة مثل

الاقحصارى فى بلاد البوشناق (البوسنة حاليا)، والداوانى فى شرقى الأناضول. ويرجع ذلك الى أن تلك الدولة قد اقتربت من بلاد المسلمين التى استولت عليها من زاوية الغزو العسكرى، كما أنها أقامت نظاما استبداديا أرهب المفكرين. ومثل هذا الاستبداد لم يكن ظاهرة جديدة فى تاريخ الدول الاسلامية المتعاقبة. ولكن ماأدى الى استفحال أثره هو أن الأتراك لم يتقنوا اللغة العربية، وهو أمر ضرورى لتطوير أفكار أصيلة جديدة، وأقاموا حاجزا اجتماعيا بينهم وبين العرب ظل يميزهم طوال وجودهم فى العالم العربى، بل انهم فى أواخر عهدهم ببلاد الشام سعوا الى تتريك العرب. كما أنهم أقاموا حاجزا بينهم وبين أوربا منعهم من الاستفادة من الأفكار الجديدة فى تلك القارة. وعندما تراجعوا عسكريا وفرضت عليهم تلك الأفكار، فانها أدت الى مزيد من التدهور حيث أن الأتراك قبلوا تلك الأفكار على مضض، كما رفضوا أى أفكار اصلاحية أتت من داخل الدولة على نحو مالاقته أفكار خير الدين التونسى من رفض، وأفكار أحمد فارس الشدياق من تجاهل. ولذلك فقد عادت أو تجاهلت كل حركات الانبعاث الفكرى الاسلامى، عدا الحركة السنوسية، الدولة العثمانية. ولم يكن التوافق العثمانى السنوسى توافقا فكريا ولكنه كانت تدفعه اعتبارات مصلحية لدى الدولة واعتبارات عقيدية لدى أحمد الشريف السنوسى. وقد أدى به الولاء للدولة الى تمكين الايطاليين من بلاده والى نفيه منها.

وقد كان ضعف طبقة المفكرين فى الدولة العثمانية من العوامل التى أسهمت فى مزيد من اضعاف الدولة أمام التدخلات الأوربية. ولذلك نلاحظ أنه عندما فرضت التنظيمات على الدولة لم يسمع صوت مفكر يدافع عن المفاهيم الاسلامية فى مواجهة المفاهيم الغربية التى جاءت بها التنظيمات. كذلك فان هذا الضعف كان من العوامل التى سهلت على مصطفى كمال الغاء الدولة والخلافة العثمانية عامى ١٩٢٣، ١٩٢٤ وتحويل الجمهورية التركية الى العلمانية المفرطة، وهى العلمانية التى تقبلها حتى الأحزاب التى تتحدث بحذر عن الاسلام كاطار فكرى، ومنها حزب العدالة والتنمية الحاكم فى

تركيا. فلو قرأنا برنامج الحزب لانجد فيه اشارة واحدة الى الاسلام أو العالم الاسلامى أو المسلمين. ومن ثم يصبح الحديث عن اعـــادة بنـــاء الخلافـــة العثمانية فى تركيا بمثابة واجهة لتحقيق مصالح تركية أكثـــر منـــه تحقيقـــا لنهضة العالم الاسلامى. فليس لدى الأتراك من تراث فكرى أو قدرة عقليـــة على الاضافة الحقيقة الى تراث الفكر السياسى الاسلامى بما ينـــتج أفكـــار جديدة تحقق نهضة هذا العالم.

هوامش البحث

(1) Anthony Black, The History of Islamic Political Thought from the Prophet to the Present, (Cambridge, Cambridge University Press, 2001), pp. 186-189.

(2) The Princeton Encyclopedia of Islamic Political Thought, (Princeton and Oxford, Princeton Univesity Press, 2011), p. xiii.

(3) Tursun Beg, Trnslated by Halil Inalcik and Rhoads Murphey. The History of Mehmed the Conqueror, (Minneapolis : Bibliotheca Islamica, 1978).

(4) " Ebussuud Efendi"
\ https://en.wikipedia.org/wiki/Ebussuud_Efendi

(5) Kınalızade Ali Efendi, Ahlak-i-Alai (Moral-i Alaiye, (Istanbul, Hamur, 2012).

(6) Usuf Unal, Kınalızâde Ali Efendi and Moral-i Alaiye Work Called https://translate.google.ca/translate?hl=en&sl=tr&u=http://www.aksitarih.com/kinalizade-ali-efendi-ve-ahlak-i-alai-adli-eseri.html&prev=search

(٧) فى المزيد عن مساهمات مصطفى علي،
Kasim Ertas ", Glibolulu Mustafa Ali's Lif and Works, ", International Journal of Social Science, 6 (3), March 2013, pp.191-211.

(8) Andereas Tietze, Muststafā 'Ālâ's Counsel for Sultans of 1581; Edition, Translation, Notes, Österreichische Akademie der Wissenschaften; philosophisch-historische Klasse, Denkschriften (Vienna: Verlag der Österreichischen Akademie der Wissenschaften, 1979–1982).

ويمكن التعمق فى دراسة كتاب النصح للسلاطين فى رسالة الماجستير المقدمة الى جامعة ولاية أوهايو عن الكتاب
Trisha Marie Myers, Kitabu Mesalihi l'Muslimin and Cousel for Sultans : Text and Context in the Nasihatname of the Ottoman Empire, 16th -17th c., (Master thesis submitted to Ohio State University, 2011).

(٩) حسن كافى الاقحصارى، تحقيق نوفان رجا الحمود، أصول الحكم في نظام العالم، (عمان، منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٨٦).

(10) The Princeton Encyclopedia of Islamic Political Thought, (Princeton and Oxford, Princeton Univesity Press, 2011), p. xiii.

راجع أيضا

خالد زياده، المسلمون والحداثة الأوربية، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠)، ص ٤٨-٤٩، ٦٥-٦٧.

(١١) عبد الرؤوف المناوى، تحقيق أحمد محمد سالم، الجواهر المضية في بيان الآداب السلطانية، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨).

(12) Jalal al-Din Davani, Akhlaq-i Jalali , (Lahore: Taj Book Depot, n.d.), pp. 259-88.

Bakhtyar Siddiqi, "Jalal Al-Din Dawwani," in H.M.Sharif, A History of Islamic Philosophy, (Wiesbaden, Otto Harrssowitz, Vol. II, 1963), pp. 883-887.

(13) Anthony Black, Op.cit, pp. 184-189.

(١٤) مهند مبيضين، الفكر السياسي الاسلامي والاصلاح، التجربتان العثمانية والايرانية، (بيروت، الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٨)، ص ١٨-٢٨، ٣١.

(١٥) المرجع السابق، ص ٢٢.

(١٦) نللى حنا، ترجمة رؤوف عباس، ثقافة الطبقة الوسطي في مصر العثمانية، (القرن ١٦ -القرن ١٨)، (القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٣)، ص ٢١٥-٢١٦.

(١٧) المرجع السابق، ص ٢٣١.

(١٨) المرجع السابق، ص ٢٥٧.

(١٩) شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمى، الصواعق المحرقة في الرد علي أهل البدع والزندقة، (القاهرة، المطبعة الوهبية البهية، ١٢٩٣).

(٢٠) شهاب الدين أحمد بن محمد بن حجر الهيثمى، تحقيق محمد العواد، الاعلام بقواطع الاسلام، (دمشق، دار التقوى، ٢٠٠٨).

(٢١) محمد صبرى الدالى، "مصر وبلاد فارس فى العصر الحديث، دراسة فى الصلات ومشاكلها من أوائل القرن السادس عشر وحتى أوائل القرن التاسع عشر، فى محمد صبرى الدالى، فقهاء وفقراء، اتجاهات فكرية وسياسية في مصر العثمانية، (القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، سلسلة مصر النهضة، ٢٠١٠)، ص ٢٧٧-٢٧٨.

(22) Madeline Zilfi, The Politics of Piety: The Ottoman Ulema in the Post-colonial Age, 1600-1800, (Minneapolis, Bibliootheca Islamica, 1988), p. 44.

(٢٣) مقدمة رفيق العجم لكتاب محيى الدين محمد بن بهاء الدين، المرجع السابق، ص ٥.

(٢٤) جورجى زيدان، تحقيق محمد حرب، مصر العثمانية،(القاهرة، دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال رقم ٥١٧، أبريل سنة ١٩٩٧).

(٢٥) نبيل راغب، مسارات الثقافة المصرية عبر العصور، (القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠١٤)، ص ٧٠.

(٢٦) ناصر عبد الله عثمان، قبل أن يأتي الغرب، الحركة العلمية في مصر في القرن انسابع عشر، (القاهرة، دار الكتب والقومية، سلسلة مصر النهضة، العدد رقم ٦٥، الطبعة الثانية، ٢٠١٢)، ص ١٣.

(٢٧) المرجع السابق، ص ٢٩٣.

(٢٨) شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجى، طراز المجالس، (القاهرة، مطبعة بولاق، دون تاريخ)، ص ٧٧.

(٢٩) محمد صبرى الدالى، "النقد والرفض عند علماء مصر فى القرن السابع عشر، شهاب الدين الخفاجى نموذجا،" فى محمد صبرى الدالى، فقهاء وفقراء، اتجاهات فكرية وسياسية فى مصر العثمانية، (القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، سلسلة نهضة مصر، ٢٠١٠)، ص ٩٣-١٣٥.

(٣٠) محمد صبرى الدالى، الخطاب السياسي الصوفي في مصر، قراءة في خطاب عبد الوهاب الشعراني للسلطة والمجتمع، (القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، سلسلة نهضة مصر رقم ٥٥، ٢٠١١)، ص ١٧٥.

(٣١) المرجع السابق، ص ١٧٩.

(٣٢) المرجع السابق، ص ١٧٢، ١٨٧، ٢٦٥.

(٣٣) المرجع السابق، ص ١٧٥.

(٣٤) عبد الوهاب الشعرانى، درر الغواص على فتاوى سيدى على الخواص، (القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، دون تاريخ).

(٣٥) عبد الوهاب الشعرانى، تحقيق عبد الرحمن عميرة، كتاب الميزان، (بيروت، عالم الكتب،الجزء الثالث ١٩٨٩)، ص ٣٦٦-٣٧٠.

(٣٦) محمد عماره، تيارات اليقظة الاسلامية الحديثة، (القاهرة، دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال رقم ٣٨٠، أغسطس سنة ١٩٨٢)، ص ١١-١٣.

(٣٧) المرجع السابق، ص ١٤.

(٣٨) نجم الدين ابراهيم بن على الطرسوسى، تحقيق عبد الكريم الحمدانى، تحفة الترك فيما يجب أن يعمل به في الملك، (دمشق، دار الحق، ٢٠٠٠).

(٣٩) محمد بن محمد بن خليل الأسدى، تحقيق عبد القادر طليمات، التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار/ (القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٦٨).

(٤٠) بدر الدين العينى، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، شيخ المحمودى، (القاهرة، دار اكتب والوثائق القومية، ١٩٩٨).

(٤١) ابو الفضل الأعرج، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، تحرير السلوك في تدبير الملوك، (القاهرة، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٢).

(٤٢) نبيل راغب، المرجع السابق، ص ٦٦-٧٠.

أما نص كتاب المقريزى فهو،

تقى الدين المقريزى، تحقيق حسين مؤنس، النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، (القاهرة، دار المعارف، دون تاريخ، سلسلة ذخائر العرب رقم ٦٢).

وللمقريزى أيضا كتاب، تحقيق محمد عبد القادر عطا، السلوك لمعرفة دول الملوك، بيروت، دار الكتب العلمية، الجزء الأول حتى الجزء الثامن، ١٩٩٧).

(٤٣) أحمد الكاتب، تطور الفكر السياسي الشيعي، من الشورى الى ولاية الفقيه، (بيروت، دار الجديد، ١٩٩٨)، ص ٣٨١.

(٤٤) على الكركى، جامع المقاصد في شرح القواعد، (قم، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لاحياء االتراث، الجزء الثالث، دون تاريخ)، ص ٣٦٥.

(٤٥) المرجع السابق، ص ٤٨٩.

(٤٦) المرجع السابق، ص ٣٧٥.

(٤٧) محمد أمين الاسترابادى، والسيد نور الدين العاملى، تحقيق رحمة الله الأراكى، الفوائد المدنية، والشواهد المكية، (قم، مؤسسة النشر الاسلامى،١٤٢٤ هجرية)، ص ٢٥٤-٢٥٩.

المجلد السالف يتضمن كتابى الاسترابادى ونور الدين العاملى.

(٤٨) محمد بن الحسن بن على الحر العاملى، تفصيل وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة، (قم، مؤسسة آل البيت لاحياء التراث، ١٤١٤ هجرية) ، الجزء ٣٠، ص ٢١٠.

كذلك راجع، وجيه كوثرانى، السلطان والفقيه، المرجع

السابق، ص ١٦٢-١٧٠

(٤٩) محمد باقر المجلسى، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، (قم، احياء الكتب الاسلامية، الجزآن الأول والثانى، دون تاريخ)، ص ٥٩، ١٩٤، ٢٤٥.

(٥٠) الوحيد البهبهانى، الفوائد الحائرية، (قم، مجمع الفكر الاسلامى، ١٤١٥ هجرية).

(٥١) الوحيد البهبهانى، تحقيق مؤسسة العلامة المجدد الوحيد البهبهانى، الرسائل الفقهية، (قم، مؤسسة العلامة المجدد الوحيد البهبهانى، ١٤١٩ هجرية).

(٥٢) جعفر كاشف الغطاء، كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء، (أصفهان، انتشارات مهدوى، دون تايخ، الجزء الثانى)، ص ٣٤٢.

(٥٣) المرجع السابق، ص ٣٤٢

(٥٤) جعفر كاشف الغطاء، تحقيق مركز الاعلام الاسلامى فرع خراسان، كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء، (قم، دفتر تبليغات اسلامى، حوزة علمية مركز انتشارات، الجزء الأول، ١٣٧٩ هجرية)، ص ٢٤.

(٥٥) المرجع السابق، ص ٢٥.

(٥٦) جعفر كاشف الغطاء، الجزء الثانى، المرجع السابق، ص ٣٩٢.

(٥٧) آية الله النراقى، عوائد الأيام في بيان قواعد الأحكام ومهمات مسائل الحلال والحرام، (شبكة الامامين الحسنين للتراث والفكر الاسلامى)، ص ١٨٩

(٥٨) المرجع السابق، ص ١٨٩

(٥٩) المرجع السابق، ص ٢٢٩

(٦٠) المرجع السابق، ص ١٨٩- ١٩٠.

(٦١) المرجع السابق، ص ١٩٠.

(٦٢) محمد رضا الموسوي الگلپايگاني ، مختصر الأحكام، (قم، دار القرآن الكريم، دون تاريخ)، ص ١٠٠.

(٦٣) أحمد الكاتب، المرجع السابق، ص ٤٣٢.

(٦٤) مرتضى الأنصارى، تحقيق لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم، كتاب المكاسب،، قم، المؤتمر العالمى بمناسبة الذكرى المئوية الثانية لميلاد الشيخ الأنصارى، ١٤١٧ هجرية، الجزء الثانى)، ص ٢١٨-٢١٩.

(٦٥) مرتضى الأنصارى، تحقيق لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم، كتاب المكاسب، (قم، المؤتمر العالمى بمناسبة الذكرى المئوية الثانية لميلاد الشيخ الأنصارى،

الجزء الثالث، ١٤٢٠ هجرية) ، ص ٥٥٢.

(٦٦) جعفر عبد الرزاق، الدستور والبرلمان في الفكر السياسي الشيعي (١٩٠٥-١٩٢٠)، (دون مكان نشر_ مؤسسة الأعراف للنشر، دون تاريخ)، ص ٣٤

(٦٧) نقلا عن وجيه كوثرانى، السلطان والفقيه، (القاهره، المركز العربى الدولى للنشر والترجمة، ١٩٩٠)، ص ١٨٦-١٩٣.

وراجع فى شرح الفكر السياسى للنراقى، مهند مبيضين،، الفكر السياسي الاسلامي والاصلاح، التجربتان العثمانية والايرانية، (بيروت، الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٨)، ص ٩٩-١٠٥.

(٦٨) جعفر عبد الرزاق، المرجع السابق، ص ٤٢-٥٢.

(٦٩) راجع جورجى زيدان، المصدر السابق، ص ٩٠-٩٤.

عندما بدأ سليم الأول فى التحضير لغزو الشام ومصر سنة ١٥١٦ أرسل له قنصوه الغورى، سلطان المماليك فى الشام ومصر، رسالة يتساءل فيها عن سبب الحشد العثمانى ويذكره يذكره "بأننا والحمد لله من سلاطين أهل الاسلام وتحت حكمنا مسلمون موحدون". فرد سليم الأول بأنه لمك يخطر بباله طمع فى أحد سلاطين المسلمين وفى مملكته لأن الشرع ينهى عن ذلك." ولكن سليم الول استصدر فتوى من قاشى عسكر الأناضول كما باشا زاده تقول" ان القرآن الكريم ينص على آية تقول "الأرض يرثها عبادى الصالحون"، وأن المقصود بالأرض هو مصر، والصالحون هم العثمانيون، وأيد مفتى الآستانة تلك الفتوى وأيد غزو مصر وأضاف لأن "أهلها قطاع طرق، والقتال ضدهم جهاد، والمقتول فى الغزوة شهيد." وهكذا تسلم سليم الأول بالفتوى وغزا الشام وقتل قنصوه الغورى ثم غزا مصر وقتل طومانباى (الذى خلف الغورى فى حكم الشام ومصر). ويروى ابن اياس ان سليم الأول استباح مصر حيث عاث جنوده فيها فسادا وتدميرا حيث "صارت جثث المصريين مرمية عند باب زويلة الى الرميلة الى الصليبية فوق العشرة آلاف انسان ثم أحرقوا جامع شيخون."

رفعت السعيد، أزمة الفكر العربي الاسلامي، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨)، ص ٨٨-٩٠

وراجع تفاصيل الدمار الذى أحدثه العثمانيون فى مصر

محمد بن أحمد ابن اياس الحنفى المصرى، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (القاهرة،

مطابع الشعب، ١٩٦٠، الجزء الثالث).

ويضيف ابن اياس أنه أثناء "اقامة ابن عثمان بمصر (ثمانية أشهر الا أياما) لم يجلس بقلعة الجبل على سرير الملك جلوسا عاما ولارآه أحدن ولاأنصف مظلوما من ظالم فى محاكمته، بل كان مشغولا بلذته وسكره، واقامته فى المقياس بين الصبيان المرد، ويجعل الحكم لوزرائه بما يختارونهن فكان ابن عثمان لايظهر الا عند سفك دماء المماليك الجراكسة، وماكان له أمان اذا أعطاه لأحد من الناس وليس له قول ولافعلن وكلامه ناقص ومنقوص لايثبت على قول واحد كعادة الملوك فى أفعالهم.

محمد ابن أحمد ابن اياس الحنفى المصري، المرجع السابق، الجزء الخامس، ص ٢٠٦-٢٠٨.

(٧٠) رؤوف عباس، "اشكالية التخلف الحضارى عند شكيب ارسلان،" مصر الحديثة، (القاهرة)، ١، ٢٠٠٢، ص ٣٥١-٣٥٢.

(٧١) محمود السيد دغيم، المرجع السابق.

(٧٢) عقيل يوسف عيدان، شؤم الفلسفة، الحرب ضد الفلاسفة في الاسلام، (القاهرة، دار العين للنشر، ٢٠١٠)، ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٧٣) رؤوف عباس حامد، كتابة تاريخ مصر، الى أين؟ (القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٩)، ص ٨٨-٨٩.

(٧٤) نص الرسالة فى

نعوم شقير، تحقيق محمد ابراهيم أبو سليم، تاريخ السودان، (بيروت، دار الجيل، ١٩٨١)، ص ٣٤٤.

(٧٥) نص الرسالة فى نعوم شقير، تحقيق محمد ابراهيم أبو سليم، تاريخ السودان، (بيروت، دار الجيل، ١٩٨١)، ص ٦١١.

(٧٦) المرجع السابق، ص ٦٩٠.

(٧٧) جاء ذلك فى رسالة من عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ الى فيصل بن تركى حيث خاطبه بأنه "امام المسلمين وخليفة سيد المرسلين.".

عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، مسائل وفتاوى، منشور ضمن كتاب

محمد بن عبد الوهاب، الجواهر المضية، (القاهرة، مطبعة المنار بمصر، ١٣٤٩ هجرية)، ص ٣٧٩.

(78) K.A.Nizami, Sayyid Ahmad Khan,(New Delhi, Minsitry of Information and Broadcasting, Government of India, 2002), pp.119-

120..

(79) Mustnasir Mir, Iqbal, Poet and Thinker, (Youngstown, USA, Youngstown State University, n.d.), 119.

(٨٠) على محمد الصلابى، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا، الامام محمد بن علي السنوسي ومنهجه في التأسيس، (الشارقة، مكتبة الصحابة، الجزء الأول، ٢٠٠١)، ص ٥٤-٥٥.

(٨١) على محمد الصلابى، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا، سيرة الزعيمين محمد المهدى السنوسي وأحمد الشريف، (الشارقة، مكتبة الصحابة، الجزء الثانى، ٢٠٠١)، ص ٣٥٠.-٣٥١.

(٨٢) المرجع السابق، ص ٣٥٠.

(٨٣) المرجع السابق، ص ٣٨٣

(٨٤) خير الدين التونسى، أقدم المسالك في معرفة أحوال الممالك، (تونس، مطبعة الدولة، ١٢٨٣ هجرية)، ص ٦، ١٢. هذه النسخة تم اعادة طبعها تحت مسمى

(٨٥) المرجع السابق، ص ١٤-١٦.

(٨٦) المرجع السابق، ص ١٧.

(٨٧) المرجع السابق، ص١١٦-١٢٠، ١٢٨.

(٨٨) المرجع السابق، ص ١٨، ٦١.

(٨٩) محمد عصفور سليمان، "العثمانيون الجدد، أفكارهم الاصلاحية ودور نامق كمال فى بلورتها،" مجلة ديالي، ٤٩، ٢٠١١

(٩٠) أحمد فارس الشدياق، تجميع سليم فارس، من مقالة غير معنونة، مجلة كنز الرغائب في منتخبات الجوائب، (الآستانة)، مطبعة الجوائب بالآستانة العلية، ١٢٩٥ هجرية– المجلد الأول، ص ٢٤٨.

(٩١) أحمد فارس الشدياق، كشف المخبأ عن فنون أوربا، (القاهرة، هنداوى، ٢٠١٢)، ص ٩٩.

(٩٢) أحمد فارس الشدياق، تجميع سليم فارس، من مقال غير معنون مجلة كنز الرغائب في منتخبات الجوائب، (الآستانة)، المرجع السابق، ص ٢٤٩.

(٩٣) المرجع السابق، ص ١٤٩-١٥١.

(٩٤) أحمد فارس الشدياق، تجميع سليم فارس، من مقال، "قصة السائح"، مجلة كنز الرغائب في منتخبات الجوائب، (الآستانة)، مطبعة الجوائب بالآستانة العلية،

١٢٩٥ هجرية ــ المجلد الأول، ص ١٧٤.

(٩٥) محمد البشير الابراهيمى، تجميع أحمد طالب الابراهيى، آثار الامام محمد البشير الابراهيمي، (بيروت، دار الغرب الاسلامى، ١٩٩٧، الطبعة الأولى، الجزء الثالث)، ص ١٠٨.

(٩٦) شكران واحدة، ترجمة محمد فاضل، الاسلام في تركيا الحديثة: بديع الزمان النورسي، (بدون بيانات)، ص ٤٥٢.

(٩٧) محمد عوض الهزايمة، "الشيخ بديع الزمان سعيد النورسى، مفكر سياسى" المجلة الأردنية للعلوم التطبيقية، (الأردن)، ١٠ (١)، ٢٠٠٧، ص ١٦٦-١٦٧.

(٩٨) المرجع السابق، ص ١٦٥.

" سياحتنامة مصر" (١٦٧٢ – ١٦٨٠)
قراءة نقدية لأبعاد الخطاب العثماني[*]

د. ناصر أحمد إبراهيم
كلية الآداب – جامعة القاهرة

تحاول هذه الدراسة الكشف عن أبعاد الخطاب العثماني، وأهم ملامحه في المجلد العاشر من كتاب "سياحتنامة مصر" الذي كتبه الرحالة التركي الشهير أوليا جلبي (1611-١682)[١] واضعاً به خلاصة خبرته بأدب الرحلة والترحال فى عالم الإمبراطورية العثمانية، حيث أنفق من عمره قرابة نصف قرن (٣٠ – ١٦٨٠) قضاها بين السياحة والترحال، وسجل تجربته السياحية والأدبية فى كتاب من عشرة مجلدات ضخمة، حملت عنوان "سياحتنامة". والحقيقة أن السفر والكتابة عن رحلاته مثَّلا الهدف الرئيس لحياته كلها. وقد استوقفته مصر طويلاً لتمثل المحطة الأخيرة في رحلاته (بين عامي ١٦٧٢- 16)؛ حيث انكب على اكتشافها، ومعرفة أحوالها عبر فضاء الأمكنة، وحركة البشر، ورصد عادات وتقاليد وممارسات ثقافية فى حقول جد متنوعة كالدين والتصوف والسياسة والأدب والآثار، وما تعلق بأدب الحكايات والغرائب والعجائب التى سمعها، وآمن بها، وراق له تسجيلها في مدوناته.

وتروم هذه الدراسة تقديم قراءة نقدية لنصوص المجلد العاشر "سياحتنامة مصر" الذي يعنينا هنا دراسته بشكل خاص؛ بحثاً عنْ الصورة التى رسمها لحقيقة ما تمثله مصر والمصريون فى الذهنية العثمانية. وقد لاحظت بعض الدراسات الحديثة أن غالبية كُتَّاب القرن السابع عشر، بمن

---

[*] مجلة المؤرخ المصرى، عدد يوليو ٢٠١٥

في ذلك كُتّاب الأخبار، كانوا يكتفون بإتباع التقاليد السابقة في الكتابة عن الدولة العثمانية ككيان قوي لا يمس، وذلك انطلاقاً من فكرة "مركزية استانبول العاصمة " التى تحكم عالماً متسع الأرجاء، كما تتضمن مفهوم أن الدولة العثمانية نفسها تجسد بنيان إمبراطورية قوية غير مسبوقة فى التاريخ، ووفقاً لهذا المنظور كان لا يُسمح للكُتَّاب – نظرياً – بتجاوز فكرة " الدولة العلية "؛ فالدولة ليست محلاً للتساؤل، أو التفكير فى نقد سياستها، أو تراجع مستوى قوتها الضاربة؛ وهو ما يتطلب بطريقة أو بأخرى عدم الإعلاء من شأن الآخر (التابع)، أو حتى الإطراء على إنجازات حضارية ما حققها الخصم أو العدو الواقع خارج حدود الدولة[٢]. هذه الأفكار النظرية شكلت في المجمل إطاراً محدداً أمام الكُتَّاب العثمانيين للحيلولة دون الخوض في طرح أية مراجعات حول هذه المسألة.

والسؤال الإشكالي هنا- إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن أوليا جلبي كان يمثل شريحة معينة فى النخبة المثقفة المنتمية للبلاط العثماني- إلى أي حد تأثر صاحبنا بهذا المنظور السائد بين كُتّـاب القرن السابع عشر، وما درجة انعكاس مثل هذه الأفكار على صياغته لنص "سياحتنامة مصر"؟ إن طرح هذا السؤال يقودنا في الحقيقة إلى محاولة فهم ما إذا كان أوليا جلبي قد بنى تصوره عن مصر، وحياة أهلها انطلاقاً من رؤيته الفردية كمراقب لواقع عاينه بنفسه لسنوات طوال، متجاوزاً تلك الضوابط الشائعة لدى النخبة العثمانية، أم أن الرؤية الرسمية بحدودها وثوابتها قد فرضت نفسها عليه، ولم يستطع الفكاك من إسارها، فبدت كتابته معبرة عن التزام واضح بهذا الإطار المقيد نظرياً، وبالأفكار التى يجري الترويج لها بطريقة أو بأخرى؟ أم أن كتابه فى الأخير جاء ترجمةً لمقاربة من نوع خاص جمعت بمستويات مختلفة بين التعبير بحرية تامة عن تجربة هذا الرحالة، ورؤيته الواقعية، وبين الالتزام المقيد بالمنظور الرسمي للدولة العلية ؟ وبعبارة موجزة هل سياحتنامة مصر تمت صياغته كنص وصفي ينتمي إلى التقارير الواقعية المنطلقة من "خطاب الحقيقة"، أم حمل في مضمونه "

خطاباً عثمانياً " له أبعاد معينة وسمات واضحة ؟ وهذا هو السؤال الرئيس لهذه الدراسة.

سياحتنامة مصر نمطاً للكتابة التقريرية

استغرقت رحلة أوليا جلبي بمصر قرابة عقد من الزمان (١٦٧٢ - ١٦٨٠)، وكانت مصر نهاية أسفاره وخاتمة حياته؛ حيث توفى بعد إتمام رحلته بها فى عام ١٦٨٢. وإذا كانت أسفاره، عبر ثلاثٍ وعشرين دولة، داخل حدود الدولة العثمانية وخارجها قد استُوعِبَت في عشرة مجلدات[٣] ، فإن مما له دلالته ومغزاه تخصيصه لمصر - وحدها - مجلداً كاملاً تجاوز الألف صفحة، هو المجلد العاشر من هذه الموسوعة التي تعد أهم مصادر أدب الرحلات على مستوى الحقبة العثمانية كلها. وليس ثمة مبالغة بالقياس إلى ما تضمنه المجلد العاشر من تفاصيل ثرية طالت أنماطاً مختلفة من حركة الحياة الثقافية والاجتماعية فى مصر في القرن السابع عشر أن يكون هذا المصدر موضوعاً للمقاربة مع ما رصدته بعد قرن ونصف القرن ريشة المستشرق الإنجليزي، إدوارد وليم لين، في كتابه الكلاسيكي الشهير"عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم"[٤] (المنشور في عام ١٨٣٦)؛ والذي نال اهتماماً ملحوظاً بدراسته ونقده[٥] ، فضلاً عن استخدامه على نطاق واسع داخل أوساط الأكاديميين المتخصصين وخارجها، فى حين لم يحظ نظيره " سياحتنامة مصر" بذات المقاربة والاهتمام.

وعلاوة على ذلك ينطوي كتاب "سياحتنامة مصر"، كمصدر أدبي، على أهمية خاصة، وربما استثنائية، ففي الحقيقة لم يصلنا من أدبيات الرحلة (العثمانية) سوى القليل، وذلك مقارنة بالرحلات التى قام بها رحالة مسلمون من كل مكان من خارج المركز العثماني[٦]، أو رحلات نظرائهم الأوربيين العصية على الحصر[٧]. وبالرغم من أهمية رحلة أوليا جلبي، وما فاقت به غيرها، إلا أنه لم يكن أول رحالة عثماني شق طريقه إلى مصر؛ فقد سبقه الرحالة مصطفى علي (١٥٤١ - ١٦٠٠) [٨] الذي زار مصر المحروسة مرتين؛ الأولى في عام ١٥٦٨، والثانية فى عام ١٥٩٩، ووضع

خلاصة ملاحظاته وتعليقاته في كتابه تحت عنوان "حالات القاهرة من العادات الظاهرة "[٩]. وبعد أن وضع أوليا جلبي كتابه سياحتنامة في مطلع ثمانينيات القرن السابع عشر انقطع تقريباً مجيء الرحالة العثمانيين المهتمين بأدب الرحلة، ووصف مصر لمدة قرنين حتى نشر خالد ضياء الدين تقريره عن رحلته إلى مصر، وذكرياته المصورة فيها نحو عام ١٩٠٩ مستخدماً آلة التصوير الحديثة، حيث أفسح للصورة الفوتوغرافية مساحة أكبر من التحليل الوصفي المعتاد[١٠]. ولعل إجراء أية مقاربة بين نصوص تلك الأدبيات التي خلَّفها الرحالة العثمانيون القلائل تُظهر تفوق نص كتاب سياحتنامة مصر وتميزه سواءً على مستوى الرصد والتفاصيل، أو من ناحية شمولية المعلومات وغناها، والتي بلورت صورة دينامية اتسمت بقدر واسع من التنوع والثراء لطبيعة الحياة فى قاهرة مصر المحروسة.

ومن المؤكد أن طول المدة الزمنية التي قضاها أوليا جلبي بالقاهرة كان لها انعكاسها في تفوق هذا الرحالة على نفسه؛ فقد وفرت له الوقت الكافي للتعرف على مساحات عريضة من الثقافة السائدة وتأملها، والاقتراب من ملامسة أفكار وسلوكيات مجموعات اجتماعية متباينة من شرائح المجتمع المصري، وتحليل بعض ممارساتها سواءً المرتبطة بالدين والتصوف، أم بقيم ثقافية متجذرة فى الواقع الاجتماعي، كما منحته مدة إقامته الفرصة لبناء عمله بطريقة متماسكة عبرت عن فكره واعتقاداته أكثر من تقديمها صورة لواقع مصر، كما عاينها، علاوة على إنتاج تفسيرات معينة، وطرح بعض الآراء والانتقادات المختلفة.

وبالمقارنة ليس ثمة من تمتع بإقامة طويلة بالقاهرة من بين رحالة القرن السابع عشر، على الأقل، مثلما توافر لأوليا جلبي؛ فالرحالة الأوربيون، على سبيل المثال، كانت مدة رحلتهم إلى مصر، فى الغالب، تستغرق بضعة شهور أو عام، وقلما استغرقت الزيارة عدة أعوام متصلة. وثمة رحلات عديدة تزامنت مع فترة وجود أوليا جلبي بالقاهرة خلال عقد

السبعينيات، وبداهة تباينت فى أهميتها، وزوايا الرؤية، ونوعية الخطاب (الاستشراقي)، وطريقة وعمق التفسيرات المطروحة بها، ومن حسن الحظ أن عدداً منها وجد طريقه للنشر، منها- على سبيل المثال- تقرير الرحالة الألماني جوفي ميكيله فانسليب (١٦٧٢)[١١]، وتقرير الطبيب الإنجليزي " إدوارد براون "[١٢] Edward Brown (طبيب الملك شارل الثاني، ورئيس مجلس الأطباء بلندن) الذي زار مصر، وقضى بها عامين كاملين (بين يناير ١٦٧٣ وديسمبر ١٦٧٤)، وقرب نهاية فترة أوليا جلبي جاء إلى مصر الرحالة " إليس فيريارد" Ellis Veryard (عام ١٦٧٨)[١٣]. وتمثل هذه الكتابات الأدبية، في مجملها، مصدراً للتاريخ الثقافي والسياسي لمصر خلال حقبة السبعينيات نفسها.

بيد أن ما ميز نص سياحتنامة مصر، بالمقاربة مع تلك الأدبيات، ليس حجم التقرير المطول، على أهميته، ولا غزارة المعلومات، ودقة التفاصيل الواقعية، أو حتى ما تجاوز منها حدود الواقع، وإنما ما طرحته ذهنيته من تفسيرات وتصورات اتسمت بالبعد الشعبي، وهو ما أضفى عليها مذاقاً خاصاً؛ إذ اتسمت، في كثير من مواضعها، بمسحة أسطورية جراء اعتماده على كثير من الحكايات الشفاهية السائدة، ورصده الحكايات المختبئة فى ذاكرة المصريين، وما خالطها من خرافات وغرائب ونوادر، حرص على استقصاء رواياتها وتسجيلها كما سمعها، وتهيئة إدراجها فى نسيج مدوناته ، لتأخذ موضعها فى السياق التاريخي ، وهو ما جعل نص كتابه يُشكل بالفعل أحد مصادر التاريخ الثقافي لمصر القرن الـ ١٧م من " منظور شعبي " .

ولما كان أوليا جلبي قد حل بمصر برعاية من السلطة المركزية، فضلًا عن صلاته الوطيدة بالنخبة المتصلة بالقصر السلطاني[١٤]؛ حيث كان أبوه يشغل منصب رئيس صاغة القصر[١٥]، فضلاً عن تكليفه ببعض المهمات الرسمية الخاصة خلال ترحاله بين مصر وبلاد السودان والحبشة، فقد مكنه ذلك على ما يبدو من الحصول على عدة تسهيلات ربما لم تتيسر

لغيره، وأهمها بالطبع تذليل اطلاعه على الدفاتر والسجلات الديوانية الأصلية[١٦]، ينقل منها ما يشاء، حيث مكَّنه ذلك من تدعيم معلوماته بسيل من البيانات المهمة التي يعد هو أول من استخدمها بشكل مكثف في عمل أدبي، والتي يصعب الحصول على معظمها في مصادر تاريخية مشابهة، وهو ما جعل نص كتابه يتجاوز، بكل تأكيد، حدود " أدب الرحلة العابر" الذي لمسناه- على سبيل المثال- عند كل من نظيريه؛ السابق عليه مصطفى علي، أو اللاحق له خالد ضياء الدين، فلقد ضَمَّن أوليا جلبي كتابه ثروة من التفاصيل، وعدداً كبيراً من البيانات الإحصائية، إلى جانب تعليقاته المتلاحقة التي لم يتردد فى كتابتها إزاء كل ما أثار انتقاداته المختلفة، والتى تحولت بالفعل إلى جزء مهم في نسيج النص ليتجاوز مرة أخرى دوره كمراقب مدقق إلى لعب دور شبيه بالمراقب النقدي.

وتأسيسًا على ذلك فنحن أمام نمط أقرب إلى الكتابة التقريرية الممزوجة بالتفسيرات الشعبية، ورصد الوقائع والتفاصيل الدقيقة عن كل شيء يمكن للمرء أن يصادفه، أو يثير انتقاداته هنا أو هناك. وبلاشك فإن تجميع تلك الانتقادات والتعليقات المختلفة، وتحليلها في سياقاتها المختلفة، يمكن أن يكشف عن شخصية الراوي (صاحب الرحلة)، وتحديد بعض مواقفه وتمثيلاته العاكسة لأفكاره الخاصة، والتي نحاول هنا ربطها بالسؤال المحوري المطروح آنفاً حول ما تعنيه مصر والمصريون في مخيلته بصفة خاصة، وما تمثله لدى نخبة المثقفين العثمانيين على وجه العموم، وهذا هو أحد الرهانات الأساسية في هذه الدراسة.

اكتشاف مهمة وميلاد مشروع كتاب "سياحتنامة مصر"

من المعروف أن أوليا جلبي، بعد مرور أكثر من ثلاثة عقود من الترحال، كان قد قرر زيارة مصر في أعقاب أدائه لفريضة الحج ، ويبدو أنه كان عازماً على ذلك منذ خروجه من استانبول؛ فما أن انتهى من أداء الشعائر حتى التحق بركب قافلة الحج المصري، وحُمِلَ برسائل خاصة ليسلمها إلى والي مصر إبراهيم باشا[١٧]، ولدى وصول قافلة الحج المصري

إلى العادلية، عند مدخل القاهرة، كان وزير مصر فـــى اســـتقبال القافلـــة، والتقى بأوليا جلبي ضمن من التقى بهم من " الخاصة الكبـــار "، وأحســـن استقباله وتكريمه بشكل خاص- باعتباره من "خاصة البلاط العثمـــاني"-، وظهر ذلك جلياً مما أبداه هذا الوزير من رعاية وحفاوة بأوليا جلبي؛ فقـــد عهد إبراهيم باشا إلى مجموعة الأغوات من خاصته باصطحابه، وجعله فى خيمة مجاورة لخيمته حتى دخوله القاهرة، كما وفر له كامـــل احتياجاتـــه الأساسية ، وزوده بمبالغ مالية معتبرة، وسُمِحَ له بالتردد على ديوان مجلسه الخاص حتى بات معروفاً لدى الكثيرين بأنه "من طبقة الندماء الخواص"[١٨] . وتتمثل دلالة تفاصيل مجيئه إلى مصر، والاحتفاء به على هذا النحو فى اقترابه من دائرة السلطة، وتداخله مع كبار المسئولين، وهو أمر ســـاعده- فيما بعد- على الالتقاء بكبار موظفي المالية والشئون الإدارية الذين سوف يشكلون بالنسبة له مصدراً مهماً لكثير من المعلومات.

بيد أن أوليا جلبي لم يكن عازماً على البقاء فى مصر لثماني سنوات، حيث اعتبرت بالمقاربة أطول مدة قضاها في زيارة ولايـــة واحـــدة مـــن الولايات التابعة للدولة العثمانية، لكن فيما يبدو شكلت حالة مصر نفســـها، والظرف التاريخي المتعلق بعملية الإصلاح المالى والإداري، وأهمية هـــذا الظرف نفسه بالنسبة لاستانبول المتطلعة إلى الإلمام بدقائق الأمور، ومـــا يجري من تطورات، دافعيته للبقاء والمتابعة من أجل كشف مسار الأحداث وتعقيداتها فى الولاية المصرية، عـــلاوة علـــى تجشـــمه عنـــاء البحـــث والاصطدام ببعض الصعوبات المتعلقة بفهم الطبيعة المعقدة للنظام المالي، وما يكتنفه من غموض، مما اقتضى منه ضرورة إنفاق كل تلك الســـنوات في سبيل تدقيق مصادر معلوماته[١٩]، فقد كان أول أهدافه، ولا ريب، جعـــل تقريره عن الرحلة مصدراً معرفياً يمكن للمسئولين فى استانبول الوثوق به، والاعتماد عليه، ولذا نجده فى كثير من المواضع يخاطب السلطان العثماني تارة، وتارة أخرى يوجه نصائحه لكبار المسئولين وللـــوزراء الباشـــوات الذين يجرى تكليفهم بولاية مصر[٢٠].

وكان أوليا جلبي قد تابع عن كثب، بحكم قربه من صناع القرار باستانبول، مدى الترحاب الذي استُقبلَت به إصلاحات إبراهيم باشا[٢١] ، وخصوصًا أنه تمكن من معالجة الخلل فى الموازنة، وحقق فائضاً نوعياً غير مسبوق لصالح الخزينة السلطانية التى كانت مهددة فى السابق بتراجع عائداتها، فأمكنه معالجة الخلل، وزيادة إيراداتها التى تضاعفت بفضل ترتيباته من ١٥ مليون بارة إلى ٣٠ مليون بارة ! [٢٢]، وكان قد أرسل تلك الأموال مشفوعة ببعض التقارير والملخصات التى اهتمت بها الإدارة أيما اهتمام، ولم يغرب عن ذهنية أوليا جلبي دلالة هذه التجربة الإصلاحية التى ما فتيء يشيد بها[٢٣]، ويذكرها فى مواضع عدة من كتابه[٢٤]، وهو بصدد رصد التطورات المتلاحقة، حيث أدرك أوليا جلبي أنه بصدد لحظة استثنائية تزيد من أهمية ما يرصده بشأنها؛ فقد لاحظ تحرك كبار قادة العسكر في اتجاه إعاقة مسار عملية الإصلاح بعد رحيل الوزير إبراهيم باشا، بل وتهديد استمراريتها ككل؛ فقد قام هؤلاء القادة بممارسة ضغوطهم على الباشوات الذين توالوا على حكم مصر طيلة عقد السبعينيات، وأعاقوا جهودهم فى المضي في تنفيذ الإصلاح[٢٥]، ونجحوا من جديد فى استئصال ما يقرب من سبعة ملايين من إجمالي عائد الخزينة، لتصب، كما في السابق، فى جيوب أمراء المماليك، وقادة أوجاقي الانكشارية والعزب[٢٦]، وازداد الموقف خطورة وتعقيداً بعد تدبير حادثة "حرق الدفاتر الديوانية" !، والتعرض لبعض الشخصيات العاملة فى الإدارة المالية بالقتل لأقل شبهة تثار حول تورطهم فى إحاطة استانبول بما يجري من ممارسات احتكارية، أو بما يجري من إعادة تقنين لاستقطاعات مالية كبيرة[٢٧] تركت آثارها سلبياً، من جديد، على عائد الخزينة السلطانية.

ومن هنا أدرك أوليا جلبي أن القدر ساقه إلى مهمة كبيرة وشائكة سوف تُضفى أهمية من نوع خاص على تقريره الذي يتعين أن يتجاوز فكرة الوصف التقليدي الشائع في أدب الرحلات للأماكن والمزارات، ولحركة الناس، والتعريف بطبائعهم ، إلى التركيز أكثر على تقديم تحقيق

مالي، مطول وتفصيلي، عن خزائن مصر وثرواتها بما يكشف مصادر دخولها المادية المتنوعة التى عاينها بنفسه، وأذهله حجم ثرائها وتنوعها. وفي هذا السياق تولدت لديه فكرة إفراد مجلد كامل وخاص بمصر؛ حيث مثلت له هذه الولاية حالة مهمة من كل جوانبها لا يمكن اختزال وصفها، أو التعريف بأهميتها فى عدد من الصفحات[٢٨] ، كما هو حال غيرها من البلدان التى زارها داخل وخارج الإمبراطورية، وهو يقر بأن الوقوف على أحوال مصر أمر ليس بالهين، لكنه "حرك قلمه على قدر طاقته". ولأهمية ما يرصده من معلومات ازداد حجم المجلد بالرغم من حرصه على أن يقدم صورة مختصرة[٢٩]، فقد بلغت صفحات الكتاب في الأصل التركي (الألف ومائة صفحة)، ومع ذلك اعتبر هذا المجلد " قطرة في بحر، أو ذرة في الشمس"![٣٠]. فمصر فى التحليل الأخير كانت بالنسبة له حالة معرفية ثرية محفزة للتأمل، وجديرة " بالمعرفة والاطلاع"[٣١] . وفى هذا السياق تولدت لديه فكرة وضع كتاب "سياحتنامة مصر" الذي أراد أن يختم به مدونات طوافه حول العالم.

****

دلالة السياق الزمني فى النص وعلاقته بالخطاب

يُشكل الحضور الزمني، وطريقة توظيفه جزءاً مهماً من بنية نص الرحلة[٣٢]، وخصوصًا إذا ما تعمد الرحالة تقديم استخدام معين له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالخطاب، والهدف النهائي من عملية الكتابة والتدوين. ففى كتاب سياحتنامة مصر سنجد أوليا جلبي يتجاوز الطريقة الكلاسيكية الشائعة فى أدبيات الرحلة، والتى تؤطر لتحركات وتنقلات الرحالة بتواريخ محددة، وأحياناً بصورة شبه يومية؛ بقصد إبراز صاحب الرحلة أن تقريره نص يروي وقائع حقيقية، لا متخيلة، وأن النص أيضاً نتاج تدريجي لمشاهداته المادية، ولعملية التدوين المؤطرة بتواريخ المعاينة والتسجيل إثر كل استقصاء. فلقد تجاوز أوليا جلبي هذا التقليد الكتابي، واختار فى المقابل تركيز الزمن فى نقطة محددة تمثل حقبة السبعينيات من

القرن الـ١٧م ككل، وفي هذا السياق تحديداً تختفي الشخصيات، ومعظم الإشارات الزمنية المقومة للحظات المشاهدة، أو التي تؤرخ لتنقلات الرحالة هنا وهناك لتحل محلها " سيرورة الحكي" عبر التصنيفات الموضوعية المختارة من جانبه بعناية لتعكس وجود استراتيجية فى الكتابة، وتُظهر فى النهاية أن أمثال أوليا جلبي كان يعنيهم بالدرجة الأولى التحدث عن مصر، لا عن تحركاته هو من مكان لآخر. وهنا يمكن القول بأنه ضحى بذاته من أجل إبراز التفاصيل الهائلة، سواء التى أظهرت احترافيته فى الرصد والتسجيل، أو عكست ثقافته وسعة اطلاعه على المرجعيات التاريخية، وتوظيفه لها بما أثرى النص بأبعاد تاريخية وواقعية فى آن. لقد آثر بقاءه خارج المشهد كمراقب؛ فالناس تتحرك وتقضي شواغلها، وتتشابك علاقاتها ومصالحها، ويعلو ضجيجها هنا وهناك، وهو يراقب ويجمع المعلومات ثم يصنفها فى شكل" مطالب معرفية"، ليظل يلعب دور "المراقب المدون" الساعي وراء الحقائق، واستقصاء الأخبار بما في ذلك حكايات الأهالى التى كانت تفسر له بعض تساؤلاته، ولذا قلما وجدناه يحرص على تدقيق تحركاته الذاتية، أو تقويمها بتواريخ محددة[٣٣]. وبلاشك فقد أكسبه هذا النهج مرونة كبيرة فى حرية صياغة أفكاره ومدوناته، والتنقل بحرية عبر نقاط زمنية متعددة بطريقة تراوحت بين رصد الواقع، واستدعاء ذاكرة التاريخ.

وبين العمق التاريخي، والسياق الزمنى للكتابة يمكننا أن نلمح حدين زمنيين بارزين يشكلان معاً الإطار التاريخي للكتاب، لكنهما أيضاً ينطويان على دلالة ومغزى، إذ إن لهما علاقة مباشرة بالخطاب المتضمن فى بنية النص؛ الحد الزمنى الأول ويبرز فى تخصيصه الفصل الأول من كتابه لنزول آدم عليه السلام وبنيه أرض مصر ليكونوا هم أول من توطنوا هذا البلد، وما وعد به الله نبيه آدم- عليه السلام- وذريته بأن يجعل لهم مصر بلداً خصباً، يوفر القمح والخبز بما يكفي مؤنتهم ويفيض[٣٤]، والحد الزمني الثاني يمثله قدوم العثمانيين إلى المشرق العربي، وحكمهم الممتد إلى زمن

الرحلة نفسها؛ باعتبارها حقبة متكاملة ومستمرة، ويسميها بـــ "العهد السعيد"[٣٥].

وهكذا مثل هبوط آدم عليه السلام، وتوطن أولاده واستقرارهم بداية التعريف بمصر كمجال. وإذا كانت هذه البداية التاريخية (الكلاسيكية فى كتب التراث)[٣٦] تلعب دورها فى إضاءة أولى صفحات التاريخ المصري العام، إلا أن تخطيط الفصول التالية يُنبيء عن استراتيجية واضحة المقصد؛ إذ خصصها للغزاة الذين تكالبوا على امتلاك سدة الحكم فى مصر، وحددهم بأكثر من ١٤٠غازيًا من شعوب وأمم مختلفة الأعراق والثقافات[٣٧]، رامزاً بهذه المسيرة الزمنية لمرحلة من الضعف والتخبط طويل الأجل، كانت مصر تنتظر معها– وفقاً لهذا المنظور– مَن ينتشلها من ركام تلك الأوضاع المتدهورة، وهنا تحديداً يتبلور بجلاء أهم أبعاد الخطاب العثماني الذي تلخصه فكرة أن قدوم آل عثمان للمنطقة كان له أثر دائم في إزالة الخراب والدمار، وإقامة العدل، ونشر العمران ، ووصل ما انقطع في التاريخ المصري العام، إذ إن تحريك المياه الراكدة، وإعادة بعث الحياة كانت– وفقاً لهذا المنظور– مشروطة بمجيء العثمانيين، وهو يسوق هذه الفكرة بصياغة الحقيقة المطلقة:" إن تملك سلاطين آل عثمان وسيطرتهم لها أثر فى تقلب الأحوال، وتغير الظروف فى صالح مصر وعمرانها؛ فتحولت سهولها وصحاريها .. إلى قرى عامرة، آهلة بالسكان، ومزدانة بالكروم والحدائق والبساتين، وتظهر فيها أنهار وجداول، مياهها صافية كأنها ماء الحياة، تجري في الأرض حتى تصب فى البحر الأبيض، وبفضل همة السلطان العالي الشأن، وعهده السعيد، وصنيعه المحكم، سيجري النيل .. وستظهر بمصر ثلاث عيون ..."[٣٨] إلخ.

ووفقاً لهذا المنظور مر التاريخ المصري العام بلحظتين مضيئتين؛ الأولى الموغلة فى القدم المزدهرة بنتاجها الحضاري، ولحظة مجيء العثمانيين، واستمرارية حكمهم (الأبدي) الذي أحدث – من وجهة النظر هذه – " القطيعة " مع ماضٍ كان مليئاً بالمظالم وحكم الطغاة، ومن ثم قدر

لمصر أن تبدأ مع آل عثمان عهداً جديداً يبشر بالعدل والاستقرار، ووفقاً لهذا يجري تمثيل السلطان العثماني بأنه "يمثل عدالة الله في أرضه"، كما ينعت الباشا الممثل لسلطة الدولة العلية بصفات مختارة بعناية، وليست مرسلة بأنه "باني مباني العدل، وهادم أساس الظلم والفساد، وحافظ معالم الإسلام، ناصر ضعفاء الأنام، وحامي حمى الدين والدولة، ماحي آثار الظلم والذلة[٣٩]". ويعطف بقارئه فى موضع آخر على نظرية الحكم عند العثمانيين، وموقع السلطان العثماني "ولى الأمر"على رأس الأمة، وممثلاً لها؛ وذلك عبر التصريح " بوجوب الامتثال للأمر السلطاني؛ لأن السلطان هو " ظل الله فى أرضه، وإطاعته "فرض وواجب"، ومخالفة أوامره "مخالفة للشرع" ![٤٠].

وهكذا بدا ثمة خط زمني تصاعدي بين لحظتين متباعدتين، لكن مصر (المكان والذاكرة التاريخية الممتدة) حققت الربط الدلالي بينهما؛ فأولاد آدم هم المنطلق التاريخي، أو نقطة البداية الحقيقية لما تعنيه مصر كمكون تاريخي قديم، يطيب لأوليا جلبي وصفه أو إدراجه تحت اصطلاح "أم الدنيا" الذي صار علماً على هذا البلد في الذاكرة التاريخية[٤١]، أما " دولة آل عثمان " فهى نهاية مسيرة طويلة حققت غايتها بضم مصر، كأهم ولاية عربية في الشرق الأدنى، إلى دار السلطنة القادرة وحدها على الحفاظ عليها وحمايتها.

ويذكرنا هذا النوع من الأفكار عند أوليا جلبي بما سوف تروج له مدارس الاستشراق فيما بعد، خلال القرن الثامن عشر وما تلاه[٤٢]، والتى أخذت بعداً تجريبياً مكثفاً مع أول اعتداء غربي فى العصر الحديث مثلته حملة جيش الشرق بقيادة بونابرت؛ حيث تردد ذات المضمون الأيديولوجي تقريباً؛ ففرنسا اجتاحت المشرق العربي من بوابة مصر (١٧٩٨م)، وبُرِرَ الغزو كذلك بالعمل على إيقاف التدهور والخراب هناك، ومساعدة الأهالي على التخلص من نير الاستبداد، وظلمات الجهل والتخلف، ومجيء الغرب ممثلاً في حملة عسكرية شرط ضروري للتخلص من الاستبداد، وتحقيق

السعادة والازدهار في مصر والمشرق العربي. بيد أن المفارقة النوعية هنا بين هذين الخطابين، على تقاربهما، أن الخطاب الفرنسي ضم " القرون العثمانية" نفسها داخل حقبة التدهور الخطي الممتد منذ وقوع مصر تحت حكم البطالمة والرومان وحتى قدوم جيش بونابرت إلى مصر فى عام ١٧٩٨م![٤٣].

وهكذا تصبح مصر، من وجهة نظر المحتل، إبان اللحظتين (العثمانية/ البونابرتية)، مغلوبة على أمرها، وتظل المفارقة متمثلة في تبرير الغزو، في الحالتين، بالرجوع إلى عامل واحد مستمر ومتكرر هو "***الاستبداد***" الناجم عن ظلم المماليك، (سلاطين وأمراء بكوات)، سواء حين كانت بأيديهم سلطنة المماليك القديمة (حتى أوائل القرن الـ١٦م)، أو عندما نجحوا، كأمراء متنفذين، فى الاستحواذ من جديد، وبالتدريج، على السلطة فى مصر في النصف الأول من القرن الـ ١٧م الذى شهد "هيمنة مملوكية"، ثم بعد مضيّ فترة من هيمنة الانكشاريين[٤٤]، فرضت "البيوتات المملوكية" الكبيرة نفسها من جديد فى القرن الثامن عشر[٤٥].

وبالمقاربة يمكن القول بأن أوليا جلبي إنما كان يُساهم في تأسيس خطاب أيديولوجي عثماني يشتغل بتفسير وضعية مصر بعد خضوعها للإمبراطورية العثمانية، وكيفية استمراريتها، والاحتفاظ بها، خطاب يتحكم فى صياغته من موقع سلطة المحتل التي يجسدها هنا قلم أوليا جلبي؛ وذلك باعتباره تركيا أولاً، ومراقباً ثانياً، وهو ما جعله قادراً على التحكم في إعادة توزيع الأضواء بحيث يجعل من مبدأ ظهور دولة آل عثمان، "وسطوع نجمها "[٤٦] فى ربوع المشرق العربي بمثابة الحدث التاريخي الأكبر، مبرراً ذلك – وفقاً لمنظوره – بنجاحهم فى وضع نهاية لدولة الظلم والاستبداد (المملوكي)، ونشر العمران، وتوفير الأمن فى ربوع وادي النيل.

****

إن نظرة واحدة على الكتاب تكشف تركيزه علـى ثلاثـة مجـالات

أساسية؛ أولها: كشف ثروة مصر ومصادرها المالية المتنوعة، وثانيها: متابعة تغلب أمراء العسكر على السلطة والاقتصاد، وآخرها: ما تعلق بطوبوغرافية المكان، وما احتواه من آثار قديمة وإسلامية حتى عصره الراهن. وفى ضوء تلك المجالات الثلاثة اقتربت مدونة أوليا جلبي من نمط "الكتابة التقريرية " المدعومة بالإحصائيات والأرقام المستقاة من الدفاتر الديوانية، حيث لا يجعل " للوصف" تلك الأهمية التى يُضفيها على عملية استكشافاته لما تحتويه الدفاتر الرسمية من بيانات ودلالات ذات مغزى. ولا تبدو هذه الملاحظة المنهجية فى الكتابة عنده قاصرة على المجلد العاشر الخاص بمصر فحسب، وإنما كانت شائعة فى كتاباته الأخرى؛ ففى دراسة أُجريت مثلًا على مدينة القدس فى ضوء مجلده الثالث[٤٧] بدت ذات الصورة بملامحها وأدواتها تعج بالرصد الطوبوغرافي للمدينة، مصحوباُ بحشد البيانات والأرقام الإحصائية. ومن ثمّ جرى التركيز فى المجلد العاشر- موضوع هذه الدراسة- على رصد مصادر الثراء أكثر من اكتراثه برصد دينامية الحياة الاجتماعية والثقافية في قاهرة مصر المحروسة.

وإزاء حالة الثراء غير العادي، راح يركز نقده فى مواضع عديدة من هذا المجلد ضد الفرق العسكرية، معرباً عن استيائه البالغ من ممارساتها الاحتكارية الفجة، والتى أدت إلى ازدياد قبضتها على الاقتصاد على حساب دولة المركز، متحاشياً فى الوقت نفسه- كما هو متوقع- تحميل سياسة الباب العالي وضعفها مسئولية هذه النتيجة، بيد أن انتقاداته لطبقة العسكر (مملوكية وبدرجة أخف عثمانلية) قادته إلى مراجعة وضعيتهم التاريخية فى الولاية، وحدود مهامهم الوظيفية، وهنا تحديداً وجد نفسه يلجأ إلى التاريخ للنيل منهم بطريقته.

لكن هذا المنحى فى الكتاب جعله يتصدى لطرح الأسئلة الصعبة وفى مقدمتها سؤالان؛ الأول حول مدى شرعية غزو العثمانيين لمصر، وانتزاعها من قبضة العسكر المماليك؟ والثاني حول دلالة ظاهرة تداول الأمم على سدة حكم هذا البلد، وموقع تبعيته للعثمانيين على هذا المسار

الطويل من التداول والتبدل؟؛ فكيف عالج أوليا حلبي مثل تلك الأسئلة الشائكة والجرئية فى زمانه؟ وغير خاف أن المغزى من طرح هذين التساؤلين هو الاقتراب أكثر من قراءة أفكاره التى كانت تؤسس، أو في أقل الاحتمالات توقعاً تعبر، سواء بطريقة واعية أو غير واعية، عن خطاب عثماني شائع، حدد منظور الدولة / المركز – آنذاك – لولاياتها التابعة، ولرعاياها المنضوين تحت مظلة الإمبراطورية العثمانية.

أوليا جلبي وشرعية "غزو مصر" فى الخطاب العثماني

إن لجوء أوليا جلبي إلى التاريخ، وتدخله في إعادة تشكيل سياقاته باستخدام التفسيرات الشعبية استناداً إلى ما جمعه من الحكايات المتواترة ، ورؤى الأحلام، وكرامات الأولياء وكبار الشيوخ ، والدفع بكل ذلك إلى الواجهة قد شكَّل فى الحقيقة ركيزة استراتيجية في الكتابة، ليس هدفها اكتشاف أضواء من الماضي يمكن أن تساعده فى فهم ظواهر معينة بطريقة موضوعية، كما أنها لم تستهدف قراءة الواقع نسبياً كما عاينه، وإنما السيطرة على هذا الواقع عبر إعادة إنتاجه وتمثله وفق منظور أجهد نفسه فى بنائه وبطريقة مشتتة عبر ٦٤ فصلاً كيما يُكسبه مظهر الحقيقة، ووقع التأثير. وبهذه المنهجية فى الكتابة ذلل أوليا جلبي لنفسه إمكانية التدخل والتحكم بهامش واسع فى توظيف مادته الإخبارية بطريقة خدمت– كما سنرى– أهداف الخطاب (العثماني).

إن القراءة المتفحصة " لسياحتنامة مصر" تظهر بوضوح أن القضية المركزية التى انشغل بها النص دارت تحديداً حول ***" الولاية الغنية التى تغلب عليها العسكر"***، ومن ثم فالنص ينهض على كشف خطورة هذه الظاهرة بالأساس، ولذا فإنه بقدر ما كان يعنيه إظهار تجليات ثراء مصر وخزائنها للباب العالي[٤٨]، بقدر اهتمامه بتوجيه سهامه النقدية للطبقة العسكرية، وبالأخص طبقة المماليك التى أبدى إزاءها امتعاضاً شديداً جراء استيلائها على معظم التزامات الأراضي، وتدخلاتها المتكررة التى تسببت فى تراجع مخصصات الوزير العثماني نفسه، فضلاً عن ضباطه وأعوانه

الذين انقلبوا من ممثلي "سلطة فعلية" إلى "سلطة اسمية ". ويحلو لأوليا جلبي - ربما بدرجة من المبالغة أحياناً- وصف ضعف الوزير وبطانته العسكرية عبر تصويرهم بالقابعين وراء أسوار القلعة، يتكففون نفقات معيشتهم، حيث يتحصلون على مرتبات ومخصصات لا تكاد تسد حاجاتهم![٤٩].

وقد شكلت هذه الظاهرة، بالنسبة لأوليا جلبي، التطور الدال على تبدل الأحول تبدلاً دراماتيكياً؛ فهو بوصفه عثمانياً منتمياً للبلاط الإمبراطوري ظل ينكر على العسكر تجاوزهم لحدود دورهم، وصلاحيات وظيفتهم، وهو ما جعله يُعرِّض بهم عبر مراجعة وضعيتهم التاريخية منذ الوقت الذى تم فيه ضم مصر للإمبراطورية العثمانية، واستيعاب المماليك ضمن الطبقة العسكرية، وهو يولى اهتماماً ملفتاً للنظر بدحض قضية ادعاء المماليك بأن مصر كانت فى السابق قاعدة لإمبراطورية سلطنتهم المملوكية القديمة التى دامت قرابة قرنين ونصف القرن، وأن العثمانيين هم "الدخلاء الغزاة" الذين حطموا هذه السلطنة، وسلبوهم المجد والسلطة[٥٠]. وفى هذا السياق وجد أوليا جلبي نفسه يُعيد طرح إشكالية الغزو العثماني، وتفنيد " القضية المملوكية "، والنظرية التى تستند إليها، وهو ما جعل تقرير رحلته يتجاوز وظيفة الوصف فى اتجاه يسمح بمناقشة مثل هذه القضايا المهمة. ولعل استقصاءته، وتصديه لمثل هذه الموضوعات وغيرها، دفعت به لإظهار أكثر أفكاره الانتقادية؛ سواء للمماليك، أو حتى للمجتمع المصري نفسه، كما سنرى فيما بعد، فضلاً عن مراجعته النقدية لوضعية مصر، وعلاقتها باستانبول، وهو ما أتاح الفرصة لكشف بعض أساسيات الخطاب العثماني الشائع فى زمانه.

وعلى الرغم من إدراكه لصعوبة قبول فكرة غزو دولة إسلامية لدولة إسلامية أخرى، إلا أنه شحذ ذهنه للتصدي لمعالجة هذه القضية الشائكة على نحو يروم إضفاء" الشرعية على الغزو"، وبما يبرر فى الوقت عينه حتمية زوال الدولة المملوكية مثل غيرها من القوى التي تداولت حكم

مصر. وتتبوأ هذه المسألة أهمية خاصة فى الخطـاب العثمـاني المتعلـق بولاية مصر، وهنا يُجانب أوليا جلبي حقيقـة سـير الوقـائع التاريخيـة لملابسات غزو العثمانيين لمصر ليستبدل بهـا قصصًـا ورؤى وأحلامًـا منسوجة من الخيال الشعبي (العثماني). بيد أنه يتعين تحليل مغـزى هـذا الاتجاه فى أفكاره لما يعكسه من قناعة صاحب الرحلـة بأفكـار معينـة تختزنها مروياته الشعبية التى آثرها على القرائن التاريخية حتـى يعطـى لنفسه المرونة الكافية لتفسير تطورات الأحداث وفقاً لمنظوره واعتقاداتـه المجسدة فى النهاية لمضمون الخطاب.

ويؤدى هذا النهج إلى إذابة الحدث التاريخي فـى خضـم اخـتلاق مرويات شعبية متتالية زج بها فى متون كتابه، وبداهة فقد جاء ذلك علـى حساب تخفيض درجة اعتماده على وقائع التاريخ التى لا تشكل فـي هـذه الحال سوى إطار يكتنز داخله سيرورة "الحكـي الشـعبي"، فتبـدو هـذه المرويات المتناثرة بطول المجلد وكأنها جزء من سـياق تـاريخي. ودون الدخول فى تفاصيل تلك المرويات، نعرج على مضمونها المحوري فحسب بما يساعدنا على استجلاء دلالاتها فى تفسير المنظور العثماني لقراءة قصة فتح مصر.

ويمكننا فى الحقيقة تخير ثلاثة مشاهد أساسية ذات مغـزى؛ الأول منها يتعلق بـــ ***" قصة أخذ العهد والبشارة من النبي بفتح مصر"***؛ والحكاية هنا تأخذنا مع تخفي السلطان سليم الأول حـين قـرر زيـارة الحـرمين الشريفين[٥١] قبل غزوه لمصر مباشرة، وقيامه بزيـارة المسـجد النبـوي، ووقوفه أمام قبر الرسول باكياً منتحباً على الحال التى وصلت إليها مكـة والمدينة، ومبدياً أسفه على ضعف العناية بما أسماه" الناموس المحمـدي"، وأنه أخذ على نفسه عهداً وموثقاً أمام قبر الرسول لئن بارك له بفتح مصر ليوقفن كامل أراضيها على الحرمين الشريفين، وليرسلن الأموال والكساوى والعطايا، وليعملن على إعلاء شأن هذا الناموس النبوي، وإنقاذه من إهمال "الكفرة الجراكسة"!. وبحسب رواية القصة جاءته البشارة مرتين قبـل أن

يغادر المشهد النبوي؛ الأولى من شيخ مسن كان جالساً تحت شباك قبر النبي استبشره بالنصر، والثانية مثلها صوت جاءه من بعيد، رج آذانبه، يأذن له بالذهاب إلى مصر حيث وعده النبي بالنصر المبين. بدا ذلك في القصة (الشعبية) بمثابة " ميثاق عهد ومباركة مقدسة" للفتح"[٥٢].

أما القصة الشعبية الثانية فهي "***قصة كرتباي الفدائي***"[٥٣] الذي حاول الانتقام من سليم الأول بالتسلل إلى " قصر أم القياس" بجزيرة النيل الذي اختاره السلطان سليم كمقر له إبان استيلائه على مصر، وتمكن البطل الشعبي (المملوكي) " كرتباي" من اقتحام غرفة نوم السلطان سليم حيث أقدم على قتله. ومغزى القصة يبدأ بعيد فشل الأمير المملوكي كرتباي، والقبض عليه، حيث يتم نسج حوار بين السلطان سليم والأمير كرتباي يدفع أوليا جلبي الأخير (الأمير كرتباي) للإفصاح، على لسانه،عن الجزء الأهم من وجهة نظر المماليك: "لقد هجمت [يا سليم] على ولايتنا، وسطوت على بلادنا، واستوليت على أهلنا وعيالنا، بعد قتل آلاف من عباد الله، وتشتيت ألوف ومئات آخرين.. واغتصاب الأملاك والأموال، ومنحتها الأجانب، والأدهى حُرمت من صحبة ولي النعم طومانباي الملك الشجاع". وهنا يدخل النبي كجزء أساسي فى سردية الحكاية الشعبية؛ فكرتباي استأذن "الحضرة النبوية" فى قتل سليم، لكن الرسول – وهذا هو المغزى – أعطى الإشارة لكرتباي بأن المولى- عز وجل- رضي عن آل عثمان،- والكلام على لسان النبي- "***لقد اقتضت حكمته البالغة زوال دولة الجراكسة، وقيام دولة آل عثمان، لذلك صار سليم في حمايتي وحراستي فلا تتعرض له، ولا تؤذه أبداً*** "[٥٤]. ويتخذ أوليا جلبي من ثبوت فشل الفارس المملوكي كرتباي المشهور بقوته وجراءته فى القتال دليلاً على صحة حماية النبي لسليم، ونجاح قيام دولة آل عثمان بإرادة إلهية بحتة.

وتأتي القصة الثالثة والأخيرة فى شكل رؤية / حلم رواه أحد السلاطين العثمانيين للعلماء ومشايخ الإسلام، حيث اهتم أوليا جلبي بذكر تفاصيل هذا الحلم، والتعامل معه كرؤية حقيقية بدعوى تجلي النبي نفسه

فيه كـــ "قاض" يفصل في خصومة المماليك مع آل عثمان بسبب نقلهم لأثر قدم النبي إلى استانبول، حيث جمع الحلم / الرؤية بين ســلطانين؛ واحــد مملوكي، والآخر عثماني، وفى المشهد ظهر المؤيدون (السلاطين القدامى) فى كل جانب، ومع افتعال حوار أقرب إلـــى المنـــاظرة، بـــدأت الأفكـــار والتصورات ذات الطبيعة المتناقضة تظهر فوق الســطح؛ الطـــرف الأول (المماليك) يتصدى بصورة غير مباشرة لفكرة الغزو، وتبعاتها الدراميـــة، وما تسببت فيه من ترويع الآمنين، وتخريب الأوقاف، وضم حصيلتها إلى مال الدولة، ومن ثم طالبوا النبي بإزالة آل عثمان عن ملك مصر، فيما يرد الطرف الثاني (آل عثمان) مدافعاً عن نفسه بأنه نشر العمران، وأن خراب الأوقاف من جراء أثر الزمن وتقلب الأيام، وأن سلاطين آل عثمان قائمون على خدمة الحرمين الشريفين، ويتحرون تحقيق العدالة، هنالـــك يقضـــي النبي، وقد استمع إلى حجج الطرفين، برد "أثر قدمه" إلى جامع قايتبـــاي، والقطع ببقاء ملك مصر- بإرادة الله - بين يدى آل عثمـــان ***"حتـــى قيـــام أشراط الساعة "***[٥٥] !.

ومن الواضح هنا أن خلق أسطورة " الفتح العثماني المقدس" استندت في الأساس إلى إثارة ثنائية (العدالة/ الاستبداد، العمران/ الخراب) لتفســـير عملية الانتقال الحاسم للسلطة، ليس فى زمن العثمانيين فحسب، وإنما كذلك فيمن تداولوا حكم مصر على مدار القرون والعصور، لكن اللافت للنظـــر هنا فى هذه المرويات الشعبية (المحكية أو المتخيلة) أنها جعلت النبي جزءاً من مكوناتها لإكسابها الوقع التأثيري على المتلقين لها من العـــوام، ومـــن ناحية أخرى إلحاحها على تأكيد فعل ومشيئة الإرادة الإلهية فى نقل السلطة إلى آل عثمان، ومن ثم فالقصدية واضحة جلية وهي نفي دخول العثمانيين لمصر لغرض سياسي أو توسعي أو حتى لممارسة الهيمنة على المشـــرق العربي؛ وأنهم إنما جاءوا استجابة لـــ "مهمة مقدسة " كلفوا بها، ولم يسعوا إليها. وبهذه الطريقة لا ينجح أوليا جلبـــي فحســـب فـــى تفنيـــد "القضـــية المملوكية"، وتفريغها من مضمونها، وإنما كذلك- وهو الأهم- في إضـــفاء

الشرعية على "الغزو"، واعتباره "ضرورة شرعية"، وكذلك لحماية مصر من المد الشيعي الذي يصوره أوليا جلبي على أنه كان مهدداً لمصر وأهلها بعد ميل المماليك إلى التحالف السياسي مع الصفويين (الشيعة)، والذي لم يتم من الناحية الواقعية، وهذا يفسر لماذا ألح على ذهنية أوليا جلبي رفض" الآخر المملوكي"، ووصفه بالرافضة / الروافض الفاسدين" تارة[٥٦]، و"بالكفرة الجراكسة الملعونين" تارة أخرى[٥٧].

ويلاحظ أن قضية" شرعية الغزو" تظل تشغل النص؛ فعبر سياقات مختلفة، وفى مواضع متعددة من الكتاب يتعرض أوليا جلبي لهذه القضية الشائكة من جديد، وفى كل مرة نجده يقدم مبرراً إضافياً، بصرف النظر عن نسبة التزامه ومسايرته للواقع التاريخي، أو بلجوئه أحياناً إلى التحايل على اختلاق أحداث ما، والمبالغة في تفسيرها، وهو ما يؤسس لما يعرف بـ " ثقافة الفاتحين" التي تعطي لنفسها حق التميز والحكم على الآخرين من موقع" الأنا المنتصرة "؛ فمثلاً لا نجد فى مصادر تلك الفترة أية إشارة إلى اتخاذ بعض المصريين قرار الجلاء عن وطنهم (إلى استانبول) بسبب ممارسات مشينة تجسد ما سماه أوليا جلبي بـ" الظلم المملوكي المتواصل،" أو حتى لأي أسباب أخرى، بل على النقيض من ذلك، حين تم فى الحادثة الشهيرة إلزام مجموعات كبيرة من كبار الشيوخ والعلماء، ونواب القضاة المخضرمين، وأسطوات الحرف والصناع من كل فئة (ناهزت فى جملتها الألف نفر)، بالتوجه قسراً إلى استانبول، وقد بَيَّن مراقب حاذق كابن إياس المعاصر لتلك الأحداث أنها مثلت أبلغ مأساة مر بها المصريون على مدار تاريخهم، فكتب يقول:" لم يقاس أهل مصر شدة من قديم الزمان أعظم من هذه الشدة، ولا سمعت فى التواريخ القديمة .. ففارقت الناس أوطانها وأولادها وأهاليها، وتغَّربوا من بلدهم إلى بلد لم يطؤوها قط، وخالطوا أقواماً غير جنسهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"[٥٨]، بل والأكثر دلالة من ذلك أن المصريين نظروا إلى القرار على أنه قرار" أسر، ونفي"، وأطلق عليهم ابن إياس نفسه "الأسراء المصريين"[٥٩] ! ومغزاها بالغ

الدلالة على ارتباط الناس ببلادها. والمعروف فى وقائع الدهور لابن اياس أن كثيرين منهم ناضلوا من أجل العودة، ومنهم من أعياه طول المسافة ومات على قارعة الطريق، ومنهم من تمكن من العودة هرباً، وظلت هذه حالهم على مدار ست سنوات إلى أن سمح لهم السلطان سليمان بالعودة إلى القاهرة، وهو ما اعتبره الأهالي من أعظم محاسنه وعدله![٦٠].

علاوة إلى ذلك لا نجد ما يدعم صحة ما ذهب إليه أوليا جلبي من أن رجال الدين والعلماء المصريين استنجدوا بالسلطان سليم، وكانوا يحثونه على الإسراع إليهم لتحقيق" الخلاص" من حكم المماليك، كما لا توجد قرائن تاريخية أيضاً على ما أشار إليه من أن هؤلاء العلماء أرسلوا إلى استانبول ٤٠ فتوى تجيز للسلطان سليم "إباحة قتل حكام مصر"!، فالثابت فى المصادر التاريخية أن العلماء والشيوخ لم يكونوا بعيدين عن المشهد على الإطلاق، وإنما كانوا فى قلب تطور الأحداث التى مستهم بدرجة ملحوظة، فهم يسارعون فى اصطحاب السلطان الغوري وعسكر المماليك عند خروجهم لملاقاة العثمانيين فى الشام من أجل شد أزر الجند فى الدفاع عن كيان الدولة / السلطنة[٦١]، وحتى من بقي منهم داخل مصر اهتم بلعب الدور نفسه فى تقوية الجبهة الداخلية، وتوثيق تكاتف القوى المملوكية التى هزتها الهزيمة فى سبيل جمع كلمتهم على قلب رجل واحد، ومؤازرتهم فى مواجهة القوة العثمانية الزاحفة على مصر بعيد هزيمة مرج دابق[٦٢].

وتظل المسألة الأبرز متمثلة فى اتجاه أوليا جلبي إلى تفسير ميل المماليك إلى الصفويين من منظور ديني لا سياسي كيما يغض الطرف عن خطورة اللحظة الفارقة فى تاريخ الشرق الاوسط إبان تحقق الاجتياح العثماني المرتقب للمنطقة، ومن ثم راح يصور الاتصالات الجارية بين الصفويين والمماليك، على لسان العلماء المصريين، على أنها خروج مارق على شريعة أهل السنة، وهنا يرصد نص فتوى حاول أن يدعم بها هذه النتيجة (المتخيلة) كي يقنع قارئه بسلامة الموقف الذي قاد العثمانيين إلى اتخاذ قرار الحرب، وذلك بالنظر إلى أنهم حماة وممثلون للإسلام السني.

ويشير نص هذه الفتوى، التي لم نستطع الوقوف على صحتها في المصادر التاريخية المعاصرة، إلى أن " ***ولاية السلطان الغوري جائرة، وخلعه فرض عين؛ إذ هو داخل بعمله هذا (التحالف مع الصفويين) في مذهب الرافضة (الشيعة)، فيجب نهب إقليمه وولايته، وهدر دماء تابعيه، يقتلون ولا يؤسرون، ونساؤهم حرام علينا لا يتخذن جواري وإماء، ويجب الزحف إليهم، ونزع البلاد منهم***"[٦٣]. وغير خاف المغزى هنا من صياغة مثل هذه الفتوى بهذا المضمون، إذ تصطنع "حجة شرعية" لإسقاط الامبراطورية المملوكية، وإرث أملاكها في بلاد المشرق العربي!

وخلافاً لمسألة الفتوى، دعم أوليا جلبي قصة الفتح بروايات شعبية أخرى كانت شائعة في البلاط العثماني حول قرار السلطان سليم بالتوجه إلى مصر، ومنها رواية ***"الكشف الصمداني"*** التي تُحاك على غرار قصة حادثة "سارية الجبل" التراثية[٦٤]؛ وتتمثل هنا في صورة نداء استغاثة من كبار العلماء كالشيخ أبي السعود الجارحي، والشيخ مرزوق الكفافي المشهورين بقامتهما العلمية، وبعلو منزلتهما لدى الحضرة السلطانية، حيث يطلقان النداء من مسافات بعيدة وهما خارج استانبول:" يا سليم تعال .. يا سليم تعال" لإنقاذ مصر وعلمائها الذين طلبوا الاستغاثة. وتظهر الرواية الشعبية أن نداء الاستغاثة سمعه- عبر الآفاق ومن مسافات بعيدة- كل من السلطان سليم وقائد جيشه سنان باشا، فاعتبرت نبوءة حاسمة، فقام السلطان سليم من فوره يصرخ على جنوده" عجلوا بالزحف إلى مصر" [٦٥].

وهكذا رسمت ريشة أوليا جلبي من المرويات الشعبية ملامح صورة تظهر" قرار الغزو" مشفوعاً بإرادة ربانية تجلت في الشواهد المحكية المختلفة، وأن السلطان سليم لم يكن سوى منفذ لتلك الإرادة العليا التي قررت إنهاء عصر سلطنة المماليك ليبدأ عصر جديد مع الزمن العثماني المبشر- وفقاً لهذا المنظور- بالحرية والعدل والسعادة.

من "شرعية الغزو" إلى "شرعية الحكم" ونهاية التاريخ

إذا كان أوليا جلبي قد أمكنه حشد الشواهد المنتقاة بعناية من ذاكرة الخيال الشعبي (العثماني) لتبرير فكرة الغزو وتكييفها مع موجهات الخطاب العثماني المروج له هنا فى إطار أسطورة "المهمة المقدسة"، إلاّ أنه، من ناحية أخرى، كان واعياً بأن الترويج لـ " شرعية الغزو" وحدها ليست بكافية لتبرير" شرعية الحكم"، وهي مسألة لا يصعب التدليل عليها، وذلك من واقع ما ضمَّنه كتابه من نصوص متفرقة بطول المجلد العاشر، حيث إن الإلحاح على هذه القضية عكس جانباً من القلق عنده ربما بسبب التطورات الأخيرة والمتلاحقة التى أظهرت ضعف قبضة الدولة على هذه الولاية المهمة، وإن ظل ينكر هو حقيقة تدهور الأوضاع بسبب إيمانه المطلق بسلامة الإمبراطورية وعظمتها، فضلاً عن إيمانه الشديد باستمراريتها الأبدية، ورسوخ أقدامها فى البلاد[٦٦]، ومن ثم حرص على تضمين كتابه لمسوغات أخرى حاول إكسابها مظهر التماسك والإقناع؛ لكى يحقق الخطاب أهدافه الغائية في إظهار شرعية الحكم العثماني لمصر، واستمراريته كحقيقة أساسية لا تخطئها عين، ولا تطالها الظنون، وأن مركز مصر السياسي تغير بدرجة عميقة بعد انطوائها تحت المظلة العثمانية.

وقد تمثل أول مسوغات أوليا جلبي" في فكرة التنازل عن الخلافة للسلطان العثماني؛ وذلك عبر "البيعة" التى يخبرنا فيها بأن آخر الخلفاء العباسيين"المتوكل على الله" قدمها للسلطان سليمان (القانوني)، وعبر عنها مادياً بمنحه إياه "سيف الخلافة"، وبعدها يشير سريعا إلى أن "الخليفة المتوكل" قرر مبارحة استانبول والعودة إلى القاهرة التى عاش بها حتى آخر أيامه، وبموته سنة ١٥٤٣ "انقرضت" سلالة خلفاء بني العباس[٦٧]. وهكذا دشن أوليا جلبى أول إشارة إلى ارتهان الخلافة وتقيدها، منذ ذلك الحين، بسلالة آل عثمان، حيث باتت استمراريتها مشروطة ببقاء الدولة العثمانية!. وإذا أضفنا إلى ذلك اهتمام أوليا جلبي البالغ بالتذكير بأهمية

اختصاص السلطان العثماني بلقب "خادم الحرمين الشريفين"[٦٨]، ودلالة كونه أول من جمع بين لقبي" الخليفة / وخادم الحرمين الشريفين"، لتبين لنا مدى عمق التغيير الذي يرمي أوليا جلبي إلى تصديره للقـــاريء بشـــأن تبـــدل الأهمية السياسية للمنطقة.

إن الربط بين فتح مصر وحصول السلطان العثماني على هذا اللقب التشريفي يجد صداه سريعاً- بحسب روايته- فى الرسائل التـــى وجههـــا السلطان سليم الأول إلى جميع ملوك وسلاطين العالم، واصفاً نفسه بأنـــه "***فاتح مصر، وخادم الحرمين الشريفين***"[٦٩]. وغير خـــافٍ أن أهـــم دلالـــة انطوت عليها مثل هذه المقولات أن القاهرة فقدت فعلياً مكانتها الرمزيـــة؛ ففيما أضحت استانبول مقراً للخلافة، تحولت القاهرة إلى مجرد عاصـــمة لولاية تابعة !.

وجاء المسوغ الثاني متمثلاً في الاصطلاح الشائع:"إمارة التغلب" التى يُجليها فعل القوة، وتحقق الانتصار، فيجري التأكيد على أن مصر حُررَت، أو فُتِحَت على يد العثمانيين" عنوة " عبر حرب وصفها تارة بـــ "العظيمة"، وبـــ "الفتح المبين" تارة أخرى[٧٠]؛ حيث تم دحر الجيش المملوكي مرتين في بضعة أشهر![٧١] كما جرى قتل السلطان الغوري نفسه (بالشام)، وإعـــدام خليفته السلطان طومان باي على باب زويلة بالقاهرة. وبنبـــرة اســـتعلائية تحدث أوليا جلبي عن تعقب العثمانيين للمماليـــك، وقيـــامهم بمطـــاردتهم "مطاردة الكلاب فى الشوارع " ![٧٢]، لكن " وفرة القوة " هذه- كمـــا يـــرى أوليا جلبي- أفادت هذا البلد الذي ما كان يمكن تركه لقـــوة أخـــرى غيـــر العثمانيين، وهو يفسر هذه المسألة بما أورده على لسان علماء مصر من أن مصر بلد عظيم لا يمكن أن يظل تحت سيطرة بسلطة ضـــعيفة، كســـلطنة المماليك، ولا يمكن تركه لقوة ما فى شمال أفريقيا البعيدة، ولا كذلك لفارس المغايرة فى المذهب، ولا لحكم الأكـــراد الـــذين لـــيس لـــدولتهم دوام ولا ثبات[٧٣].

ويقود أوليا جلبي قارئه هنا إلى فكرة أن ضم مصر للإمبراطوريـــة

العثمانية (الفتية / والراعية للإسلام السني) كانت نتيجة متوقعة وأساسية بقدر ما أن هذه القوة، فى الوقت نفسه، مهمة لهذا البلد، وهو يبرر ذلك بأن طبيعة المصريين متمردة على كل سلطة تحكمهم، فمن دون حاكم قوي "جبار" لا يمكن ضبط هذا البلد، أو تأمينه، فالعدل تلزمه قوة تقره وتحميه، والقوة تحتاج لإقرار ناموس العدل؛ لكيلا تتحول السلطة إلى طور الاستبداد كما فى زمن المماليك، وكل من القوة والعدل شرطان للعمران. ومثل هذه الأفكار المستنبطة من قراءة النص قد دلل عليها أوليا جلبي فى مواضع جد متناثرة من كتابه، سواء بطريقة صريحة أحياناً، أو بشكل ضمني أحياناً أخرى، وكانت أهم فكرة فى منطلقات خطابه هي أن "الاستبداد" نشر الخراب، وأنهك مصر، وغيَّب العدالة، وجعل حياة أهلها في بؤس شديد، وحول ديارها وقصورها العظيمة إلى"أعشاش ينعق فيها البوم"[٧٤]!، وهو يترك التفاوت يمارس تأثيره على ذهنية المتلقي؛ فيجري تكثيف الانتقادات للمماليك الجراكسة، وقذفهم بأقذع النعوت والصفات مثل: "حشرات– لئام – مناحيس – ملعونين...إلخ، وإبراز معاناة المصريين (الفعلية) زمن حكم السلطان الغوري، بصرف النظر عن مدى واقعيتها[٧٥]، ومن ثم تتهيأ ذهنية المتلقي بالمقاربة لقبول فكرة أن العثمانيين إنما يبشرون بـ "العهد السعيد"، وأنهم هم البديل الأصلح لإرث سلطنة ساءت أحوالها، وبلغ الوهن بها مبلغه، ومن ثم فالقوة العثمانية الجديدة – بحسب رأيه– يمكنها وحدها تجديد شباب هذا البلد الذى حوله ظلم المماليك إلى رجل كهلٍ عجوز" ذي قلب هرم"! على حد وصفه[٧٦].

وكان آخر منطلقاته السياسية الذي اشتغل به خطابه لتبرير" شرعية الحكم" مقولة:" **إن مصر ليست مملوكة لأحد .. وهى لمن غلب** "[٧٧]، ومثل هذه المقولات تذكرنا بما كان يتردد على لسان المستشرقين العاملين فى خدمة الإمبريالية الساعية فيما بعد للسيطرة على الشرق فى القرن الـ١٩م، أمثال المستشرق ريتشارد بيرتون الذى كتب يوماً يقول(في عام ١٨٥٣م):" **إن مصر كنز لمن يفوز به.. وإنها أكثر الجوائز إغراء للطموح الأوروبي،**

وحتى دون استثناء القرن الذهبي"![٧٨]، وللتأكيد على ذلك راح أوليا جلبي يرصد الأمم والشعوب التى مرت على مصر، واحتلتها لفترات مختلفة من الزمن، واصفاً حكامها "بالملوك الضالين ذوى الأفعال السيئة من المشركين الطاغين"؛ ليبين عبر صفحات طويلة[٧٩] أن مصر تناوب عليها الكثير من الأمم الغازية، وهو يحددها بـ ١٤٠ غازيًا![٨٠]، ومن ثم فالتداول ظاهرة تاريخية معتادة فى التاريخ السياسي الطويل لهذا البلد، ولذا فإن "حكم الجراكسة" لا يعدو أن يكون حلقة فى سلسلة طويلة، وانتقال زمام الحكم من بين أيديهم إلى العثمانيين ليس إذن بدعة جديدة[٨١]. بيد أن هذا المنهج الاستدلالي لـ "مسألة التداول" يتعين أن يتوقف هنا؛ فظاهرة التداول على حكم مصر- وفقاً للخطاب العثماني- لا يمكن أن تكون ممتدة ومستمرة أو مفتوحة لقادمين جدد؛ لأن حلقات هذه السلسلة – كما يراها الخطاب العثماني- بلغت نهايتها مع وصول آل عثمان؛ لأنهم – من هذا المنظور- يمثلون " آخر سلاطين الزمان "!، وحكمهم باقٍ بإرادة إلهية، أو بحسب تعبيره هو حتى" انقراض بنى آدم .. وتوقف دوران الأرض"![٨٢]، ويشكل هذا الاعتقاد جزءا مهما فى بنية الخطاب العثماني؛ لأنه يراهن على امتداد السيطرة العثمانية لمستقبل غير منظور، لكن الملفت للنظر هو بقاء النظام الإمبراطورى ليوم القيامة، أي إلى نهاية حركة التاريخ !.

وبصرف النظر عن ذلك، فإن توظيف" نظرية التداول" المستندة إلى القوة " جاءت محكمة للغاية؛ ففيما برر بها أوليا جلبي حتمية زوال دولة الجراكسة، وانتقال مصر لتبعية المركز العثماني، نجده فى الآن نفسه يستخدمها للإيهام بالنهاية الحاسمة لحركة التاريخ في بقاء مصر وبلدان المشرق العربي تحت مظلة دولة " آل عثمان" التي" أخذت وللأبد" مكانها تحت الشمس" على حد قوله.[٨٣] إن أدب الرحلة فى بلاد السلطان على هذا النحو – وهو المفترض أن يكون استكشافياً ووصفياً فى الأساس- يصبح من وجهة النظر العثمانية مرادفاً لإنتاج خطاب التبعية المعني بتأكيد السيادة العثمانية على المشرق العربي.

مصر كحيز لا كمجتمع

لقد نجح أوليا جلبي فى تحديد موقعه هو، بوصفه تركيًا / عثمانيًا، بالنسبة للمجتمع المصري (المعني بوصفه، واستقصاء معرفته)؛ وذلك جراء اشتغال النص عنده على قصدية إثبات "الأنا المنتصرة"، أو"الأنا المكلفة بإرادة إلهية بحكم مصر" ؛ ومن ثم بدت الدولة العلية معبرة عن مكانتها مادياً وواقعياً بالنسبة للحظة الراهنة آنذاك فى زمن كتابته لتقرير رحلته، ومن ثمّ سوف لا يجد كبير عناء فى أن يحدد للمصريين وغيرهم من رعايا السلطنة موقعاً متدنياً داخل الصورة، لكن مصر كحيز / أو كفضاء مكاني تظل لها الأهمية المتميزة، والتى تصل- فى منظوره- إلى حد نفي صلة البشر بالمكان وإنجازاته الحضارية؛ فمصر ***"بلاد من صنع الله العجيب"***[٨٤].

لقد كانت رهانات أوليا جلبي محددة وموجهة فى اتجاه كيفية إعادة رسم صورة مصر كمكان أكثر منها كواقع إنساني يُلملم تفاصيله، ويسعى إلى فهمه، وإعادة تمثله بصورة متوازنة؛ لكشف ملامحه الحقيقية، فقد تجاوز قلمه الاهتمام بواقع الناس، وديناميه حركتهم، وما ارتبط بعاداتهم وممارساتهم الحياتية إلا فى القليل النادر؛ حيث أفرد مئات الصفحات (أكثر من ثلثي الكتاب الواقع فى ٦٤ فصلاً !) لوصف الآثار القديمة، وتسجيل اندهاشه لعظمتها و"مطلسماتها" التى قدرها لها الإله، مروراً بالأماكن والأحياء ودور السلاطين وقصور الأعيان، والمساجد والجوامع والحمامات والخانات والوكالات والقناطر والخلجان والبرك المتناثرة هنا وهناك، وامتداد المتنزهات بها، إلى الميادين والأسواق، وتنوع طوائف الحرف، وأحيائها، وتنوع المأكولات والمشروبات المألوف منها والغريب، فضلاً عما يتعلق بالنظم والاحتفالات العامة وتنوع الطقوس والآداب، وبيوت الصوفية، وانتشار الأضرحة في جنبات المدينة، وقصص الأنبياء.. إلخ.

لقد استهدف فى الحقيقة تكوين صورة ضخمة للفضاء المكاني / المادي لقاهرة مصر المحروسة، بيد أن ذلك جاء على حساب تناوله لحياة

الناس، ودبيب حركتهم. وهذا الفصل (التعسفي) بين ما هو اجتماعي وما هو مكاني لا يبدو لنا بعيداً عن استراتيجية الخطاب المحكم فى بناء النص؛ فمصر يتم اختزالها، إلى أقصى حد، في وصفها كحيز مكاني مجرد يمكن امتلاكه والسيطرة عليه، كما يمكن الإعجاب به كذلك، والذي بلغ عنده حد الانبهار والولع، لكن من دون أن ينسى القاعدة المحددة له ولأمثاله من الكُتَّاب، والتى تشترط عدم الخروج عن حدود الإطار المسموح به فى الإعجاب والإطراء على الآخر؛ أي آخر واقع خارج دائرة المركز- استنانبول، ولذا راح يقدم أولاً اعتذاره للدولة ولآل عثمان، واصفاً عقله بالقصور إزاء استيعاب ما اشتملت عليه مصر من آثار حضارية لا نظير لها فى أديم الأرض، ومن ثروات ضخمة تنفقها فى كل عام بصورة طبيعية لا تعجزها، فكتب يقول:" إن بمصر عجائب كثيرة، وأنبار يوسف العجيبة واحدة منها، وللحقير خضوع واحترام كثير لدولة آل عثمان، ولكن عقلي القاصر حائر في أمور أربعة: أحدها الترسانة العامرة التى باستانبول، والثاني مطبخ آل عثمان، والثالث مصروفات مكة والمدينة المنورة والحجاج، والرابع أنبار يوسف، فإن مصاريف هذه المؤسسات الأربع تحير العقول!"[٨٥].

ومن خلال استخدامه لاصطلاح ***"مصر أم الدنيا"*** (وقد استخدمه عشرات المرات فى كتابه) يخلق لنفسه نافذة تسمح له بأن يطيل الحديث عن أهمية هذه الولاية، وخراجها المذهل، وهو أمر يهم الباب العالي استقصاء معرفته، ويذهب إلى أن علة هذا الاصطلاح تكمن فى كون مصر" مطبخ أرزاق العالم، ومنبع معايش بني آدم على مدى الدهور والأزمان"، وهو يشير إلى أن الله قد خلقها من أجل أداء هذا الدور؛ لأنها وحدها القادرة على أن تمد الدنيا بالأغذية[٨٦]، وهي وحدها القادرة على أن تصلح الخراب الذى يحل بجنبات العالم[٨٧] ! فى حين لا يستطيع أحد إمدادها هى بالحبوب إن أصابها قحط أو غلاء[٨٨]، ومن هنا جاء تشبيهه لها "بالأم الرءوم"[٨٩] ؛ أي العطوف التى تتفانى فى العطاء حتى فى أصعب الفترات

الحالكة التى تمر بها، إنها تعطي دائمًا ولا تنتظر من يُغيثها[٩٠]، وبهذا المفهوم اعتبر" كل الأقاليم السبعة من الدنيا عالة على مصر، وأنها لأجل ذلك سُميت بحق أم الدنيا"[٩١]. وهو ينتهي إلى أن ثراءها الواسع قد جعلها " مظهراً لاسمي يا غني يا مغني"[٩٢].

بيد أن هذه القوة المادية ما كان لها أن تبرز لولا كثافة السواعد العاملة الفنية والماهرة فى كل فن وعلم وحرفة[٩٣]، وبالرغم من الحرص على اختزال دور المصريين داخل المشهد، إلا أن أوليا جلبي لم ينجح فى ذلك بصورة مطلقة، أجل، إن منظوره للقاهرة لا يعدو كونها "مدينة تحفل بالأشرار والأشقياء وأراذل الناس"، لكنه من ناحية أخرى عند تصديه- مثلاً- للحديث عن الثقافة والعلم لم يجد مناصاً من الاعتراف بقوة الإسهام المعرفي والفقهي وتميزه عند العلماء المصريين؛ فهو يصفهم بأنهم" فى غاية الذكاء والألمعية"، ويشير إلى أن لهم مساهمات جادة متميزة في مجالي الفقه والإفتاء، وأيضًا يُبدي دهشته من كثرة عددهم؛" ففى مصر عشرون ألف عالم يتصدون للإفتاء، ويخترعون مسائل غريبة وعويصة وقضايا عجيبة يتفننون فى معالجتها"[٩٤]، والمصريون بطبيعة توجههم الديني يحفظون القرآن عن ظهر قلب، ويجيدون تلاوته، وبقدر ما يشيد بقوة نباهة الأطفال فى حفظ القرآن، وانتشارهم فى كل مكان، بقدر ما يُدهشه كذلك بلوغ عددهم 57 ألف حافظ للقرآن فى مدينة القاهرة وحدها![٩٥]. إن هذه البيانات الدقيقة التى نقلها عن الدفاتر الديوانية تظهر سبب الازدواجية أحياناً فى تقييماته التى تراوحت بين الانبهار والازدراء، ولكن فيما يبدو كانت نزعة الخطاب فى سحب الأضواء وإعادة توزيعها سبباً كافياً لابتعاده عن الموضوعية عند تصديه لتحليل طبيعة المجتمع المصري وبالأخص عند تحديد موقعه من الآخر العثماني.

والسؤال هو إذا كانت هذه هي ملامح رؤيته للمكان وللتبعية اللانهائية، فماذا عن رؤيته للمصريين وغير المصريين (الرعايا) ؟ هل أفسح لهم فى تقريره مساحة كافية تظهرهم على النحو الذى وجدهم عليه ؟ أم أنه تناولهم من ذات المنظور الخطابي فغالبته " نزعة تملك المكان " إلى

إعادة تفسير وجود الناس وعلاقتهم بالمكان الذي جرى اعتباره مجرد حيز جغرافي يقطنه بشر ما ؟!

أوليا جلبي وصياغة صورة الآخر المصري فى الخطاب العثماني

إن استراتيجية الخطاب المهيمنة بإحكام على بناء النص، وتوجيه الأفكار وجهة محددة لم تمكن أوليا جلبي فحسب من تحديد موقع الآخر (التابع) من الأنا المسيطرة والحاكمة للمكان، وإنما كذلك من إعادة خلق أو رسم صورة ذهنية ما لهذا الآخر على النحو الذى يخدم الهدف النهائي من تكريس علاقة التبعية، وفى ضوء ذلك بدت صورة المصريين معبرة عن تصور خاص فى المخيال العثماني، حدد ملامحها أوليا جلبي بدقة، وذلك وفقاً لمنظوره الخطابي لا الواقعي بالضرورة؛ فهو يرى بداية أن المصريين قوم لا يملكون دفع الضر عن أنفسهم جراء تسلط العسكر على مقدراتهم، وهو يدعم تحليله بمقولة قديمة مستهلكة منسوبة "لكعب الأحبار": "خلق الله الغنى بمصر فقال الذل وأنا معك"، موضحاً أن هذا المقولة لا تزال صحيحة، ويبرر ذلك بأن أهل مصر برغم غنى بلادهم" أكثرهم أذلاء فقراء جهلاء .. لا يهنأون بهذا الخير الوفير، كما أنهم لا ينالون ثمرة كدهم إلا بشق الأنفس" . ومرة أخرى يرد السبب إلى طغيان العسكر[٩٦]. بيد أننا نجده يقع فى التناقض نفسه حين راح ينصح باشوات مصر بأن "المصريين ليسوا أهل مسكنة، ولا يُحكمون إلا بالقوة والجبروت"[٩٧]، وأنه يتعين على كل وزير أن يكون" ذا شوكة وثراء وسطوة "[٩٨]. وفى غير موضع راح يشدد على طبيعة التمرد عند المصريين، والتى ردها إلى السلالة الفرعونية[٩٩]، وإلى شربهم ماء النيل ! ، وكالعادة يطلق أحكامه التعميمية اللامعقولية؛" فكل من شرب من النيل ثلاثة أعوام انقلب جبارا عديم الشفقة، ولو كان تركيًا"[١٠٠]، وتتجاوز هذه المبالغة حدود المصريين، وكل من خالطهم لسنوات وشرب ماء النيل، حتى الحيوانات تصاب بداء التمرد ذاته نتيجة لشربها منه؛" فالخيول الشاربة من ماء النيل شرسة بطرة (متمردة) ترفض السير إلى بلاد أخرى" ![١٠١]

ولسنا فى حاجة إلى التأكيد على أن مثل هذه المقولات المبالغ فيها لا

تؤكدها وقائع ولا شواهد من أي نوع، لكن هذه الصورة التى رسم ملامحها أوليا جلبي تظل لها دلالتها؛ إذ تظهر بوضوح إحدى سمات البعد الشعبي فى كتابات أوليا جلبي وأفكاره ومعتقداته المليئة بالخرافات والغيبيات ورؤى الأحلام وما إليها، وهو بالمقاربة مع أدبيات مناظرة مثل أدبيات الرحالة الأوروبيين المعاصرين له تكشف منذ الوهلة الأولى مفارقة فى مستوى الكتابة، وأساسيات التفسير؛ فالطابع العقلاني فى التفسير للظواهر الاجتماعية والثقافية، إلى حد كبير، هو السمة الغالبة على تلك الكتابات، وربما مثال مياه النيل يمكن أن يوضح عمق التباين فى مستوى تقنيات الكتابة والتحليل؛ ففيما نسج أوليا جلبي حول مياه النيل أسطورة صاغتها بالأحرى تهويماته الخاصة، أو نزعته الاستعلائية، والتى تروج لتفسير ما أسماه "طبيعة التمرد" ربطاً بشرب مياه النيل، نجد الرحالة الأجانب يبدون اهتماماً بفهم الدور الذي يمثله النهر فى حياة المصريين، والأهم أنهم استوقفتهم طريقة المصريين فى تنقية المياه عبر وسائل تقليدية، لكنهم وجدوها فاعلة فى نتائجها، ومن بينها اعتمادهم على التنقية بأسلوب الترشيح والتبريد باستخدام الجرار الفخارية، ووضع نوى البندق المر أو لب نوى المشمش فيها للمساعدة على ترسب الطمي، وصفاء الماء، والتأكيد على أنه لا يوجد أي تأثير سلبي ضار يمكن أن يلحق بأحد جراء الإكثار من شرب هذه المياه[١٠٢].

وأياً ما كان الأمر، فمن الواضح أن أوليا جلبي حاول تصدير فكرة "***التابع المتمرد***" الذي يتعين السيطرة عليه بالقوة؛ ليهييء مخيلة قارئه إلى أن إطلاق نعوت من قبيل "التجبر/ الغلظة/ التمرد" كمفردات إنما تجسد طبيعة المصريين التى يتعين تهذيبها، ومن ثم تتحقق بعض أهداف الخطاب العثماني فى تموقع " المصري التابع " فى منزلة أقل من الذات التركية الحاكمة، وإذا ما استخدمنا الاصطلاح الشهير لــ " تزفتان تودوروف" " المهيمنات الموجهة " في النص[١٠٣]، فإن هذه الأفكار كانت محورية فى صياغة صورة الآخر مادياً وروحياً على مستوى الأخلاق والعلم والجهل والصدق والقيم وطبيعة المعاملات ...إلخ، بما يدعم الاختلاف ويؤطر لموقع " الأنا العليا الحاكمة" من

الرعايا العثمانلية (التابعين).

وتحت هيمنة هذا الخطاب تصير عملية تطويع المصريين فى مجالي الإنتاج والخضوع والانصياع للسلطة فى حاجة إلى حكام أشداء يتحكمون فى توجيه المجتمع فى خدمة مصالحهم، وهو يدعم نظريته من خلال الذاكرة التاريخية بأن مصر كانت دومًا مغنمًا للطغاة"، فكل من تغلب عليها صار حَاكمها، وحُكامها متغلبون منذ يوسف عليه السلام". وهكذا فإن تاريخ السلطة المستبدة والطغيان وعلاقته بثراء مصر كان متجذرًا فى ذاكرة المثقفين الأتراك أمثال أوليا جلبي نتيجة لاطلاعهم على كتب التراث التاريخي المصري، والذى يجد انعكاسه واضحًا فى اقتباس المقولات المأثورة الشائعة والمتكررة التى ما فتيء يُقحمها فى نسيج مسروداته، وفى مقدمتها مقولة: ***"أن مصر نيلها عجب، وأرضها ذهب، وهى لمن غلب"***[١٠٤].

وفى مقابل هذه الصورة السلبية التى تتعمد تجريد المجتمع من إمكانات المحافظة على الذات، وشحذ مقومات الهوية، نجده يرصد جانبًا إيجابيًا فى طبيعة المصريين تلخصه خاصيتان أساسيتان؛ الأولى أنهم أهل مرح وبهجة، يتغلبون على أحزانهم وكروبهم بالفكاهة والمرح والبحث الدائم عن وسائل الفرح والسرور، ومرة أخرى يفسر طبيعة المصريين المرحة بأنها تعود إلى أسباب خارجة عن إرادتهم أو طبيعتهم، إذ ينسبها إلى الموقع الجغرافي لمصر، وانتمائها إلى كوكب الزهرة الذى يرى أنه السبب فى تلطيف طبيعتهم القاسية![١٠٥]، وكأنه يؤكد بطريقة مختلفة نظريته فى تفسير طبيعة التمرد الدائمة عند المصريين التى لا تخفيها الطبيعة المرحة !. أما الخاصية الثانية فيحددها بقدرة هذا البلد على استيعاب الآخر، بصرف النظر عن ثقافته وجنسه وديانته، وهذا ما يفسر فى تقديره كثرة تعدد الأجناس والأعراق التى حصرها بـــ ٧٠ عرقاً يتحدثون ١٤٠ لغة"[١٠٦]، وأن الإرادة الإلهية هيأت لمصر أن يعيش بها كل "هؤلاء الخلائق فضلاً من الله ومنة"[١٠٧]. ولا يخفى أن مثل هذه البيانات كانت ترمي إلى التأكيد على غياب وجود نسيج واحد يجمع المجتمع المصري، وأن الرعية فى مصر عبارة عن خليط من الأعراق

والثقافات، ومرة أخرى يذكرنا ذلك بمقولات أساسية ترددت بحذافيرها بعد ذلك بقرنين فى الخطاب الكولونيالى السائد منذ أواخر القرن التاسع عشر؛ فاللورد كرومر- على سبيل المثال- فى كتابه الشهير "مصر الحديثة" طرح الفكرة نفسها بطريقة ربما أكثر صراحة ومباشرة بدءاً من تساؤله: من هو المصري الحقيقي؟[١٠٨]، معتبراً أن هذا السؤال من الصعب إيجاد إجابة حاسمة عليه؛ لأن "السكان فى مصر" - وهو عنوان أحد فصول الكتاب[١٠٩] - عبارة عن "خليط" من الشعوب والأعراق الأخرى، وهو يصدر اصطلاح "الشرقي" كبديل يمكن أن يشكل مظلة تجمع هذا الخليط من البشر، وبعد هذا التشكيك فى وجود "أمة مصرية" فى الأساس ينتهي إلى أن فكرة أن مصر يقطنها المصريون أمر جائز على سبيل الافتراض![١١٠]. وهكذا فإن تصدير أوليا جلبي لفكرة تعدد الأجناس والثقافات واللغات فى مصر إنما هو أحد مستهدفات الخطاب العثماني التى تروم إثبات أن مصر ولاية لا يملكها أحد، ولا تنتسب لأمة لها مقومات مستقلة، فى حين عبر تفعيل التفاوت والمقابلات يعلو الحديث عن "أمة الروم" ذات "العرق الطاهر"[١١١].

النظرة إلى الذات من خلال الآخر

معروف أن الرحلة عن مصر، وأن الفكرة المركزية فى النص من المفترض أنها تكشف عن ملامح الحياة فى مصر بتكويناتها الثقافية والاجتماعية والمادية، لكن من خلال إشارات متناثرة داخل النص يمكن تكوين صورة ذات ملامح واضحة، إلى حد كبير، إذ إن المتخصصين فى دراسة منهجيات كتابة النص الرحلي يوضحون إمكانية رؤية الذات عبر المقارنات المتعددة والقاسية أحياناً التي يجريها صاحب النص بصورة مباشرة وغير مباشرة، فيصبح "اكتشاف الآخر هو في نفس الآن اكتشافاً للذات" [١١٢]. وثمة معلومات فى الحقيقة قد ندت عن قلم أوليا جلبي فى مناسبات معينة كإبدائه موقفًا تحفظيًا إزاء بعض عادات المصريين المستهجنة لدى الأتراك، أو لجوئه أحيانًا إلى الإفصاح عن انتقاداته الصريحة لبعض الممارسات التى لم يقبلها هو نفسه على مستوى شخصي، أو فى تحريه وتتبعه للوجود

التركي، وإشادته بانتشاره المتميز فى مجالات مختلفة، وفضلًا عن هذا وذاك ففي وسعنا تلمس البعد المقارن بين الذات والآخر في طريقته في استخدام المصطلحات بمضامين تُعلي من شأن الذات فى مقابل الآخر. ومن ثم يمكننا متابعة رصد دلالة المصطلحات، وتحليل طريقة توظيفها واستخدامها فى سياق مقارن داخل نص الرحلة.

والحقيقة أن الإشارات القليلة الواردة فى الرحلة تُظهر ملمحًا أساسيًا فى النظرة إلى الآخر من خلال ما يُعرفه إدوارد سعيد "بالذاتية المتعالية"[١١٣] التي يُراد لها أن تعبر عن خلق مسافة فاصلة بين واقعين متباعدين؛ الأنا (التركية) التى تجسد موقع السيد بمركزيته الحاكمة، والآخر التابع الواقع فى منزلة أقل بالضرورة. ويجد هذا التصنيف الإثني فى المفاضلة والتمايز الاجتماعي تعبيراً عنه فى مصطلحين أساسيين؛ "أولاد الروم"، و"أولاد العرب"[١١٤] اللذين استخدمهما أوليا جلبي للترميز إلى خطاب القوة فى علاقة الأنا بالآخر.

صحيح أنه أشاد بالحضارة الفرعونية، وبماضي مصر القديم، إلا أنه، وكعادته، فى استخدام أسلوب تجريد الآخر من القدرة على العمل الخلاق، نجده يشير إلى أن شبكة الري المحكمة، وقواعد البناء الهندسي الدقيقة التى أنشأها قدماء الكهنة" كانت مستلهمة من معجزة النبي إدريس عليه السلام"[١١٥]؛أي مستوحاة من أنبياء لا ينطقون عن الهوى، وإذا أضفنا إلى ذلك ما ذكرناه آنفاً من إرجاعه عظمة حضارة مصر إلى "المشيئة الإلهية"، لتبين لنا أنه، وبشكل غير مباشر، قصد تجريد المصريين من دورهم وإبداعهم الخلاق الأصيل!، ومن ثم تظل دلالة مصطلح "فرعونى/ فراعنة"، المستخدمة فى تقريره، تشير فحسب إلى المعاني السلبية (التجبر والقهر) التي لصقها بالمصريين بصفة عامة. وخلافاً لإدراكه للبعد الثقافي وتبايناته، كانت مسألة تذكير القاريء، غير مرة، بأن المصريين تجمعهم أرومة واحدة، هي "الفرعونية"، وأنه لا يوجد بها أحد من "غجر الأروام/ الأتراك"[١١٦]، تؤكد على مدى إلحاحية التصنيف الإثني عند التعرض لوصف طبيعة انتشار الجاليات

المختلفة على أرض مصر.

ومن السهولة بمكان على القاريء للرحلة أن يلحظ ما يعنيه أوليا جلبى بكلمة "ابن عرب"، أو مصطلح "أولاد العرب"، إنه يعني عنده تحديدًا "الفلاح /الفلاحين"[١١٧]، وينص على ذلك صراحة: "إن فلاحي مصر من أولاد العرب"[١١٨]، ومصطلح "الفلاحة/ الفلاحين" (المعبر فى رأيه عن غالبية المصريين[١١٩]) إنما يحمل فى منظوره درجة من الازدراء، تفيض بها نعوته وأوصافه وعباراته التى وسم بها الفلاحين المصريين، والتى ترسم صورة لنوعية شاذة من البشر، تستحق، فى تقديره، المتابعة والمشاهدة والتسجيل[١٢٠]، وكأنهم أشبه بالمخلوقات الغريبة التى هبطت من السماء، فهو يصفهم بـــ"المكر والدهاء واللصوصية، وأفعال الشيطنة، والعناد والفسق والفساد"[١٢١]. ويلفت النظر عنوان جانبي كاشف لدلالة اعتقاده فيهم، ونظرته إليهم: "بيان ما بمصر من الأفعال القبيحة"؛ إذ لم يخص تحت هذا العنوان سوى الفلاحين المصريين وحدهم!"[١٢٢]، في حين لم يعن بالعنوان المقابل ""بيان محاسن مصر" سوى شبكة الري والفيضان، ووجود "فتيان الأتراك الأقوياء ذوي المكانة والشجاعة"، القادرين على ضبط الأمن، وضمان توزيع حصص المياه على القرى بنظام لا يعتريه الخلل"[١٢٣]. إذًا فإن مضمون "محاسن مصر" من وجهة النظر التركية التي يمثلها أوليا جلبى تشكلت على ضوء مصالح استانبول نفسها، ونظرتها البرجماتية لعلاقتها بولاية مصر من ناحية، ووجود دور محوري لرجال من الأغوات العثمانيين من ناحية ثانية، أما مضمون "ما هو قبيح" فيظل مرتبطًا– فحسب – بالفلاحين " جبابرة مصر" المثيرين للقلاقل والاضطرابات بما يهدد، فى بعض الأحيان، مصالح السلطة. ومن غير شك فقد حملت هذه النظرة درجة من التعالي والازدراء لشأن الفلاح المصري.

ومن الجدير بالذكر أن النخبة العثمانية البيروقراطية المثقفة كانت تستخدم كلمة "فلاح" عمومًا للتعبير عن الازدراء للآخر، ليس فى مصر فحسب، وإنما فى الأقاليم المجاورة كذلك، ونذكر– على سبيل المثال– الواقعة الشهيرة لراغب باشا، الحاكم العثماني على دمشق، الذى وصف نظيره أسعد

باشا العظم حاكم دمشق (العربي) السابق بأنه "فلاح ابن فلاح" لما رفض هذا الأخير مساعدة راغب باشا في الانتقال سريعًا إلى استانبول، واستلام مهامه كصدر أعظم"[١٢٤]. وإذا كانت كلمة "عرب" تعرفها اللغة العثمانية الكلاسيكية بمعنى "أسود/ زنجي"[١٢٥]، وتحمل المعنى نفسه فى قواميس اللغة التركية الحديثة![١٢٦]، فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن السياقات التى وظف فيها أوليا جلبي، بشكل عام، الصفات الثلاث ***" فلاح/ ابن عرب/ فرعون"*** لوصف ما هو مصري لم تكن بعيدة تمامًا عن أن تحمل فى طياتها ذات المضمون المنتقص من شأن ومكانة الآخر (المصري).

وفى خط متواز مع نظرته الإثنية للمصريين، نجده يُعرض بالمماليك، بل ويعبر عن وجهة نظره فيهم بصورة أكثر وضوحًا، وأشد نقدًا لهم؛ ففى سياق مقارنته بين السلاطين المماليك وسلاطين العثمانيين، نجده يصف السلالة التركية "بالعرق الطاهر"؛ ويعلل ذلك بفكرة روجتها السلطنة حول أصول العثمانيين الأولى بأن نسبهم يعود إلى بعض أنبياء الله، وبالتحديد "يوسف ونوح عليهما السلام"[١٢٧]، فى حين يُعرض بأصول السلالة المملوكية غير مرة، واصفًا إياهم "بالعبيد الأرقاء" الذين لا نسب لهم ولا حسب"[١٢٨]، ويصعد انتقاده لهم إلى حد وصفهم "بالحشرات" ![١٢٩]، بينما نجده فى المقابل يستخدم مفردات تُعلي من شأن عسكر السلطنة مثل وصفه لهم بـــ" الأبطال العثمانيين... الغزاة المجاهدين"[١٣٠].

وفى ذات السياق يمكن أن نفهم دلالة ومغزى المقارنات السريعة التى تناثرت بطول المجلد بين سلوكيات النخبة التركية وغيرها من المجموعات الاجتماعية المستقرة بمصر، ونذكر منها- على سبيل المثال- مقارنته بين الرواق التركي ونظيره العربي بالجامع الأزهر؛ فهو يصف "الرواق الرومي" بأنه" رواق نظيف جدًا، ومحبوب لسكانه (الأتراك)، وكثير الأوقاف، بينما الرواق العربي والرواق المغربي ليسا بنظيفين"[١٣١]، وحتى إذا وُجدَ مكان ما يكترث الناس بنظافته نجده يعلل الأمر بالحضور التركي القريب أو المجاور للمكان[١٣٢]: أيضًا عند تناوله لوصف طريقة المصريين فى الاحتفال بالأفراح

السلطانية، نجده يستخدم مفردات تشي بعدم ارتياحه أو انزعاجه منها؛ فهى تمضي فى ظل "طنطنة وجعجعة" غير منظمة، ولا يكاد يسمح للأهالي بالاحتفال حتى تقع فيهم الفوضى والمشاجرات، ويصبحون- حسب وصفه - " كالخيول الشرسة التى رفع عنها القيد"!. ومن وجهة نظره، تظل طبيعة المصريين بالضرورة قاسية" فهم يشرعون فى الشجار لأتفه الأسباب؛ لأن طبع مصر زهري"![١٣٣]، فى حين أن مثل هذه الأفراح تمضي فى استانبول بنظام لا يعتوره خلل؛ لأن "أهالي استانبول يعيشون على الضبط والنظام"[١٣٤].

وإذًا فالقدر هو الذى شكل عقلية المصريين، وحدد طبيعة سلوكياتهم اليومية حين كُتِبَ على مصر أن تكون منتمية للأبد إلى كوكب الزهرة، بينما سلوكيات الأتراك لا تحتاج عنده إلى تفسير مماثل؛ لأن طبيعتهم جُبلَت على النظام والرفعة، وكذا الحال فى تلقيهم للعلم وعلوم الدين والشريعة، فمثلًا عند المقارنة بين متعلمي قراءات القرآن الكريم من الأتراك ونظرائهم المصريين، نجده يُشيد بالحفظة الأتراك، وبقدرتهم على التعلم السريع، وتشبيع وإعطاء الحروف حقها، وحسن أداء نطقها، وفقا للقراءات السبع المعروفة، بينما نظراؤهم المصريون، ولو أن بينهم بعض الحفظة العظام، إلا أنهم "يقعون فى اللحن الجلي والخفي، ويخرجون الحروف بإمالات التسهيل والترقيق"[١٣٥]، ويعزو التفوق التركي فى هذا الصدد إلى طبيعة الشعب التركي نفسه" فهو شعب ذكي، ومقلد رشيد"[١٣٦].

ومن ناحية أخرى، ومن واقع طبيعته المتحفظة، نجده يصف النساء المصريات" بأنهن فى غاية من قلة الأدب والحياء"، وذلك برغم إشادته بأنهن جاذبات جدًّا[١٣٧]، كان هذا بالطبع مقارنة بنظرائهن من النساء التركيات. لكن الملفت بالفعل أن نقده العام للنساء المصريات قد جاء، على غير توقع، فى سياق انتقاداته اللاذعة لطبيعة الفلاحين "الجبابرة"، وحيواناتهم العصية على الطاعة كذلك، والسبب راجع إلى أن هؤلاء جميعًا رجال الفلاحين والنساء والخيول يشربون من مياه النيل![١٣٨].

ومن الجليّ أن فكرة التمييز القائمة على نسب كل ماهو مهندم ونظيف

ومرتب، وذو حياء والتزام وسلاسة إلى العنصر الرومي (التركي)، والجزم فى المقابل ببقاء المصريين، بفعل عوامل حتمية لا فكاك منها، فى دائرة التخلف والتجرد من تلك الصفات الحسنة إنما تتضمن- بشكل واضح- رغبة حقيقية فى تحسين صورة التركي العثماني فى مقابل الحط من قدر الآخر العربي/ المصري.

إن هذه المقابلة ذات الطابع الإثنى تشير إلى ما هو أكثر من الانفصال الذي أملته المسافة الجغرافية، كما تشير إلى إحساس بالاختلاف بين ما هو تركي/ عثماني، وما هو عربي/ مصري، وتجد انعكاسها، بدرجة متوازية إلى حد كبير، في المثقفين العرب (أمثال الخفاجي والنابلسي والمرادي وغيرهم) الذين زاروا استانبول، واحتكوا بنظرائهم الأتراك، ومروا بالتجربة نفسها، وأدركوا حالة التباين والاختلاف الثقافي بين الجانبين.

****

خاتمة

نخلص من هذه الدراسة إلى أن أوليا جلبي حين رحل إلى مصر كان مُحَمَّلا بضروب من التعاطف والانحياز لبني جلدته، وللثقافة العثمانية التى كان ينتمى إليها، ويُباهي بها، وأنه بعد تجربة الاحتكاك والمعايشة في مصر، لثماني سنوات، لم يستطع تغيير رأيه فى ثوابت أفكاره وحدودها؛ لأن الأمر برمته كان متعلقاً بعقيدة راسخة يجري الترويج لها حول مفهوم "التابع" الذي لا يرقى، على المستوى النظري، إلى ثقافة النخبة التركية التى يتعين أن تظل لها السيادة والحكم، فيما حُدِدَ للرعية (العثمانية) دور وظيفي لا تتخطاه ألا وهو الانغماس فى الإنتاج، والخضوع للمركز. وفى هذا الإطار بدا الوعى بـــ "الأنا التركية" المتسيدة واضحًا جليًا عند أوليا جلبى، واتخاذها، فى كثير من الأحيان، معيارًا لوصف الأشياء من حوله، والحكم على السلوكيات الثقافية التى رصدتها عدسته خلال رحلته في مصر.

إذن لم يستهدف تقرير أوليا جلبي الوصف، ولا نقل صورة الواقع،

ولكنه تحرك في إطار مهيمنات الخطاب العثماني التى استهدفت تصوير مجيء العثمانيين للمنطقة كبداية" للعهد السعيد"، وتصوير هذا الأمر كحدث تاريخي نوعي استطاع الإجهاز على الاستبداد المتجذر، ووضع نهاية لحقبة طويلة من الظلم الاجتماعي والتدهور الاقتصادي، وبالتالى فمهمة الغزو العثماني، وفقاً لهذا المنظور ، تكتسب طابعاً أخلاقياً؛ لأنها لم تتبن على نزعة من التوسع، وإنما رامت إنقاذ مصر والمشرق العربي قبل أن يطمسهما تيار الاستبداد والفوضى. لقد شكل مجمل هذه الأفكار المهيمنات التى وجهت النص، وصاغت هيكله.

ومن المفارقات التى تطرقت إليها الدراسة أن مقاربة الخطاب العثماني لا تجعله بعيداً فى كثير من ملامحه وأبعاده مع صنوه" الخطاب الكولونيالي" الأوروبي المروج لأفكاره منذ حملة آخر القرن الثامن عشر (الحملة الفرنسية) وما تلاها على مدار العقود المتراكمة بين القرنين الـــ ١٩ م والــ ٢٠م، فالفكرة الأساسية فى الخطابين (العثماني / الأوروبي) تستهدف طوال الوقت تبرير الغزو، والبحث عن شرعية لاستمرارية السيطرة، وإقرار التبعية، كذلك اتفقا فيما هو معلن من ظاهر الخطاب في ترويجهما لقيمة واحدة تلخصها مقولة القضاء على " الاستبداد" من أجل تهيئة المجال لتحقيق العدالة، ومن ثم نشر ثقافة الإعمار (أو التحديث بالنسبة للخطاب الأوروبي) بما يجعل الخطاب العثماني، فى النهاية، معبراً فى جوهره عن " ثقافة محتل" كان يبحث، عبر الخطاب، عن ترسيخٍ لتوسعاته واستمرارية بقائه.

****

الهوامش:

١محمد على عونى: سياحتنامة مصر، تحقيق: عبد الوهاب عزام، وأحمد السعيد سليمان، وتقديم ومراجعة: أحمد فؤاد متولي، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة، 2003؛ وثمة ترجمة أخرى قدمها الصفصافي أحمد القطوري، وبالمقارنة بينهما تبين أن ترجمة الصفصافي ليست سوى إعادة نشر كاملة لنص ترجمة محمد عونى ! ، وتقتصر الإضافة الجديدة فقط فى ترجمته للصفحات الواقعة فى نهاية المجلد التاسع، والتى تتناول خروج أوليا جلبي من مكة متوجهًا إلى القاهرة. ولذا اعتمدنا بشكل أساسي على نص ترجمة محمد عوني، ورجعنا بحسب الحاجة إلى الجزء المترجم من المجلد التاسع عند الصفصافي القطوري، الصادرة تحت عنوان: الرحلة إلي مصر والسودان وبلاد الحبش، (المجلد الخاص برحلة الوصول إلى مصر القاهرة)، المركز القومي للترجمة، ج ١، الإصدار ١٤٩٢، القاهرة، ٢٠١٠، ١ ص ص ٨٣ -١٦٠]. وللتميز بينهما أشرنا إلى ترجمة عوني باسم كتاب سياحتنامة مصر، وترجمة الصفصافي باسم الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش.

٢روبير مانتران: تاريخ الدولة العثمانية، (جزآن)، ترجمة: بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣، ج ١، ص ص ٣٩٨ ، ٣٩٩. وبشكل محدد تشير فاروقي إلى أن معظم المصادر الأولية قد اعتمدت منظور "مركزية استانبول، راجع ثريا فاروقي: الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، ترجمة: حاتم الطحاوي، مراجعة: عمر الأيوبي، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٥، ص ٦٣، ٦٤.

٣قدمت الموسوعة الإسلامية تحديداً لعدد الدول التى زارها وضمنها فى كل مجلد من المجلدات العشر، راجع :

Evliya Çelebi : The Encyclopedia of Islam, New edition, B. Lewis, Ch. Pellat and J. Schacht (eds.), Vol. II, London, 1965, pp.717-720.

٤إدوارد وليم لين: عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم (مصر ما بين ١٨٣٣ – ١٨٣٥)، ترجمة: سهير سهوم، مكتبة مدبولي، القاهرة،١٩٩١.

٥لعل دراسة إدوارد السعيد من أهم القراءات النقدية لهذا المصدر ضمن كتابه الرائع: الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦، [انظر الفصل الثاني ص ص ١٩٧ – ٣١٥، والرجوع بصفة خاصة

إلى صفحات ٢٦٠ - ٢٧١].

٦للتعرف على أهم الرحالة المسلمين الذين زاروا مصر فى العصر العثماني، يمكن الرجوع لأحدث الدراسات التى نشرها محمد عفيفي تحت عنوان: صورة مصر عند الرحالة المسلمين في العصر العثماني، مجلة حوليات إسلامية، المجلد رقم ٣٣، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٩٩، [ص ص ٦١ - ٧٧].

٧من المعروف أن المعهد الفرنسي للآثار الشرقية قد نشر عشرات الرحلات المهمة، وثمة دراسات جادة أجريت حول هؤلاء الرحالة الغربين تفاوتت فى العمق والتحليل، لكنها غطت مساحة زمنية طويلة بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر، ومنها:

Sarga Moussa : Le Voyage en Égypte , anthologie de voyageurs Européens , De Bonaparte à l' occupation Anglaise, Ropert Laffon, Paris, 2004 ; Carré, J. M. : Voyageur et écrivains français en Égypte, [2 tomes], Le Caire, 1932 ; Clément, R. : Les Français d' Égypte aux XVIIe et XVIIIe siècles, Le Caire, 1960 ; Shirley Howard Weber : Voyages and Travels in the Near East fore 1801, Princeton 1997.

وإلهام محمد على ذهني: مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر، القاهرة، ١٩٩٢.

٨يعد مصطفى علي واحداً من أشهر مؤرخي وأدباء الدولة العثمانية الذين ظهروا فـي القرن السادس عشر، له ما يزيد عن ٦٠ مؤلفاً في التاريخ والأدب، أشهرها "كنه الأخبار" و"موائد النفائس في قواعد المجالس" و"حالات القاهرة من العادات الظاهرة"، وكان يستهدف من رحلاته واطلاعاته الواسعة وضع كتاب كبير حول " تاريخ العالم "، ولذا كان يتطلع أن يمنحه الباب العالي باشوية مصر، أو وظيفة دفتردار لها؛ لأن مصر على حد قوله - بالنسبة لمشروعه - كانت المكان المثالي الذي يتطلع إليه؛ حيث تتوافر بها الكتب المهمة، لكن لم يستجب لطلبه، وتم تعيينه بدلاً من ذلك أميناً لميناء جدة، وكانت القاهرة آخر محطاته حيث مات بها فى عام ١٦٠٠م دون تحقيق مشروعه الموسوعي الكبير. راجع المقدمة التحليلية التي وضعها أندرياز ديتز لترجمته لكتاب مصطفى علي: حالات القاهرة من العادات الظاهرة، من اللغة التركية إلى اللغة الإنجليزية:

Mustafa Ali: Description of Cairo of 1599, edited by Andreas Dietze, Vienna 1975, pp. 7 – 21.

٩ولاحظ أندرياز ديتز من خلال قراءة وترجمة نص المخطوط أن مصطفى علي كان يعنى بالقاهرة " مصر كلها". راجع :.Ibid,p.10

١٠خالد ضياء الدين : ذكريات مصورة عن مصر، ترجمة: سامية محمد جلال، مراجعة: الصفصافي أحمد القطوري، المركز القومي للترجمة، الإصدار رقم ١٠٣٨، القاهرة،

.٢٠٠٦

١١جوفي ميكيله فانسليبو (١٦٧١) المنشورة تحت عنوان: تقرير الحالة الحاضرة لمصر 1671، ترجمة: وديع عوض، مراجعة: محمد عفيفي، المركز القومي للترجمة، الإصدار رقم ١٠٠٥، القاهرة، ٢٠٠٦.

12 Edward Brown : Voyage en Égypte , 1673 – 1674, traduit de l'anglais par Marie-Thérèse Bréant et avant- propos, notes et index de Serge Sauneront , [IFAO], le Caire 1974.

13 Ellis Veryard : Voyage en Égypte pendant les années 1678 – 1701, [IFAO] , Le Caire 1981.

١٤تشير ثريا فاروقي إلى أن مواهب أوليا جلبى الاجتماعية هى التى جعلته رفيقًا مفضلًا لكبار الموظفين، وأنه استغل علاقاته مع الصدر الأعظم مالك أحمد باشا وغيره من الشخصيات المرموقة فى البلاط العثماني، ليس من أجل تعيينه فى مناصب ذات رواتب عالية، بل للحصول على فرص للسفر. راجع: ثريا فاروقى: الأزمة والتغيير (1590 – 1699) فى : التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مجلدان، تحرير: خليل إينالجك ودونالد كواترات، دار المدار الإسلامى، بيروت، 2007، مج 2 ، ترجمة: قاسم عبده قاسم، ص 231.

١٥أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ١٤٥.

١٦يشير محمد حرب إلى أن أوليا جلبي أتيح له، فى كل بلد عثماني زاره، الاطلاع على السجلات الرسمية ودفاتر التعداد والإحصاءات الخاصة بكل من استانبول ودمشق والقاهرة، وأنه كان له اهتمام كبير بتدوين الأرقام، راجع: محمد حرب: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق، 1989، ص ٣٨٨.

١٧أوليا جلبي: الرحلة الحجازية، ترجمة: الصفصافي أحمد مرسي، دار الآفاق العربية، ١٩٩٩، ص ٢٩٢.

١٨أوليا جلبي: الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش، ص ١٥٥.

١٩اعتاد أوليا جلبي عند جمع المعلومات، وبخاصة المتعلق منها بالمالية، مساءلة الكثيرين من العاملين بالروزنامة، وحين كانت تتجمع أقوالهم أو تصريحاتهم كان يدونها فى متن تقريره، وفى بعض الأحيان كان يشير إلى ذلك صراحة، راجع أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ٢٠٦.

٢٠أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ٢٦٥، ٤٣٥ ، ٥١٧ – ٥٨١.

٢١أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ٢٢٥.

22Shaw, S.J: The Financial, Administrative Organization, and Development of Ottoman Egypt 1517-1798, P.U.P. 1962, pp. 291 -294; André Raymond : Le Caire Des Janissaires, CNRS Editions, Paris, 1995, p.21.

٢٣لطالما أبدى أوليا جلبي إعجابه بسياسة إبراهيم باشا المالية، فى غير موضع من كتابه، ووصفه بالوزير البصير المدبر، وحيد عصره فى الكتابة وعلم المحاسبة، وأنه لم يأت لمصر حتى عهد قريب وزير مثله؛ أي حتى مطلع ثمانينيات القرن الـ١٧م. راجع أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ص ٤٤٨، ٥٧٥.

٢٤أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ص ١٩١، ١٩٢، ٢٠٧، ٢٢٣ – ٢٢٩، ٤٤٨، ٥١٣، ٥١٦، ٥٢٧، ٥٢٩، ٥٧٥، ٥٧٦.

٢٥أشار بوضوح إلى بعض أساليبهم فى التحايل على مخصصات الوزراء والخزينة، في سياق الفصل الخامس عشر، المتعلق بمطلب " قوانين مصر" منذ عهد السلطان سليم وحتى نهاية تاريخ رحلته، راجع: أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ص ١٨٧-١٩٣.

26 Shaw, S.J: op.cit, pp. 293 -294.

٢٧*أحمد شلبي بن عبد الغني: أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة، ١٩٧٨، ص ص ١٧٠ – ١٧٤.*

٢٨نفسه، ص ص 239، 477، 504.

٢٩نفسه، ص 235.

٣٠ أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ص ٥٧٦.

٣١أوليا جلبى: سياحتنامة مصر، ص 222.

٣٢من أهم الدراسات التى عالجت بنية الفضاء والزمن فى أدبيات الرحلة دراسة شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي.. التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، كتابات نقدية، الإصدار رقم ١٢١، القاهرة، أبريل ٢٠٠٢، ص ص ٣١٧ – ٣٣٢.

٣٣نجد فى مواضع متفرقة من المجلد العاشر اهتمامه بذكر بعض التواريخ، لكنه يوردها في لحظات متباعدة للتذكير بأحداث مهمة فى ذاكرته، يضاف إلى ذلك سبب آخر له علاقة وطيدة بالتركيز على الأماكن لتتبوأ المساحة المحورية التي تأخذ بزمام الحكي، وهنا تغدو الإشارات الزمنية جزءاً تابعاً للفضاءات. وعلى كل حال جاءت الإشارات الزمنية، فى مجملها، محدودة جداً، ولعل أبرزها تحديد دخوله لمصر فى ٧ صفر ١٠٨٣ه (١٦٧٢م)؛ لتسجيل راهنية اللحظة التاريخية التى بدأ معها سياحته فى مصر، ومنها أيضاً رصده خبر موت الشيخ محمد البكري فى عام ١٠٨٧ه/ ١٦٧٦م ، والذي نعته بأنه "ولي نعمته" !، وكذا إشارته إلى حدث كبير ومؤثر يتعلق باندلاع الحرب

العثمانية الروسية فى عام ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م. وقد يضاف إلى ذلك أخيراً اهتماماته بعلم التنجيم والنبوءات، والتى أشار فى واحدة منها إلى اقتراب تحقق نبوءة تتعلق بأحوال مصر في المئوية الجديدة للقرن الثاني عشر الهجري بأنه وفقاً لرؤية الحكماء" فإن مصر بعد عام ١١٠٠هـ/ ١٦٨٩م ستعمر عمرانا كبيراً جداً " ...إلخ .

٣٤أوليا جلبي: سياحتنامة مصر، ص ٢٥.

٣٥نفسه، ص ٦٠٦ .

٣٦اعتاد كتاب الأخبار اتخاذ هبوط آدم- عليه السلام-، وتوالي قصص الأنبياء، ثم الدول التى تعاقبت منذ ظهور الإسلام كمسار زمني تقليدي للتأريخ لمصر قبل مجيء العثمانيين، ويبدو أن أوليا تأثر بهذا التقليد من واقع اطلاعه على كتب الأخبار، وأحد أبرز الكتابات التى اتخذت نفس المسار، ويمكن المقاربة معها مخطوط لمجهول بعنوان: زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر المحروسة، مكتبة المتحف البريطاني، رقم Add ٩٩٧٢، ورقة ٢، ٣.

٣٧أفرد ثلاثة فصول فى الكتاب لرصد قائمة طويلة من السلاطين والملوك الذين استحوذوا على حكم مصر، مع تحديد مدة حكم كل منهم، وهي الفصول رقم ١٠، ١١، ١٢، راجع: أوليا جلبي: سياحتنامة مصر، ص ص ٦٨ - ١٣٥.

٣٨نفسه، ص ٦٠٦.

٣٩نفسه، ص ٢٢٣، ٢٢٤.

٤٠نفسه، ص ٢٢٨.

٤١أوليا جلبي: سياحتنامة مصر، ص ٢٩.

٤٢لمزيد من التفاصيل حول بنية الأفكار الاستشراقية الخاصة بمصر، راجع أطروحة هنري لورنس: الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر .. الاستشراق المتأسلم في فرنسا (١٦٩٨ -١٧٩٨م)، ترجمة: بشير السباعي، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٩م.

٤٣لعل أهم المصادر الفرنسية التى نشرت مؤخراً وعبرت عن مضمون الخطاب الفرنسي الرسمي لفكرة ما تعنية "حملة مصر" المعروفة بـ "الحملة الفرنسية" مذكرات الجنرال هاويه التى نشرتها دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، انظر:

Hauet, E.L.F : Expédition d'Égypte (1798 – 1801), Mémoires d'un officier de l'armée française, Bibliothèque et Archives Nationales d' Égypte, Le Caire 2005.

وقد ألحق بالنص عدة دراسات نقدية لمذكرات هذا الجنرال الذي اضطلع بكتابة تاريخ رسمي للحملة الفرنسية، راجع دراستي كل من ناصر أحمد إبراهيم: شهادة تاريخية

مؤجلة لأحد ضباط الحملة الفرنسية، [ص ص ٥١ – ٦٩]، وهنا فريد: " خطـاب أيديولوجي أم خطاب تاريخي؟ " [ص ص ٧١ – ٨٦].

44Holt, P.M: Egypt and the Fertile Crescent, 1516 – 1922, London 1980. [pp. 85 - 101].

أندريه ريمون: المدن العربية الكبرى فى العصر العثماني، ترجمة: لطيف فرج، دار الفكر والترات للنشر والتوزيع، الطبعة ١، القاهرة، ١٩٩١، ص ٣١.

٤٥تحولت السيادة العثمانية إلى سلطة اسمية / شكلية، بشكل واضـح، مـع " بيـت القازداغلية" الذى تمكن من الانفراد بالسلطة خلال سـتينيات القـرن الـــ ١٨م. ولمزيد من التفاصيل حول بيت القازداغلية، راجع دراسة صبري العـدل: سـيادة البيت القازداغلي على مصر ١٦٦٢– ١٧٦٨، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٩٥.

٤٦أوليا جلبي: سياحتنامة مصر، الفصل رقم ١٣، ص ص ١٣٦ – ١٨٢.

٤٧هشام سوداوي هاشم: صورة المجتمع المقدسي فى القرن السابع عشر من خلال رحلة أوليا جلبي، بحث مقدم للمؤتمر الخامس لكلية الآداب: القدس تاريخاً وثقافة، الجامعـة الإسلامية بغزة، ٢٠١١. (البحث محمل على الموقع التالي:

http://research.iugaza.edu.ps/files/10096.PDF

٤٨يُحددها من واقع سجلات الروزنامة بـ 71 خزينة، وكل خزينة بهـا 1200 كـيس مصري (وكل كيس مصري يعدل ٢٥٠٠٠ بارة)؛ أي ما يصل إلى مليـاري ومائـة وثلاثين مليون بارة، راجع أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ص٢٢٥، ٢٢٨.

٤٩ أوليا جلبي: سياحتنامة مصر، ص ١٨٩.

٥٠ظلت هذه الفكرة تورث للمماليك عبر الحكي والمسامرات، وخصوصًا في الأوقات التى اشتدت فيها شوكة المماليك فى قمة السلطة، وازدادت وضوحاً– وفقاً لملاحظة مراقب مخضرم مثل الجبرتي– منذ عهد على بك الكبير. راجع: عبد الـرحمن الجبرتـي: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، تحقيق: عبد الرحيم عبد الـرحمن، دار الكتـب والوثائق القومية، ١٩٩٨، (٤ أجزاء)، ج١، ص ٥٩٧.

٥١ليس من الثابت دخول سليم الأول للحجاز (قبل غزوه لمصر)؛ فقد شهدت تلك السنوات المضطربة صراعا على السلطة والنفوذ داخل القصر الإمبراطورى انتهى بين الإخوة بحسم السلطنة لصالح السلطان سليم الأول، ثم تجشمه عناء خوض حـروب شـرق الأناضول وشمال العراق قبل ولوجه المشرق العربي، راجع: خليل اينالجيك: تـاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة: محمـد الأرنـاؤوط، دار المـدار الإسلامي، ط١، بيروت، ٢٠٠٢، ص ص ٥٣، ٥٤، ٥٦، ٩٢.

٥٢توضح الرواية أن سليم جاءته البشرى وهو واقف على القبر على لسان شيخ عجوز لا يعرفه كان يجلس تحت شباك قبر الرسول، أوما إليه بالتوجه إلى مصر، وأن النصر حليفه برعاية الرسول محمد (ص) نفسه! إلى جانب كرامة أبداها له كل من العارفين بالله (الشيخ أبي السعود الجارحي/ والشيخ مرزوق الكفافي)، راجع: أوليا جلبي: سياحتنامة مصر، ص ص ١٤٩، ١٥٠.

٥٣نفسه، ص ١٧٩ – ١٨٢. والأمير كرتباي، وفقاً لابن إياس، كان برتبة "مقدم ألف"، وأنه تولى منصب" والي القاهرة " في زمن السلطان الغوري، وشارك في معركة مرج دابق بالشام، راجع: ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤، [٥ مجلدات]، ج ٥ ، ص ٦، ٢٦.

٥٤نفسه، ج ٥، ص ١٨١.

٥٥نفسه، ص ٣٨٦.

٥٦نفسه، ص ١٥٩.

٥٧أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ١٧٤. وتتعدد الصفات التي ألصقها بالمماليك مثل: " مجرمي الجراكسة المناجيس" .. و"الجراكسة اللئام" .. و"حشرات الجراكسة" ! ...إلخ.

٥٨ابن إياس: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٣٢ (ذو الحجة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧م).

٥٩نفسه، ج ٥، ص ص ٢٢٩، ٤٢١، ٤٣٣، ٤٣٤.

٦٠نفسه، ج ٥، ص ٤٣٤.

٦١نفسه، ج ٥، ص ٤٢، ٤٣.

٦٢عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك فى مصر، دراسة تحليلية للازدهار والانهيار، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٨م، ص ٣٤٥.

٦٣أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ١٥٩.

٦٤حادثة "يا سارية الجبل" حادثة تاريخية وقعت سنة ٢٣ هـ/ ٦٤٥ م، حيث حُوصر المسلمون من مشركي بلاد نهاوند بفارس، وإذا بالخليفة عمر بن الخطاب، وهو بالمدينة، يخطب فى المسلمين يجد نفسه يطلق النداء، من غير قصد منه، ولا معرفة سبب: "يا سارية الجبل، الجبل، من استرعى الذئب الغنم فقد ظلم."، وحين عاد سارية روى سبب قصة انتصاره أنه سمع صوتا يحثه على الالتجاء للجبل، ومكنه هذا من حماية مؤخرة الجيش، وانتصر بالفعل على مشركي فارس. ***واللافت للنظر فى هذا التوظيف للقصص التراثي، أن أوليا جلبي جعل مماليك الجراكسة (المسلمين) فى موضع مشركي فارس ! كى يبرر اعتداء السلطان سليم، وينفي عنه فكرة قتاله***

للمسلمين فى كل من الشام ومصر.

٦٥نفسه، ص ١٥٦.

٦٦نفسه، ص ١٣٥.

٦٧نفسه، ص ٧٢.

٦٨نفسه، ص ٩٨.

٦٩نفسه، ص ١٧٨.

٧٠نفسه، ص ١٧٤، ١٩٠. وهو يستخدم بعناية كلمات صريحة من أمثال "حررت إيالة مصر"، " فتحت مصر"، "السلطان سليم فاتح مصر " ...إلخ.

٧١ فيما دارت معركة مرج دابق بالشام فى ٨ أغسطس ١٥١٦م، كانت المعركة الحاسمة "الريدانية" قد وقعت فى ٢٢ يناير١٥١٧م.

٧٢أوليا جلبي: سياحتنامة مصر، ص ١٧٢.

٧٣نفسه، ص ١٥٦.

٧٤نفسه، ص ٢٣٧.

٧٥يبين ابن إياس تعدد مظالم السلطان الغوري، وبصورة أثقلت كاهل الناس، دفعته لكتابة بيتين من الشعر عبر بهما عن جزء من الصورة ، يقول ابن إياس:

في دولة الغوري رأينا العجب — وقد حَمَلنا فوق ما لا نطيق

وقـد كفى فى عامـنا ما جرى — من قلة الأمن وقطع الطريق

راجع: ابن إياس: المصدر السابق، ج ٥، ص ١٤،(لسنة ٩٢٢ هـــ/ ١٥١٥م).

٧٦نفسه، ص ٢٣٧.

٧٧نفسه، ص ١٨٢؛ ٤٣٥.

78Richard Burton: Personal Narrative of a Pilgrimage to al-Madinah and Meccah, ed. Isabel Burton, London: Tyiston & Edward, 1893, vol. 1, pp.112, 114.

والمقصود بـ" القرن الذهبي" هنا شريط البسفور الممتد على الجزء الأوروبي من تركيـا حالياً.

٧٩نفسه، ص ص ١١٨ – ١٣٥.

٨٠نفسه، ص ١٣٥.

٨١ويلاحظ أن الأرقام تلعب دوراً مهماً فى تحليله لهذه النتيجة، فالمماليك الجراكسـة لـم يحكموا سوى ١٣٩ عاماً (وجملة حكامهم ٢٥ سلطاناً)، فى حين أن الأمـم الغازيـة بعضها حكم أضعاف هذه المدة. راجع اوليا جلبي: المصدر نفسـه، ص ص ١١٨– ١٣٥.

٨٢يُلاحظ أنه كثيراً ما استخدم فى تخليد حكم العثمانيين اصطلاحات من نوع: "إلى انقراض الزمان"؛ "إلى انقراض الدنيا"؛ "انقراض الدوران". راجع: ص ص ١٧٦، ١٨٠، ١٨٧.

٨٣نفسه، ص ١٣٥.

٨٤نفسه، ص 437.

٨٥نفسه، ص ٤٠١.

٨٦نفسه، ص 207.

٨٧نفسه، ص 576.

٨٨نفسه، ص 608.

٨٩نفسه، ص607.

٩٠نفسه، ص 576.

٩١نفسه، ص607.

٩٢نفسه، ص 505.

٩٣ونجده يفرد فصلا خاصًا فى رحلته يتضمن أهم الصناعات الحرفية التى تتمايز بها مصر كما وكيفا عما هو سائد فى الولايات العثمانية الأخرى، راجع: ص ص 481-487.

٩٤نفسه، ص 222- 223.

٩٥نفسه.

٩٦ نفسه، ص ص607- 608.

٩٧نفسه، ص 435.

٩٨نفسه، ص ص517- 518.

٩٩نفسه، ص 265.

١٠٠نفسه، ص 435.

١٠١نفسه.

102Edward Brown : Voyage en Égypte , 1673 – 1674, traduit de l'anglais par Marie-Thérèse Bréant et avant- propos, notes et index de Serge Sauneront , [IFAO], le Caire 1974, p. 105 ; Ellis Veryard : Voyage en Égypte pendant les années 1678 – 1701, [IFAO] , Le Caire 1981, p.18

؛ جوفني ميكيله فنسلبيو: تقرير الحالة الحاضرة لمصر سنة ١٦٧١م، المجلس الأعلى للثقافة (المشروع القومي للترجمة، الإصدار رقم ١٠٠٥)، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٦٤، الأب الراهب سيمون: رحلة الراهب سيمون إلى مصر والشام، ترجمة: محمد حرب، كتاب الهلال، العدد ٦٧٧، مايو ٢٠٠٧، ص ١٠٦.

103 Todorov, T : Les morales de l'histoire, France, éd. Grasset, 1991, p. 105.

١٠٤إنفسه، ص 435. .

١٠٥نفسه، ص 505.

١٠٦ نفسه، ص266، ٦٠٧.

١٠٧نفسه، ص ٦٠٧. ويلاحظ أنه هنا أعاد التذكير بذات الأرقام إلا أنه رفع الرقم من ٧٠ عرقاً إلى ٧٢ عرقاً يقطنون مصر.

١٠٨اللورد كرومر: مصر الحديثة، ترجمة: صبرى محمد حسن، المركز القومى للترجمة، طبعة ١، جزءان (الإصداران رقما ٢١٥٦ / ٢١٥٧ لسنة ٢٠١٤، ٢٠١٥) ، ج ٢، ص ١٦٥.

١٠٩اللورد كرومر: المصدر السابق، ج ٢، **الفصل ٣٤: "السكان فى مصر"**، (ص ص ١٥٩- ٢١٠).

١١٠اللورد كرومر: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٦٣.

١١١أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ١٣٦. كذلك فى نص اللورد كرومر يصبح الحديث عن "أمة إنجليزية" من البديهيات.

١١٢شعيب حليفي: المرجع السابق، ص ٣٠١.

١١٣إدوارد سعيد: الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2008، ص 289.

١١٤نفسه، ص 609.

١١٥نفسه، ص 432.

١١٦نفسه، ص 265.

١١٧نفسه، ص ص 608، 609، 611.

١١٨نفسه، ص 609.

١١٩نفسه، ص 607.

١٢٠نفسه، ص 434، 609.

١٢١نفسه، ص 434، 611.

١٢٢نفسه، ص 432 - 434.

١٢٣نفسه، ص 431، 432، 434.

124Karl Barbir : Ottoman Rule in Damascus, 1708 -1798(Princeton university press, 1980), pp.59 - 60

١٢٥ترد كلمة "عرب – عراب" فى قاموس اللغة العثمانية القديمة بمعنى " أسود / زنجي"،

وتستخدم كصفة دالة على اللون الأسود؛ فللإشارة إلى القمح الأسود يقولون:"عـرب داريسي"، ويقولون "عرب كُولَه" بمعنى المملوك الأسود. راجع: محمد على الأنسـي: قاموس الدراري اللامعات فى منتخبات اللغات، د.ت، ص 375، مادة "عرب".

١٢٦Redhouse Yeni Türkce – Ingilizce SÖzlük Istanbul: Redhouse Press, 1968), p. 69.

١٢٧نفسه، ص 136.

١٢٨نفسه، ص ص 98- 435.

١٢٩نفسه، ص 168. كما وصفهم بتعبير شعبي"الجراكسة المناحيس"،(ص 174).

١٣٠نفسه، ص 170.

١٣١نفسه، ص 272.

١٣٢نفسه، ص 306، 307. فعلى سبيل المثال عزا نظافة مسجدي الشيخ كـريم الـدين الدنوشري والهندي، القائمين خارج باب الفتوح، إلى "مجاورتهمـا لأعيـان الـروم وأشرافهم"؛ وكأن شرط النظافة يظل مرتبطًا بوجـود النخبـة التركيـة نفسـها دون غيرها!.

١٣٣نفسه، ص 566.

١٣٤نفسه، ص 565.

١٣٥نفسه، ص 314.

١٣٦نفسه، ص 315.

١٣٧نفسه، ص435.

١٣٨نفسه.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية والمعربة:

- أحمد شلبي بن عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة، ١٩٧٨م.
- ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (٥ أجزاء)، القاهرة، ١٩٨٤م.
- إدوارد سعيد: الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2008م.
- إدوارد وليم لين: عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم (مصر ما بين ١٨٣٣– ١٨٣٥م)، ترجمة سهير سهوم، مكتبة مدبولي، القاهرة،١٩٩١م.
- إلهام محمد على ذهني: مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر، القاهرة، ١٩٩٢م.
- أندريه ريمون: المدن العربية الكبرى فى العصر العثماني، ترجمة: لطيف فرج ، دار الفكر والترات للنشر والتوزيع، الطبعة ١، القاهرة، ١٩٩١م.
- أوليا جلبي: سياحتنامة مصر، ترجمة: محمد على عوني، تحقيق: عبد الوهاب عزام، وأحمد السعيد سليمان، تقديم ومراجعة: أحمد فؤاد متولي، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2003م.
- ــــــــــــ : الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش، ترجمة: الصفصافي القطوري، المركز القومي للترجمة، ج ١، الإصدار ١٤٩٢، القاهرة، ٢٠١٠م.
- ــــــــــــ : الرحلة الحجازية، ترجمة: الصفصافي أحمد مرسي، دار الآفاق العربية، ١٩٩٩م.
- الأب الراهب سيمون: رحلة الراهب سيمون إلى مصر والشام، ترجمة: محمد حرب، كتاب الهلال، العدد ٦٧٧، مايو ٢٠٠٧م.

- اللورد كرومر: مصر الحديثة، ترجمة: صبري محمد حسن، المركز القومي للترجمة، طبعة ١، جزءان (الإصداران رقما ٢١٥٦ / ٢١٥٧ لسنة ٢٠١٤ ، ٢٠١٥).
- ثريا فاروقي: الأزمة والتغيير(1590 – 1699) في: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مجلدان، تحرير خليل إينالجك ودونالد كواترات، ترجمة: قاسم عبده قاسم، دار المدار الإسلامى، بيروت، 2007م.
- __________ : الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، ترجمة: حاتم الطحاوي، مراجعة: عمر الأيوبي، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٥م.
- خالد ضياء الدين: ذكريات مصورة عن مصر، ترجمة: سامية محمد جلال، مراجعة: الصفصافي أحمد القطوري، المركز القومي للترجمة، الإصدار رقم ١٠٣٨، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- خليل إينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة: محمد الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، ط١، بيروت، ٢٠٠٢م.
- جوفي ميكيله فانسليبو (١٦٧١) المنشورة تحت عنوان: تقرير الحالة الحاضرة لمصر 1671م، ترجمة: وديع عوض، مراجعة: محمد عفيفي، المركز القومي للترجمة، الإصدار رقم ١٠٠٥، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- روبير مانتران: تاريخ الدولة العثمانية، (جزآن)، ترجمة: بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣م.
- شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي.. التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، كتابات نقدية، الإصدار رقم ١٢١، القاهرة، أبريل ٢٠٠٢م.
- صبري العدل: سيادة البيت القازداغلي على مصر ١٦٦٢ – ١٧٦٨، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٩٥م.
- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن، دار الكتب والوثائق القومية،(٤ أجزاء)، ١٩٩٨م.
- محمد حرب: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق، 1989م.

- محمد عفيفي تحت عنوان : صورة مصر عند الرحالة المسلمين في العصر العثماني، مجلة حوليات إسلامية، المجلد رقم ٣٣، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٩٩م.
- مجهول: زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر المحروسة، مكتبة المتحف البريطاني، رقم ٩٩٧٢ Add.
- هشام سوداوي هاشم: صورة المجتمع المقدسي فى القرن السابع عشر من خلال رحلة أوليا جلبي، بحث مقدم للمؤتمر الخامس لكلية الآداب: القدس تاريخاً وثقافة، الجامعة الإسلامية بغزة، ٢٠١١م. (البحث محمل على الموقع التالي:

http://research.iugaza.edu.ps/files/10096.PDF

ثانياً: المصادر والمراجع الأجنبية:

-Carré, J. M. : Voyageur et écrivains français en Égypte, [2 tomes], Le Caire, 1932.
-Clément, R. : Les Français d' Égypte aux XVIIe et XVIIIe siècles, Le Caire, 1960.
- Mustafa Ali: Description of Cairo of 1599, edited by Andreas Dietze, Vienna 1975.
-Edward Brown : Voyage en Égypte, 1673 – 1674, traduit de l'anglais par Marie- Thérèse Bréant et avant- propos, notes et index de Serge Sauneront, [IFAO], le Caire 1974.
-Ellis Veryard : Voyage en Égypte pendant les années 1678 – 1701, [IFAO], Le Caire 1981.
- Evliya Çelebi : The Encyclopedia of Islam, New edition, B. Lewis, Ch. Pellat and J. Schacht (eds.), Vol. II, London, 1965, pp.717-720.
-Hauet, E.L.F : Expédition d'Égypte (1798 – 1801), Mémoires d'un officier de l'armée française, Bibliothèque et Archives Nationales d' Égypte, Le Caire 2005.
-Holt, P.M: Egypt and the Fertile Crescent, 1516 – 1922, London 1980.
-Karl Barbir : Ottoman Rule in Damascus, 1708 -1798(Princeton university press, 1980).
-Richard Burton: Personal Narrative of a Pilgrimage to al-Madinah and Meccah, ed. Isabel Burton, London:Tyiston & Edward, 1893.

-Sarga Moussa : Le Voyage en Égypte, anthologie de voyageurs Européens, De Bonaparte à l'occupation Anglaise, Ropert Laffon, Paris, 2004.

-Shirley Howard Weber : Voyages and Travels in the Near East fore 1801, Princeton 1997.

Todorov, T : Les morales de l'histoire, France, éd. Grasset, 1991.

"إدارة أزمة الرمادة في عهد عمر بن الخطاب" (*)

د. أحمد الحسن
كلية الآداب – جامعة القاهرة

عمت في عام الرمادة المجاعة في المدينة والمناطق التي حولها بسبب انحباس المطر لمدة تقارب العام، بشكل أدى إلى جدب الأرض وموت الزرع، وهلاك الماشية، اضطرار الأعراب إلى النزوح إلى المدينة والاستعانة بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لنجدتهم فحدثت أزمة عظيمة كادت أن تؤدي إلى كارثة بشرية لكن عمر تعامل معها بحكمة استطاع أن يخفف من آثارها اولا ثم تجاوزها بنجاح ثانيا.

وحاول البحث أن يضع إطار علمي نظري لإدارة هذه الأزمة يعتمد على الأسس الحديثة في مفهوم " إدارة الأزمات " في ضوء مرورها بخمسة مراحل رئيسية وهي مرحلة التشخيص، ومرحلة وضع الحلول، ومرحلة التنفيذ الفعال، ومرحلة التحكم والانحسار، ومرحلة النهاية، و أرفق مع هذه الدراسة منحنى بياني لمراحل الأزمة مع تحليل يرصد التطورات التي مرت بها الأزمة منذ بدايتها إلى نهايتها.

و قد تناولت بعض الدراسات عام الرمادة أبرزها الدراسة التي جاءت عن "معالجة عمر بن الخطاب لمشكلة المجاعة في عام الرمادة "[١] وكذلك الدراسة التي تناولت " أزمة الرمادة الاقتصادية سنة ١٨ / ٦٣٩ من خلافة عمر بن الخطاب"[٢] لكن كلا الدراستين تناولا القضية من منظورها التاريخي دون أن يعالجاها في أطار مفهوم إدارة الأزمات.

(*) مجلة المؤرخ المصرى، عدد يوليو ٢٠١٥

التعريف اللغوي لكلمة الرمادة:

أصل اشتقاق كلمة "الرمادة "من الفعل "رَمَدَ"،وعند استقصاء معاني رمد نجد انها ترجع إلى ستة معاني لغوية هي:

رَمَدَ أي أصابه مرض في عينه، أو صار لونه كلون الرماد، أو هلك، أو أسرع في السير، أو صار كالرماد، أو اتسخ [٣]، وتنطق كلمة "الرمادة " بفتح أو كسر الراء مع التشديد وتخفيف الميم وفتح الدال والتاء المربوطة.[٤]

وأما سبب تسمية العام بعام الرمادة فترجعها المصادر إلى ثلاثة أصول من المعاني اللغوية الستة التي ذكرناها وهي إما إلى لون الرماد، أو إلى الرماد، أو إلى الهلاك . فبالنسبة إلى لون الرماد - اللون الرمادي- فقد جاءت روايات ترجع هذا اللون إما إلى لون الأرض.[٥] أو لون جلود الناس، فقد ورد أن عمر بن الخطاب.

امتقع لونه عام الرمادة بسبب أكل الخبز و الزيت [٦]، وبالنسبة إلى الرماد فقد تحول تراب الأرض إلى أشبه بالرماد حيث إن الأرض " اغبرت جداً من عدم المطر "[٧] و" تسفي الريح تراباً كالرماد"[٨] و" أن أعوام الجدب جعلت الأرض رمادا" [٩] و بالنسبة للهلاك " لأن كثير من الناس هلكوا هزلا وجوعاً "[١٠]، و هذه الأصول الثلاثة تؤكد حال الناس في هذا العام من سوء التغذية أو حال الأرض و ما أصابها من تصحر .

و نستطيع أن نضع تعريفا محددا لعام الرمادة بناء علي ما سبق بأنه "العام الذي انعدم فيه المطر، وجدبت فيه الأرض، وضنت بعشبها، ومحاصيلها، بشكل أدي الي هلاك الماشية وانتشار المجاعة في المدينة، والمناطق الصحراوية حولها" .

ويرجح أن مدة مجاعة الرمادة لم تزد عن سنة على أكثر تقدير، ويؤكد ذلك ما ورد في أكثر من مصدر بتسميتها " عام الرمادة"[١١] ونقلت هذه التسمية من شاهد عيان مثل " أسلم " خادم عمر بن الخطاب الذي رافقه طيلة عام الرمادة [١٢].

واختلفت الروايات حول التحديد الزمني لعام الرمادة، او بمعني اخر العام الذي حدثت فيه الرمادة، أبرزها أنها حدثت سنة ١٦هـ/٦٣٧ م[١٣] أو ١٧هـ/ ٦٣٨ م[١٤] أو ١٨هـ/ ٦٣٩ م[١٥] .

واختلفت الروايات كذلك في تحديد توقيت الرمادة إلى ثلاثة أوقات الأول أنها بدأت في آخر سنة ١٧هـ/ ٦٣٨ إلى بداية سنة ١٨هـ/ ٦٣٩[١٦] والرواية الثانية ذهبت الي أنها بدأت سنة ١٨هـ/ ٦٣٩ و استمرت تسعة أشهر (١٧) أما الرواية الثالثة فذهبت الي أن ابتداءها كان بعد موسم الحج في عام ١٨هـ/ ٦٣٩ واستمرت بعد ذلك لمدة تسعة أشهر [١٨].

ويبدو أن الصواب في ذلك ما رواه الطبري عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك – أحد المعاصرين لها في المدينة – بأنها كانت في أواخر سنة ٦٣٨/١٧ وامتدت إلى بداية سنة ١٨ / ٦٣٩ وذلك للجمع ما بين الروايات التي تقول أنها حدثت سنة ١٧/ ٦٣٨ سواء من ناحية اعتبار ابتدائها واستغراق بعضها فيها أو سنة ١٨ / ٦٣٩ من ناحية اعتبار امتدادها ونهايتها، وفي الوقت نفسه يُؤكد ما توافقت عليه أغلب الروايات بأنها سنة ١٨/ ٦٣٩ باعتبار تفاقم أزمة الرمادة فيها وظهور الجوع الشديد ونتائجها الخطيرة، بينما في البداية لم يبرز ذلك وهذا ما أكده الطبري بقوله " وفي هذه السنة أعني سنة ثمان عشرة أصابت الناس مجاعة شديدة ولزوبة وجدوب وقحط، و ذلك هو العام الذي يُسمى عام الرمادة"[١٩]، و قال ابن سعد "سنة ثماني عشر و في هذه السنة كان اول عام الرمادة أصاب الناس محل و جدب و مجاعة تسعة أشهر"[٢٠] وأما الروايات الأخرى فلا يعول عليها فرواية أنها كانت سنة ١٦/ ٦٣٧ لا تتوافق مع ما أكدته المصادر المختلفة الأولى، وكذلك الرواية التي تذكر أنها ابتدأت بعد نهاية موسم الحج من سنة ١٨/ ٦٣٨ إذ لو كان ذلك صحيحاً لاعتبرت سنة ١٩/ ٦٤٠ هي عام الرمادة وذلك لأن السنة الهجرية تنتهي بعد أيام من موسم الحج وندخل في المحرم / يناير من السنة الهجرية القادمة.

المناطق التي أصيبت بأزمة الرمادة:

انتشرت مجاعة الرمادة في المدينة والمناطق الصحراوية حولها، فخطاب عمر بن الخطاب الذي وجهه إلى امراء الولايات "يستغيثهم لأهل المدينة و من حولها" [٢١]، و أما المناطق بالتحديد التي تجمّع فيها الإعراب وأقاموا فيها عندما نزحوا إلى المدينة فكما ذكر الطبري " كان الأعراب حلولا فيما بين رأس الثنية إلى راتج إلى بني حارثة إلى بني عبد الأشهل إلى البقيع إلى بنى قريظة ومنهم طائفة بناحية بنى سلمة "[٢٢] .

إدارة أزمة عام الرمادة ومراحلها:

إن إدارة الأزمات علميا تقوم على إدراك مرورها بخمسة مراحل رئيسية [٢٣] وهي :

أولاً : مرحلة التشخيص وتعني تحديد مصدر الأزمة الذي يعتبر السبب الرئيسي الذي أدى إليها لأن الأزمات تختلف مصادرها أو "أسبابها" ما بين بشرية أو طبيعية أو هما معاً، و تعني كذلك تحديد أبعادها و مظاهرها ما يترتب عليه تحديد طبيعة الحلول المناسبة و أساليب مواجهتها .

فبالنسبة لأزمة الرمادة فإن مصدرها يرجع إلى سبب طبيعي، وهو توقف المطر عن النزول طوال مدة الأزمة [٢٤] في وقت لا توجد فيه بالمنطقة مصادر مياه أخرى يمكن استخدامها لسد الاحتياج من المياه.

وأما مظاهرها فتتمثل في تصحر الأرض، و نفاذ المواد الغذائية الزراعية، و تراجع المراعي ما ترتب عليه المجاعة الشديدة للبشر، فبعض الناس أشرف على الهلاك حيث بالكاد يجد الطعام الذي يسد رمقه ويبقيه حياً، فقط قال أحد الأعراب لعمر بن الخطاب " ما أكلت سمنا و لا رأيت أكلاً له مذ كذا وكذا قبل اليوم"، ونزوح الناس من الصحراء الى المدينة طلبا لإغاثة الخليفة لهم، ونفوق عدد كبير من الماشية، و هزال ما تبقى منها فلم يعد يستساغ لحمها على الرغم من جوع الناس[٢٥] فيذكر عبدالرحمن بن كعب واصفا ذلك بأن " الرجل يذبح الشاه فيعافها من قبحها وأنه لمقفر" [٢٦]، وفي

هذا الوقت الذي شح فيه الطعام ارتفعت الأسعار و ازداد الغلاء(٢٧) فولد جميع هذا انتشار البؤس بين الناس، و تدهور حالتهم النفسية، فقد روي أن عمر مشى ذات ليلة في أيام الرمادة فلم يجد أحد يضحك أو يتحدث مع الآخر بسبب الهَمْ الذي أصابهم.(٢٨).

ثانياً : مرحلة وضع خطة إنقاذ و تحديد الحلول العملية لمواجهة الأزمة:

إن النجاح في تجاوز الأزمات يكمن في وضع خطة إنقاذ تعتمد على الاستخدام الجيد لجميع الامكانات و الموارد المتاحة و إدراك مدى إمكان التعامل مع مصدر الأزمة أولا، و أبعادها ثانيا، مع القدرة على مواجهة ما يطرأ من مستجدات لاحتواء الازمة و التحكم في آثارها و مخاطرها.

من خلال استقراء روايات أزمة الرمادة نجد أن الخلافة كان لديها خطة موضوعة للتعامل مع هذه الأزمة فلم يكن التعامل معها عفويا، و معالم هذه الخطة تبين بأن عمر بن الخطاب لم يتعامل ابتداء مع مصدر الأزمة باعتباره مصدرا طبيعيا فالإنسان لا يملك التحكم في نزول المطر لذا كان توجهه إلى التعامل مع مظاهرها و تداعياتها، و منع تحولها إلى كارثة إنسانية بموت الناس بسبب المجاعة .

وسنتعرف على هذه الخطة، و آلياتها من خلال مرحلة التنفيذ التالية التي تعكس عمليا هذه الخطة، و في إطار تعامل عمر مع أزمة الرمادة سنستعرض قواعد إدارة الأزمات الحديثة (٢٩) ومدى تطبيق عمر لها في إدارة هذه الأزمة .

ثالثا :مرحلة التنفيذ الفعال :

في هذه المرحلة قامت الخلافة في عهد عمر بن الخطاب بالالتزام بتنفيذ المبادئ التالية في إدارة الازمات:

- **قاعدة التعامل المباشر مع أخطر مظاهرها:**

إن عمر بن الخطاب توجه في التعامل مع أزمة الرمادة مع أخطر أبعادها، وهي ظاهرة مجاعة الناس لذا كان الحل العملي يكمن في توفير

الطعام الكافي للمحتاجين حتى تنجلي الأزمة بنزول المطر، و اعتمد عمر بن الخطاب رضي اللهِ عنه في التموين الغذائي للناس على جهتين، الأولى منها موارد بيت المال المركزي في المدينة -عاصمة الدولة الإسلامية- سواء كانت نقوداً أو أطعمة وتم استخدام هذا المورد حتى تم نفاذها تقريباً [٣٠] اما الجهة الثانية للدعم فكانت من الخارج من ولايات مصر والشام والعراق فأرسلت قوافل الإبل محملة بالطعام إلى المدينة بكميات كبيرة يقول ابن سعد: "لما كتب عمر الى عمرو بن العاص يبعث الطعام في البر و البحر بعث إليه في البحر بعشرين سفينة تحمل الدقيق و الودك، و بعث إليه في البر بألف بعير تحمل الدقيق و بعث إليه معاوية بثلاثة آلاف بعير تحمل الدقيق وبعث إليه والي الكوفة بألفي بعير تحمل الدقيق"[٣١] كما أحضر أبوعبيدة معه من الشام أربعة آلاف راحلة.[٣٢]

- **قاعدة الاستثمار الأمثل للموارد:**

الحقيقة أن هذا المبدأ هو المبدأ الأساسي الذي مكّن الدولة عملياً من التحكم في الأزمة ونقلها من حالة ترقب المجاعة المهلكة إلى حالة توفير الأمن الغذائي بصفة مستمرة،

وذلك عن طريق استثمار الموارد في الأزمات استثماراً جيدا كي تحقق هذه الموارد الغرض منها، و حتي يستخدم موارد بيت المال في المدينة و للقوافل التي اتت من الخارج أفضل استخدام، فقد تم وضع خطة للاستثمار الأمثل لها عن طريق الالتزام باعتبارين أساسيين وهما :

ا-تقدير الاحتياج بدقة:

لا شك انه في أزمة الرمادة كان الطعام هو الاحتياج الأساسي المطلوب، فعمر بن الخطاب لما طلب الإغاثة من الولايات لم يترك تقدير نوعية الإغاثة للولاة لأنه أدرى بالاحتياج المطلوب سواء نوعية الطعام أو كميته ونجد هذا من نص كتابه إلى والي مصر عمرو بن العاص الذي يقول فيه " جّهز إلىّ عيرا يكون أولها عندي وآخرها عندك تحمل الدقيق في

العباء" [٣٣] فالنص يرشدنا إلى المطلوب بأمرين محدّدين بدقة، الأول هو الكمية الكثيرة ، والثاني أن الاحتياج هو الإبل و الدقيق "الطحين " للأكل ، واللباس باستخدام العباء الموضوع بها الطعام ، و نجد تقدير الاحتياج كذلك في عدم طلب عمر من الولاة النقود لأنها لا تفي بالمطلوب على الرغم من خفّة حملها وسرعة توصيلها لكنه طلب الأطعمة لأن الطعام غير متوفر بكميات كافية في مكان الأزمة وإن وجُد فهو غالي الثمن، و لذا جميع الإغاثات التي أتت من الولايات كانت إغاثات عينية، ولشدة حرص عمر على تقدير الاحتياج بدقة كان يأكل مع الناس ويعايشهم ليراقب بنفسه هذا الاحتياج [٣٤] بالإضافة إلى تكليف غيره بتزويده بهذه الاحتياجات.[٣٥] .

ب- تنظيم استهلاك الموارد:

إن توفر الطعام لا يكفي لحل الأزمة، إذ لابد من تنظيم استهلاك هذه الموارد فهذه القوافل الإغاثية التي أتت نظم عمر استهلاكها لكي يتم استثمارها الاستثمار الأمثل،ونجد ذلك عند قيامه باعتماد نوعين من الإغاثة الأولي وهي بمثابة وجبات عامة لجميع الناس وهذه الوجبات تعتمد على الدولة في طبخها وإعدادها وتجهيزها وتوزيعها، وقد حددت بوجبتين يومياً أحدها في الصباح، و أخرى في المساء[٣٦] و هما الضمان الأساسي للحياة وسد رمق الجوع وإبعاد شبح الموت من المجاعة وعدم تحولها إلى كارثة بشرية، وهاتان الوجبتان اعتمدتا أساساً على الثريد وهو عبارة عن خبز يسكب عليه الزيت الحار[٣٧] ويعتبر من الأطعمة ذات القيمة الغذائية التي تشبع الناس أو توفر القدر الذي يبقيهم أحياء، وفي الوقت نفسه لرخص ثمنها وإعدادها سريع خاصة أمام أعداد تقدر بالألوف من البشر، و كذلك فإنه على الرغم من نوعية هذا الطعام إلا أن عمر لم يترك كمية الطعام لكل فرد غير محددة، وذلك حرصاً على توفير الطعام للجميع، و تحقيق المساواة بينهم فقد اتخذ قدحا، وضع فيه علامة بحيث يُغرف من آنية الطعام القدر الذي لا ينقص و لا يتجاوز هذه العلامة وكان عمر يراقب الطباخ في فعل ذلك" فإن لم يبلغ موضع الحز - أي العلامة- لام صاحب الطعام وعنّفه" [٣٨].

والإغاثة الثانية سلمّت للناس وترك لهم حق الانتفاع بها وهي عبارة عن بعير لكل أسرة بما عليه من دقيق محمول بالعباء، ولكن هذه الإغاثة لم تترك للأسرة كذلك الحق المطلق في الانتفاع بها، ولكن ضمن ضوابط محددة جدا، وهذه الضوابط وضعت من أجل ضمان عدم سوء استغلال هذا المورد أو الإسراف فيه، و لأجل ضمان الاستفادة الكاملة منه، لأن المصادر محدودة والدولة تتحمل مسؤولية كفاية هذه الموارد لجميع المحتاجين ولذا نجد

أن عمر بنفسه حدد كيفية الاستفادة من البعير بأن يذبحوه ولا يبقوه للتنقل أو لأي شيء آخر ثم بعد ذلك يقطعوا لحمه الى قطع و يجمعوا الشحم و الجلد ثم يقسموا أكله إلى وجبات" توفيرية " كل وجبة تتكون من " كبة من ثريد" و"كبة من شحم" و"حفنة من دقيق" (٣٩)، وأما العباءة وهي الوعاء الذي وضع به الدقيق فيستخدموها إما للباس أو للحاف أو كوعاء لاحتياجاتهم الخاصة.

ولضمان قيام الأعراب بذبح الجمال، وهي الخطوة التي تؤدي إلي تنفيذ المطلوب وتحقيق أكبر استفادة، وأفضل نتائج أمر عماله "بحضور نحر الإبل"(٤٠) فعمر كان يخشى أن لا يقوموا بذلك فتستمر شكواهم في الحاجة إلى الطعام ووضّح عمر سبب قيامه بهذا الإجراء " إن العرب تحب الإبل وأخاف أن يستحيوها" (٤١) أي لا يذبحوها على الرغم من حاجتهم إلى طعامها.

- **قاعدة "مسؤولية القيادة الكاملة في مواجهة الأزمة":**

إن الأزمة ترتبط إدارتها أساساً على متخذ القرار وهو القائد المنوط به التعامل معها واتخاذ جميع الإجراءات الكفيلة بتجاوزها بنجاح وأن تفويض غيره لا يعفيه من المسؤولية، لا شك أن مجريات أحداث إدارة الأزمة تؤكد استشعار عمر لمسؤوليته الكاملة في إنقاذ الناس وهو سر نجاحه في تجاوزها لأنه يدفع بشكل تلقائي بالاجتهاد في البحث عن الحلول مهما كانت التحديات فهو لم يتهرب منها، أو يتنصل من مسؤوليته عنها، رغم أن سبابها طبيعية

ولا يملك حيلة في التعامل معها، ولذا قال خادمه " أسلم " معبرا عن استشعار عمر لهذه المسؤولية " لو لم يرفع الله المَحْل – أي المجاعة – عام الرمادة لظننا أن عمر رضي الله عنه يموت هماً بأمر المسلمين"[٤٢]، وإن الإجراءات التي اتخذها عمر في مواجهتها تؤكد هذا الاستشعار .

- **قاعدة " القدوة" :**

إن مبدأ القدوة يرتبط بمبدأ استشعار المسؤولية بشكل كبير، حيث يبين التعاطف العملي للقيادة مع حال الناس، فلا شك أن هناك معاناة نفسية لأهل الرمادة تتزامن مع معاناة نقص الطعام، لكن عمر استطاع أن يخفف هذه المعاناة النفسية عن الناس بطريقتين الأولى أنه ساوى نفسه بنوعية الطعام الذي يأكله مع عموم الناس، وهو الخبز والزيت فاستمر يأكل ذلك إلى نهاية الأزمة "فلم يأكل سمنا و لا سمينا حتى احيا الناس"[٤٣] "لكي لا يتميز على الضعفة "[٤٤] و قال "بئس الوالي أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها"[٤٥] والكراديس هي العظام[٤٦]، و في الوقت الذي حَرم على نفسه اللحم[٤٧] والذي كان يطعمه لأهل الرمادة[٤٨]، وزيادة في الاقتصاد في الإنفاق أنه منع نفسه من ركوب الدابة لأنها تحتاج إلي علف، وشعير، والأولى بهذه التكاليف أن تصرف على المحتاجين فقد "ركب عمر بن الخطاب رضي الله عنه عام الرمادة دابة فراثت شعيراً فرآها عمر فقال : المسلمون يموتون هزالا وهذه الدابة تأكل الشعير لا والله لا أركبها حتى يحيى الناس"،[٤٩] ولم يقصر عمر مساواة الناس على نفسه فقط، بل منع أقرباءه من الكماليات من الطعام كاللحوم والفواكه فلما رأى بيد أحد أبناؤه بطيخا زجره قائلاً" بخ بخ يا ابن أمير المؤمنين تأكل الفاكهة وأمة محمد هزلى"[٥٠] كما أنه نهر ابنه عبيد الله لما علم أنه طبخ اللحم في منزله[٥١].

والثانية أنه اهتم بالمشاركة الاجتماعية ومخالطة أهل الرمادة فكان يعيش بينهم ويشارك الفقراء تناول الطعام الذي تعده الدولة لهم فهم يرونه لا يتميز عنهم بشيء فما " أكل عمر في بيت واحد من ولده ولا بيت أحد من نسائه ذواقا عام الرمادة إلا ما يتعشى مع الناس حتى أحيا الله الناس".[٥٢].

- **قاعدة "فريق إدارة الأزمة":**

لاشك أن الخليفة مهما ملك من الطاقة والقدرة لن يتمكن من إدارة الأزمة لوحده ما يستدعي تكليف " فريق عمل" يكون بمثابة القيادة المركزية لإداراتها ولكي يقوم بالإشراف العام عليها ويساعد الخليفة في وضع الحلول أو تنفيذها ويقوم بعملية تقييم دوري لهذه الحلول بناء على رصد التغييرات في الأزمة سواء من ناحية تفاقمها أو انحسارها لكي تتناسب الحلول مع المستجدات التي طرأت عليها وذلك من أجل ضمان جودة الأداء في إدارتها، ولذا شكّل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فريقاً لإدارة الأزمة تحت قيادته مباشرة يتكون من المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن عبد القارئ ويزيد بن أخت النمر وعبد الله بن عتبة بن مسعود، هذا الفريق قسم الأعراب الذين يسكنون حول المدينة إلى قطاعات مكانية ووزع أعضاؤه عليها، و كانت مهمة كل مسؤول عن قطاع ضمان توفير الطعام الكافي لجميع من في هذا القطاع ومتابعة احتياجاتهم المختلفة و رفعها إلى الخليفة .[٥٣]

- **قاعدة: "التنبؤ الوقائي لتحديد حجم المخاطر ثم تحديد طبيعة الاستعدادات":**

إن هذا المبدأ من المبادئ المهمة في إدارة الأزمة إذ عدم الانتباه إليه يؤدي إلى نتائج كارثية بهلاك الناس أو فقدان ممتلكاتهم، فكان أهم ما يريده عمر أن لا تصل الأزمة إلى حالة الانفجار فيهلك الناس و تتحول الى مأساة بشرية، ولذا اتخذ إجراءات عدة ليحول دون ذلك، ولذا فإنه لما ابتدأت تبرز آثار الجدب حول المدينة توقع عمر أن الأعراب عندما ينفذ ما لديهم من طعام سيأتون للمدينة، ولذا أمر رجالاً بأن يستشرفوا القادمين ليستقبلوهم و يقدمون لهم احتياجاتهم مباشرة من توفير للطعام والشراب وأماكن للإيواء[٥٤].

ولما رأى عمر أن الأزمة مستمرة ولم تعد إمكانات بيت المال المركزي في المدينة قادرة على الوفاء احتياجات الناس توقع أنه في حالة نفاذ ما في بيت المال سيؤدي ذلك إلى كارثة حقيقية فقام باتخاذ أسلوب وقائي

بالبحث عن مصادر تمويل غذائية أخرى ولذا استنجد بولايات مصر والشام والعراق ليرسلوا إليه الاغاثات .(٥٥)

ولضمان التنبؤ الصحيح استخدم عمر مبدأ " توفر المعلومات " وهو أساسي في التنبؤ الوقائي فالإحاطة بالمعلومات الشاملة و الدقيقة و الصحيحة والمواكبة لتطور الأزمة والمستنتجة من رصد الواقع اليومي يؤدي إلى تجنب عنصر المفاجأة بتداعياتها، و سرعة اتخاذ القرار، و القدرة على اتخاذ القرار السليم، و تحديد المرحلة التي وصل فيها تأثير الأزمة على حياة الناس، و أثر مرور الوقت على انتشارها فجميع هذا يشكل أساس التعامل الصحيح معها ليتم اتخاذ ما يلزم من إجراءات بحسب المعطيات الواقعية و لذا كان من أبرز مهام فريق العمل المكلف بإدارة الأزمة مع عمر هو تقديم المعلومات اليومية، فكان على كل عضو من الفريق -إن صح التعبير- أن يقدم تقرير يومي عن أحوال الناس في القطاع المكلّف به، فكان الخليفة عمر يعقد اجتماع يومي مساء مع هذا الفريق بعد عشاء الناس " فيخبرونه بكل ما كانوا فيه" (٥٦).

وقام عمر كذلك بعمليات إحصائية للناس النازحين للمدينة بشكل دوري ليلاحظ مدي تطور الأعداد ولإعداد الكميات المناسبة من الطعام التي تتوافق مع الاحتياجات العددية، ولا شك أن العملية الإحصائية تشير إلى الدقة في تحديد حجم الأعداد فقد أحصى الناس مرة فوجد عددهم الإجمالي ما يقارب من أربعين ألفا ثم أحصاهم مرة أخرى فوجد عددهم زاد إلي ستين ألفا(٥٧)، ويبدو أن هذا هو العدد الذي استمر يعتمد على المدينة في الإطعام والإيواء إلى نهايتها.

- **قاعدة "المتابعة و الجاهزية المستمرة":**

إن النجاح في تجاوز الأزمة لا يعني توفير حاجة الناس مرة واحدة لكن لابد من المتابعة المستمرة فكان عمر يقوم بعد إسعاف الناس بمتابعة أحوالهم سواء أكانوا حول المدينة أو بعيد عنها، وفي الوقت نفسه فإن هذه المتابعة ليست لها قيمة إذا لم تدعم بالجاهزية و تزويد المحتاجين بحاجتهم

ولذا فقد كانت اغاثات عمر لجميع المحتاجين جاهزة منذ بداية الأزمة إلى حين انكشافها. و كانت الإعانات الأساسية لمن هم بعيدون عن المدينة تصل إليهم في ديارهم شهريا على شكل دقيق و تمر و أدم،[٥٨]، و كان عمر يدور على بيوت الناس حول المدينة ليتعرف بنفسه على احتياجاتهم و زيارة مرضاهم و الصلاة على موتاهم .[٥٩]

- **قاعدة التصرف السريع:**

وهذا المبدأ يعتمد على وصول الإغاثة في الوقت المناسب فلا قيمة لمجيئها بعد هلاك الناس ولذا كان عمر في طلبه للإغاثات حريصاً أن تصل بسرعة وهذا واضحاً في رسائله إلى ولاة الأمصار حيث كانت تحمل كلمات " فياغوثاه فياغوثاه فياغوثاه "[٦٠] أو " واغواثاه هلكت العرب"[٦١] وفي رواية أنه كتب كلمة الغوث مئة مرة[٦٢] ولهذا كانت الاستجابة سريعة من الولاة دل ذلك ردهم لجوابه بقولهم "يالبيك يالبيك"[٦٣] ويظهر ذلك عمليا في سرعة وصول الإغاثات للمدينة قبل فوات الأوان .

- **قاعدة الإسعافات الأولية السريعة:**

إن وجود رد فعل منظم لإغاثة الذين نزحوا إلى المدينة يجب أن يتزامن معه اتخاذ احتياطات سريعة لاحتواء أي حالات أخرى طارئة هي في طريقها إلى المدينة قد تكون حالتها خطيرة وتحتاج إسعافات عاجلة لتنقذ حياتهم في اللحظات الأخيرة ولذا كان عمر يتجول بنفسه حول

المدينة تحسباً لأي حالات من هذا النوع حاملا على ظهره جريبين من الدقيق و في يده إناء به زيت فقد وصل عمر مرة إلى منطقة حول المدينة اسمها "صرار" والتقى بعشرين أسرة من بني محارب قد أنهكهم الجوع وليس لديهم ما يسد رمقهم فأجلسهم وطبخ لهم الطعام وأطعمهم ثم أمر خادمه أن يحضر لهم عددا من الجمال وكساء من المدينة، و بعد أن وفر لهم الطعام والمركوب واللباس أخذهم إلى مكان اسمه " الجبانه " ليسكنوا فيه[٦٤]، وفي ذات الوقت كلف عمر كذلك رجالا يستقبلون أهل البادية " و يقسمون عليهم

أطعمتهم و إدامهم"[٦٥].

- **قاعدة التفويض :**

إن عمر لم يركز جميع الأعمال في يده أو في يد فريق إدارة الأزمة فهناك تفويض لرجال آخرين للقيام ببعض الأعمال من ذلك ما كلف به أبو عبيده بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، ومحمد بن مسلمة، وعبدالله بن أرقم بمهمة توزيع الإبل والأطعمة على الناس.[٦٦]

- **قاعدة التقدير المعنوي :**

إن عمر بن الخطاب لم يغفل هذا المبدأ تقديراً للمجهود التي يقوم بها معاونيه في مواجهة الأزمة و من ذلك أن عمر أعطى أبو عبيدة بن الجراح مبلغاً كبيراً من المال بعد أن قام هذا الصحابي بالإشراف على توزيع أربعة ألاف من الإبل على الناس وعلى الرغم من رفضه لاستلام هذا المال إلا أن عمر أصر على ذلك حتى أخذه.[٦٧] .

- **قاعدة ترتيب الأولويات :**

إن مبدأ الأولويات يقوم على الاستجابة للأكثر أهمية أولاً، ولذا قام عمر بتسخير جميع موارد بيت المال في عام الرمادة سواء النقدية أو العينية لإغاثة المنكوبين من أهل الرمادة دون الاحتياجات الأخرى للدولة، ومن منطلق هذا المفهوم أيضا تم تصنيف الناس إلى أصحاء ومرضى فكان للمرضى الأولوية في الإطعام.[٦٨].

- **قاعدة " الواقعية ":**

وهو أن تعتبر الأزمة حالة استثنائية لا تطبق عليها الأحكام التي تستخدم في الأوضاع الاعتيادية و دليل ذلك أن عمر بن الخطاب خلال عام الرمادة أوقف حد السرقة لأن المجاعة عامة والشبهة قائمة بأن الذي يسرق لحاجة ضرورية لإنقاذ حياته أو من يعول، وكذلك لم يرسل جباة الزكاة لأخذ الزكاة من الناس لأنه لو افترض وجود من يملك نصاب الزكاة فقد يحتاج

لهذا المقدار من الزكاة بعد حين لأن الوضع مجهول مستقبلاً فهو أولى بهذا المال.[٦٩]

قاعدة " المبادأة": ويعني أن تبدأ القيادة بالمبادرة في الفعل وليس فقط عند طلب المحتاج للإغاثة، فعمر خلال أزمة الرمادة لم يقصر إغاثته للناس الذين أتوا بأنفسهم إلى المدينة فهناك من المتوقع أن غيرهم لديه الشكوى نفسها لكنه لم يتمكن من القدوم إليها دون اعتبار لأسبب كان حيث عند عمر لا يعني عدم قدومهم أنهم ليسوا بحاجة للمساعدة ولذا اتخذ أسلوب المبادأة .

فقسم الناس غير القادرين للقدوم إلى المدينة إلى صنفين بناء على طبيعة إمكانيات الدولة في التعامل معهم، الصنف الأول وهم الذي يمكن نقلهم إلى المدينة ليتم مساعدتهم بسهولة و يسر مع الآخرين الموجودين حولها، والثاني الذين لا تتمكن الدولة من نقلهم بسبب كثرتهم وعدم كفاية الدواب المتوفرة للنقل فيتم تزويدهم بالطعام وهم في مكانهم، و لذا أمر عمر بن الخطاب الزبير بن العوام بعد أن زوده بالجمال التي تحمل الطعام أن يتجه جهة بلاد نجد وأوصاه" فاحمل إلي أهل كل بيت قدرت أن تحملهم إلىّ ومن لم تستطع حمله فمر لكل أهل بيت ببعير بما عليه حتى يأتيهم الله برزق"[٧٠]، و أرسل محمد بن مسلمة لإغاثة قبائل غطفان و قضاعة و لخم و جذام القاطنة في طريق الشام، وعبدالله بن أرقم لإغاثة قبائل قيس و تميم و طيئ و أسد في بلاد نجد.[٧١]

رابعاً : مرحلة التحكم في الأزمة وانحسار نتائجها الكارثية:

إن الإجراءات المختلفة في المرحلتين السابقتين أدت إلى تحكم الدولة في آثار الأزمة ومظاهر ذلك يتعلق بجهتين، جهة الناس فقد تحولوا من الضيق إلي السعة وخفت احتياجاتهم الغذائية[٧٢]، ومن جهة الدولة استطاعت أن تمتلك الغذاء الاحتياطي وتوفره للناس بصفة مستمرة إلى نهاية الأزمة، وفي الحقيقة إن الاحتياطي المتوفر كان هو الضمان للتحكم في الأزمة، و ما يؤكد ذلك أن عمر كان لديه احتياطي عند نهايتها ما قد أعطاه في نهاية

الأزمة لأهل الرمادة عند مغادرتهم المدينة سواء كان قوتا من دقيق أو حملانا من الإبل(٧٣).

والثاني أنه كان لدى عمر ما يُسمي بمبدأ البدائل وهو من أهم مبادئ إدارة الأزمة بأن لا يُعتمد على خيار واحد فإن نجح هذا الخيار وإلا كان الهلاك فلا بد ان القيادة لديها عدة بدائل عملية تستخدمها في حالة فشل بعض الخيارات، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه صرّح ببديل عملي لم يستخدمه خلال الأزمة لكنه كان مخططا له في حالة نفاذ مصادر التمويل لبيت المال سواء من المصادر الداخلية أو الخارجية حيث سيعتمد على الإغاثة الشعبية بإلزام أهل السعة ممن لديهم قوت يكفيهم بأن يشاركهم الفقراء بالتناصف، ولذا قال عــمر " فو الله لو لم يفرجها الله ما تركت أهل بيت من المسلمين لهم سعة إلا أدخلت عليهم أعدادهم من الفقراء، فلم يكن اثنان ليهلكا من الطعام على ما يقيم الواحد".(٧٤)، فعدم استخدام عمر لهذا الإجراء دل بصورة قاطعة أن الأزمة انكشفت وما زال عمر يملك احتياطي في بيت المال، ولذا قال الشافعي " انفق عمر بن الخطاب على أهل الرمادة حتى وقع المطر فترحلوا" . (٧٥)

والحقيقة إن هناك إشكالية فقد أوردت المصادر عن " أسلم" خادم عمر بن الخطاب الذي شاهد الرمادة قوله في وصف حال أهلها " وقع فيهم الموت فأراه مات ثلثاهم" ما يُفهم منه موت عدد كبير من الناس في عام الرمادة بسبب المجاعة ولعله بسبب هذا القول ما ذكرت بعض المصادر أن الرمادة أدت إلى هلاك الناس وموتهم ولكن هذا الاستنتاج إذا أردنا اعتماده لابد من وضع هذا النص ضمن النص الكامل لهذه الرواية التي ذكرها الواقدي عن "أسلم "

قوله "... فلما مطرت رأيت عمر قد وكّل بهم يخرجونهم إلى البادية ويعطونهم قوتاً وحملانا إلى باديتهم وكان قد وقع فيهم الموت فأراه مات ثلثاهم وكانت قدور عمر يقوم إليها العمال من السحر يعملون الكُركُور ويعملون العصائد"، ف "أسلم" يُوضح أنه أثناء الرمادة كان عمر يعد الطعام

للناس و استمر بذلك حتى نزول المطر ثم أعطاهم بعد نزول المطر "قوتا وحملانا"[٧٦]، فإذا كان الأمر كذلك فكيف يكون الهلاك بسبب الجوع فهذا بالتأكيد ليس مراد " اسلم" خاصة إذا أرفقنا بتوفر لدى عمر البديل الذي لم يستخدمه المذكور آنفا ولكن إذا لم يكن الموت بسبب الجوع فما هو السبب إذن في الحقيقة لا نجد نصاً صريحا يبين السبب لكن يستدل من بعض الروايات أن هناك مرضى كثيرون من بين أهل الرمادة و ظهر ذلك أثناء عملية إحصاء الناس "المرضى"[٧٧] فلعل منهم من به مرض مُعد فانتشر بين الناس وأدى إلي هذا العدد الكبير من الوفيات خاصة أن ظاهر نص رواية أسلم يدل أن هذا الموت الذي وقع بهم عند ابتداء رحليهم المدينة وليس عند بداية الأزمة أو أثناءها ولفظ "وقع بهم" يدل أن هذا الموت صار فجأة أو في وقت قصير جداً و ورد أيضا أن هناك عددا من أهل الرمادة توفي بسبب أكل "الثقل" من الطعام و هو الرديء من الطعام[٧٨].

خامسا: مرحلة نهاية الأزمة:

إن من قواعد إدارة الأزمة هما قاعدة "استقبال المقترحات" التي تساهم في علاج الأزمة و قاعدة "البحث عن مصدر الأزمة" وإمكانية التعامل معه.

إن عمر بن الخطاب كان لديه المرونة بالاستماع إلى الاقتراحات وهذا الذي أدى حقيقة إلى نهاية الأزمة، و كان الاقتراح يتضمن التوجه إلي مصدر الأزمة وهو انحباس المطر و ذلك عن طريق "صلاة الاستسقاء" حيث تواترت الروايات أن انكشاف الأزمة تزامن مع صلاة الاستسقاء وهذا الاقتراح قدمه كلا من كعب الأحبار[٧٩]، وأبي موسى الأشعري الذي أرسل إلى عمر رسالة يقول فيها " يا أمير المؤمنين إن الخلق لا يسعهم إلا الخالق فلو أنك كتبت في الأمصار وواعدتهم يوما فأمرتهم فخرجوا فاستسقوا ودعوا" فلما أتاه كتابه قال – عمر-: والله ما أرى أبا موسى إلا وقد أشار برأي"[٨٠]، فأرسل عمر إلى الامصار محددا لهم يوم يخرجون فيه لصلاة الاستسقاء و في هذا اليوم خرج عمر بالناس في المدينة ومعه عم الرسول صلى الله عليه وسلم العباس بن عبد المطلب وصلوا صلاة الاستسقاء ثم دعا

العباس وعمر الله بإنزال المطر ثم نزل المطر[٨١]، واختلفت الروايات في تحديد وقت نزول المطر إن كان بعد الصلاة مباشرة[٨٢] أم بعد ايام منها[٨٣] ولكنها اتفقت أنه كان مطر غزير سالت منه الأودية وظل ينزل لمدة خمسة عشر يوماً[٨٤] حتى بدأت تنبت النباتات التى تتغذى عليها الماشية والدواب يقول أحد الشهود " حتى رأيت الأرينة تأكلها صغار الإبل من وراء حقاق العرفط ".[٨٥].

وبعد أن خصبت الأرض و أخذت تنبت النباتات بدأ عمر بإخراج الناس مباشرة من المدينة وما حولها و إرجاعهم إلى بواديهم[٨٦]، وذلك لأنه لا يريد أن يحمّل ميزانية الدولة أموالا لا ضرورة لصرفها فيه وفي الوقت نفسه لا يريد أن يتكل الناس على الدولة في مصدر رزقهم ويتألفوا ذلك ولكن رافق هذا الإخراج تمويل مؤقت من الطعام والمركوب حيث زودهم بقوت وحملان[٨٧]، وذلك حتى يكتمل نمو النبات وتصح قوة الماشية الهزلى فيتبلغون بما لديهم إلى أن يتمكنوا من الاعتماد الكامل على أنفسهم.

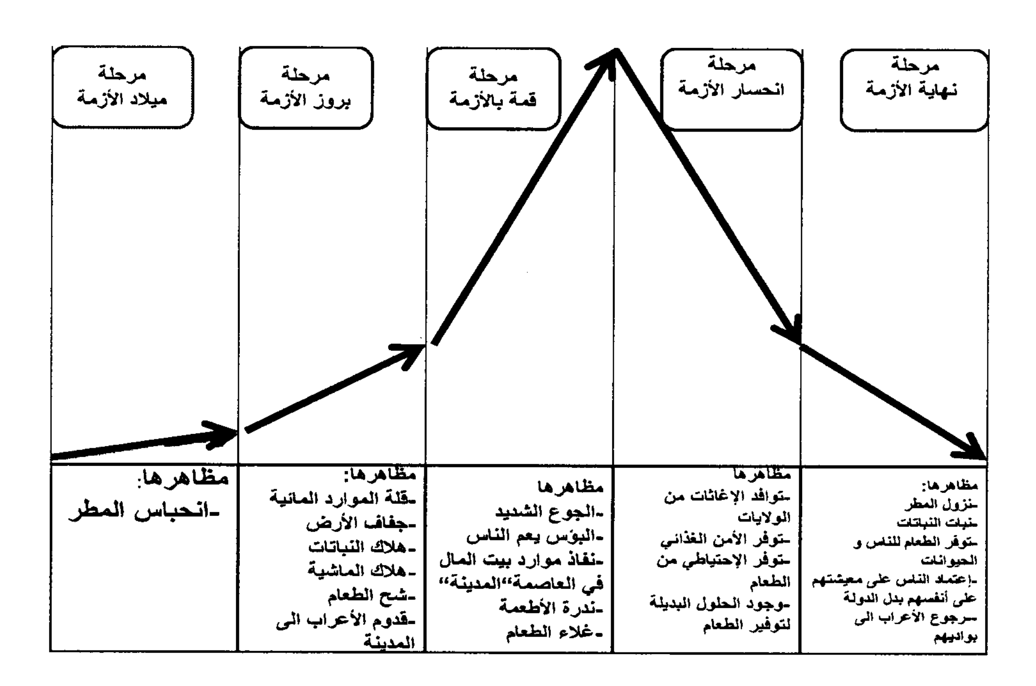
وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التى قام بها عمر في إدارة الأزمة إلا أنه لم يستشعر أن له الفضل في ذلك باعتبار أن ذلك مسؤوليته وواجبه فلما أخذ يمدحه الناس على اجتهاده في الأزمة حتى انكشفت رد عليهم " ذلك لو كنت انفقت عليهم من مالي أو من مال الخطاب، إنما أنفقت عليهم من مال الله عز وجل ".[٨٨]

ومن الجدير بالذكر أن الأزمة انكشفت تماما بعد هذا العام ورجع الناس إلى وضعهم الطبيعي في الاعتماد في رزقهم على أنفسهم في عهد عمر بن الخطاب بل إن العام الذي يلي عام الرمادة زادت المحاصيل الزراعية والأنعام حيث أرسل عمر جباة الزكاة ليأخذوا من الناس زكاة سنتين زكاة عام الرمادة والعام الذي هم فيه[٨٩]، و"استغنى أهل الحجاز"[٩٠] بعد القحط والجدب في الرمادة.

إن الدراسة أرشدتنا إلى إمكانية توظيف المبادئ الحديثة في إدارة الأزمات بتطبيقها على الأزمات التاريخية كمقياس لأسباب النجاح أو الفشل

في تجاوزها، وأن عمر بن الخطاب لم يقف مكتوف اليدين ليرى الأزمة تحصد أرواح الناس ما دام بحسب الإمكانيات البشرية تلافي ذلك، وأن هذا التلافي لآثارها و مخاطرها لم يعتمد على العشوائية والحلول الآنية بل اعتمد على العمل المنظم الذي له الفضل في عدم تحول أزمة الرمادة إلى كارثة بشرية تهلك أهل المدينة ومن حولها، هذا العمل اعتمد أساسا على ضمان توفير الطعام طيلة أيام الازمة باستخدام جميع المصادر الغذائية المتاحة وتنظيم صرفها بإحصاء عدد المحتاجين وتقدير بدقة كمية الطعام المطلوبة لكل فرد يوميا لتبقيه حيا ورصد الحالات الطارئة التي أشرفت على الهلاك وإسعافها وتشكيل فريق عمل تحت إشراف الخليفة يتابع تطورات الأزمة ويضع الحلول السريعة لأي خلل وغيرها من الإجراءات التي أدت بالنهاية الى تجاوز الأزمة دون هلاك أحد .

و هذا رسم توضيحي يشرح مسار منحنى أزمة الرمادة عبر مراحلها و مظاهر كل مرحلة:



تحليل منحنى أزمة الرمادة خلال الشهور التسعة :

المرحلة الأولى :بدأت الأزمة مع انحباس المطر فأخذت الأرض يصيبها الجفاف فقل الزرع الذي يأكله الناس والنباتات التي تتغذى عليها الحيوانات، و في المرحلة الثانية:أخذت تزداد الأزمة تفاقما تدريجياً و بدأ توافد الأعراب القاطنين حول المدينة إليها عندما نفذ أو قارب الى النفاذ ما يملكون من زاد وطعام وماشية، و في المرحلة الثالثة وصلت الأزمة إلى قمتها عندما نفذ ما لدى خزينة الدولة في بيت المال من أموال نقدية وغذائية وأخذت تلوح ملامح المجاعة المهلكة، و في المرحلة الرابعة: استدرك عمر بن الخطاب هذا الهلاك بالاستنجاد بالولايات فأتت الإغاثات تباعاً بكميات كبيرة من مصر والعراق والشام و تمكن من استثمارها استثمارا جيدا فتم التحكم في الازمة والقدرة على توفير الطعام للناس بشكل يومي وبكميات غذائية كافية فانحسرت المجاعة وظهرت بشائر الانتعاش والحياة الطبيعية وفي المرحلة الخامسة: انتهت الأزمة مع نزول المطر فنبت الزرع ووجدت الماشية غذاءها ورجع الأعراب إلى بواديهم واعتمدوا على أنفسهم في مصدر رزقهم وتوالى نزول الأمطار و تمكن الناس في العام القادم من عام الرمادة من دفع زكاة سنتين السنة التي هم فيها و سنة الرمادة .

الهوامش:

١- حمودي التيجاني مجلة الاقتصاد الاسلامي، المجلد الأول، العدد الاول، ١٩٨٩.

٢- عبدالله طه السلماني، كلية التربية، جامعة الموصل.

٣- محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة (بيروت، ١٩٧٩) ص٢٥١، ابن سيده علي، المخصص في اللغة (دار الكتاب العلمية) ج٦، ص١١٩، ج١٠، ص١٦٨، محمد بن الحسن بن دريد، جمهرة اللغة (دار صادر) ج١، ص٧٥٥ وما بعدها، احمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة (بيروت، ١٩٧٩) ج٢، ص٤٣٨، ٤٣٩، إسماعيل بن عباد، المحيط في اللغة (بيروت، ١٩٩٤) ج٩، ص٣٠٧، ٣٠٨، محمد بن احمد الأزهري، تهذيب اللغة (القاهرة) ج١٤، ص١٢٠، ١٢١ .

٤- محمد بن إسماعيل الصنعاني، سبل السلام (دار الفكر، ١٩٩٥) ج٢، ص٧٠٤، ابن عباد، المحيط، ج٩، ص٣٠٧، ابن فارس، معجم، ج٢ ص٤٣٨، الأزهري، تهذيب، ج١٤، ص١٢٠.

٥- ابن فارس، معجم، ج٢،ص٤٣٩ .

٦- إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية (بيروت) ج٧، ص٩٠، ابن عباد، المحيط، ج٩، ص٣٣٠.

٧- الصنعاني، سبل، ج٣، ص٧٠٥، ابن حجر احمد بن علي بن محمد، فتح الباري شرح صحيح البخاري (دار الفكر، ١٩٩٣) ج٣، ص١٨٥ .

٨- محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك (بيروت، بدون تاريخ) ج٤، ص٩٨.

٩- ابن دريد، جمهرة، ج١، ص٧٥٥ وانظر أيضا ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٣١٠ وقال: "عام الرمادة لأن الأرض صارت كلها سوداء فشبهت بالرماد".

١٠- ابن الجوزي عبدالرحمن بن محمد، غريب الحديث (دار الكتب العلمية، بدون تاريخ) ١٩٨٥، ج١، ص١٨٨ .

١١- الطبري، تاريخ، ج٤،ص٩٦، ابن سعد، الطبقات ج٣، ص٣١٠.

١٢- ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٣١٣.

١٣- الهيثمي علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد (دار الفكر' بدون تاريخ) ج١٠، ص٥٥٠.

١٤- الطبري، تاريخ، ج٤، ص٩٨.

١٥- ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٣١٠، الطبري، تاريخ، ج٤، ص٩٦، ابن عساكر هبة الله علي، تاريخ دمشق الكبير(دارالكتب العلمية، بدون تاريخ)ج٥٠، ص٢٠.

١٦- الطبري، تاريخ، ج٤، ص٩٨.

١٧-محمد بن علي الشوكاني، نيل الاوطار (دار الفكر، ١٩٩٤) ج٤ ص٣٠، ابن حجر، الفتح، ج٣، ص١٨٥.

١٨- ابن عساكر، تاريخ، ج٥ ص٢٠.

١٩- الطبري، تاريخ، ج٤، ص٩٦، ٩٨.

٢٠- ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٣١٠.

٢١- الطبري، تاريخ، ج٤، ص٩٩، ١٠٠.

٢٢- ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٣١٦.

٢٣- أنظر فهد أحمد الشعلان،إدارة الأزمات "الأسس-المراحل الآليات"(الرياض، ١٩٩٩)، فاروق عمر العمر، إدارة الأزمات (الكويت، ١٩٩٨).

٢٤- ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٣١٠، ٣٢٠، ٣٢١.

٢٥- نفسه، ص٣١٠، ٣١٣، الطبري، تاريخ، ج٤، ص٩٨.

٢٦- الطبري، تاريخ، ج٤، ص٩٨.

٢٧- عمر بن شبه، تاريخ المدينة المنورة (جدة ' بدون تاريخ)،ج٢، ص٧٥٢.

٢٨- ابن كثير، البداية، ج٧، ص٩٠.

٢٩- الشعلان، "إدارة الأزمات "، العمر، "إدارة الأزمات" .

٣٠- حمد بن حبيب الماوردي، الحاوي الكبير في الفقه الشافعي (دار الكتب العلمية، بدون تاريخ) ج١٠، ص٥١٣، ابن كثير، البداية، ج٧، ص٩٠.

٣١- ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٣١٥.

٣٢- الطبري، تاريخ، ج٤، ص٢٣٩.

٣٣- مالك بن أنس، المدونة الكبرى(بدون مكان، بدون تاريخ) ج٢،ص٢٨٦.

٣٤- ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٣١٢، ٣١٧.

٣٥- نفسه، ص٣١٦، ٣١٧.

٣٦- ابن شبة، تاريخ، ج٤، ص٢٣٩.

٣٧- ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٣١٧.

٣٨- ابن الأثير مجد الدين بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث (دار الفكر، بدون تاريخ) ج٤ ص٢٠، الزمخشري، الفائق في غريب الحديث (دار الكتب العلمية،١٩٩٦)، ج٣، ص١٦٠.

٣٩- البيهقي احمد بن الحسين بن على، السنن الكبرى (دار الفكر)، ج١٠، ص٤١، الحاكم محمد بن عبدالله، المستدرك على الصحيحين (دار الكتب العلمية، ١٩٩٠) ج ١، ص ٥٦٢، السيوطي عبدالرحمن بن ابي بكر، جامع المسانيد والمراسيل(دار الفكر، ١٩٩٤)، ج ١٣، ص ٣١٥ وأنظر ابن سعد، الطبقات، ج ٣، ص ٣١٠، ٣١١.

٤٠- مالك، المدونة، ج٢، ص٢٨٦ .

٤١- ابن شبه، تاريخ، ج٤، ص٢٣٩.

٤٢- ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٣١٧.

٤٣- نفسه، ص٣١٣، ٣١٥.

٤٤- النووي يحيى بن شرف، تهذيب الأسماء واللغات (دار الفكر، ١٩٩٦)، ج٢، ص٢.

٤٥- ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٣١٢.

٤٦- محمد بن يعقوب الفيروزبادي – القاموس المحيط (بيروت،١٩٩٦) ص ٧٣٥.

٤٧- ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص ٣١٣ .

٤٨- نفسه، ص٣١٠ وما بعدها.

٤٩- نفسه، ص٣١٢.

٥٠- نفسه، ص٣١٥.

٥١- نفسه، ص٣١٤.

٥٢- نفسه، ص٣١٧.

٥٣- نفسه، ص٣١٦، ٣١٧.

٥٤- نفسه، ص٣١٧.

٥٥- نفسه، ص٣١٦، ٣١٧.

٥٦- نفسه ص٣١٦، الذهبي محمد بن احمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء (دار الفكر، ١٩٩٧)، ج٢، ص٥٠٩.

٥٧- ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٣١٠ وما بعدها.

٥٨- نفسه، ص٣١٦، ٣١٧.

٥٩- نفسه.
٦٠- نفسه، ص ٣١١ – ٣١٧.
٦١- نفسه، ص٣١٧.
٦٢- نفسه، ص٣١٠.
٦٣- ابن شبه، تاريخ، ج٤، ص٧٤٣.
٦٤- ابن شبة، تاريخ، ج٤، ص٧٤٣.
٦٥- نفسه، ص٧٤٤.
٦٦- الحاكم، المستدرك، ج١، ص٥٦٢، السيوطي، جامع، ج٣، ص٣١٤.
٦٧- ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٣١٤.
٦٨- نفسه، ص٣١٦.
٦٩- نفسه.
٧٠- الطبري، تاريخ، ج٤،ص١٠٠، ابن سعد، الطبقات ج٣، ص٣١٠، ٣١١.
٧١- الطبري، تاريخ، ج٤،ص١٠٠.
٧٢- ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٣١٧.
٧٣- الزرقاني بن عبدالباقي، شرح الزرقاني على موطأ مالك (دار الفكر، بدون تاريخ) ج ٤، ص ٣٧.
٧٤- ابن شبه، تاريخ، ج ٣، ص ٧٣٩، البخاري محمد بن إسماعيل، الأدب المفرد(بدون مكان،بدون تاريخ) ج ١، ص ١٧٠.
٧٥- الشافعي محمد بن إدريس، الأم (بدون مكان، بدون تاريخ) ج ٤، ص ١٨١، البيهقي السنن، ج ١٠، ص ٤٦
٧٦- ابن سعد، الطبقات، ج ٣، ص ٣١٦، ٣١٧.
٧٧- نفسه، ص ٣١٦.
٧٨- نفسه ص ٣١٧، قال الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس(بيروت، ٢٠١١)،ج٢، ص ١٤٥.
٧٩- ابن عبد البر يوسف بن عبدالله، الاستيعاب في معرفة الأصحاب (دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢) ج ٢، ص ٣٥٩.
٨٠- ابن شبة، تاريخ، ج ٢، ص ٧٤٣.

٨١- نفسه ص ٧٣٦، ٧٣٧،ابن سعد، الطبقات، ج ٣، ٣٢٠ وما بعدها، البيهقي، السنن الكبرى، ج ٥، ص ١٨١، الحاكم، المستدرك، ج ٣، ص ٣٧٦.

٨٢- الأصفهاني على بن الحسين، الأغاني، (دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢) ج ١٢، ص ٢٨١، ٢٨٢، ابن سعد، الطبقات، ج ٢، ص ٣٢١.

٨٣- ابن شبة، تاريخ، ج ٢، ص ٧٣٦.

٨٤- الأصفهاني، الأغاني، ج ١٢، ص ٢٨٢، ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة (دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣) ج ٢، ص ١٤٠.

٨٥- الأصفهاني، أغاني، ج ١٢، ص ٢٨٢. الأرينة : "نبات عريض الورق يشبه الخطمي"الزبيدي، تاج، ج١، ص ١٦٦، حقاق أي صغار أنظر محمد بن يعقوب الفيروزبادي، القاموس المحيط(بيروت، ٢٠٠٤) ص ٤٠١،العرفط: " شجر من العضاه" نفسه ص ١١٤٣.

٨٦- ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص ٣٢٣.

٨٧- نفسه ص ٣١٧.

٨٨- البيهقي، السنن الكبرى، ج ١٠، ص ٤٦.

٨٩- الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ١٠٠، ابن سعد، الطبقات، ج ٣، ص ٣٢٣.

٩٠- الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ١٠٠.

مصادر ومراجع البحث

١- الأزهري محمد بن احمد، تهذيب اللغة ت٣٧٠هـ/ ٩٨٠م (القاهرة، بدون تاريخ)

٢- الأصفهاني على بن الحسين، الأغاني ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م(دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢)

٣- البخاري محمد بن إسماعيل، الأدب المفرد ت ٢٥٦ هـ/ ٨٦٩م(بدون مكان، بدون تاريخ)

٤- البيهقي احمد بن الحسين بن على، السنن الكبرى ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م(دار الفكر، بدون تاريخ)

٥- الحاكم محمد بن عبدالله، المستدرك على الصحيحين، ت٤٠٥هـ/١٠١٤م(دار الكتب العلمية، ١٩٩٠)

٦- الذهبي محمد بن احمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م (دار الفكر، ١٩٩٧)

٧- الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس،ت١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م (بيروت، ٢٠١١)

٨- الزرقاني بن عبدالباقي، شرح الزرقاني على موطأ مالك، ت ١١٢٢هـ/١٧١٠م (دار الفكر،بدون تاريخ)

٩- الزمخشري محمود بن عمر، الفائق في غريب الحديث، ت ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م(دار الكتب العلمية،١٩٩٦)

١٠- الزمخشري محمود بن عمر، أساس البلاغة، ت ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م (بيروت، ١٩٧٩)

١١- السيوطي عبدالرحمن بن ابي بكر، جامع المسانيد والمراسيل، ت ٩١٠هـ/ ١٥٠٤م(دار الفكر، ١٩٩)

١٢- الشافعي محمد بن إدريس، الأم، ت ٢٠٤ هـ/ ٨١٩م(بدون مكان، بدون تاريخ)

١٣- الشعلان فهد أحمد،إدارة الأزمات "الأسس-المراحل الآليات"(الرياض، ١٩٩٩)

١٤- الشوكاني محمد بن علي، نيل الاوطار، ت ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م (دار الفكر، ١٩٩٤)

١٥- الصنعاني محمد بن إسماعيل، سبل السلام، ت ١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م (دار الفكر، ١٩٩٥) .

١٦- الطبري محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢م (بيروت، بدون تاريخ) .

١٧- العمر فاروق عمر، إدارة الأزمات (الكويت، ١٩٩٨).

١٨- الفيروزبادي محمد بن يعقوب - القاموس المحيط،ت ٨١٧هـ/ ١٤١٤م (بيروت،١٩٩٦)

١٩- الهيثمي علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد، ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م (دار الفكر، بدون تاريخ)

٢٠- النووي يحيى بن شرف، تهذيب الأسماء واللغات، ت ٦٧٦ه / ١٢٧٧م (دار الفكر، ١٩٩٦)

٢١- ابن الأثير مجد الدين بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث، ت ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م(دار الفكر،بدون تاريخ)

٢٢- ابن الجوزي عبدالرحمن بن محمد، غريب الحديث،٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م (دار الكتب العلمية، ١٩٨٥).

٢٣- ابن حجر احمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري ت ٨٥٧ه /١٤٥٣م(دار الفكر، ١٩٩٣).

٢٤- ابن دريد محمد بن الحسن، جمهرة اللغة، ت ٣٢١ه / ٩٣٣م(دار صادر، بدون تاريخ) .

٢٥- ابن سيده علي، المخصص في اللغة، ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م (دار الكتاب العلمية، بدون تاريخ) .

٢٦- ابن شبه عمر، تاريخ المدينة المنورة، ت٢٦٢ه / ٨٧٥م (جدة، بدون تاريخ) .
٢٧- ابن عباد إسماعيل، المحيط في اللغة، ت ٣٨٥هـ/٩٩٥م (بيروت، ١٩٩٤) .
٢٨- ابن عبد البر يوسف بن عبدالله، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ت ٤٦٣ /١٠٧١م (دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢)
٢٩- ابن عساكر هبة الله علي، تاريخ دمشق الكبير ت ٥٧١ه /١١٧٥م(دار الكتب العلمية، بدون تاريخ)
٣٠- ابن فارس احمد، معجم مقاييس اللغة، ت ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م (بيروت، ١٩٧٩) .
٣١- ابن كثير إسماعيل، البداية والنهاية، ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م(بيروت، بدون تاريخ)
٣٢- مالك بن أنس، المدونة الكبرى ت ١٧٩هـ/ ٧٩٥م(بدون مكان، بدون تاريخ)
٣٣- الماوردي محمد بن حبيب، الحاوي الكبير في الفقه الشافعي، ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م (دار الكتب العلمية، بدون تاريخ)

الأوقاف والدعوة الشيعية في مصر
خلال العصر الفاطمي (*)

د. سمير حامد عبد الرحيم
كلية الآداب – جامعة كفر الشيخ

١- الوقف فى اللغة:

الوقف فى اللغة الحُبْس: مصدر قولك وقف الشئ إذا حبسه، ومنه وقف الأرض على الفقراء والمساكين، ووقفها أى حبسها لأن يحبس الملك عليه، ووقف الدابة والأرض وكل شئ(١) .

والفعل وقف بلا همزة هو الصحيح والمشهور بمعنى حبست، وتقول وقفت الشئ أقفه وقفاً، ولا يقال أوقفت إلا على لغة رديئة، والوقف اسماً (الحَبْس) يقال: حبست أحبس حبساً، وأحبست أحبس أحباساً(٢).

وخلاصة القول أن الوقف يعنى أنه مصدر الشئ ، وأوقفه بمعنى حبسه وأحبسه، وتجمع على أوقاف ووقوف، وسمى وقف لما فيه من حبس المال على الجهة المعينة.

٢- الوقف اصطلاحاً:

الحبيس هو كل ما حبس بوجه من الوجوه، فهو حبيس يقع على كل شئ وقفه صاحبه وقفاً محرماً لا يورّث، ولا يُوهب، ولا يباع من أرض أو نخل، ومُسْتغل يحبس أصله وقفاً مؤبداً، وتسبل ثمرته تقرباً إلى الله عز وجل، ويستدل على ذلك فيما رواه يحيى بن سعيد من أن عمراً رضى الله عنه استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أن يتصدق بقوله: " إن شئت

(*) مجلة المؤرخ المصرى، عدد يوليو ٢٠١٥

حبست أصلها، وتصدقت بثمرتها"[٣]، وفى رواية أخرى " تصدق بثمره وحبس أصله"[٤].

وحبس الشئ: وقفه فلا يباع ولا يوُرث، وإنما تُملك غلته، والموقوف عند الفقهاء العين المحبوسة إما على ملك وإما على ملك الله تعالى، والواقف الحابس لعينه، والوقف يعنى حبس العين على ملك الواقف، ويطلق الوقف ويراد به الموقوف، ولذا جاز جمع الوقف على أوقاف ووقوف، ويعبر عن الحَبْس تارة، وعن التسبيل تارة أخرى[٥].

وبالرغم من اختلاف الفقهاء[٦] حول وضع تعريف دقيق للأوقاف، إلا أنها كلها تدور حول تعريف ابن قدامة الذى يعتبر أشمل هذه التعريفات، وهو" تحبيس الأصل وتسبيل الثمرة "، وقوله تحبيس من الحبس بمعنى الوقف، ويقصد به إمساك العين، ومنع تملكها بأى سبب من أسباب التمليك، وقوله الأصل أى العين الموقوفة[٧]، ويعتبر تعريف ابن قدامة للوقف من أدق التعريفات وأشملها للأسباب الآتية :

أ – اقتباسه من قول النبى صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه " حبس الأصل وسبل الثمرة ".

ب – عدم اعتراض أى مذهب من المذاهب الدينية على هذا التعريف.

جـ – ذكر حقيقة الوقف دون الدخول فى تفاصيل أخرى كاشتراط القرابة، أو إبقاء العين المملوكة على ملك الواقف، أو خروجها عن ملكه وغير ذلك.

٣- ألفاظ انعقاد الوقف:

الألفاظ التى ينعقد بها الوقف هى كل لفظ يدل على معنى حبس العين والقصد بها، وهذه الألفاظ نوعان: صريحة وتلميح، فالألفاظ الصريحة فى الوقف هى ما اشتهر استعماله فى معنى الوقف المشروع، فتنصرف إلى

معنى الوقف، ويتم بها بمجرد ذكرها، وهى ثلاثة ألفاظ: الوقف والحبس والتسبيل، وفى ذلك يقول الإمام ابن قدامة : "وألفاظ الوقف ستة؛ ثلاثة منها صريحة، وثلاثة كناية، فالصريحة وقفت وحبست وسبلت متى أتى بواحدة من هذه الثلاث صار وقفاً؛ لأن هذه الألفاظ ثبت لها عرف الاستعمال بين الناس، وانضم ذلك للشرع "(٨).

ويذكر النووى (ت٦٧٦هـ/١٢٧٧م) أنه لا يصح الوقف إلا بلفظ؛ لأنه تمليك للعين والمنفعة(٩)، وقوله أيضاً:" وقفت كذا أو حبست أو سبلت، أو أرضى موقوفة أو محبسة أو مسبلة، فكل لفظ من هذا صريح، وهو الذى أجمع عليه جمهور الفقهاء فيما يخص ألفاظ الوقف(١٠).

أما ألفاظ الكناية للوقف فهى: تَصَدَقَتْ وحَرَّمت وأبّدت، فليست صريحةً؛ لأن ألفاظ الصدقة والتحريم مشتركة، فلا يحصل الوقف بذكرها مجردة لأنه لم يبثت لهذه الألفاظ عرف الاستعمال، ولا تصبح وقفاً إلا إذا انضم إليها أحد ثلاثة أشياء يحصل الوقف بها كأن يقول: صدقة موقوفة أو محبسة أو مسبلة أو محرمة أو مؤبدة، أو يقول: هذه محرمة موقوفة أو محبسة أو مسبلة أو محرمة أومؤبدة ، أو أن يصفها بصفات الوقف فيقول: صدقة لا تباع، ولا توهب، ولا تورث(١١).

أولا: الأوقاف والمساجد:

أولت الدولة الفاطمية الناحية الدينية عنايتها الكاملة؛ لكونها مظهراً من مظاهر السيادة الفاطمية، وممارسة الشعائر الدينية الإسماعيلية (مذهب الدولة الرسمى)، كما أنها كانت تعد منارة للعلم علاوة على دورها كأماكن للعبادة وأداء شعيرة الصلاة، ولم تقتصر الأوقاف على المساجد كبناء فقط، بل كانت تشمل جميع رواد المسجد، وكذلك القائمين على أمره من المصلين وطلاب العلم والعمال وغيرهم، ويذكر النعيمى أن جميع مساجد دمشق كانت لها

أوقاف حتى أنه" لا يكاد يوجد فيها مسجد إلا وله أوقاف تعود عليه بالنفقة"[١٢].

ويروي لنا الونشريشى أن فائدة الأوقاف على المساجد تتركز فى النفقة عليها وترميمها، ودفع رواتب القومة من الإمام والمؤذنين والناظر، كما كان يمكن زيادة رواتب قومة المسجد فى حالة زيادة ريع أوقاف هذا المسجد، وهو ما حدث مع إمام مسجد المدينة البيضاء بالمغرب[١٣].

كما يذكر ناصر خسرو أيضاً أنه كانت لكل مسجد فى جميع المدن والقرى فى مصر والشام نفقات يقدمها نائب السلطان من زيت السيرج والحصير وسجاجيد الصلاة ورواتب القوامين والفراشين وغيرهم[١٤].

وكانت إيرادات الجوامع والمساجد فى العصر الفاطمى تعتمد على مصدرين رئيسيين هما الأوقاف والصدقات العامة مما كان يوهب لها فى مختلف المواسم والمناسبات، وقد توالت أوقاف الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة على الجوامع والمساجد فى ذلك العصر، كما كانت تتوالى الأعطيات والأرزاق الثابتة، وما يهمنا هو الأوقاف التى كانت موقوفة على هذه المساجد والجوامع[١٥].

وكان الجامع الأزهر يحظى بعناية الخلفاء الفاطميين ورعايتهم، حيث أدخلوا عليه تعديلات وتجديدات فى عصور مختلفة، وأعانوا على نشاط العلم والدراسة فيه، فهيأوا الجامع لذلك، وكان أول درس بالجامع الأزهر فى صفر ٣٦٥هـ/ أكتوبر ٩٧٥م فى أواخر عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى، إذ جلس قاضى القضاة أبوالحسن علي بن النعمان بالجامع الأزهر، وقرأ مختصر أبيه فى فقه الشيعة المسمى" الاقتصار" فى جمع حاشد من العلماء والكبراء، وأثبت أسماء الحاضرين، وكانت هذه أول حلقة للدرس بالجامع الأزهر بعد مضى ثلاث سنوات ونصف على إنشائه[١٦].

وفى سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م فى عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله بدأ التدريس فى الجامع، الأزهر حيث تم ترتيب المتصدرين لتدريس العلوم الشيعية، وأقيمت مجالس الدعوة فى الجامع الأزهر، وكان يحضرها الفقهاء والمتكلمون وأهل الجدل وغيرهم ، وكانت هذه المجالس تهدف إلى دراسة الفقه الشيعي، ونشره بين الناس(١٧).

وكان الخلفاء الفاطميون يهتمون بترميم المساجد فى مصر، وصيانتها بصورة دورية حتى أن الخليفة العزيز بالله كان قد أمر بإصلاح منشآت الجامع الأزهر وتجديدها، كما أوقف الخليفة الحاكم بأمر الله عليه أوقافاً كثيرة، والتى تتضمن وقف بعض أملاكه من دور وحوانيت ومخازن لتنفق على مساجده فى القاهرة(١٨).

وكانت هذه الأوقاف من أهم الوسائل التى ضمن بها الخلفاء الفاطميون مورداً مالياً ثابتاً للإنفاق على منشآتهم الدينية وبخاصة المساجد، وجاء ذلك بعد أن أحصى الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م المساجد التى ليست لها إيرادات ثابتة فى سجل رفع إليه بأن عددها ٨٣٠ مسجداً قُدرت لها نفقة شهرية حوالى ٩٢٢٠ درهماً، ومعنى ذلك أن كل مسجد كان يحتاج إلى ١٢ درهماً شهرياً، وبناء على ذلك فقد أمر الحاكم فى صفر ٤٠٥هـ/ أغسطس ١٠١٤م بقراءة سجل بوقف بعض الضياع (صول وأطفيح وطوخ فضلا عن ست ضياع أخرى) على القراء والفقهاء والمؤذنين بالجوامع والقوام بها، ونفقة المارستانات، وأكفان الموتى(١٩).

كما قام الحاكم بأمر الله فى سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م بوقف بعض أملاكه بكل من القاهرة والفسطاط وهى دار الضرب وقيسارية الصوف .... وغيرها، وتخصيص ريع ذلك الوقف للنفقة على الجامع الأزهر وجامع راشدة، كما وقف بعض الحوانيت والدور بالفسطاط على جامع المقس(٢٠).

وكان الحاكم قد خصص من إيراد هذه الأوقاف مبلغاً سنوياً يقدر بحوالى ١٠٧١ ديناراً، وذلك للنفقة على عمارة منشآت الجامع الأزهر. وعلى القائمين على شئون المسجد من خطباء ومؤذنين ومصلين وخدم وغيرهم[٢١].

ويعطينا المقريزى تفاصيل كثيرة عن ذلك حيث يذكر: أن الحاكم بأمر الله قد خصص مبلغاً كبيراً من جملة الأموال الموقوفة على الجامع الأزهر لشراء ١٣ ألف ذراع من الحصير العبدانى لفرش هذا الجامع، علاوة على ١٠٠ ذراع من الحصر المضفورة[٢٢] لكسوة جدران الجامع[٢٣].

كما اهتم الحاكم بأمر الله بصيانة الجامع الأزهر ونظافته، وخصص جزءاً من ريع هذه الأوقاف لشراء الزجاج، وخياطة الحصير الموجود بالمسجد، كما خصص جزءًا آخر من هذه الأموال لنظافة المسجد، وشراء القماش اللازم لمسح قناديل الإضاءة[٢٤].

كذلك خصص الحاكم بأمر الله مبلغاً سنوياً يقدر بحوالى ٥٥٦,٥ دينار للإنفاق على القائمين على الجامع، حيث كان خطيب المسجد يحصل على حوالي ٧ دنانير، أى ما يوازى ١٢٦ درهماً، وهو ما يعادل ١٥% من قيمة المبلغ السابق، وربما يرجع سبب ذلك إلى رغبة الدولة فى رفع مكانة خطباء المساجد لدورهم الكبير فى نشر المذهب الشيعي المذهب الرسمي للدولة الفاطمية[٢٥] وقد جاء خادم المسجد فى أدنى السلم الوظيفى حيث كان يحصل على ٣,٥ دينار سنوياً بنسبة ٠,٥% من إجمالى المبلغ الكلى.

وبالرغم من أنه قد وردت فى إحدى البرديات التى ترجع إلى سنة ٣٥٦هـ/٩٦٧م- قبيل العصر الفاطمي- إشارة إلى أن خادم مسجد كان يتقاضى أجراً يقدر بحوالى ٣,٥ دينار سنوياً، فإنه لا يستبعد أن يكون هذا الراتب قائماً بالنسبة لقومة (عمال) المساجد فى العصر الفاطمي، وهو ما

ورد فى وقفية الحاكم بأمر الله، حيث كان يتقاضى كل من المشـرف وقـيم الميضأة وخادم المسجد راتباً سنوياً يقدر بحوالى ٣٦ ديناراً(٢٦).

ومما تجدر الإشارة إليه أن الخلفاء الفاطميين لـم يهتمـوا بعمـارة الجامع الأزهر وصيانته فقط، بل شملت أوقـافهم بقيـة جوامـع القـاهرة والفسطاط، إذ يذكر المقريزى أن الخليفة الحاكم بأمر الله أمر فى سنة ٤٠٣ هـ/١٠١٢م بعمل تقدير لما يحتاج إليه الجامع الحاكمى(٢٧) مـن الحصـر والقناديل، والسلاسل فكان تقدير ما يحتاجه من حصـير حـوالى ٣٦,٠٠٠ ذراع، وكانت تبلغ النفقة عليها ٥,٠٠٠ دينار سنوياً(٢٨).

وجاء الجامع الحاكمى فى المرتبة الثانية بعد الجامع الأزهر من حيث الأهمية، ومن حيث دوره كذلك فى نشر المذهب الشيعى فـى مصـر، وقـد شملت وقفية الحاكم السابقة عمارة الجامع الحاكمى وصـيانته، ففـى سـنة ٥١٩هـ/١١٢٥م أمر الخليفة الفاطمى الآمـر بأحكـام الله بوقـف بعـض ممتلكاته، ومنها حمام شمول ودار النحاس بمصر علـى الجـامع الأقمـر، وأنفق من إيراد هذا الوقف على خدم المسجد والقائمين عليه من أئمة وخطباء ومؤذنين وغيرهم، علاوة على الإنفاق على وقود مصابيحه وقناديله(٢٩).

وجدير بالذكر أنه لم يكن من الممكن تغيير هيئة وقـف مخصـص للمساجد كتغيير نوع حصير أو زيت خصوصا وأن هناك بعض النصـوص التى أشارت إلى ذلك، ومن ذلك ما ذكره ناصر خسرو من أن والى الشـام شكا من أن الزيت قليل، واستأذن فى أن يصرف للمسـاجد الزيـت الحـار المستخرج من بذور الفجل واللفت، فقيل له" إنك مأمور لا وزر، وليس مـن الجائز أن تبدل أوتغير فى شيئ يتعلق ببيت الله(٣٠).

وفى سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م وقف الخليفة الحافظ لدين الله حوانيتـه على خدم المسجد الأقمر، وقارئي القرآن به، وكـذلك علـى النفقـة علـى المدرسين والطلاب والفقهاء من إيراد هذه الحوانيت(٣١).

ومن خلال ما سبق يتضح أن الأوقاف على المساجد قد انعكست عليها، حيث ظلت المساجد بمصر والفسطاط مفتوحة.ليلاً ونهاراً، وكثيراً ما استخدمت كمأوى لمن لم يجد له مسكناً، وللمسافرين والمتعبدين، وانعكست أيضاً على النشاط العلمى والدينى حيث كثرت الحلقات الدراسية فى المساجد، ويؤكد المقدسى ذلك بقوله: " لقد شاهدت أحد الجوامع بالفسطاط وقد غص بحلقات الفقهاء وآئمة القراء وأهل الأدب والحكمة مائة وعشرة مجلس"[٣٢].

وفى أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى سرت فى مصر عادة إضاءة المساجد بالتنانير[٣٣]، فعُمل فى سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م تنور يوقد كل ليلة جمعة، وفى سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م خص الحاكم بأمر الله تنوراً كبيراً من الفضة مقداره ١٠٠,٠٠٠ درهم فضة، وعلق بالجامع بعد أن قلعت عتبتاه حتى أدخل التنور، ثم أُعيد بناء العتبتين بعد ذلك[٣٤].

كما يذكر ناصر خسرو فى ذات السياق أن بعض القرى كانت موقوفة على مسجد الخليل بالقدس الشريف، ومنها قرية مَطلون والقرى المجاورة لها، والتى كانت موقوفة على زائرى مشهد الخليل[٣٥]، كما كانت هناك أوقاف كثيرة على المسجد الأقصى، وهى مخصصة للإنفاق على عمارة المسجد وصيانته، بالإضافة للإنفاق على المؤذنين والعلماء والقراء[٣٦].

ثانيا- الأوقاف ودعاة الشيعة:

كان خلفاء الدولة الفاطمية ووزراؤها يهدفون إلى نشر المذهب الشيعى فى كل من مصر والشام، وذلك لتأييد هيمنتهم السياسية على المناطق التى يحكمونها، ولذا فقد استغل بعض الوزراء ومنهم يعقوب بن كلس الجوامع لنشر المذهب الشيعي، وأدخل تحت إشرافه العديد من التحسينات على جامع عمرو بن العاص بالفسطاط الذى كان يعتبر من المراكز التعليمية

المهمة فى العالم الإسلامى آنذاك، حيث كانت تدرس به مؤلفات ابن كلس فى الفقه والقراءات، وكان ابن كلس يعقد المناظرات كل يوم ثلاثاء، ويبذل قصارى جهده لنشر المذهب الشيعى[٣٧].

كذلك أوقف الوزيرالفاطمى طلائع بن رُزيك (٥٤٩ – ٥٥٦هـ/١١٥٤ ــ١١٦٠م) بركة الحبش[٣٨] وبلقس وكفرها على الأشراف الأقارب الحسينيين، والأشراف الطالبيين[٣٩]، وأشراف المدينة المنورة، وابن معصوم إمام مشهد على بن أبى طالب رضى الله عنه فى مدينة النجف الأشرف القريبة من مدينة الكوفة[٤٠].

ويمكننا استنتاج بعض الحقائق من خلال وثيقة وقف الوزير طلائع بن رزيك على الأشراف منها ما يلى:

أ- أنه بالرغم من أن هذا الوقف كان يهدف إلى الإنفاق على الطالبيين من غلة الأوقاف من خلال صرف ريع هذا الوقف على الأقارب الطالبيين فى كل من مصر والحجاز، إلا أن توزيع ريع هذا الوقف لم يكن بالتساوي بين كل منهما، حيث استأثر الأشراف الأقارب المقيمون بالقاهرة والفسطاط بنصيب كبير من ريع هذه الأوقاف رغم قلة عددهم، فى حين كان الأشراف الطالبيون فى الحجاز يأخذون نسبة قليلة من ريع هذه الأوقاف رغم عددهم الكبير؛ وهو ما أدى بدوره إلى النزاع بين الفريقين[٤١]. ولعل ما يفسر ذلك هو أنهم من الأشراف الأقارب الذين يقيمون فى القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية.

ب- كان عبد الله بن الأمير فارس الدولة أبي الهجاء متولياً لهذا الوقف نظراً لشهرته بالأمانة والنزاهة.

ج ــ اقتصرت الأوقاف السابقة على الأشراف بكل من مصر والحجاز، مع تحريم بيعها أو شرائها أو تمليكها أو تحويلها لأية جهة غير الجهة الموقوفة عليها.

ويعطينا ابن الطوير تفاصيل كثيرة عن الأشراف الطالبيين فى مصر حيث يذكر أن لهم نقابة خاصة بهم، كما يشير إلى تنظيماتهم الإدارية داخل هذه النقابة، ويأتى نقيب الأشراف على رأس السلم الوظيفى، حيث كان يتقاضى مرتباً شهرياً يقدر بحوالى عشرين ديناراً، ثم يأتى نائب النقيب فى مرتبة تالية بعده، وكان يتقاضى مرتباً شهرياً يقدر بحوالى ثمانية دنانير، وهناك مشرفو النقابة الذين كان يتقاضى كل منهم عشرة دنانير، وأخيرا يأتى العمال فى أسفل السلم الوظيفى حيث يتقاضى كل واحد منهم خمسة دنانير شهرياً[٤٢].

ثالثاً: الأوقاف والمكتبات:

١ــ دار العلم بالقاهرة:

يعود ظهور المكتبات الفاطمية إلى وصول الخليفة الفاطمي المعز لدين الله إلى مصر سنة ٣٦٢هـ /٩٩٦م حيث أقام أول مكتبة فاطمية بقصر الخلافة، وكانت نواة تلك المكتبة مجموعة كبيرة من الكتب فى المذهب الإسماعيلي والفقه الشيعى حملها معه المعز عند قدومه من أفريقية أو المغرب، ثم بلغت هذه المكتبة الفاطمية فى عهد العزيز بالله أربعين خزانة من خزائن القصر، حوت كتباً فى مختلف العلوم والآداب والفنون.

وقد اقتدى به كبار رجال الدولة (من وزراء وحاشية)علاوة على العلماء والأثرياء من محبي العلم فى تكوين مكتبات خاصة بهم ينهلون منها مثل مكتبة الوزير يعقوب بن كلس فى عهد العزيز بالله ومكتبة الأفضل بن بدر الجمالى، ومن العلماء مكتبة المبشر بن فاتك وإفرائيم بن اسحاق وهما من علماء الطب فى العصر الفاطمي.

وتعتبر دار العلم (الحكمة) بمصر من المراكز الثقافية المهمة فى العصر الفاطمى، ولقد افتتحت هذه الدار فى ١٠ جمادى الآخرة ٣٩٥هـ/

مارس ١٠٠٥م، وقد اشتملت على مكتبة كبيرة بها عدد من النساخ والوراقين، حيث كان يؤتى إليهم بالكتب لينقلوا صوراً منها تزود بها المكتبة، وكانت دار العلم تحوى آلاف الكتب فى سائر العلوم والآداب، وكان بها قراء ومنجمون وأصحاب الفقه واللغة والأطباء[٤٣]، ولقد أصبحت هذه الدار منذ ذلك الوقت من المراكز الثقافية المهمة بمصر، واشتهرت أيضاً باسم "دار الحكمة" وأطلقت عليها هذه التسمية لترمز إلى الدعوة الشيعية؛ لأن مجالس الدعوة كانت تسمى مجالس الحكمة، وقد زود الحاكم بأمر الله هذه الدار بمكتبة عرفت باسم " دار العلم " حوت الكثير من العلوم والآداب[٤٤].

أما عن أسباب إنشاء دار العلم (الحكمة)، فيشير المؤرخون إلى أنها قد أنشئت من أجل إقامة مجالس الدعوة الشيعية، وعقد المناظرات والمساجلات المختلفة بهدف نشر المذهب الفاطمى وتعاليمه، وكان داعى الدعاة الشيعى يشرف بنفسه على تنظيم أمور الدعوة بين سائر الطبقات ممن يترددون على الدار، إلا أن هذه المجالس توقفت فى سنة ٤٠٠هـ /١٠٠٩م[٤٥].

وربما أراد الحاكم بأمر الله مؤسس هذه الدار أن تكون شبيهة بدار الحكمة التى أنشأها الخليفة المأمون العباسى فى بغداد فحمل إليها من كتب القصر كتباً كثيرة تحتوى على سائر العلوم والآداب، وأباح الاطلاع عليها لمن يريد، فتردد عليها الناس، ونسخ كل من التمس نسخ شئ مما فيه ما التمسه، ورتب فيها أناساً يعلمون الناس العلوم المختلفة بين منجمين وأطباء ونحويين ولغويين، وعين بها خداماً وفراشين، وأجرى الأرزاق للقراء المقيمين فيها، ووفر لهم كل ما يحتاجون إليه من حبر وأقلام وورق ومحابر[٤٦].

وقد شجع الخلفاء الفاطميون الناس على حركة النسخ والقراءة داخل دار العلم، ويذكر المقريزى أن الخليفة الحاكم بأمر الله أوقف أماكن كثيرة

بمصر حتى ينفق من ريعها على دار العلم، وذلك بهدف مساعدة طلاب العلم[٤٧].

ولقد انعكست هذه السياسات على عدد الكتب النادرة التى حظيت بها مكتبة هذه الدار، ومن أمثلة ذلك أن رجلاً أحضر إلى الخليفة الفاطمى العزيز بالله نسخة من كتاب الطبرى اشتراها بمائة دينار، فأمر العزيز بالله أمناء المكتبة فأخرجوا حوالى عشرين نسخة من تاريخ الطبرى منها نسخة بخط يده، كما كان بخزانة العزيز بالله ما ينيف على ثلاثين نسخة من الطبرى، ومائة نسخة من الجمهرة لابن دريد[٤٨].

كما أورد لنا المقريزى فى خططه لائحة بالمبالغ التى كانت تنفق على دار العلم سنوياً، وكانت تبلغ ميزانية تلك الدار ٢٥٧ ديناراً سنوياً، وهى جزء من ريع بعض أملاكه الموقوفة على جوامع القاهرة[٤٩] وهى كالتالي:.

أ- أن الحاكم قد خصص مبلغاً سنوياً يشكل حوالى ١٠% من إجمالى المبلغ الموقوف من أجل فرش أرضية الدار بالحصير العبدانى الفاخر، كما خصص حوالى ٤% من هذا المبلغ لشراء الصوف اللازم لفرش الدار فى فصل الشتاء؛ وذلك لتوفير جو مناسب للدارسين داخل هذه الدار.

ب- اهتم الحاكم بأمر الله بتوفير الأوراق اللازمة لعمليات النسخ داخل الدار حيث خصص حوالى ٣٥% من إجمالى المبلغ الموقوف لشراء الأوراق والأدوات اللازمة لعمليات النسخ داخلها.

جـ- كما اهتم الحاكم بأمر الله بتوفير المياه التى تحتاجها الدار، حيث خصص حوالى ٤,٥% من إجمالى المبلغ لتوفير مياه الشرب طوال العام للمعلمين والطلاب داخل الدار ونستنتج مما سبق أن الحاكم بأمر الله وفر كل الرعاية للدارسين، وأطلق لهم الأرزاق، ووفر لهم الأحبار والأقلام التى تحتاجها الدار، علاوة على أنه أباح لعامة الناس ارتيادها وقراءة

الكتب ونسخها ، وكانت دار العلم من أهم أعمال الحاكم بأمر الله فى ذلك الوقت(٥٠).

وكان موظفو دار العلم يحصلون على مرتباتهم من ريع وقفية الحاكم؛ فالخازن يحصل على مرتب كبير تبلغ نسبته حوالى ١٩% من إجمالى المبلغ الموقوف على دار العلم؛ لأهمية وظيفته، وتحمله الكثير من المهام التى يجملها القلقشندى بقوله: ومنها المشرف على المكتبة، والمسئول عن الكتب لطلاب المدرسة، والإشراف على تجليد الكتب وترميمها قبل إعادتها للمستعيرين، وتنفيذ ما رد فى الوقفية، وعليه تسلم الكتب من ناظر الوقف، والقيام بمراجعتها، والإشراف على إعارة الكتب، وكان يتسلم خزانة الكتب أو المكتبة بحضور الشهود، ويعتبر مسئولاً عنها، ولا يستطيع أن يتنازل عن عمله أو وظيفته إلا بإشهار شرعى علنى من القاضى(٥١).

ولقد أدرك الحاكم بأمر الله أهمية حرفة الوراقة والوراقين فى ذلك الوقت، حيث خصص لهم من ريع الوقف السابق مرتباً شهرياً يكفل لهم حياة كريمة تليق بمكانتهم الكبيرة، وتشير المصادر إلى اهتمام الفاطميين بالأدوات الكتابية؛ ومنها الدواة التى نالت مكانة كبيرة فى الدولة الفاطمية، وهى المكانة التى لم تعرفها الدواة فى أي عصر آخر قبلهم أو بعدهم لدرجة أنها اعُتبرت إحدى شارات الخليفة الفاطمى، وهو ما يذكره القلقشندى بقوله: " وتعتبر أعجوبة من أعاجيب الزمن، وكان يتم صنعها من خالص الذهب، كما كانت حليتها من المرجان، وتلف عادة فى نسيج شفاف"(٥٢).

وعلى أية حال، فقد راج عمل الوراقين والنساخين الذين ساهموا فى الحركة العلمية فى العصر الفاطمى من خلال قيامهم بنسخ الأقلام وغيرها من أدوات الكتابة وبيعها، وازدهرت أيضاً صناعة تجليد الكتب أو ما عرف بالتسفير.

وقد شجع الخلفاء الفاطميون الناس على حركة النسخ والقراءة داخل دار العلم، ويذكر المقريزى أن الخليفة الحاكم بأمر الله أوقف أماكن كثيرة بمصر حتى ينفق من ريعها على دار العلم، وذلك بهدف مساعدة طلاب العلم حيث برع فيها الصناع فى العصر الفاطمى بصورة كبيرة ، ويبدو أن هؤلاء جميعاً قد استفادوا من وقفية الحاكم بأمر الله ، والتى وفرت لهم مرتبات شهرية ثابتة، وضمنت لهم ولأسرهم حياة كريمة فى ذلك الوقت.

ثم يأتى العمال فى أدنى السلم الوظيفى داخل دارالعلم، حيث كانوا يتقاضون مرتباَ يقدر بحوالى ١,٢٥ دينار شهرياً بنسبة ٦% من جملة المبلغ الموقوف على دار العلم.

دار العلم بطرابلس الشام:

أنشأ هذه الدار أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمار (ت ٤٦٤هـ/١٠٧١م)، وكان فقيهاً شيعياً سديد الرأى، وينتسب إلى بنى عمار الذين ينتمون إلى قبيلة كتامة المغربية التى اعتمد عليها الفاطميون فى إقامة دولتهم بإفريقية والمغرب الأوسط، وقد أسندوا إليه مراكز قيادية فى مصر والشام، واهتم أبو الحسن بن على بن عمار(ت ٤٩٢هـ/١٠٩٨م) الذى خلف عمه الحسن بن عمار فى حكم طرابلس، واهتم بتجديد هذه المكتبة سنة٤٧٢ه/١٠٧٩م، وأضاف إليها العديد من الكتب(٥٣).

ويتفاوت عدد الكتب بهذه المكتبة التى دمرها الصليبيون ما بين١٠٠,٠٠٠ عند ابن الفرات(٥٤) و ٣٠٠,٠٠٠ كتاب عند ابن العمرانى، بينما يذكر كل من ابن الأثير وابن القلانسى أن هذه المكتبة كانت تحتوى على ما لا يحد عدده، ولا يحصى(٥٥)، وفى جميع الأحوال فإن هذا دلالة واضحة على ضخامة ما بهذه المكتبة من كتب.

وعلى أية حال، فقد كان بمكتبة طرابلس عـــدد كبيـــر مـــن الكتـــب الموقوفة على القراء وطلاب العلم، وما يؤكد ذلك هو أن الصـــليبيين عقـــب دخولهم طرابلس نهبوا ما فى مكتبتها، وغنموا من أهلها الأموال وكتب دور العلم الموقوفة، والتى كانت كثيرة للغاية بحيث يعجز الناس عن إحصـــائها، ويذكر ابن شداد ذلك فى معرض حديثه عن أوقاف بنى عمار مـــن الكتـــب الموقوفة على هذه المكتبة بقوله: " ستة مجلدات من مؤلفات أبى العلاء، وهذه الكتب هى الصاهل والشاهج والسجع السلطانى والفصول والغايات والســـدن وإقليم الغايات ورسالة الإغريض(٥٦) .

جدول رقم (١)

وقفية الحاكم بأمر الله على منشآت الجامع الأزهر.

المبلغ سنويا بالدينار	وجه الإنفاق
١٠٨	ثمن الحصر العبدانية والمضفورة لفرش الجامع وكسوته
١٢,٥	زجاج المسجد
١٥	البخور وأجرة الصانع والمسك والقناديل
٧	الشمع الذى تحتاجه المواقد والقناديل
١٤٢,٥	**المجموع**

المقريزى : المواعظ والاعتبار، جـ ٢ ، ص ٢٧٣.

جدول رقم (٢)

وقفية الخليفة الحاكم بأمر الله على نظافة الجامع الأزهر وإضاءته.

المبلغ سنوياً بالدينار	وجه الإنفاق
٥	كنس الجامع وأجرة نقل التراب والمخلفات
١	سرج قناديل الإضاءة
٠,٥	ثمن الفحم
٠,٥	ملح القناديل
١٥	أجرة متولى العلف لأبقار تربيع السواقى
١٢	أجرة قيم الميضاة
٠,٥	خادم المسجد
٧٢٥	المجموع

المقريزى : المواعظ والاعتبار، جـ ٢ ، ص ٢٧٣.

جدول رقم (٣)

وقفية الحاكم بأمر الله على صيانة الجامع الأزهر.

٢٤	التنانير والقباب الموجودة فوق سطح المسجد
٠,٥	الحبال والدلاء
٠,٥	خرق القماش لمسح التنانير والقناديل
١,٢٥	القفاف والمكانس
٣	أزيار فخار للشرب
٣٧,٢٥	ثمن ١٢٠٠ رطل من زيت السيرج
٧٤	**المجموع**

المقريزى : المواعظ والاعتبار، جـــ ٢ ، ص ٢٧٣.

جدول رقم (٤)

وقفية الحاكم بأمر الله على القائمين على شئون الجامع الأزهر.

المبلغ سنوياً بالدينار	وجه الانفاق
٨٤	خطيب المسجد
٥٥٦,٥	الأئمة والمصلون والقومة
٢٤	المشرف على الجامع
٣٠	للمصلين سنوياً

المقريزى : المواعظ والاعتبار، جـــ ٢ ، ص ٢٧٣

جدول رقم (٥)

أوقاف الحاكم بأمر الله على دار العلم بالقاهرة.

المبلغ بالدينار سنويا	الغرض من الوقف
١٠	ثمن الحصر
٥	ثمن لبود الفرش فى الشتاء
٤	ثمن طنافس فى الشتاء
١	مرقة الستارة
١٢	تجليد الكتب
٩٠	الأوراق اللازمة
١٢٢	المجموع

المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٢٧٤.

جدول رقم (٦)

مرتبات موظفي دار العلم من وقفية الحاكم بأمر الله.

المبلغ سنويا بالدينار	وجه الإنفاق
٤٨	الخازن
١٢	المشرفون على الورق والأحبار والأقلام
١٥	الفراشون
٧٥	المجموع

المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٢٧٤.

الهوامش :

(١) ابن منظور: لسان العرب، بيروت، دار إحياء التراث العربـي، ١٩٩٧، جـ ١١، ص٢٧٦؛ ابن النجار: منتهى الإرادات، تحقيق: عبد الله عبد المحسن التركي، بيروت ، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩، جـ ٣، ص٣٣٠ .

(٢) ابن قدامة: المغنى، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركى، عبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة، دارهجر، ١٩٩٢، ص١٨٤ ؛ السيوطى المنهاجى: جواهر العقود ومعين القضاة والموقعين والشهود، الرياض، ١٩٥٥، جـ ١، ص٣١٣ .

(٣) أورده البخارى فى صحيحه، ج٢، ص٣٨٩؛ وابن حنبل فى مسنده، ج٨، ص٢١٤.

(٤) ابن حجرالعسقلانى: رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق على محمد عمر، القاهرة، مكتبة الخانجى،١٩٩٢، ص٤٤٦. ومن المعروف أن أول وقف فى الإسلام كما ورد فى كتب السيرة والفقه هو وقف مُخيرق اليهودى إذ تذكر المصادر أن النبى (صلعم) كانت له صدقات ثمانية قبض عنها إحداها أموال مخيرق اليهودى الذى شارك مع الرسول فى غزوة أحد سنة ٣هـ/٦٢٦م وكانت له حوائط (بساتين) نخيل بالمدينة أوصى بها أن إستشهد أن تكون لرسول الله يضعها حيث أراد الله، فاستشهد فى أحد وقبض الرسول له، ووقف تلك الحوائط أو البساتين وجعلها فى سبيل الله فكان هذا أول وقف فى الإسلام.

(٥) الخطيب الشربينى: مغنى المحتاج إلى معرفة معانى ألفاظ المنهاج، تحقيق على محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، بيروت، دارالكتب العلمية، ١٩٩٤، جـ ٣، ص٥٢٢.

(٦) لا يوجد اختلاف بين المذاهب السنية حول تعريف الوقف، أو الحبس حيث يعرفه الشافعية بأنه حبس المملوك، وتسبيل المنفعة مع بقاء عينه، ودوام الانتفاع بها من أهل التبرع على معين يملك بتمليكه أو جهة عامة من غير معصية الله، ويعرف الحنفية الوقف بأنه حبس العين على ملك الواقف، والتصدق بالمنفعة عند الإمام، وعندها حبس على ملك الله تعالى، وعند المالكية يعرفون الوقف بأنه منفعة مملوك، ولو بأجرة يسيرة، أوغلبة لمستحق بضيعة كما يراه المحبُسَ، ويعرف الحنابلة الوقف بأنه: تحبيس الأصل وتسبيل الثمرة. لمزيد من التفاصيل انظر: محمود عبد الرحمن عبد المنعم، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، القاهرة، دار الفضيلة، ١٩٩٢، جـ

٣، ص ٤٩٤.

(٧) محمد عبيد الكبيسى: أحكام الوقف فى الشريعة الإسلامية، بغداد، وزارة الأوقاف، ١٩٩٩، جـ ١، ص٨٨.

(٨) ابن قدامة: المغنى، جـ ٦، ص ١٩٦.

(٩) روضة الطالبين، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢، جـ ٤ ، ص ٣٨٧ ؛ ابن النجار: منتهى الإرادات، جـ٣، ص٣٣١.

(١٠) النووي: المصدر السابق، جـ ٤، ص ٣٨٧.

(١١) ابن قدامة: المصدر السابق، جـ ٨، ص١٨٨، ٥٣٢ ؛ الطرابلسى: الإسعاف فى أحكام الأوقاف، مصر، مطبعة هندية، ١٩٠٢، ص ١٠ – ١٢؛ الخطيب الشربينى: مغني المحتاج، جـ٣، ص٥٣٢.

(١٢) النعيمي: الدارس فى اخبار المدارس، ص٢٣٣. انظر أيضا: أيمن محمد العمر: الوقف ودوره فى التنمية الاقتصادية، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، عدد ٦٠، مارس ٢٠٠٥، ص٣٢.

(١٣) المعيار المغرب، ج٧، ص٥.

(١٤) ناصر خسرو: سفرنامة، ص١٠٩. انظر أيضا: محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص٥٣.

(١٥) سيدة اسماعيل كاشف: الجامع الازهر ودوره فى نشر المذاهب الثقافية العربية الإسلامية ، تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢، ص٥٧.

(١٦) السيوطي: حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق:علي محمد عمر، القاهرة، مكتبة الخانجى، ج١، ٢٠٠٧، ص١٩٥.

(١٧) المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢٧٣.و انظر أيضا علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ج١، ص٤٧.

(١٨) المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ٢٧٤.

(١٩) المسبحى: نصوص ضائعة من تاريخ مصر، القاهرة، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، ١٩٨١، ص٣١.

(٢٠)المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢٧٤-٢٧٥.

(٢١)المقريزي، ج٢، ص٢٧٤-٢٧٥.

(٢٢)هى أنواع من الحصير كانت تصنع من السمار فى مصر، وانتشرت صناعتها بالريف والمدن وكانت تصنع منها أنواع فاخرة فى عابدان ببلاد فارس فى حين كان هناك نوع من الحصير المضفوزة التى تتميز بجمال ألوانها وكثرة زخارفها حيث كانت تخصص لزخرفة الحوائط فى مساجد مصر . انظر: عبد اللطيف البغدادى : الرحلة، ص٢٤.

(٢٣)المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٢،ص٢٧٣. انظر أيضا:محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، القاهرة، مكتبة الخانجى، ط٣، ١٩٨٣،ص٣٩١.

(٢٤)المقريزى: المصدر السابق، ج٢،ص٢٧٣.

(٢٥)نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٢٦)أدولف جروهمان: أوراق البردى العربية، السفر الثانى، القاهرة، دار الكتب المصرية،١٩٩٤، ص١٠٢.

(٢٧)المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢٧٤.

(٢٨)المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢٧٤.

(٢٩)سفرنامة: ص٨٧.

(٣٠)المقريزى: اتعاظ الحنفا،ج٢،ص٩٣.

(٣١)السيوطي: حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية،٢٠٠٤، ج١،ص١٣٥.

(٣٢)سلام شافعى محمود:: أهل الذمة فى مصر، ص٥٦.

(٣٣)تقع جنوب الفسطاط بين النيل والمقطم وهى عبارة عن حوض من الأرض الزراعية التى كانت تغمرها مياه النيل وقت فيضانه سنويا. راجع المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢٨٠.

(٣٤)المقريزى: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٢٨٥. انظر أيضا محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية،ص٦٠.

(٣٥)المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢٨٠.

(٣٦)ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص١١٤-١١٥.

(٣٧)المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢٧٤. انظر أيضا: أيمن فؤاد سيد، المدارس فى مصر فى العصر الفاطمى، ص٢٠٥.

(٣٨)نفس المصدر والجزء والصفحة. راجع ايضا :خطاب عطية: التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى، ص١٢٣.،

(٣٩)المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٢،ص٢٧٤. وانظر أيضا: السيد عبد العزيز سالم، بحوث فى التاريخ الاسلامى، قسم١، ص٣٦٥.

(٤٠)المسبحي: نصوص ضائعة من تاريخ مصر، ص٢٢؛ المقريزى، المواعظ والاعتبار، ج١، ص٤٨٥.

(٤١)المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢٩٥. انظر ايضا: أمنية أحمد الشوربجى: رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى، ص٨٣.

(٤٢)المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٣٩٥.

(٤٣)المقريزى: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٣٩٥.

(٤٤)المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٥٠٢. انظر ايضا: نجوى كيرة: حياة العامة فى مصر فى العصر الفاطمي، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، ٢٠٠٤، ص٥٠٩

(٤٥)القلقشندى: صبح الاعشى فى صناعة الانشا، ج١١، ص٢٣٢.

(٤٦)السيد أحمد الصاوى: مجاعات مصر الفاطمية، ص١٨٠.

(٤٧)ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج١٠، ص٤٦٥.

(٤٨)ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات، ج٣، ص٢٣٤.

(٤٩)ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢،ق٢ ص١٠٧.

قائمة المصادر والمراجع

١- ابن الأثير: (عز الدين أبى الحسن على بن الكرم الشسيانى ت ٦٣٠هـ /١٢٣٢م)

- الكامل فى التاريخ، ١٠ مجلدات، بيروت، دار صادر،١٩٩٦.

٢- ابن حجر العسقلانى : (شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلانى ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م)

- رفع الإصر عن قضاة مصر: تحقيق علي محمد علي، القاهرة، مكتبة الخانجى، ١٩٩٢.

٣- ابن الخطيب الشربينى: (محمد بن مالك بن محمد الخطيب ت ٩٧٧هـ / ١٥٦٩م)

- مغنى المحتاج إلى معرفة المنهاج: تحقيق علي محمد عوض، عادل عبد الموجود، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٤.

٤- السيوطى: (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)

- حسن المحاضرة فى ملوك مصر والقاهرة، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة، مكتبة الخانجى،٢٠٠٧.

٥- السيوطى المنهاجى: (شمس لالدين محمد لن أحمد المنهاجى ت القرن ٩هـ / ١٥ الميلادى)

- إتحاف الإخصا بفضائل المسجد الأقصى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢.

٦- ابن الطوير: (أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسرانى ت ٦١٧هـ / ١٢٩٣م)

- **نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين، تحقيق أيمن فؤاد سيد، بيروت، دار صلدر، ١٩٩٢ .**

٧- عبد اللطيف البغدادى: (موفق الدين أبو محمد بن عبد اللطيف البغدادى)

- الإفادة والاعتبار فى الأمور االمشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تحقيق، بول غليونجي ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥.

٨- ابن قدامة: (محمد بن عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي ت ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م)

- المغنى، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركى، عبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة، دار هجر، ١٩٩٢.

٩- القلقشندى: (أبو العباس أحمد بن على القلقشندى ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)

- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، القاهرة، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د. ت .

١٠ – المسبحى: (عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد ت ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م)

- أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ج٤٠ التاريخى، القاهرة، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، ١٩٧٧.

١١ – المقريزى: (تقى الدين أحمد بن محمد بن علــى ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)

- النواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار، طبعة بولاق، ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣م .

١٢- ابن منظور: (ابن منظور الإفريقى ت ٧١١هـ/ ١٣١١)

- لسان العرب، بيروت، دار إحياء التراث العربى، ١٩٩٧,

١٣- ناصر خسرو: (ناصر خسرو علوى ت ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م)

- سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣,

١٤- النعيمى: (عبد القادر بن محمد النعيمى الدمشقى ت ٩٧٨هـ / ١٥٧٠).

- الدارس فى تاريخ المدارس، أعد فهارسه إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠.

١٥ – النووى : (أبى زكريا يحيى بن شرف الدين النووى الدمشقى ت ٨٦٤هـ / ١٤٥٩م) .

- الأعلاق الخطيرة فى أمراء الشام والجزيزة، عنى بنشره وتحقيقه دومينك سورديل، دمشق ، ١٩٥٣ .

١٦- الونشريسى: (أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسى التلمسانى) .

- المعيار المغرب فى فتاوى أهل الأندلس وإفريقيا والأندلس والمغرب، وزارة الأوقاف ، المغرب ، ١٩٨١.

ثانيا المراجع العربية

١- السيد أحمد الصاوى: مجاعات مصر الفاطمية، بيروت، دار التضامن، ١٩٨٨.

٢- السيد عبد العزيز سالم، بحوث فى التاريخ الإسلامى والحضارة والآثار، بيروت، دار الغرب الإسلامى، قسم ١ ، ١٩٩١.

٣- أمينة أحمد الشوربجى: رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية فى العصر الفاطمى، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤.

٤- أيمن فؤاد سيج: تنظيم العاصمة المصرية وإدارتها زمن الفاطميين، حوليات اسلامية، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، العدد الأول ، ١٩٩٢.

٥- سلام شافعى محمود: أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥.

٦- سيدة إسملعيل كاشف: الأزهر ودوره فى تشر الثقافة العربية الإسلامية الإسلامية، تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٩٩٢.

٧- علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩.

٨- محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٠

٩- محمد عبيد الكبيس: أحكام الوقف فى الشريعة الإسلامية، بغداد، وزارة الأوقاف، ١٩٩٩.

١٠- محمود عبد المنعم عبد الرحمن: معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيه، القاهرة ، دار الفضيلة ، ١٩٩٢ .

١١- نجوى كيرة: حياة العامة فى مصر فى العصر الفاطمى، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، ٢٠٠٤.

الجَنَدي ..مؤرخ اليمن

دراسة لمنهجه في كتابه " السلوك في طبقات العلماء والملوك"(*)

د. نايف عبد الله الشمروخ

كلية الآداب – جامعة الكويت

الجَنَدي، مؤرخ يمني، له مكانته الكبيرة بين مؤرخي اليمن في العصر الإسلامي، بل هو من أهمهم على الإطلاق، وقد قدم لنا كتاباً حمل عنوان "السلوك في طبقات العلماء والملوك"[1]، حشد فيه معلومات عامة غزيرة عن تاريخ اليمن الإسلامي، ويعتبر كتابه من أغنى المصادر اليمنية في الطبقات مادة [2]، والتى جمعها من خلال أسفاره التي قام بها بين القرى والمدن اليمنية المختلفة، حيث أراد به أن يكون مرجعاً لتراجم علماء اليمن[3]، وقد تحرى الدقة في النقل والأمانة، وهو من ثقات مؤرخي اليمن[4]، وخصوصا بالنسبة لمن ترجم لهم من معاصريه [5]. ونظراًلأهمية الجَنَدي فسوف نحاول في هذه الورقة إلقاء الضوء على النقاط التالية : ترجمة الجَنَدي، شيوخه، مصادره، تأريخ تاريخ كتابه "السلوك"، منهج الجَنَدي ومميزاته، ثم ملاحظات عامة على الكتاب والتحقيق .

أولاً- ترجمة الجَنَدي:

الجَنَدي، هو أبوعبد الله بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب، ولد في مدرسة عبد الله بن عباس[6] في مدينة الجَنَد[7]، بفتح الجيم والنون[8]، شافعي المذهب، وهو المذهب الرسمي للدولة الرسولية في اليمن (٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٨-١٤٥٤م)[9]، تصوف على يد أبي بكر محمد بن عمر بن جعفر

(*) مجلة المؤرخ المصرى، عدد يوليو ٢٠١٥

الكلاعي الحميري، حرص كل الحرص على تتبع تراجم من ترجم لهم، إلا أنه لم يذكر سنة ميلاده بشكل صريح، ومع الأسف الشديد مات فجأة، فازدادت حيرتنا حول سنة ولادته، وسنة وفاته أيضاً ! .

وقد ذكرالجَندي أنه في سنة (٦٨٠هـ /١٢٨١م) صحب والده إلى **تعز**، وأن والده طلب من القاضي محمد بن علي بن عمر بن محمد الرياحي الحميري (٥٩٩-٦٨٢هـ/١٢٠٢-١٢٨٣م) أن يمسح على رأسه، ويدعو له، ويومئذ كان الجَندي في "سن التمييز" [١٠]، وهذا السن يقدر بسبع سنين عند الشافعية، مذهب الجَندي وبالتالي من المحتمل أن يكون مولد الجَندي -على وجه التقريب في سنة(٦٧٣هـ / ١٢٧٤ م).

أما عن وفاته فقد كان انقطاع الأحداث فجأة في كتاب "السلوك" (٧٢٤هـ /١٣٢٤م[١١]) مدعاة إلى صعوبة تحديد سنة الوفاة، وأن يكون الأمر أقرب إلى الترجيح، فنحن بين سنتين وردتا على ألسنة المؤرخين، فالخزرجي ت : (٨١٢هـ /١٤٠٩م)، مؤرخ الدولة الرسولية، ذكر في ترجمة الجَندي المقتضبة في كتابه "العقد الفاخر الحسن"، أن الجَندي توفي سنة (٧٣٠ هـ / ١٣٢٩م)[١٢]، وهناك عدد من المؤرخين في العصر الحديث أخذوا برأي "الخزرجي" مثل، محمدعلي الأكوع، محقق "السلوك"[١٣]، وعمر رضا كحالة، وأيمن فؤاد سيد[١٤]، وعبد الله الحبشي"[١٥]، وحسين العمري[١٦]، بينما ذكر كل من الأهدل (ت:٨٥٥ هـ /١٤٥١م)، في"تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن" [١٧]، وابن أسير في"الجوهر الفريد في تاريخ زبيد"[١٨]، أن الجَندي توفي في سنة (٧٣٢هـ /١٣٣١م[١٩]).

وهذان التاريخان بحاجة إلى إعادة النظر فيهما، لأن الجَندي قد ذكر أن الأديب أحمد بن علي بن سحيم، أحد شعراء العصر قد مات قتلاً، على يد "العوادر" [٢٠]ظلماً في سنة (٧٣٤ هـ /١٣٣٤)، وهذا يعني أن وفاة الجَندي قد تكون بعد هذا التاريخ على أقل تقدير [٢١].أما عن والد الجندي، يوسف بن يعقوب، فقد درس الفقه[٢٢]في مدرسة عبد الله بن عباس في الجَند، ووصفه العمري بأنه من فضلاء زمانه[٢٣]، ومن الممكن القول بأن لوالده تأثيراً

كبيراًعليه في تشكيل شخصيته، منذ فترة مبكرة في حياته، فقد حفظ القرآن صغيراً على يديه [٢٤].ورافق الَجَندي والده في أسفاره إلى مدن عديده داخل اليمن وهو في سن التمييز [٢٥]، وكان له خير معين في جمع تراجم كتابه، وكان إذا أشكل عليه أمر في تراجمه استعان به[٢٦]، وقد قرأ يوسف بن يعقوب، والد الَجَندي، على الفقيه إبراهيم بن عيسى بن علي بن محمد بن مفلت الشافعي تسنة (٦٩٠ هـ /١٢٩١م) بالجَند [٢٧]، وقد كان فقيهاً كبيرا عظيم القدر، وتفقه على أبي الخطاب عمر بن عاصم بن عيسى اليعلي ت: (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، والذي انتهت إليه رئاسة الفقه والفتوى بمدينة زبيد [٢٨]. كما أخذ الأدب عن ابي السمو العلا بن عبد الله بن محمد بن العلا الوليدي الحميري ت:(٦٨٠ هـ/١٢٨١م)، قيل عنه أنه صاحب محفوظات وروايات من الأشعار والأخبار[٢٩].كما "تصوف" والد الَجَندي[٣٠]على يد علي بن يوسف، صاحب عقبى، قرية على رأس وادي زبيد [٣١]، كما عرف عنه قرض الشعر، فقد أورد الَجَندي أبياتاً متفرقة لوالده، استشهد بها ليبدي من خلالها ملاحظات معينة حول أحداث تاريخية بعينها [٣٢] .

والَجَندي، شافعي المذهب، انطوى في نحلة التصوف، ربما متأثرا بوالده، على الطريقة الرفاعية، على يد ابى بكر محمد بن عمر بن جعفر بن فليح بن محمد بن أحمد الكلاعي الحميري. وقد دَرس الجندي، ودرس في مدرسة عبد الله بن عباس في الَجَند في سنة ٧١٩هـ/ [٣٣]، ودرس في قرية عكار[٣٤]، حيث رتب مدرسا في المسجد الذي بناه الحسن بن علي بن رسول على تربة أبيه، بضعة أشهر، [٣٥]كما تولى الحسبة في كل من مدينة زبيد [٣٦]، العاصمة الإدارية للدولة الرسولية في سنة ٧١٥ هـ [٣٧]، وفي مدينة عدن، عاصمة الدولة الرسولية التجارية [٣٨]، والتقى بها بعلماء قدموا من خارج اليمن ليقوموا بالتدريس بها [٣٩]، وتولى القضاء في موزع [٤٠]، وتولى الحسبة في عدن [٤١] . ولا شك فى أن هذا الامر قد فتح له المجال لان يتعرف أكثر على اعلام الفقهاء في اليمن، والقادمين إليها سواء عبر البر من الحجاز، أو الواصلين إلى عدن عبر البحر .كذلك تولى القضاء في موزع، [٤٢]وفي عدن

[43]وعمل محتسبا في زبيد وعدن، وهذا بلاشك يعني ان هناك فسحة كبيرة لان يتعرف ويلتقي بالقادمين إليهما من الحجاز ومصر والحبشة، ومن العراق والخليج العربي والهند .كما أن طبيعة المناصب التي تولاها، والتي شملت التدريس والقضاء والحسبة قد اتاحت له الفرصة لأن يتعرف على احوال الناس الدينية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

ثانيا شيوخه :

أسعفنا الَجنَدي بذكر بعض من تراجم شيوخه، ومنهم الحسن علي بن أحمد بن أسعد الأصبحي (٦٤٤ - ٧٠٣/ ١٢٩١-١٣٠٣م)[44]، "رجل عالم زاهد"[45]، له مؤلفات عديدة منها "المعين"، ويسمى "معين أهل التقوى على التدريس والفتوى"[46]، و كتاب "غرائب الشرحين"، وكتاب "أسرار المهذب"[47]، وإليه انتهت الرئاسة في اليمن أجمع، [48]وهو الذي حفز الَجنَدي وشجعه على كتابة كتابه[49]، قال عنه الَجنَدي: "كان من المحققين للفقه، العارفين به، لم أكن أتحقق له نظير في عصره، في كثير من بلاد اليمن وتهامتها"[50] .

كما اعتمد السلطان الأشرف الأول (٦٩٤-٦٩٦ هـ / ١٢٩٥-١٢٩٧م)، سلطان الدولة الرسولية، على الشيخ الأصبحي في الأفتاء [51]، هذا وقد جمع تلك الفتاوى تلميذه أبوعبد الله محمد بن أبي بكر بن جبير(٦٦٣-٧٢٣هـ /١٢٦٤-١٣٢٣م) .[52]

كذلك كانت للأصبحي حلقة علمية فاعلة، وصل عدد طلابها- في معظم الأحيان- الى ٢٠٠ طالب، وأينما ارتحل كرم لسعة علمه[53]وأشهر مؤلفاته كتاب المعين [54]، وهويدل على كثرة مطالعته للكتب وتحقيقه لنقلها ومعرفتها [55]، قال عنه السبكي : "وقد وقفت على المجلد الأول من هذا الكتاب فإذا به قد جمع فيه فأوعى ....وبالجملة هوَ كتاب حافل"[56]، وقد شاع هذا الكتاب في اليمن، وامتدحه "جماعة من فضلاء عصره"[57]، مثل الفقيه أحمد بن منصور الشمسي، المدرس بمدرسة ضراس [58]، بأبيات قال في مطلعها :

إن المعين لعون يستضاء به أحصى الخلاف وأبدى الآن مشكلهُ
لله لله مــا أهــدى مصنفــه للطالبــيــن بــيـــانــا حين أكملهُ[٥٩]

وكذلك أثنى على كتاب "المعين" والد الجَنَدي، يوسف بن يعقوب، فقال :

فاز مــن ألف المعين معينا موضحا للأنام نورا مبينا
أودع البحر فيه بحر العلوم ملك الفضل والعلى تمكينا [٦٠]

ولما وفد إلى اليمن أبو الحسن علي بن عثمان الأشبهي ت: (٧٠٧هـ/١٣٠٧م)، المدرس ببغداد، قادماً من العراق إلى تعز، ورتب مدرساً في المدرسة السيفية[٦١]، و المدرسة المظفرية[٦٢] لتدريس الفقه، واطلع الأشبهي على كتاب "المعين"، للأصبحي أعجبه إعجاباً عظيماً[٦٣]، واستنسخه، وقال:"ما كنت أظن أن مثل هذا يوجد في زماننا".[٦٤]

وأثناء إقامة الجَنَدي في قرية "موزع"[٦٥]، طلب منه أبو عبد الله محمد بن عمر العريقي ت: (٧٢٢ هـ |١٣٢٢ م) *إعارته كتاب المعين*"، والنسخة التي كان يحتفظ بها الجَندي، هي نسخة شيخه الأصبحي، [٦٦] وربما كانت للجَندي اجازة من شيخه الأصبحي، لأنه أجاز كلاً من الشيخ عمر بن ابي بكر بن مبارز الشاوري، ت: (٧٢٢ هـ /١٣٢٢م)، و الشيخ عمر بن عثمان بن محمد بن علي بن أحمد الحساني، ت: (٧٢٢هـ / ١٣٢٢م[٦٧])، وأخويه أبي بكر وهارون [٦٨].كما أجاز أبا بكر بن علي بن إبراهيم من قرية "السرائم"، ولد في سنة (٦٨٢هـ/١٢٨٣م)، يقول الجَندي قدمت القرية إليهم مراراً، فقرأ علي كتاب"المعين"، ورأيته ذاكرا للفقه مُذاكراً به"[٦٩].

ومن شيوخه الفقيه أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن الحسن الحرازي، (٦٤٣-٧١٨هـ / ١٢٤٥-١٣١٨ م)، كان عارفاً بالفقه والنحو واللغة والحديث والقراءات، والأصول [٧٠]، وكان من أبرك الناس تدريساً "قل ما قرأ عليه أحد إلا وانتفع به لبركته، وحسن تدريسه، التقى به الجَنَدي في مدينة عدن[٧١] إبان اشتغاله محتسباً بها، وقد استناب الفقيه الحرازي الجَندي على القضاء في عدن إبان مرض موته، وذكر الجَندي أن الحرازي قد استفاد

منه خلق كثير من أهل عدن، وحسن تدريسه [٧٢]، قرأ عليه الجَندي مقدمة بابشاذ الصغرى، والدريدرية، ثم "تسميط الصغاني"، و"أسماء الأسد للصغاني"[٧٣]، وأخذ عنه "سيرة ابن هشام" [٧٤]، وقد سأله الجَندي أن يجيزه، ويجيز والده يوسف كذلك بجميع ما يجوز به روايته ففعل، [٧٥]وذكر أن الشيخ الحرازي قد استفاد به خلق كثير من أهل عدن، وحسن تدريسه [٧٦].

ومن شيوخه أيضاً ابو الفداء إسماعيل بن أحمد بن دانيال أبو الذبيح المعروف بالقلهاتي[٧٧]، ولد ٦٨٦هــ/٢٢٨٧ م، "كان إماماً في فن الأدب"[٧٨]، تفقه على يد رجل من أصحاب البيضاوي[٧٩]"، جمع بين رئاسة الدين والدنيا، غادر هرمز بعد أن خرج بعض أمرائها على سلطانها، ويقال أنه هم بقتل أبي الفداء، لكنه عفا عنه بعد أن شفعت له جماعة بالإخراج عن هرمز إلى مقديشو، فألقت به الريح إلى عدن، ليلتقي به الجَندي إبان عمله بالحسبة فيها، وحالما علم بفضله اجتمع به، وقرأ عليه "المفصل"[٨٠].

ومن شيوخه أبو العباس أحمد بن عبد الدائم بن علي المعروف بابن الصفي الميموني (٦٤٠- ٧٠٧ هــ / ١٢٤٢-)، درس في مدارس مدينة ذي جبلة، وفي المدرسة الرشيدية في مدينة تعز، [٨١]. نال الشيخ الميموني مكانة كبيرة من السلطان الأشرف الأول، حيث انتهت إليه رئاسة الفتوى بتعز، أخذ الجَندي عنه "لمع" أبي اسحاق الشيرازي، ومقامات الحريري ووسيط الغزالي [٨٢].

ومن شيوخه أبو العباس أحمد بن علي العامري (٦٤٠ - ٧٢١هــ /٢٤٢١- ١٣٢١م)عرف بالمدرس، لأنه درس بمدينة المهجم خمسين سنة، تفقه العامري على يد خاله إسماعيل بن محمد الحضرمي (٦٠١- ٦٧٦هــ / ١٢٠٤-١٢٧٧م)، كما أنه أخذ عن الإمام أحمد بن عجيل، وذكر الجَندي أن العامري "أبرك الفقهاء تدريساً بتهامة، وأكثرهم نشراً للفقه"، صنف عدة كتب منها "شرح التنبيه" بعنوان "هداية المبتدي وتذكرة المنتهي" الذي أجاز الجَندي عليه [٨٣].

ومن شيوخه محمد بن إبراهيم بن إسماعيل الزنجاني، توفي بعد سنة

٧٢١هـ/١٣٢١م، قدم اليمن من شيراز رسولاً في عصر السلطان المؤيد(٦٩٦-٧٢٠هـ/١٢٩٧-١٣٢١ م)، شرح بعض مصنفات إمامه ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي ت: (٦٨٥هـ /١٢٨٦م)، مثل "الغاية القصوى"، و"الطوالع"، و"المنهاج"، و"المصباح"، درس في عدن وزبيد، أخذ الجندي عنه "الرسالة الجديدة" للشافعي، و"الأحاديث السباعية" وجملتها أربعة عشر حديثا، عاد إلى بلده زنجان .[٨٤]

ومن شيوخه أبو عبد الله محمد بن أبي الرجا بن الجناب بن أبي قاسم الحميري (٦٣٧-٧٢٠هـ /١٢٣٩-١٣٢٠م)، درس في المدرسة المظفرية في مدينة تعز، ذكر الجَنَدي أنه قرأ عليه كتاب "الحجة في الرد على الفقيه عبد الله بن زيد" [٨٥] .

ومن شيوخه أيضاً الفقيه أبو العباس احمد بن علي بن أبي القاسم السردي، ت.سنة (٦٩٥ هـ /١٢٩٥ م)، كان رأس المحدثين إذ ذاك في تعز[٨٦]، غلب عليه فن الحديث، وقد أخذ عنه معظم فقهاء تعز كتب المسموعات كالبخاري ومسلم وغالب كتب الأدب[٨٧].وقد أخذ الجَنَدي عنه عدة كتب [٨٨]، وله منه إجازة عامة لجميع ما تجوز له روايته [٨٩] .

ومن شيوخه أيضاً الفقيه أبو محمد عبد الله بن محمد بن جابر بن أسعد بن أبي الخير العودري ثم السكسكي ت: (٧١٤هـ / ١٣١٤م)درس سنين طويلة في الجند في المدرسة المنصورية[٩٠]، وجمع كتباً كثيرة وخصوصا في الأدب، امتدحه الجَندي بقوله : "إنه أحسن من رآه يدرس النحو من أهل اليمن أخذ عنه الجَندي بعض "الجمل" [٩١] .

ومن شيوخه أبو العباس أحمد بن أبي عمر القزويني، ولد سنة (٦٣٩هـ/١٢٤١م)، أقام في مكة مع والده سنين عديدة، ثم رحل إلى عدن، حيث التقى به الجَندي في مسجد السماع في عدن، وكان مميزاً في علمي التفسير والحديث لدرجة أنه من يطلب هذين العلمين قلما يتجه إلى غيره، أخذ عنه الجَندي "الحاجبية"[٩٢] و"وسيط الواحدي" في التفسير .[٩٣]

ومن شيوخه أبو محمد عبد الله بن عمر بن سالم الفايشي (٦٥٩-٦٩٥هـ/١٢٦٠-١٢٩٥م)، وكان فاضلاً في الفقه والقراءات، وله يد في الأصول والحديث، "كان أوحد زمانه بالدين والعلم،"[٩٤]، وكان من علماء النحو المشهورين، وله مصنف مفيد في النحو سماه "اللوامع في النحو"[٩٥]، نحا فيه المقدمة البابشاذية[٩٦]، وله يد في الحديث والأصول واللغة، التقى به الجَنَدي في مدينة الجَنَد، وأخذ عنه "الأربعين" للإمام بطال[٩٧] بروايته لها عن التهامي عن مصنفها [٩٨].

ومن شيوخه أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن عمر، المعروف بالأحنف، (٦٤١ -٧١٧ هـ /١٢٤٤-١٣١٧م)، [٩٩]صنف عدة مصنفات في التفسير واللغة والحديث، كما تنقل في التدريس بين عدد من المدارس الرسولية ؛منها المدرسة المؤيدية، ومدرسة الدار الجديدة في تعز، كما درس في المدرسة الأشرفية بذي جبلة،، حيث التقى به الجَنَدي ليقرأ عليه مصنفاته في سنة (٧٠١هـ /١٣٠١م).[١٠٠]

ومن شيوخه يوسف بن عمران بن النعمان بن زيد الحرازي ت: (٦٩٨هـ/ ١٢٩٨ م)، تولى القضاء في الجند، ودرس في مدرسة "الشقيرية" بها[١٠١]، أخذ الجندي عنه بعض الفرائض للصردفي [١٠٢]، ومن شيوخه مفضل بن أبي بكر بن يحيى الخياري الهمداني ت: (٧١٤هـ /١٣١٤م[١٠٣])، فقيه، درس في مدرسة المنصورية في الجَنَد، وأضيف إليه القضاء[١٠٤]، ذكر الجندي أنه أخذ عنه "الوجيز"[١٠٥]، و "المستعذب"، و"مشكل مكي" [١٠٦].

ومن شيوخه محمد بن مسعود بن أحمد بن سالم العدوي ت: (٦٧٦ هـ /١٢٧٧م[١٠٧])، عرف واشتهر بالحديث والفقه والنحو واللغة وغيرها من العلوم، من قرية ذي عقيب، قرأ الجندي عليه "الرسالة الجديدة" للشافعي، وطبقات أبي إسحق الشيرازي، كما أخذ عنه "طبقات ابن سمرة" إجازة، وقرأ عليه "التبصرة في أصول الدين" و"القحطانية" [١٠٨].

ومن شيوخه أبو عبد الله إسماعيل الزنجاني (٦٦٢-٧١٨هـ/١٢٦٣-١٣١٨م)، قدم في سنة ٧١٨ هـ /١٣١٨م، رسولاً من ملك شيراز، مرات

عديدة، وهو من أكابر أصحاب البيضاوي، تولى القضاء فترة في شيراز، وفي كل مرة يقدم فيها إلى عدن، كان يتصدر التدريس فيها، انتفع به جماعة كثيرون من أهل عدن والوافدين إليها، أخذ الجَندي عنه "الرسالة الجديدة" للشافعي[١٠٩].

ومن شيوخه محمد بن عبد الله أسعد العمراني، ت: ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م، جلس للتدريس والإفتاء في جامع المصنعة، وصنف عدة مصنفات منها: شرح التنبيه شرحاً لائقاً في أربعة مجلدات، وأخذ عنه الجَندي، وقرأ من مصنفاته كتاب "البضاعة لمن أحب صلاة الجماعة"[١١٠].كما قرأ على إبراهيم بن محمد بن محمد بن سعيد بن أبي السعود بن أسعد بن أحمد الهمداني من الذنبتين، قرأ عليه الأربعين الطائية .[١١١]ومن شيوخه عبد الصمد بن سعيد بن إبراهيم بن أسعد الهمداني (٦٥٦-٧٢٢هـ /١٢٥٨-١٣٢٢م)، أخذ عنه الجَندي "البيان" .[١١٢]ومن شيوخه أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحضرمي (٦٦٣-٧٤٧هـ/١٢٦٤-١٣٤٦م)، انتهت إليه الرئاسة والفتوى في زبيد ونواحيها، أخذ عنه الجَندي "المهذب"[١١٣] . ومن شيوخه اسعد بن ابراهيم الذي قرأ عليه الجَندي "خطب ابن نباته" لما كان الشيخ أسعد يشتغل بالخطابة في جامع قرية "جرانغ" [١١٤]. ومن شيوخه عبد الصمد بن سعيد بن علي بن إبراهيم (٦٥٦-٧٢٣هـ /١٢٥٨-١٣٢٣م)، أخذ عنه الجَندي "البيان" البعض قراءة، والبعض سماعا، أقام عنده في قرية "الثمد" أياماً[١١٥]. ومن شيوخه ابراهيم بن محمد بن سعيد بن علي العقيبي ت:٦٩٥هـ /١٢٩٥م قرأ عليه الاربعين الطائية[١١٦]. ومن شيوخه كذلك أبوبكر أخذ عنه بعض الصردفي[١١٧]، ومن شيوخه أيضا القاضي أحمد بن عبد الله العرشاني[١١٨].

ومن شيوخه أيضا محمد بن ابراهيم الفشلي، الذي انتهت إليه رئاسة الفتوى والفقه في زبيد، ورأس مدارسها، أخذ عنه الجَندي كتاب "المهذب"[١١٩]. ومن شيوخه هارون بن أبي بكر بن مبارز الشاوري ت: (٧١٧ هـ/١٣١٧ م)، أخذ عنه الجَندي كتاب الرقائق لابن المبارك لما أحضره من مكة عندما

قدم من الحج في سنة(٧١١ هـ/١٣١١م [١٢٠]).ومن شيوخه أبو عبد الله محمد بن أبي الرجا بن الجناب بن أبي قاسم الحميري (٦٣٧-٧٢٠هـ /١٢٣٩-١٣٢٠م)، درس في المدرسة المظفرية في مدينة تعز، ذكر الجَنَدي أنه قرأ عليه كتاب "الحجة في الرد على الفقيه عبد الله بن زيد"[١٢١] . ومن شيوخه أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي بكر بن الوليد المعروف بأبي الدهش العريقي، من أهل جبلة، أخذ عنه الجَندي مقدمة طاهر بن باشاد ت:(٧٢٧ هـ /١٣٢٦م.[١٢٢]) ومن شيوخه أبو محمد الحسن الشرعبي ت سنة (٧٠٢هـ /١٣٠٢م)، هكذا ذكره الجَنَدي، ولم يسم والده[١٢٣]، درس الشرعبي في مدينة زبيد في المدرسة العفيفية [١٢٤]، وقصده الطلبة من الأنحاء البعيدة والقريبة، قرأ عليه الجَنَدي المهذب[١٢٥] . ومن شيوخه ابو الحسن علي بن محمد الذي أخذ عنه "الكافي في الفرائض" للصردفي [١٢٦]، الذي نال شهرة كبيرة عند فقهاء اليمن وذاع صيته [١٢٧].ومن شيوخه أيضاً الفقيه محمد بن عباس الشعبي (ت٦٨٧هـ /١٢٨٨م)[١٢٨].ومن شيوخه على بن عبد الله بن أحمد الصريدح، اخذ عنه الجَنَدي "التنبيه" ت.سنة (٧٠٤هـ /١٣٠٤م[١٢٩]).

وقد عرف شيوخ الجَنَدي واشتهروا بالفقه واللغة، وأجازوه بهما، ولذلك لن نستغرب أن ينعكس هذا الامر على حياته العملية، فقد ساهمت معرفته الفقهية في أن يدرس بعدد من المدارس الرسولية في اليمن ليعرف بالفقيه .

ثالثا - مصادر الجَنَدي:

ذكر الجَندي في خطبة كتابه "السلوك" أنه قد أخذ أخبار المتقدمين غالباً من أحد الكتب الثلاثة [١٣٠]؛ كتاب "طبقات فقهاء اليمن" لأبي حفص عمر بن علي بن سمرة الجعدي (٥٤٧هـ - ٥٨٦ هـ/١١٥٢-١١٩٠م)، الذي يعد من أقدم كتب الطبقات اليمنية [١٣١]، وذكر فيه ابن سمرة : "غالب الفقهاء باليمن منذ أن ظهر بها الإسلام إلى بضع وثمانين وخمسمائة [١٣٢]". و تكمن أهمية الكتاب باعتباره من أكمل الكتب التي اعتمد عليها الجَندي في ذكر العلماء وتواريخهم [١٣٣]، وقد اعترف الجندي بذلك بقوله : "ولولا كتابه لم أهتدِ إلى تأليف ما ألفت"[١٣٤].

ثم كتاب تاريخ مدينة صنعاءلأبي العباس أحمد بن عبد الله بن محمد الرازي، ت.سنة (٤٦٩هـ/ ١٠٦٨م"[١٣٥])، وصفه الَجَندي" بأنه كان إماماً عارفاً بالفقه والحديث، وكتابه يدل على سعة نقله وكمال عقله واعتمد عليه كتاب السلوك"، إلا أنه نوه الى أمرأن الكتاب لا توجد منه نسخة مكتملة، و أن المتوفر بأيدي الناس هو فقط "الجزء الثالث" [١٣٦]، وأضاف أن الرازي بلغ فيه إلى سنة (٤٦٠ هـ / ١٠٦٧م)، وحقق فيه "لجماعة من أهل اليمن غالبهم من صنعاء والجند، وأورد لهم من الآثار الكثيرة، وحقق أحوالهم، بخلاف ما ذكره ابن سمرة [١٣٧]" .

ولحرص الَجَندي على استحضار معلوماته "من مظانها" كما وعد في الصفحات الأولى من كتابه [١٣٨]، عند الحديث عن أهل اليمن، اختار الرازي، ودلل على ذلك بقوله بأنه، أي الرازي، "أخبر بأهل اليمن، إذ هو منهم مولداً ومنشأ"[١٣٩] .

وأخيراً كتاب تاريخ صنعاء اليمن لإسحاق بن جرير الصنعاني، من علماء القرن الرابع الهجري [١٤٠]، يقول عنه الَجَندي، أنه كتاب لطيف الحجم، به فوائد .

وبالإضافة إلى ما سبق استعان الَجَندي بمؤلفات أخرى، و ان كانت بنسبة أقل، منها كتاب تاريخ عمارة ت: (٥٦٩/١١٤٧م)، الموسوم ب"المفيد في أخبار زبيد" [١٤١]، والهمداني ت: (٣٦٠هـ /٩٧٠م)، صاحب "صفة جزيرة العرب"[١٤٢]، وكلاهما من أهل اليمن، وابن الجوزيت.سنة (٥٩٧هـ /١٢٠٠م)، صاحب كتاب "صفة الصفوة" [١٤٣]، وابن خلكان ت :(٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) صاحب "وفيات الأعيان" [١٤٤].

ثالثاً- تأريخ تاريخ كتابة الكتاب :

من الممكن القول بأن هناك احتمالا كبيراً أن تكون كتابة كتاب "السلوك" من قبل الجَندي قد مرت بثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : وهي ذات صلة بتحديد الهدف والخطة والمصادر،

وهي في مجمل الأحوال ما ذكره الجَنَدي في خطبة كتابه[١٤٥] . وتشمل هذه المرحلة عملية جمع المادة العلمية لكتابه، سواء أكانت عن طريق تتبع ما ورد من أعلام ترجمها ابن سمرة في كتابه، وهي ما بنى عليه كتابه بطبيعة الحال [١٤٦]، أم التي أكملها الجَنَدي بمشاهداته و بأسفاره داخل اليمن منطلقاً من مدينته الجَنَد[١٤٧]، والتي شملت مدنا وقرى يمنية عديدة، انظر الجدول، بدأها في سنة (٧١٣هـ /١٣١٧م)وانتهت في سنة ٧٢٣ هـ /١٣٢٤م

الأماكن التي سافر إليها الجندي في اليمن

السنة	المكان	كتاب السلوك
٧١٣هـ/١٣١٧م	ذي سفال[١٤٨]	٢٣٦/١
....	الملحمة[١٤٩]	٢٣٩/١
....	الجوة.[١٥٠]	٢٤١/١
....	تيثد[١٥١]	٣٥٧/١
....	ذي عقيب.[١٥٢]	٢٠٦
....	الظاهر[١٥٣]	٢٦٥/٢
....	إب[١٥٤]	٤٠٧/١
....	السحول	٤١٣/١
....	ذي القوفي	٢٢٧/٢
٧١٧هـ/١٣١٧م	الحمرانية	٤٤٩/١
٧١٨هـ/١٣١٨	عدن	٣٢٨/٢
٧١٩هـ/١٣١٩	الخوهة[١٥٥]	٣٥٧/١
....	عدن[١٥٦]	٣٨٧/٢
٧٢٠هـ/١٣٢٠م	الظفير[١٥٧]	٣٨٠/١
....	زبيد[١٥٨]	٥٥/٢
٧٢١هـ/١٣٢١م	جبأ[١٥٩]	٣٨٧/١

وقد اصطحب الجَندي معه في أسفاره خادماً ودابة، يفترض أنها تحمل مكتبته المتنقلة، والتي ضمت كتبا أشار إلى بعضها مثل كتاب العين [١٦٠]، وكتاب النقاش[١٦١]، وكتاب طبقات فقهاء اليمن، لابن سمرة[١٦٢]، وربما كتاب ابن خلكان، بالإضافة إلى كراسات يدون بها ملاحظاته [١٦٣].

كما وَعَد الجَندي في مقدمة كتابه بأنه سوف يبذل الجهد في جمع أعلام كتابه، وإنه لن يتبع الهوى ولن يجامل أحدا في ذلك [١٦٤]، هذا كان ديدنه .كما لم يوقفه الخوف، فقد قيل له وهو في طريقه إلى قرية "العنين"، في بلد وصاب، لجمع أخبار المقرئ محمد بن يوسف الليثي، أن الطريق "شاق لكثرة المفاوز، والمخاوف، والبعد "وأضاف" وذكروا لي أن جماعة نهبوا وقتلوا، فلم ألتفت الى ذلك حتى أتيت المقرئ المذكور بعد ما قاسيت على نفسي وكتبي" [١٦٥].كمايوقفه المرض الذي أصابه في موزع عندما وصلها في سنة (٧١٧هـ /١٣١٧م)، "وكنت إذ ذاك مريضا، قد يئست من العافية، فضلاً عن تمام الكتاب [١٦٦]".

المرحلة الثانية : وهي تلك التي بدأ بها الكتابة إبان إقامته في عدن، لما كان يتولى الحسبة فيها لبني رسول، وذلك في سنة (٧٢٢هـ /١٣٢٢م)، انظر العبارة" ...من بضع وثمانين وستمائة إلى وقتي سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة إنما أخذت الغالب عن أهل بيت من أدركته، أو أدركت من ادركه"١/٦٢.

وهو تاريخ تكرر في "السلوك" في مواقع عديدة [١٦٧].وقد ذكر الأهدل في كتابة "تحفة الزمن في تاريخ اليمن" "وقد ظهر لي من مواضع منه أنه مكث في جمعه أكثر من عشر سنين.[١٦٨]".

أما المرحلة الثالثة : وهي التي ارتبطت بانقطاع الكتابة فجأة من غير مقدمات في سنة (٧٢٤ /١٣٢٤م) نتيجة لوفاة الجَندي، وهذا من الممكن أن يقود إلى افتراض، بإن ما وصلنا من نسخة كتاب الجَندي هي عبارة عن نسخة غير مكتملة، وبالتالي قد تكون غيرمنقحة من قبل مؤلفها، والأدلة الشاهدة على ذلك هي:

١. أن الجَنَدي لم يضع عنواناً لكتابه، ولم يذكر أن كتابه معنون ب"السلوك في طبقات العلماء والملوك"، ومن نقل أو اختصر كتابه سماه "تاريخ الجندي" [١٦٩]، فمن أين أتى العنوان ! . وبالتالي ربما أراد المؤلف أن يعنون كتابه بعد الانتهاء منه .

٢. أن هناك عدداً من التراجم في الكتاب لم تكتمل، ويفترض أنه على علم بها، ومن ذلك أن والد زوجته الوحيدة التي اقترن بها في عدن ذكر منقوصا، كما أنه لم يكمل ترجمة الإمام النسائي .[١٧٠]

٣. سرد الجَنَدي كتابه سرداً متواصلاً من غير تجزئة، أو وضع أبواب، كما فعل من سبقه من أصحاب التراجم، ومنهم أستاذه ابن سمرة الذي يعترف الجَنَدي بفضله عليه .

رابعاً- منهج الجَنَدي:

اعتمد الجَنَدي على وسائل عديدة لجمع تراجم من شملهم كتابه ومنها :

١.المشافهة، وهذه عبرعنها الجَندي بالسماع، ويقصد هنا بالمشافهة أن يكون الراوي عنه قد التقى به، فيذكره بشكل مباشر باسمه مثل قوله أخبرني والدي[١٧١]، أو أخبرني شيخي أبو الحسن الأصبحي [١٧٢]، أو قوله أخبرني الفقيه الصالح عبد الرحمن بن أبي بكر [١٧٣]، أو قوله أخبرني عبد الملك الوراق[١٧٤]، أوقوله أنه سأل الفقيه محمد بن أحمد بن يحيى بن محمد بن مضمون ت سنة (٧١٥هــ /١٣١٧م) من مدينة إب، ليعينه على التعرف على أعلام المدينة فكتب إلى ابن له ليقدم العون له، وقد أثنى عليه الجَندي بقوله: "وهو الذي عرفني ببعض نعوت أهله"[١٧٥].

أو قوله أخذت أغلب أخبار "مرغم الصوفي" من أبي الحسن أحمد بن سالم بن عمران بن أحمد بن عبد الله بن جبران نقلا عن أبيه، ذكر الجندي أنه صاحب "دين وعبادة"[١٧٦].

وللتعرف على مناقب "أخيار مناقب المخادر"، أخبرني رجل مؤذن من أهلها[١٧٧]، أو قوله أخبرني جماعة ممن أدركه [١٧٨]، أو يقول أخبرني الثقة

من أهل عدن[١٧٩]، واجتمعت برجل منهم فسألته [١٨٠]، أو قوله ذكر لي الثقة[١٨١]، وأخبرني الثقة من أهل الجَنَد[١٨٢]، أخبرني الثقة من خبراء عصره[١٨٣]، أو قوله اخبرني جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب بأخبار يطول شرحها[١٨٤]، أو يقول أخبرني رجل من أهل الدين والعقل[١٨٥]، أو أخبرني فقيه ناحيتهم، [١٨٦]أو أخبرني الثقة من أهل بلده[١٨٧]، أو أهل الثقة من تلك الناحية[١٨٨]، أو قوله أخبرني الثقة العارف بكثير من أخبار الناس[١٨٩]، أو قوله أخبرني خبير[١٩٠] .أوقال جماعة من الرعية [١٩١]، أو فسألت ولده[١٩٢]، أو قوله فذكروا أنه كافأه بمال لم أتحقق مبلغه[١٩٣] .

٢- **المشاهدة :ويقصد بها أنه شاهد** الأحداث بنفسه، وكتب عنها، مثل قوله :اجتمعت به في زبيد مراراً، فوجدته كذلك، وهو آخر فقهاء الناحية[١٩٤]، واجتمعت به مرارا، فوجدت به أنساً وسعة خلق [١٩٥]، فسألت ولده[١٩٦]، أو قدمت بلدهم للبحث عن أحوالهم وقوله لما اجتمعت ببعض ذريته[١٩٧]، أو قوله اجتمعت به مرة في الجند فرأيت رجلاً لبيباً[١٩٨]، أو قوله اجتمعت برجل من متفقهة أهله[١٩٩]. والذي عرفته من مشافهة أحد فضلائهم ممن قدم اليمن[٢٠٠]، أو قوله "فرأيت أني آتي لهم على ما أتحققه من نقل بعضهم" اجتمعت به في عدن أيام كنت بحسبتها [٢٠١]، أو قوله "قدمت قرية شواحط، فاجتمعت ببعضهم حتى صرت إلى القرية وسألته أن يريني شيئاً من كتبهم".أو قمت عندهم بقريتهم في سنة (٧١٧هـ / ١٣١٧م) فرأيت غالب ما حكيته عنهم، أو صحبته، أو قوله اجتمعت به في زبيد مراراً، وهو آخر فقهاء الناحية[٢٠٢]، أو قوله وهو الذي أدركته[٢٠٣]، وهو الذي صحبته [٢٠٤]، أو قوله اجتمعت برجل منهم فسألته عن تاريخ وفاته[٢٠٥]، فسألت ولده [٢٠٦]، ثم إنني صحبته عدة سنين [٢٠٧]. أو قوله اجتمعت به في مدينة زبيد مرارا فوجدته كذلك [٢٠٨]، وهو الذي صحبته[٢٠٩] .وأحياناً لا يكتفي بالمشافهة، وإنما يجمع بين المشافهة والمشاهدة، مثل قوله : "فرأيت أني آتي لهم على ما تحققته من نقل بعضهم"[٢١٠].

كما استخدم أيضاً المخالطة، فمما ذكره عن الشاعر أبي محمد عبد الله بن علي بن جعفر ت٧١٣هـ /١٣١٣م:"أديب اليمن وشاعر الدولتين

المظفرية والمؤيدية، كان شاعراً فاضلاً ذا دين رصين، لم يحك ما يشين في دينه من شرب ولا غيره، وصولاً لرحمه، قائما بأصحابه، خالطته ولم أحك ما حكيته عن نظر خبر"[٢١١]

٣- **القراءة** ؛أي **إنه نقل** عن كتب تعود إما إلى ذرية من ترجم لهم، مثل قوله عند زيارته لأحدى القرى : "فأخرج بعض ذريته كتاباً فيه تاريخ جماعتهم، فأخذت منه تاريخ من قد تحققت استحقاقه للذكر[٢١٢]".وقوله و"لما دخلت قرية "**سير**" اجتمعت ببعض ذريته، فأوقفني على شيء من كتبه[٢١٣]"، وقوله :"وجدت بخط الفقيه العالم محمد بن إسماعيل الحضرمي ما مثاله : أخبرني الفقيه فلان، رجل سماه من أهل **سردد** [٢١٤]"، ومثل قوله، وجدت في كتاب من كتبه معلقاً بخطه ما مثاله"[٢١٥]، وقوله "ووقفت على بعض كتبه الموقوفة فنقلت الأبيات منها، ووجدت معلق شعر وهو بخطه"[٢١٦]، أو ما وجدته بخط الفقيه سليمان الجَندي[٢١٧]، أوقوله :"ومن عجب ما رأيته معلقا شيء من كتبهم ما مثاله [٢١٨]..."، أو قوله :"أخرج لي فقيه القرية، وإمام الجامع بها كتاباً به أخبار يسيرة، لم يكن به شيء من أخبار الفقيه[٢١٩]، فسألته أن يريني شيئاً من كتبهم لعلي أجد فيها شيئاً من أخبارهم وآثارهم، وأخبرني أن غالبها قد فات بالغارة والنهب، وتقاسم الورثة، وأن الباقي يسيرة، فسألته أن يخرج لي كتاباً وجدت به ورقة قديمة قد اضمحلت كتابتها، وكادت تذهب، فتأملت ذلك، وإذا به قد عد جماعة من علماء اليمن المتكلمين المتقدمين[٢٢٠]، وقوله حصل بيدي نسخة "التنبيه" الذي له، وجدتها مع بعض قومه معلقاً في بعض دفاته بخطه [٢٢١].

أو قوله إنه أخذ من كتاب "ذيل ابن سمرة" للفقيه المؤرخ حسن بن علي بن عمر الحميري ت سنة (٦٦٧هـ /١٢٦٨م) تاريخ جماعة من الفقهاء.[٢٢٢]وأيضا أخذ من كتاب "مختصر في تراجم فقهاء تعز" ألفه المؤرخ عثمان بن محمد الشرعبي ت: (٧١٨هـ/١٣١٨م)، قال الجَندي : "...وعنه أخذت غالب الفقهاء بتعز ونعوتهم، إذ كان ألف ذلك بكراريس، فلما أخبرته بما جمعته أعجبه ذلك، وأعطاني الكراريس فوجدته ذكر جمعاً كثيراً لم يأت

بتاريخ ميلاد ولا وفاة، وإنما أخذت ما أوردته من ذلك من مظانه..."[223]

خامسا – مميزات منهج الجَنَدي:

١- الحرص على الحيادية والموضوعية في النقل :

أكد الجندي في الصفحات الأولى من كتابه، على أنه سوف يكون موضوعياً في نقل تراجمه بعيداًعن المبالغة في غير محلها" لم أقصد في ذكر أحد رياء"[224]، أو إصدار الأحكام الخاطئة في غير مكانها، فلا بأس عنده النقل عمن "اعتقد جرحه أو فسقه"، أو هو لا يكفر من خالفه في المعتقد، فيحكم عليه حكم الهوى، أو كما قال :

"كما يرى جماعة من الجهال يكفرون من خالفهم في المعتقد ولا يقبلون نقله"[225].

فعندما تطرق لعلي بن الفضل، وذكر ما قام به من جرائم بحق أهل اليمن قال: "وهذه مخزية عظيمة شاعت عنه وحتى عمت جميع من انتسب إلى السمعلة"، يقصد ب"السمعلة" اتباع المذهب الإسماعيلي، ثم استطرد وقال :"وهو شيء لم يتحقق عن أحد غيره .."، وقد أكد الجَنَدي على أنه حرص على أن يسأل "أتباع المذهب الإسماعيلي" حتى تأكد له حسب ما قالوا له بأن هذا الفعل المشين الذي قام به علي بن الفضل من قتل وسفك دماء قد انفرد به هو وليس للإسماعيلية صلة بهذا الأمر !، بل أكثر من ذلك – حسب ما ورد على لسان الجَندي –أن "أصحاب مذهبه اتهموه بالزندقة"، و بالتالي أخرجوه من المذهب الإسماعيلي .

ولعل هذا يدل على منتهى الحيادية في النقل ؛ فهو لم يستخدم علي بن الفضل ليضرب به المذهب الإسماعيلي في اليمن، ويشنع به، وإنما استعان بمصادر اسماعيلية حتى يتثبت من حقيقة انتمائه للمذهب الاسماعيلي[226].

٢-الحرص على الكتابة السهلة التعبير، الميسرة الألفاظ، السلسة البعيدة، عن التعقيد، حيث استخدم ألفاظاً دارجة عند عامة الناس تفهم وتستوعب، واضحة بينة اللغة مثل قوله :"ومنهم أبو بكر بن مبارز الشاوري،

من قرية حقلة بالحاء المهملة المفتوحة ثم قاف ساكنة ثم لام ثم هاء ساكنة، كان فقيهاً فاضلاً، درس بمدرسة شنين المتقدم ذكرها إلى أن توفي سنة (٦٩٠هـ /١٢٩٢)[٢٢٧]لدرجة انه قد استخدم في -بعض الأحيان - كلمات دارجة بين أهل اليمن مثل كلمة "فشيلت" ويعني بها حملت[٢٢٨]أو قوله "القشير بالمشتو"، ويقصد الحب المقشور الذي لم ينته طحنه، و"المشتو" الوعاء، الذي يوضع به العجين ليختمر[٢٢٩]، أو قوله : "تفرقوا في البلدان شغر بغر"، أو حصل بينه وبين أهل زبيد "مهاوش"، أو قوله "الدويح"، وهو تصغير ظرف الماء بلغة اليمن، وقد يستعمل في غيره[٢٣٠]، أو قوله : "الحسيك" وهو ما يقدم للدابة في المخلاة وتأكله كالشعير وغيره، أو قوله : "المحجرات" وهو جمع حجرة وهي صوت المرأة التي تحجر بصوتها إعلاماً بالفرح والسرور، ويطلق على الصوت، وهي لغة يمانية في عموم اليمن "الزغردة" إضافة الى كلمة "العياض" التي هي نفس كلمة البكاء[٢٣١].

٣- العناية بتواريخ الميلاد والوفاة :

عاهد الجَندي نفسه في مقدمة كتابه السلوك أن يهتم بتاريخ ميلاد وتاريخ وفاة من يترجم لهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وقد اتبع في السعي إلى تحقيق هذا الأمر وسائل عديدة منها الارتحال والسفر إلى القرى والبلدان لسؤال أقرباء المترجم لهم، والتحقق من مفارقتهم للحياة، أوالاطلاع على كتب أو أوراق تعود إلى المتوفين، "أو مقارنة أحداث مهمة، ومن ذلك أنه قد أخذ غالب أخبار فقهاء تعز من الذي كان قد ألف ذلك بكراريس، ويقول الجَندي أنه أخبره بما قد جمعه عن فقهاء تعز، فأعجب بذلك لما قرأ كراريس الشيخ المذكور، ووجد ..جمعاً كثيراً لم يأت له بتاريخ ميلاد ولا تاريخ وفاة، ويذكر الجَندي بقوله :إنما أخذت ما أوردته من ذلك عن بحث له من مظانة[٢٣٢].

٤- اهتمامه الشديد بضبط أسماء الأعلام والأماكن

حرص الجَندي على ضبط **أسماء الأعلام والأماكن**، وهو في هذه الطريقة قد يكون قد تأثر بصاحب كتاب وفيات الأعيان، هذا الكتاب الذي

كان من الكتب المصاحبة له في رحلته وقد ذكر الجندي أنه يخشى ان يقع الكتاب في أيدي أناس يجهلون ضبط بعض أسماء الاعلام والأماكن، ولهذا السبب كان حرصه على ضبطها ؛لأنه من أهل اليمن، وبهذه الطريقة تمت المحافظة على نطق أسماء الأعلام والأماكن اليمنية، بشكل عام حسب ما يرى أهلها .

ذكر المصدر :

تارة يذكره باسم مؤلفه ومؤلفه مثل ابن الجوزي صاحب كتاب "صفوة الصفوة"٨٩/٩٢/٩٥ /١، وأيضا الغزالي صاحب الإحياء .أو يذكر اسم المؤلف من غير ذكر عنوان كتابه مثل الرازي (١/٦٠، ١/٩٣) والزمخشري ١/٦٤، والمسعودي ١/٦٦، والطبري ١/٧١، وابن الجوزي ١/٩١، والواقدي ١/٩٢، وابن خلكان ١٣٤، وغيرهم

٥-ميله ميلا واضحا الى الايجاز وتحاشى الإطالة في الوصف

كما سعى الى اتباع الخطة التي وضعها، وتقيد بها وهو أن يكون كتابه عن أهل اليمن، وفي تراجم أعلامها ومتى وجد نفسه قد حاد عن الخطة المرسومة له والتي تستوجب الاختصار، وتتطلب الايجاز ولذلك حرص على أن يكون محددا في كلامه فكلما وجد حادثا بعيدا عن خطة الكتاب حرص على اختصاره ؛ لأنه ليس من ضمن موضوع كتابه، وهذا الامر تكرر مرات عديدة.

٦. **استخدام الشعر في توثيق الأحداث التاريخية أو التعليق عليها :** للجندي ولع كبير بالأدب، وكان حافظا للكثير من القصائد[٢٣٣]، أورد نماذج منها في كتابه، ومنها أبيات له ولأبيه[٢٣٤]. وقد استخدم الشعر للتدليل، ولتوثيق أحداث معينة، منها أن الجندي كان يجهل اسم الشخص الذي أوصل ماء "خنوة" إلى الجند، وهو من أهل الجند، إلى أن علم أن الملك المفضل قد قام بذلك بإشارة وجدها في قصيدة للقاضي **أبى بكر محمد اليافعي(٤٩٠-٥٥٢هـ /)** امتدح بها منصور بن المفضل يقول في مطلعها :

كثرت يا أبن الفضل حسادي بصنائع أسديتها وأيادي

إلى أن يقول :

وأقل مكرمة لـــه وفضيلــة إجراؤه للغيل فـــي الاجـــنـــاد

فاليوم أصبح ماء "خنوة" وهي في الجند العزيزة منها الـــزاد

فخر المفضل في المفاخر كلها بمثابة الأرواح في الأجساد [٢٣٥]

وحتى يدلل على أن ظاهرة وقف الكتب في اليمن من قبل مالكيها كانت امرا شائعا عندهم، وأن لا تورث ولا تباع بعد مماتهم، ولكنها تكون وقفا، فقد لاحظ هذا الأمرفى أبيات وجدها مخطوطة على معظم كتبهم كحال **سيف السنة**، أبى العباس عبد الله بن مسعود البريهي ت ٥٨٦هـــ / [٢٣٦]، الذي كتب على معظم نسخ كتبه التي أوقفها على طلبته :

هذا الكتاب لوجه الله موقوف منا إلى الطالب السني مصروف[٢٣٧]

و**عبد الله بن مضمون** الذي كتب على كل كتبه أبياتا منها هذا البيت :

وقف حرام وحبس دائم الأبد يبقى رجاء ثواب الواحد الصمد [٢٣٨].

واستشهد بالشعر ليدلل على انتشار مؤلفات بعينها في اليمن مثل "المعين"، و"المهذب"[٢٣٩]، و"التنبيه"[٢٤٠]، و"البيان" . [٢٤١]

٧. ورد في كتابه بعض الظواهر الاجتماعية المرتبطة بالملبس والمأكل

فقد تحدث عن المرأة التي آثرت أن تعيش عزباء بعد وفاة زوجها، وعلق على ذلك بقوله ليست كنساء زماننا تثير المرأة صحبة زوجها وإن كانت دونه في الدين والدنيا (٢/١٧٤)

واحيانا يميل الى الطرافة فقد ذكر حكاية ابى عبد الله عندما احس بسارق ٢/١٧٧ .

كما ذكر الحرة بنت الشيخ عمران الصوفي، زوجة أبى بكر بن مبارز الشاوري، مبينا أنها "كانت السبب في سلوكه الطريق المحمود"٢/٢٠٠.

وكذلك أورد قصة المرأة التي تكاسلت عن اعداد طعام لفقير لما أمرها زوجها بذلك، وعلق على الأمر "كما جرت قليلات التوفيق في كراهة الضيف ٢/٢١٦ .

وأيضا أورد لنا مجموعة من أسماء الملابس سواء تلك المتعلقة بملابس الرجال مثل المصاون، وبينها للقارئ بقوله أنها "شيء تغطي به النساء رؤوسهن يسميه أهل اللغة الخمار "٢/٢١٧، وبين لنا ان صفة البدوي تطلق على من يرتدي" وفرة وقميصا ذا جيب ونعلين عربيين ٢/٢٢٨ .كما ذكر أن بعض البنات يطلين وجوههن بالشب كأداة لتجميل الوجه ٢/٢٦٣ .

الميل الى الاختصار بقدر الاستطاعة ١/٧٠

فهو يبتعد عن الاستطراد كلما أمكن ذلك، فعلى سبيل المثال قوله "ولولا الاطالة لذكرت بعض فضائل مسجالات شاهدتها، أو شاهدها الثقات ١٤٩/ ١. ١٠١ .

اتساع المنهج النقدي عند تحليل الظواهر الاجتماعية في عصره :

٦.الاستعانة بالآيات القرآنية واحاديث النبي صلى الله عليه وسلم .

٧. الاستعانة بالشعر والأمثال والحكم .

٨. الحرص على توثيق الخبر التاريخي

ونظرا لأن الجندي شافعي المذهب فقد دخل الصوفية على الطريقة الرفاعية [٢٤٢] __**أبو بكر بن محمد بن عمر بن جعفر بن فليح بن محمد بن أحمد الكلاعي الحميري**__[٢٤٣]ولذلك لن يكون الامر غريبا ان ترى ظهور الكثير من المصطلحات الصوفية في "السلوك"، وذكر "الكرامات" التي "يزعم" المتصوفة في مصداقية حدوثها، (**ابدال، أحوال، اسم، أوتاد، بدلاء، تصوف، حكمة، خانقاة، خرقة** [٢٤٤]يد[٢٤٥]، خضر، خلوة، رباط [٢٤٦]، رفاعية [٢٤٧]، زاهد[٢٤٨]، سماع[٢٤٩]، شطح، صوفي[٢٥٠]، طريق[٢٥١]، طريقة، عارف، فقير[٢٥٢]، قطب، كرامة [٢٥٣]، كشف [٢٥٤]، مجذوب، محبوب، ولي)

سابعا – ملاحظات على كتاب "السلوك"، وعلى التحقيق :

أ. ملاحظات على الكتاب :

قبل الخوض في الملاحظات يجب أن أنوه إلى أمر مهم وهو أن الجندي لم يذكر عنوانا للكتاب قط، وكما أن المؤرخين الذين نقلوا من كتابه إذا عزموا على التنويه إلى مؤلف الجندي يقولون "تاريخ الجندي "وليس" طبقات العلماء"، وأعتقد أن الجندي لم يسعفه الوقت لتنظيم كتابه بالصورة التي يود أن يخرجه بها، فهناك شواهد عديدة في الكتاب توحي ان ما وصل إلينا عبارة عن كتاب لم ينقح، أي بمعنى آخر مسودة :

١. هناك آيات من القرآن الكريم وردت ناقصة غير مكتملة، ولا أظنها أبدا قد فاتت على الجندي عن غير قصد، وهو الحافظ للقرآن الكريم منذ الصغر .
٢. هناك أسماء وردت ناقصة غير مكتملة، وهي مقربة للجندي، كحال والد زوجته، وقد اعتاد ذلك المؤلفون في العصر الإسلامى
٣. السرد المتواصل من غير توقف .
٤. التواريخ تارة تكتب وتارة اخرى تكتب بالأرقام

ملاحظات على الكتاب والتحقيق :

مما لا شك فيه أن للكتاب أهمية كبيرة لتأريخ تاريخ اليمن الفكري في العصور الوسطى، وقد بذل فيه الجندي جهدا عظيما لا يمكن تجاهله لكن هناك بعض الملاحظات على الكتاب تستحق أن تذكر، منها :

١. تأثره بكتاب "السلوك في طبقات العلماء والملوك"، و معظم مؤرخي تاريخ الطبقات والأعلام في اليمن استفادوا من ذلك الجهد الذي بذله الجَندي، واستعانوا به لثقتهم فيما ضمه الكتاب من تراجم، فالخزرجي (ت.٨١٢هـــ/١٤٠٩م)، والذي يعد مؤرخ الدولة الرسولية الأول [٢٥٥]، استثمر كتاب السلوك في كتابيه، "العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية"[٢٥٦]، وهوعبارة عن تاريخ بني رسول منذ نشأة دولتهم ٦٢٦هــ/١٢٣١م حتى سنة

٨٠٣هـ /١٤٠٠م، كما استعان به مرة أخرى في كتاب "العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر أهل اليمن"[٢٥٧]، وهو عبارة عن كتاب تراجم العلماء والملوك من أهل اليمن، كما استفاد من الكتاب السلطان الأفضل، مؤلف كتاب "العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية"، حيث أكثر النقل لدرجة أن محقق كتاب "العطايا"، قد جعل من كتاب "السلوك"، نسخة رئيسية لتحقيق كتاب "العطايا" [٢٥٨]كما استفاد منه الحسين بن عبد الرحمن الأهدل، مؤلف كتاب "تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن" وأيضا محمد بن محمد بن منصور بن أسير، مؤلف الجوهر الفريد في تأريخ مدينة زبيد، مخطوطة في المتحف البريطاني تحمل رقم ١٣٤٥ يعتقد عبد الله الحبشي، أنه الجزء الثاني من تحفة الزمن للاهدل ٤٧٨، كما استفاد منه حسين بن إسماعيل الشهير بالمعلم وطيوط مؤلف كتاب تاريخ المعلم وطيوط، وهو عبارة عن تراجم .البريهى "الطبقات"

١. أهمل الجندي ذكر الاحداث التاريخية الخارجية رغم تأثيرها على الامة الإسلامية مثل سقوط بغداد على يد المغول(٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، وما رافق ذلك من مآس مرت على المسلمين في شرقي الدولة العباسية، والعراق، والشام من مذابح، وما جرى بعد ذلك من عمل بطولي من تصدي المماليك في مصر والشام للمغول، في مرج دابق، وكان من الأجدى أن يتكلم عن هذا الحدث الجلل - ولو عرضا - ضمن من ترجم لهم، لا أن يتم تجاهله بشكل تام .

٢. تطرق الجَندي لتراجم الأسرة الرسولية الحاكمة في اليمن كالمنصور والمظفر والأشرف والمؤيد والمجاهد، لكنه تجاهل و لم يذكر قط لا بالنفي ولا بالإثبات، أنتماءهم لقبيلة الغساسنة اليمنية، كما روج لذلك بعض المؤرخين الذين أتوا بعد الجَندي كالخزرجي، وهذا الأمر مدعاة كبيرة للشك، فى صحة رأى من زعم بانتماء بني رسول للغساسنة ويضعفه خصوصا أن الجَندي أتى بعد المؤرخ اليمني بن حاتم، الذي كان حيا في سنة٦٩٤هـ /١٢٩٥م [٢٥٩]، والذي لم يتطرق هو الأخر الى انتماء بني

رسول الى القبيلة الغسانية، وهذا بلا شك يعزز وجهة النظر التي تقول بعدم انتماء "الرسوليين" إلى الغساسنة .

٣. ذكر بعض المؤرخين أن سلاطين بني رسول، ممن ورد ذكرهم في كتاب "السلوك" قد اشتغلوا بالتأليف، وأن لهم نتاجا فكريا متنوعا في علوم مختلفة، فذكروا أن السلطان المظفر (٦٩٤هـ/١٢٩٤م) له مجموعة من المؤلفات منها، كتاب في صناعة الكتاب وتجليده بعنوان "المخترع في فنون من الصنع"[٢٦٠]، وأن له كتابا آخر ايضا في علم الفلك بعنوان "تيسير المطالب في تيسير الكواكب"[٢٦١].كما ذكروا ايضا أن السلطان الأشرف (ت٦٩٦هـ / ١٢٩٦م) هو الآخر قد ألف مجموعة من الكتب، منها مؤلف في علوم الزراعة بعنوان "ملح الملاحة في معرفة الفلاحة"[٢٦٢]، وكتاب آخر في الأنساب بعنوان "طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب"[٢٦٣].ولم يذكر الجَندي أن سلاطين بني رسول قد اشتغلوا بالتأليف، بل ذكر عكس ذلك تماما، وهو أن الفقيه عمر بن عيسى الهرمي (ت ٧٠٠هـ/١٣٠٠م) قد صنف للسلطان الأشرف عدة مصنفات في النحو.[٢٦٤] وكما ذكران سلاطين بني رسول كانوا يشجعون العلماء، ويعتنون بهم، ويحرصون على استقطابهم[٢٦٥].

٤. آثر المؤلف الصمت في مواقع كان يفترض أن يكون صوته فيها عاليا واضحا في الحق يصدح، ومن ذلك صمته عن اللص الذي كان يحتمي بأقاربه من بني رسول، سلاطين اليمن، ولما تصاعدت شكاوى الناس لتصل إلى الوالي، والذي بدوره نقلها إلى السلطان المظفر، حاكم الدولة الرسولية آنذاك، وكان رده، غريبا عجيبا، وهو أنه لن يقبض على اللص لأنه قريبه !، مع الأسف الشديد امتدح الجَندي فعل السلطان المظفر، واصفا اياه بحسن البر بأهله، بقوله : "ولله در المظفر ما كان ان أحسن بره بأهله"[٢٦٦].هذا أقصى ما وصل إليه الجَندي، وهو الذي مارس القضاء في أكثر من مدينة في اليمن كما ذكرنا سابقا .

ومرة اخرى صمت الجَندي على تلك الاحتفالات التي كانت تجري في

زبيد أبان موسم نضج ثمار النخيل، وهو الاحتفال الذي عرف باسم "سبوت النخل"، والذي قدم لنا المؤرخ ابن المجاور، وهو مؤرخ معاصر للجندي وصفا لهذا الاحتفال الذي يختلط فيه النساء بالرجال في غير كلفة، ولا هم لهم سوى اللعب والضحك والأكل والشرب، فكيف يصمت ولا يتطرق لهذا وهو الذي مارس الحسبة في مدينة زبيد كما ذكرنا سابقا!!

الهوامش:

[1] حققه ونشره محمد علي بن الحسين بن الأكوع الحوالي ، وأخرجه في جزأين ،مكتبة الإرشاد ،صنعاء، ١٩٩٥ م.

[2] العبادي ،عبد الله قائد حسن : الحياة العلمية في مدينة زبيد في عهد الدولة الرسولية (٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٨-١٤٥٤م) ،رسالة لنيل درجة الماجستير في الحضارة والنظم الإسلامية ،جامعة ام القرى ، كلية الشريعة والدراسات العليا ، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ،الفصل الأول (١٤١٦هـ /١٩٩٥م) ،ص ٦.

[3] العمري ،حسين عبد الله : مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني ، دار المختار ، دمشق ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .ص ٥٦-٥٧.

[4] المقحفي:إبراهيم أحمد .معجم البلدان والقبائل اليمنية ،صنعاء، دار الكلمة ،١٩٨٨ ، ص ١٣١.

[5] حماد ،أسامة أحمد : مظاهر الحضارة الإسلامية في اليمن في العصر الإسلامي "عصر دولتي بني أيوب وبني رسول "، مركز الإسكندرية للكتاب ، الإسكندرية ،الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م ، ص٣٠.

[6] مدرسة عبد الله بن عباس : تنسب هذه المدرسة لعبد الله بن عباس الحجاجي الشاكري ،كان محبا للعلم ، جمع من الكتب أكثر من خمسة آلاف كتاب ، شغل عدة مناصب إدارية في عصري الدولة الأيوبية والرسولية ؛ فقد عمل كاتبا في الجيش في عهد الملك المسعود بن الملك الكامل الأيوبي (٦١٢-٦٢٦هـ/ ١٢١٥-١٢٢٩ م) ، ثم ولي ديوان النظر في مدينة عدن أيام السلطان المظفر يوسف بن عمر بن رسول (٦٤٧-٦٩٤هـ/ ١٢٤٩-١٢٩٤م) ،كما أنه هو الذي وصل بالاستنابة من الخليفة العباسي في بغداد إلى الرسوليين في اليمن . انظر : السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٦٢/٢ ، ١٠٥/٢ ،٤٢١.الخزرجي ،علي بن الحسن ، ت٨١١هـ/ ١٤٠٨: العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر أهل اليمن ، تحقيق ودراسة عبد الله بن قائد العبادي ومبارك الدوسري وعلي عبد الله الوصابي وجميل احمد الأشول ،الجيل الجديد ناشرون ،صنعاء ،اليمن(٢٩٠٠ ، ١٠٠٧/٢ ، ١١٢٩/٣ ، ١٩٦٢/٤) الأهدل ،الحسين بن عبد الله ، ت ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١م : تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ،تحقيق عبد الله محمد الحبشي ،المجمع الثقافي ،أبوظبي الإمارات العربية المتحدة ٢٠٠٤م ، ٤١٧/١. الأكوع ،إسماعيل علي : المدارس الإسلامية في اليمن ،ص ١٧٢ ،الأصبحي ،آلاء احمد محمد : المدرسة الأشرفية بتعز زمن الدولة الرسولية ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ،صنعاء ، اليمن ، ٢٠٠٤، ص٦٠.

[7] السلوك في طبقات العلماء والملوك ، انظر على سبيل المثال ١/ ٣٧٣ ، ٤٦٦، ٨٤،٦٨/٢ .

[8] السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٩٣/١ . تبعد الجند عن مدينة تعز شرقا بخمسة وعشرين كيلومترا. انظر في ذلك البلدان اليمنية عند ياقوت الحموي ،تحقيق: القاضي إسماعيل بن علي الأكوع ، الكويت ،١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م ، ص٧٥ .المقحفي ،معجم البلدان القبائل اليمنية ، ص ١٣.

[9] المذهب الشافعي نسبة للإمام محمد :انظر ترجمة الشافعي الجندي في السلوك،وهو ايضا مذهب الدولة الرسولية .٥٤٢/٢ . الادب اليمني ، ص٥٣ .علي بن علي بن حسين أحمد : الحياة العلمية في مدينة تعز وأعمالها في عصر بني رسول ٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٨-١٤٥٤م) ، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الحضارة والنظم الإسلامية ،جامعة أم القرى ،كلية الشريعة

والدراسات الإسلامية قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ،ص٣٦٧.

١٠السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ١٠٤/٢، الخزرجي ، العقد الفاخر الحسن ،١٩٨١/٤.الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ٤٤١/١.

١١يتوقف كتاب " السلوك في طبقات العلماء والملوك " عند سنة ٧٢٤هـ / ١٣٢٤م

١٢الخزرجي ، العقد الفاخر الحسن، ٢٠٩٧/٤.

١٣السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٢٤/٢.

١٤ايمن فؤاد سيد ، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ،نصوص وترجمات المجلد ١٩٧٤،٧م.١٣٩.

١٥الحبشي ، مصادر تاريخ الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٨٤ .

١٦العمري ، مصادر التراث اليمني في المتحف اليمني ، ص ٥٧.

١٧الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ٤١٠/٢ .

١٨وهو عبارة عن كتاب مختصر لكتاب " السلوك في طبقات العلماء والملوك" للجندي ، فرغ منه سنة ٩٥٠هـ/١٥٢٣ م.

١٩محمد بن منصور بن أسير، "الجوهر الفريد في تاريخ مدينة زبيد ،المتحف البريطاني أ٢٦٣ .

٢٠العوادر : بلد شرقي مدينة الجند ،القاضي محمد بن أحمد الحجري اليماني ، مجموع البلدان اليمن وقبائلها ، تحقيق وتصحيح ومراجعة :إسماعيل بن علي الأكوع ،دار الحكمة اليمانية ،صنعاء ،الطبعة الثانية ،١٤١٦هـ-١٩٩٦م ، ٦١٦/٢ .

٢١السلوك ، ٢٧٩/٢ وانظر أيضا رأي محمد الأكوع في مقدمة تحقيق " السلوك في طبقات العلماء والملوك "، ٥٥/١.

٢٢السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ١٧٤/٢ .

٢٣العمري ، مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني، ص ٥٦ .

٢٤ السلوك في طبقات العلماء والملوك ،٣٢٢/٢.

٢٥السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٣٦٧/٢ .

٢٦ انظر على سبيل المثال الصفحات التالية في السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ١٥٦/١، ٢/ ٣١، ٨٩ ، ٣٢٨ ، ٣٥٧، ٣٧٧، ٤١٧ ، ٤٢١، ٤٥٦.

٢٧السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٢٧٥/٢ . انظر ايضا العقد الفاخر الحسن ،٢٢٤/١-٢٢٧.قلادة النحر ٣٠٨٥/٣.

٢٨السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٣٧٨/٢. انظر ايضا الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ٣٩٣/١ . عبد الله الحبشي مصادر الفكر الإسلامي في اليمن (ص٢٠٣-٢٠٤)

٢٩السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٨٩/٢ ، العطايا السنية ، ٤٣٣ ، ٥١٨ ، الخزرجي العقد الفاخر الحسن ، ١٣٣٢/٣-١٣٣٣.

٣٠الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ٣١٢/٢.

٣١السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٣٧٨/٢.

٣٢على سبيل المثال انظر : السلوك في طبقات العلماء والملوك ٢ /٣٥٧ ، ٢ /٤١٢ .

٣٣السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٢/ ٧١ .

٣٤عكار : قرية إلى الشمال من مدينة جبلة ، المقحفي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ،٤٥٧.

٣٥السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٢/ ٢٤٧ .

٣٦زبيد :

٣٧السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٢/ ٣١٦ ، ٣٨٢ .

٣٨المصدر السابق ، ٢/ ٤١٢ ، ٤٤٥ ، ٥٧٢.

٣٩المصدر السابق ، ١/ ٤٣٩.

٤٠السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٢/ ١١٤.

٤١المصدر السابق ، ١/ ٤٤٤ .

٤٢المصدر السابق ، ٢/ ١١٤.

٤٣المصدر السابق ، ١/ ٤٤٤ .

٤٤المصدر السابق ، ٢/ ٧٤.

٤٥قلادة النحر ، ٣/ ٣١٩٧.

٤٦عبد الله محمد الحبشي ،مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، المجمع الثقافي ، ابوظبي ، الامارات العربية المتحدة ،١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م، ص٢٠٥ .

٤٧عبد الله الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن (ص٢٠٥،٢٠٦) .

٤٨الملك الأفضل العباس بن علي بن داود الرسولي ،كتاب العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية ،دراسة وتحقيق :عبد الواحد عبد الله الخامري ،إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ،صنعاء ، اليمن ،٢٠٠٤م، ص٤٧٠ .

٤٩الخزرجي ، العقد الفاخر ، ٢/ ٨٢ .

٥٠السلوك في طبقات العلماء والملوك،٢/ ٧٤.

٥١نفس المصدر السابق ،٢/ ٣٤.

٥٢السلوك، ٢/ ٧٥. حول محمد بن أبي بكر بن جبير انظر :علي بن الحسن الخزرجي ،كتاب العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، ١/ ٣٣٧ ، العطايا ،٥٨٩ ، هجر العلم ، ٢/ ٧٢٢، ثغر عدن ، ٢٥٥ .

٥٣السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٢/ ٧٥ .

٥٤العنوان الكامل لكتاب " المعين " كما ورد عند الخزرجي في " العقد الفاخر " ٢/ ١٧٤٤، هو " معين أهل التقوى على التدريس والفتوى " .انظر في ذلك ،عبد الله محمد الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي ، ٢٠٤ .

٥٥السلوك ، ٢/ ٧٥.

٥٦السبكي ، طبقات الشافعية ،١٠/ ١٢٨.

٥٧بامخرمة ، قلادة النحر ، ٣/ ٣١٩٦ .

٥٨مدرسة ضراس أنشأتها الحرة ابنة شرف الدين محمد بن علي بن رسول في تعز . السلوك : ١/ ٧٧ .

٥٩السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٧٧/١ .

٦٠نفس المصدر السابق ، ٧٧/١ .

٦١المدرسة السيفية : أول مدرسة أنشئت باليمن في مدينة تعز ، ومؤسسها هو المعز إسماعيل بن طغتكين ،وعرفت بالسيفية نسبة إلى والده الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين (ت ٥٩٣هـ /١١٩٦م) ، العقد الفاخر الحسن ٥٢٥/١ ، د.أسامة أحمد حماد ، مظاهر الحضارة في اليمن في العصر الإسلامي " في عصر دولتي بني ايوب وبني رسول" ، ص٦٤٩، إسماعيل الأكوع ، المدارس الإسلامية في اليمن ، ص ٨ .

٦٢المدرسة المظفرية أنشاها السلطان المظفر في مدينة تعز ،في المحاريب، ناحية من نواحي تعز . السلوك ، ١٢٨/٢ ، ١٣٥، ١٤٤، العقد الفاخر الحسن ١١٣٧/٣، ١٩٩٧ ، ٢٠٢٨، ٢٠٨١، ٢٤٣٨.

٦٣السلوك في طبقات العلماء والملوك، ١٤٤/٢ . الملك الأفضل ،العطايا السنية ، ص٤٧٢ . قلادة النحر ، ٣٢١٦/٣.

٦٤السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ١٤٤/٢ .العطايا الهنية ، ٤٧٢ ، العقود اللؤلؤية ،٣٨١/١،٣٨٢.

٦٥موزع : بلدة من أعمال المخا ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ٧٢٤/٢ .

٦٦السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٣٩٧/٢، العقد الفاخر الحسن ، ٢٠٠٧/٤،٢٠٠٨

٦٧السلوك في طبقات العلماء والملوك، ٢٠١/٢ ،العقد الفاخر الحسن ، ١٥٩٤/٣ .

٦٨العقد الفاخر الحسن ،١٥٩٤/٣،١٥٩٥ .

٦٩السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٤٢٥/٢ ، قلادة النحر ، ٣٢٦٥/٣-٣٢٦٦. الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ اليمن ، ٣٨٢/٢

٧٠الخزرجي ، العقد الفاخر الحسن ، ١/ ٣٥٣ .

٧١مدينة ساحلية مشهورة شرقي باب المندب ،انظر ياقوت، معجم البلدان ،٨٩/٤.

٧٢السلوك في طبقات العلماء والملوك السلوك ، ٤٢٦/٢ .

٧٣كتاب شرح قلادة السمطية في توشيح الدريدرية ،وكذلك كتاب الأسد ،وكلاهما لأبي الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصغاني (٥٧٧-٦٥٠هـ /١١٨١-١٢٥٢ م) . انظر ترجمته في : السلوك (٤٠١/٢-٤٠٣)، الخزرجي في كتابه العقد الفاخر الحسن ٢/ ٧١٥-٧٢٢، قلادة النحر ،٢٧٧/٣.

٧٤"سيرة ابن هشام " : يعتبر من المصادر المهمة التي تناولت سيرة النبي ،صلى الله عليه وسلم ، وقد اعتمد مؤلفه على كتاب السيرة النبوية لابن أسحاق .

٧٥قصيدة ابن دريد ،محمد بن الحسن الأسدي ، اللغوي ، البصري ، ت.٣٢١هـ /.٩٢٠م وهي قصيدة عني بها اللغويون شرحا . انظر حاجي خليفة ، كشف الظنون ،١٨٠٧/٢.

٧٦السلوك في طبقات العلماء والملوك ٢/ ٤٠٣ ،٤٢٦.العقد الفاخر ، ٣٥٣/١-٣٥٤ ، الأهدل ،تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن، ٣٨٢ .

٧٧" القلهاتي " نسبة إلى " قلهات "بفتح القاف وسكون اللام ثم هاء وألف وتاء مثناة من فوق، وهي مدينة بعمان على ساحل الخليج العربي ،الجندي .السلوك ،ج٢ ،هامش ص١٤٩.

٧٨قلادة النحر ، ٣٣٨٦/٣.

٧٩عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي (ت ٦٨٥هـ /).صنف :مصنف الكشاف، المنهاج في الأصول، شرح المطالع في المنطق ، الإيضاح في اصول الدين ، الغاية القصوى في الفقه، الطوالع في الكلام وغيرها. انظر : بامخرمة ، قلادة النحر ،/٤٠٩١،جلال الدين السيوطي ، بغية الدعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق :محمد أبو الفضل إبراهيم .دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٩٧٩م . ٢/٥٠-٥١.

٨٠السلوك في طبقات العلماء والملوك ١٤٩/٢. العقد الفاخر الحسن ، ٥٠٦/١-٥٠٧ .الملك الأفضل ، العطايا السنية ، ٢٦٥-٢٦٧. قلادة النحر، ٣٣٨٦/٣ . كتاب " المفصل في علم النحو"، كتاب لجار الله محمود بن عمر الزمخشري، (ت.٥٣٨هـ/١١٤٣ م) ، كشف الظنون ١٧٧٤/٢ . وقد طبع عدة مرات .

٨١المدرسة الرشيدية ، بناها القاضي الرشيد ذو النون بن محمد المصري، في ذي عدينة ،أحد أحياء تعز ، .قلادة النحر ٧٧/٢-٧٨ .الأكوع ، المدارس ،٣١ .

٨٢السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ١٢٤/٢ ، الخزرجي ، العقد الفاخر الحسن : ٣١٧/١- ٣١٨ .قلادة النحر ، ٣٢١٣/٣. الملك الأفضل ، العطايا السنية ،٢٥١،٢٥٢. كتاب الوسيط : كتاب في فقه الإمام محمد الشافعي ت٢٠٤هـ ، من تأليف محمد الغزالي ت٥٠٥هـ

٨٣السلوك في طبقات العلماء والملوك ٣٣٠ ،٣٣١ . العقود اللؤلؤية ،٤٣٩/١ .الملك الافضل ،العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية ،٢٤٧،٢٤٨.الأهدل ،تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ٢٩٠/٢ . عبد الله الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، (ص٢٠٦)

٨٤السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٤٣٥/٢ . بامخرمة ، قلادة النحر ٣٢٨٥/٣ . د. أسامة أحمد حماد ، مظاهر الحضارة الإسلامية في اليمن في العصر الإسلامي "عصر دولتي بني أيوب وبني رسول " ص ٥٩٢ .

٨٥السلوك في طبقات العلماء والملوك ،٢٥٤/٢ ، العقد الفاخر الحسن ، ٢٠٨١/٤.

٨٦السلوك في طبقات العلماء والملوك،٤٠٤/١،٩٢/٢.

٨٧السلوك في طبقات العلماء والملوك،١١٩/٢، قلادة النحر ،٣١٠٦/٣ .العطايا السنية ،ص٢٣٤-٢٣٥.

٨٨السلوك في طبقات العلماء والملوك،١١٩/٢.

٨٩نفس المصدر السابق، ١١٩/٢.

٩٠المنصورية :

٩١السلوك في طبقات العلماء والملوك ،٨٧/٢ .قلادة النحر ، ٣٢٣٤/٣-٣٢٣٥ ، العطايا السنية، ص ٤٣٢ . الأهدل ،تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ،٤٣٢/٢،٤٣٣. كتاب الجمل : لأبي الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي بن عصفور الزجاجي ،(ت:٦٦٩هـ)

٩٢الحاجبية : نسبة لأبي عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م) ،صاحب كتاب كافية ذوي الأرب في معرفة كلام العرب وتعرف " بالكافية " في النحو. انظر كشف الظنون(١٣٧٠/٢) .

٩٣السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٤٢٨/٢ ، الاهدل ، تحفة الزمن في تاريخ اليمن ، ٣٨٣/٢،٣٨٤.كتاب الوسيط في تفسير القرآن المجيد لأبي الحسن علي بن احمد بن محمد بن علي الواحدي (ت:٤٦٨هـ /) .

٩٤العطايا السنية ، ص ٣٨٤-٣٨٥.

٩٥الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ،ص ٣٧٩ .

٩٦نسبة إلى طاهر بن أحمد بن بابشاد الديلمي المصري (ت٤٦٩/١٠٧٦م) ، إمام عصره في النحو ،انظر : السيوطي، بغية الدعاة (١٧/٢) .

٩٧الإمام أبوعبد الله محمد بن سليمان بن بطال الركبي (ت ٦٣٠/ ١٢٣٣ه) له كتاب بعنوان " الأربعون حديثا المستخرجة من أحاديث الحسان الصحاح الجامعة لما يستحب درسه عند المساء والصباح . عبد الله الحبشي .مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ،(ص٥١)

٩٨السلوك في طبقات العلماء والملوك،١٧٨/٢.الاهدل ،تحفة الزمن في تاريخ اليمن ،٤٩٢/١. العقد الفاخر الحسن،١٢٤٨/٣،١٢٤٩.قلادة النحر،٣١٠٦/٣-٣١٠٧. العطايا السنية ،٣٨٦ . قلادة النحر ، ٣١٠٦/٣ . "الأربعين " كتاب للفقيه بطال بن أحمد الركبي ،(ت٦٣٣هـ/١٢٣٥) ، جمع فيه اربعين حديثا في اذكار الصباح والمساء . انظر : السلوك في طبقات العلماء والملوك ،(٣٩٩/٢-٤٠١)، هامش المحقق ، العقد الفاخر رقم(٢) ١٢٤٨/٣ .

٩٩السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ١٧٧،١٧٨ ،العقد الفاخر، ٢٦٠/١ ، بامخرمة ، قلادة النحر، ٣٢٥٩/٣ .الملك الأفضل ، العطايا السنية ، ٢٥٣،٢٥٤.

١٠٠السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ١٧٨/٢ .العطايا السنية ، ٢٥٣ ، بامخرمة ، قلادة النحر ٣٢٥٩/٣ .

١٠١المدرسة الشقيرية في مدينة الجند ، بنتها امرأة كانت ماشطة للحرة ابنة جوزة ابنة الأتابك سنقر ، وكانت متزوجة بمملوك اسمه شقير ، فنسبت المدرسة اليه . انظر في ذلك الجندي ،السلوك ،٦٥/٢.اسماعيل الأكوع ، المدارس ، ص٨٨.

١٠٢السلوك في طبقات العلماء والملوك ،٦١/٢.قلادة النحر ،٣١٢١/٣.الصردفي هو الشيخ اسحاق بن يوسف بن يعقوب الصردفي ٥٠٠هـ/١١٠٦ م، أحد علماء الشافعية ، ألف كتابا بعنوان " الكافي في الفرائض " .انظر ابن سمرة ،فقهاء اليمن ،(ص ١٠٦) . عبد الله الحبشي ،مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ٣٠٩.

١٠٣السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٦٣/٢ ، العقد الفاخر ، ٢١٤٠/٤-٢١٤١. قلادة النحر ، ٣١٢١/٣ .

١٠٤السلوك في طبقات العلماء والملوك ،٦٤/٢ .

١٠٥" العنوان الكامل لكتاب الوجيز " هو الوجيز في فقه الشافعي للغزالي ت. ٥٠٥ . انظر في ذلك معجم المؤلفين ٢٦٦/١١ .

١٠٦السلوك في طبقات العلماء والملوك،٦٣/٢ .العنوان الكامل لكتاب المستعذب هو " المستعذب في شرح ألفاظ المهذب" لمحمد بن أحمد بن سليمان بن بطال الركبي ت:٦٣٠هـ . انظر في ذلك ، عبد الله الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن.العنوان الكامل لكتاب " مشكل مكي " هو كتاب مشكل إعراب القرآن ، تأليف مكي بن أبي طالب القرشي،(٣٥٥-٤٣٧هـ/)

١٠٧ بامخرمة ، قلادة النحر ٣٠٠٦/٣،٣٠٠٧ .

١٠٨السلوك في طبقات العلماء والملوك،٢/ ٢٤٥، ٢٤٦ . بامخرمة ، قلادة النحر ٣/ ٣٠٠٦،٣٠٠٧.

١٠٩السلوك في طبقات العلماء والملوك، ٢/ ٤٣٧. بامخرمة ، قلادة النحر ٣٢٨٤/٣.

١١٠عبد الله الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، (ص ٤١٨) .

١١١السلوك في طبقات العلماء والملوك ،٢٤٤/٢، قلادة النحر ٣١٥٢/٣،٣١٥٦.

١١٢السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٢/٢٤٤ . بامخرمة ، قلادة النحر ، ٣ ، ٣/٣٣٢٢-٣٣٢٣.العقد الفاخر ٣/١١٧٣-١١٧٤،العطايا ١٦٧،١٦٨.

١١٣السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٢/٤٢ .

١١٤السلوك ، ٢/ ٢٧٩.

١١٥نفس المصدر السابق ،٢/ ٢٤٤.

١١٦السلوك في طبقات العلماء والملوك،٢/ ٢٤٣،العطايا، ١٦٧،١٦٨،العقد الفاخر الحسن ،١/٢٢٩.

١١٧السلوك في طبقات العلماء والملوك ،٢/٥٨.

١١٨نفس المصدر السابق ، ١/٣٥٦.

١١٩نفس المصدر السابق، ٢/٤٢.

١٢٠نفس المصدر السابق ،٢/ ٢٠٠.

١٢١السلوك في طبقات العلماء والملوك،٢/٢٥٤ ، العقد الفاخر ٤/٢٠٨١.

١٢٢قلادة النحر ٣/٣٣٤٥.السلوك ٢/٤١٦.

١٢٣قلادة النحر ، ٣/٣١٨٧.

١٢٤المدرسة العفيفية : بنتها الحرة مريم بنت العفيف في مدينة زبيد فنسبت إليها .الأهدل ،تحفة الزمن في تاريخ اليمن ،٢/٣٥٦.اسماعيل الأكوع ، المدارس ، ١٦١ .

١٢٥السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٢/٣٩٢. قلادة النحر ، ٣/٣١٨٧ . الأهدل، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ،٢/٣٥٦.

١٢٦ السلوك في طبقات العلماء والملوك، (١/٣٨٣) ، الصردفي هو إسحاق بن يوسف بن يعقوب بن عبد الصمد الصردفي ، ت ٥٠٠ هـ ، انظر في ذلك ،عبد الله الحبشي ،(ص٣٠٩).

١٢٧ السلوك في طبقات العلماء والملوك (٢/٦١) ، علي بن علي بن حسين أحمد ،الحياة العلمية في مدينة تعز وأعمالها في عصر بني رسول (٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٨-١٤٥٤هـ) ،رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الحضارة والنظم الإسلامية ،جامعة أم القرى، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ،(٣٨٥،٣٨٦) .

١٢٨السلوك في طبقات العلماء والملوك(١/١٠٣) ، قلادة النحر ،٣/٣٠٧٠ .

١٢٩قلادة النحر ، ٣/٣٣٢٣.

١٣٠السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ١/٦٧ .

١٣١أسامة أحمد حماد ، مظاهر الحضارة الإسلامية في اليمن في العصر الإسلامي "عصر دولتي بني رسول وبني أيوب " ، ص ٢٨.

١٣٢السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ١/٦٧ .

١٣٣أيمن فؤاد سيد ،مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي ، ١٤٠ .

١٣٤السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ١/٤٦٦.

١٣٥حول ترجمة الرازي ،انظر : السلوك ١/٢٨٢، العقد الفاخر الحسن ، ١/٣٤١،٣٤٢، مقدمة المحقق حسين بن عبد الله العمري لكتاب " تاريخ مدينة صنعاء " للرازي " ، ١٥-٣٨.عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، ١/٢٩٤. حسين بن عبدالله العمري

،مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني ، ٣٧،٣٦.

١٣٦السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٦٧/١ .

١٣٧نفس المصدر السابق، ٦٧/١ .

١٣٨السلوك في طبقات العلماء والملوك، ٦٦/١.

١٣٩نفس المصدر السابق ، ٩٣/١ .

١٤٠السلوك ، ٦٧/١ ، انظر :أيمن فؤاد سيد ،مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي ،٨٧ . عبد الله الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص٤٧٣.

١٤١حسين عبد الله العمري ، مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني ،٣٩،٣٨ .

١٤٢الهمداني ، ١٣٨ .

١٤٣السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٦٧/١. انظر ترجمة الهمداني في كتاب أيمن فؤاد سيد ، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، ٧٦،٦٨.

١٤٤السلوك في طبقات العلماء والملوك ،١١٩/١ ، ١٥٠ ،١٥١ ، ١٥٢ ،١٥٣، ١٥٤ ، ١٥٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

١٤٥نفس المصدر السابق ، ٥٩/١-٦٩ .

١٤٦نفس المصدر السابق ، ٤٦٦/٢.

١٤٧السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٦٨/١ .

١٤٨ذي سفال : مدينة تقع في الجنوب من اب بمسافة ٤٣كم بالسفح الجنوبي من جبل التعكر . المقحفي ،معجم البلدان والقبائل اليمنية ٣١٦.

١٤٩الملحمة : قرية بأسفل حصن شواحظ في عزلة السحول بناحية المخادر وأعمال إب. مجمع بلدان اليمن وقبائلها ،المجلد الثاني ٧١٩ ، المقحفي ،معجم البلدان والقبائل اليمنية ،ص ٦٢٨.

١٥٠الجوّة : بلدة خربة كانت تحت حصن الدملوة من جهة الشرق ، في ناحية الصلو من قضاء الحجرية ،وأعمال تعز انظر: الأكوع، هجر العلم ،٤٠٠/١ ،المقحفي ،معجم البلدان ،٣٦٩/١.

١٥١تثيد : بلدة في "دلال" ثم من جبل بعدان . المقحفي ،معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ص ٩٥.

١٥٢ذي عقيب : من قرى ناحية ذي جبلة و أعمال إب . مجمع بلدان اليمن وقبائلها ،المجلد الثاني ،٦٠٧ .

١٥٣الظاهر :بلدة من مخلاف الحبيشية وأعمال رذاع . مجمع بلدان اليمن وقبائلها ،المجلد الثاني ،٥٦٣.

١٥٤إب : بكسر الهمزة وبالباء الموحدة مدينة تقع في الجنوب الغربي من صنعاء .الحجري ، مجمع بلدان اليمن وقبائلها ،المجلد الأول ٣١.

١٥٥الخوهة : مدينة على ساحل البحر الاحمر إلى الجنوب الغربي من حيس بمسافة ٢٨كم . الأكوع ،هجر العلم ،٥٧٨/١.المقحفي ٥٨٥/١.

١٥٦مدينة ساحلية مشهورة شرقي باب المندب ،انظر ياقوت ،معجم البلدان، ٨٩/٤.

١٥٧الظفير : جبل وبلدة في الجهة الشمالية من حجة ، مجمع بلدان اليمن وقبائلها ،المجلد الثاني ،٥٦٧.

١٥٨زبيد : اسم واد باليمن وإليه تنسب المدينة ، وهي قاعدة مدن سهل تهامة ، كانت مركزا حضاريا وعلميا في عهد الدولة الرسولية انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ابن المجاور ،تاريخ المستبصر ٦٥ .مجمع بلدان اليمن وقبائلها ،المجلد الأول ،٣٨٠-٣٩٣.

١٥٩اجبا : بلدة قديمة غربي جبل صبر من أعمال تعز .. مجمع بلدان اليمن وقبائلها ،المجلد الأول،١٧٢.

١٦٠السلوك في طبقات العلماء والملوك ،٣٩٧/٢، العقد الفاخر ٢٠٠٧/٤،٢٠٠٨ .

١٦١السلوك في طبقات العلماء والملوك، ١٥٧/٢.

١٦٢السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٤٦٦/١.

١٦٣

١٦٤السلوك في طبقات العلماء والملوك ،٦٨/١ .

١٦٥السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٣٨٦/٢.

١٦٦السلوك في طبقات العلماء والملوك،٣٨٦/٢، وايضا ،٣٢٩/١.

١٦٧انظر: السلوك في طبقات العلماء والملوك، ١/ ١٤٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٥ ، ١٩١/٢،١٩٨ ، ٢١٨، ٢٢٩، ٢٥٥،٢٦٠، ٢٦٠، ٢٧٩ ، ١٩٨، ٣٣٥، ٣٥١، ٣٩٩، ٤٢٤، ٤٤٧ .

١٦٨الأهدل ،تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ،٥٢٣/٢ .

١٦٩الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ،٢٥٥/٢.

١٧٠السلوك في طبقات العلماء والملوك،١٤٢/١.

١٧١نفس المصدر السابق ، ١/ ١٥٦، ٤١٧ ، ٣٢٨/٢، ٥٧٣.

١٧٢نفس المصدر السابق ، ١٥٧/١، ٣٧٨.

١٧٣نفس المصدر السابق ، ١/ ٤١٩.

١٧٤نفس المصدر السابق ، ٢/ ٢٢٣ .

١٧٥نفس المصدر السابق ، ٤٠٦/١.

١٧٦نفس المصدر السابق ١٨٥/٢.

١٧٧نفس المصدر السابق ، ١٨٢/٢ .

١٧٨نفس المصدر السابق ، ٣٠/٢ .

١٧٩نفس المصدر السابق. . ٣٩/٢.

١٨٠نفس المصدر السابق ، ٤٦/٢.

١٨١نفس المصدر السابق ، ٦٢/٢ .

١٨٢نفس المصدر السابق ، ٦٨/٢ .

١٨٣نفس المصدر السابق ، ٤٢٠/١ .

١٨٤نفس المصدر السابق ، ٢٦٨/١ .

١٨٥نفس المصدر السابق ، ٤٧٠/١.

١٨٦نفس المصدر السابق ، ٣٨٣/١ .

١٨٧نفس المصدر السابق ، ٤٧٠/١ .

١٨٨نفس المصدر السابق ، ٤٦٢/١ .

١٨٩نفس المصدر السابق ، ٢١٥/٢ .

١٩٠نفس المصدر السابق ، ١/ ٣٦٩ ، ٢/ ٣٢٧ .

١٩١نفس المصدر السابق ، ٥٧٥/٢ .

١٩٢نفس المصدر السابق ، ٢/ ٥٧٣ . .

١٩٣نفس المصدر السابق ، ٢/ ٥٦٧.

١٩٤نفس المصدر السابق ، ٣٦٩/٢ .

١٩٥نفس المصدر السابق ، ٢/ ١٣٤ .

١٩٦نفس المصدر السابق ، ٤٣٢/١ .

١٩٧نفس المصدر السابق ، ١/ ٤٤٩ .

١٩٨نفس المصدر السابق ، ٢/ ٢١٨ .

١٩٩نفس المصدر السابق ،١/ ٢٩٢ .

٢٠٠نفس المصدر السابق ، ١/ ٣٦٢ .

٢٠١نفس المصدر السابق ، ١/ ٤٤٥ .

٢٠٢نفس المصدر السابق ، ٣٣٩/٢ .

٢٠٣نفس المصدر السابق ،٣٧١/٢.

٢٠٤نفس المصدر السابق ، ٣٧٣/٢ .

٢٠٥نفس المصدر السابق ،٤٦/٢ .

٢٠٦نفس المصدر السابق ،٥٧٣/٢ .

٢٠٧نفس المصدر السابق ، ٥٧٧/٢.

٢٠٨نفس المصدر السابق ، ٣٩٩/٢.

٢٠٩نفس المصدر السابق ، ٣٧٣/٢ .

٢١٠نفس المصدر السابق ، ٤٤٥/٢.

٢١١السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٣٥٢/٢ ، الخزرجي ،العقد . بامخرمة ، قلادة النحر، ١٠١٢/٣.

٢١٢نفس المصدر السابق ، ٣٥٩/٢ .

٢١٣نفس المصدر السابق ، ٣٠٠/٢ .

٢١٤نفس المصدر السابق ، ٣٧٥/١.

٢١٥نفس المصدر السابق ، ١٩٠/٢ .

٢١٦نفس المصدر السابق ، ٣٩٨/١ .

٢١٧نفس المصدر السابق ، ١٥٧/١ .

٢١٨نفس المصدر السابق ،٤٠٠/١ .

٢١٩نفس المصدر السابق ، ٣٥٧/١ .

٢٢٠نفس المصدر السابق ، ٢٣٩/١ .

٢٢١نفس المصدر السابق ،٢١٢/١ .

٢٢٢نفس المصدر السابق ،١٥٧/٢ .

٢٢٣نفس المصدر السابق ، ١٢٦/٢.

٢٢٤نفس المصدر السابق ،٦٨/١ .

٢٢٥نفس المصدر السابق ٣٩٥/١.

٢٢٦نفس المصدر السابق ، ٢٩٥/١ .

٢٢٧نفس المصدر السابق ، ١٩٩/٢.

٢٢٨نفس المصدر السابق ، ١٨٢/١.

٢٢٩نفس المصدر السابق ،٣٥٥/١.

٢٣٠نفس المصدر السابق ، ٤٥٦/٢ .

٢٣١نفس المصدر السابق،١٥١/١.

٢٣٢نفس المصدر السابق ٢٦٢/٢.

٢٣٣نفس المصدر السابق ، ٤٠٤/٢ .

٢٣٤انظر في ذلك السلوك ، ٧٧/١ ، ٣٥٧/٢ .

٢٣٥السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٣١١،٣١٠/١ ، ٤٩٧،٤٩٦/٢ .وأنظر أيضا :العقد الفاخر ، ١٠٨٥/٢ .الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ اليمن ،٢٣٥،٢٣٤.

٢٣٦انظر ترجمة سيف السنة عند الملك الأفضل ، كتاب العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية ،٢١٥-٢١٨.

٢٣٧السلوك في طبقات العلماء والملوك ،٣١٩،٣١٨/١ .

٢٣٨نفس المصدر السابق ، ٣٩٨/١ .

٢٣٩نفس المصدر السابق ،٢ /٣٥٧ .

٢٤٠نفس المصدر السابق ، ٣٥٧/٢ .

٢٤١نفس المصدر السابق ، انظر الصفحات التالية : ٣٢٣/١ ، ٣٤١ ، ٧٨،٧٧/٢ .

٢٤٢نفس المصدر السابق ، ٥٨/٢ .

٢٤٣نفس المصدر السابق ، ٥٨/٢.

٢٤٤نفس المصدر السابق ، ١٠٧/٢.

٢٤٥نفس المصدر السابق ، ٥٨/٢ ، ٦٠ ، قلادة النحر ،٣١٩٤/٣،٣١٩٨ .

٢٤٦نفس المصدر السابق ، ٥٨/٢ ، ٦٠ ،١٠٤،١٠٧.

٢٤٧نفس المصدر السابق ، ٥٨/٢، ٥٩ ،٦٠.

٢٤٨نفس المصدر السابق ، ٣٣/٢ ،٣٦ ، ٧٥،٨٠،١٠٨.

٢٤٩نفس المصدر السابق ، ٥٨/٢ ، ٦٩ ،١٠٧.

٢٥٠نفس المصدر السابق ،٢/ ٣٢،٣٩، ٤٠،٦٩، ١٠٧ ، ١٤٠،١٠٧، ١٤٨ ،١١٠.

٢٥١نفس المصدر السابق ،٢٩/٢.

٢٥٢نفس المصدر السابق ، ٥٩/٢.

٢٥٣نفس المصدر السابق ،٢٩/٢ ، ٤٠ ،٤١ ، ٦٥ ،٧٥،١٠٣ ،١٠٧ ،١٠٨.

٢٥٤نفس المصدر السابق ، ٣١/٢،١٠٥.

٢٥٥الفيفي ، محمد بن يحيى ، الدولة الرسولية في اليمن ،دراسة في أوضاعها السياسية والحضارية (٨٠٣-٨٢٧هـ/١٤٠٠-١٤٢٤م) ،ص ١٣ .

٢٥٦حققه ونشره

٢٥٧حققه ونشره عبد الله بن قائد العبادي ومبارك بن محمد الدوسري وعلي عبدالله الوصابي وجميل أحمد الأشول ، الجيل الجديد ناشرون ،صنعاء، ١٤٢٩-١٤٣٠هـ/٢٠٠٨-٢٠٠٩ م.

٢٥٨الملك الأفضل العباس بن علي الرسولي، كتاب العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية ،دراسة وتحقيق عبدالواحد عبد الله أحمد الخامري ،انظر مقدمة المحقق ص،١٠٠ .

٢٥٩الأمير بدر الدين محمد بن حاتم بن أحمد اليامي ،كتاب السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك الغز باليمن ، تحقيق: ركس سميث .

٢٦٠حققه ونشره :د. محمد عيسى صالحيه ،الكويت ،١٩٩٨م.

٢٦١حاجي خليفة ،كشف الظنون ، ٥١٩/١١.

٢٦٢حققه ونشره عبد الله محمد المجاهد ،دمشق، دار الفكر ،١٤٠٨هـ .

٢٦٣حققه ونشره

٢٦٤السلوك في طبقات العلماء والملوك ٢ /٣٨٣.

٢٦٥فيما يتعلق بتشجيع سلاطين بني رسول للعلم والعلماء انظر الصفحات التالية من كتاب " السلوك " : السلطان المنصور ٤٦٠/١، ٤٦١ ،٢٩/٢، السلطان المظفر ،٥٤٨/١،٥٥٢. ٢٩/٢ ، ٥٣ ، السلطان الاشرف ،٥٥٠/١. ٩٠/٢ ، ١٢٠ ، ٣٤١ ،٣٨٣. السلطان المؤيد ، ٢/ ٥٤ ، ٩٢ .

٢٦٦السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ٥٤٩/٢ ، ٥٥٠ .

قائمة المصادر والمراجع

ابن الجوزي : أبو فرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧هـ).

صفة الصفوة ج١-٣، تحقيق : محمود فخوري، ط١، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان .

ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ)

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : الدكتور إحسان عباس، طبعة دار صادر .

ابن الديبع .عبد الرحمن بن علي (٩٤٤هـ).

قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق : محمد علي الأكوع، ط٢، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، تحقيق : عبد الله محمد الحبشي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء .

ابن سمرة، عمر بن علي الجعدي (٥٨٦هـ) .

طبقات فقهاء اليمن، تحقيق : فؤاد سيد، ط٢، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان.

الأهدل، بدر الدين أبو عبد الله الحسين بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٥٥هـ).

تحفة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق :عبد الله محمد الحبشي، ط١، ١٤٠٧هـ /١٩٨٦م، شركة دار التنوير للطباعة والنشر .

أبي مخرمة، أبو محمد عبد الله الطيب (٩٤٧هـ)

تاريخ ثغر عدن، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، دار التنوير للطباعة والنشر.

قلادة النحر .

البريهي، عبد الوهاب أبي عبد الرحمن (ت٩٠٤ هـ)

طبقات صلحاء اليمن المعروف بتاريخ البريهي، تحقيق : عبد الله محمد الحبشي، طبعة مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء .

الحبشي، عبد الله محمد (الأستاذ) .

حكام اليمن المؤلفون المجتهدون، ١٣٩٩هـ/١٩٩٧م، دار القرآن الكريم، بيروت .

الصوفية والفقهاء في اليمن، صنعاء .

مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨، بيروت، المكتبة العصرية .

الحجري، القاضي محمد بن أحمد (ت١٣٩٧هـ)

مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ٤ أجزاء، تحقيق إسماعيل بن علي الأكوع، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، منشورات وزارة الإعلام والثقافة .

الجندي أبو عبد الله بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب (ت ٧٣٢هـ).

السلوك في طبقات العلماء والملوك، ج١، تحقيق : محمد علي الأكوع، طبعة دار التنوير للطباعة والنشر، مكتبة الإرشاد بصنعاء .

السلوك في طبقات العلماء والملوك، ج٢، تحقيق محمد علي الأكوع، طبعة دار التنوير للطباعة والنشر، مكتبة الإرشاد بصنعاء .

الخزرجي، علي بن الحسن (ت٨١٢هـ)

العقد الفاخر

العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية

الرازي، أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد (ت٤٦٠هـ)

تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق الدكتور حسين بن عبد الله العمري، ط٣، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ودار الفكر، دمشق، سورية.

الشرجي، أبي العباس أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف (٨٩٨هـ)
طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص، طبعة ١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ودار المنهل للطباعة والنشر، بيروت، لبنان .

شيحة، أ.د. مصطفى عبد الله محمد، دراسة مقارنة بين المدرسة المصرية والمدرسة اليمنية، في "تاريخ المدارس في مصر الإسلامية" أبحاث ندوة "المدارس في مصر الإسلامية" التي اعدتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة، عقدت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية من ٢٢-٢٥ أبريل ١٩٩١ م، طبعة ١٩٩٢م، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

مجهول، مؤرخ يمني (عاش في القرن التاسع الهجري)
تاريخ الدولة الرسولية في اليمن، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، طبعة١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، مطبعة الكاتب العربي، دمشق، ودار الجيل، صنعاء .

كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، طبعة دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان .

محمد عبد العال أحمد :بنو رسول وبنو طاهر وعلاقة اليمن الخارجية في عهدهما، طبعة ١٩٨٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية.

كما استفاد من ذلك محمد بن محمد بن منصور بن أسير، مؤلف الجوهر الفريد في تأريخ مدينة زبيد، مخطوطة في المتحف البريطاني تحمل رقم ١٣٤٥ يعتقد عبد الله الحبشي الجزء الثاني من تحفة الزمن للاهدل ٤٧٨، حسين بن إسماعيل الشهير بالمعلم وطيوط مؤلف كتاب تاريخ المعلم وطيوط، وهو عبارة عن تراجم . البريهي "الطبقات" .

الخشداشية بين النظرية والتطبيق
زمن دولة المماليك البحرية
(٦٤٨-٧٨٤هـ/ ١٢٥٠- ١٣٨٢م) (*)

د. منال محمد السيد
كلية الآداب – جامعة بنى سويف

منذ قيام الدولة الأيوبية في مصر في عام (٥٦٧هـ/ ١١٧١م) عمل سلاطينها على جلب المماليك الترك إليها، وبذلوا الأموال الضخمة في شرائهم بغية الحصول على القوة(١)، وكان أكثر السلاطين الأيوبيين استجلاباً للأتراك الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧-٦٤٧هـ/ ١٢٤٠-١٢٤٩م) فقد روى المؤرخون أنه أكثر من شراء المماليك بعد أن آل إليه حكم مصر حتى أن عامة عسكره كانوا منهم(٢)، وقد حرص على تحاشي أي احتكاك قد ينشب بينهم وبين أهالي القاهرة، من أجل ذلك اختار جزيرة الروضة لتكون مقرًا لهم، حيث شيد لهم بها قلعة ليسكنوها، ولذلك أطلق عليهم اسم المماليك البحرية(٣).

وفي ذلك يقول ابن إياس: "و هو أول من جلب المماليك الأتراك إلى مصر حتى ضاقت بهم القاهرة، وصاروا يشوشون على الناس، ونهبوا البضائع من الدكاكين، فضج الناس منهم، وكثر الدعاء على الملك الصالح بسببهم، فلما زاد أمرهم في أذى الناس، شرع الملك الصالح في بناء قلعة الروضة بالقرب من المقياس، وأسكنهم بها، وسماهم المماليك البحرية"(٤).

وكان المملوك بمجرد أن يتم شراؤه من سوق الرقيق، وهو صغير السن، يرسل إلى الطباق – من كلمة طبقة – أي معسكر، أو مدرسة

(*) مجلة المؤرخ المصرى، عدد يوليو ٢٠١٥

عسكرية، وكانت مساحتها كبيرة لدرجة أن بعض المؤرخين ذكروا أن كل طبقة كانت مساحتها مساحة حارة من حارات القاهرة(٥)، وقد وصل عدد الطباق في عصر الناصر محمد بن قلاوون إلى إثنتي عشرة طبقة(٦).

وفي الطباق يتعلم المملوك الصغير القراءة والكتابة، و يُوضع في الطباق الذى يضم بني جنسه، أي أن كل مجموعة من المماليك من جنس واحد، ينزلون في طباقٍ واحدٍ، لأنهم يشتركون في عادات وتقاليد واحدة، حيث تسود بينهم الألفة والمودة(٧).

ومن الجدير بالذكر أن المماليك وهم في الطباق تنشأ بينهم رابطتان أساسيتان وهما:

١. رابطة الأستاذية: وهى الرابطة التي تربط المملوك بأستاذه الذى اشتراه ورباه وأعتقه(٨).
٢. رابطة الخشداشية: أى رابطة الزمالة، وخشداش لفظ فارسي يعني خواجا تاش؛ أي الزميل في الرق وفي العتق وفي الطباق(٩).

أما رابطة الأستاذية فقد اعتز بها المملوك اعتزازًا كبيرًا، و صار المماليك يُنسبون إلى أساتذتهم الذين اشتروهم وأشرفوا على تربيتهم، فالمماليك الظاهرية نسبة إلى السلطان الظاهر بيبرس، والمماليك الأشرفية نسبة إلى السلطان الأشرف خليل... وهكذا(١٠). وبقدر ما تكون قوة هؤلاء الأعوان، بقدر ما تكون قوة السلطان، ومدى تحكمه في السلطنة، وعلى هذا النحو كثيرًا ما ضحى المملوك بحياته من أجل أستاذه(١١).

في حين لعبت رابطة الخشداشية دورًا كبيرًا في تطور الأحداث السياسية طوال عصر سلاطين المماليك، خصوصًا أن هذا العصر- قام إلى حد كبير- على أساس الشك والتحاسد؛ لأن المماليك اعتبروا أنفسهم زملاء متساوين، لا فضل لأمير على آخر، فالكل كانوا رقيقًا في يوم من الأيام، جُلبوا من بلادهم، ونشأوا نشأة واحدة(١٢).

فليس هناك صاحب نسب أو حسب ليكون أفضل منهم، أمَّا أسباب

التفوق بينه، فكانت تكمن أساسًا في أشياء أخرى؛ منها شخصية الأمير الذي استطاع التغلب على منافسيه بشتى الطرق الدبلوماسية والعسكرية، ومنِ ثَم في الفوز النهاية بمنصب السلطنة، ويعتمد في ذلك على مجموعة من المماليك والأمراء هم أعوانه، وحراسه،والمنتمون إليه(١٣). ومع بداية عصر المماليك نجد أن علاقة الزمالة (الخشداشية) تلعب دورًا كبيرًا في تطور الأحداث، و من ذلك مثلاً تولية السلطنة لشجر الدر.

فبعد مقتل السلطان تورانشاه في عام (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) كان على المماليك أن يختاروا من يتولى حكمهم، ولكن لم يكن في استطاعتهم في ذلك الوقت أن يولوا أحدًا منهم منصب السلطنة، خصوصًا وأنه لم يكن قد برزت في ذلك الوقت من بينهم شخصية يمكن أن تنفرد بالحكم دون غيرها من المماليك، فمعظم المماليك ينظرون إلى بعضهم البعض نظرة زمالة، فهم جميعاً خشداشية زملاء في الرق والعتق، وهم جميعاً سواء(١٤)، ولذلك قرر المماليك تولية شجر الدر، زوجة أستاذهم الصالح نجم الدين أيوب، وأم ولده خليل، منصب السلطنة في ١٠ من صفر ٦٤٨هـ/ ١٥ مايو ١٢٥٠م(١٥) و لأنها كانت زميلتهم في الرق و أن يكون الأمير أيبك التركماني أتابك العساكر، وحلفوا على ذلك(١٦).

وعلى هذا النحو نجد اختيار المماليك لشجر الدر لكي تتولى منصب السلطنة يعود إلى عدة أسباب يأتى في مقدمتها أنها كانت تعتبر من ناحية الأصل والنشأة أقرب إليهم، فهى جارية تركية، وقيل أرمينية، اشتراها الصالح نجم الدين، وحظيت عنده، وصار لا يفارقها(١٧) لذلك كان هناك نوع من التعاطف بينها وبين بقية المماليك، فهي زميلتهم في الرق(١٨)، ولذلك أيضًا اعتبرها المقريزى أول سلاطين دولة المماليك(١٩).

ومن ناحية أخرى فقد كانت زوجة أستاذهم الصالح نجم الدين أيوب(٢٠). والملاحظ أن سلطنة شجر الدر على مصر كانت وليدة للظروف التي أحاطت بمصر في ذلك الوقت، ونتيجة لموافقة جماعة من زملائها أو

خشداشيتها المماليك، وليست نتيجة لموافقة الشعب، أو رجال الدين، أو الخلافة العباسية(٢١).

غير أن تولية شجر الدر لسلطنة مصر كانت حدثًا فذًا وفريدًا في تاريخ مصر الإسلامية بصفة خاصة، وفي التاريخ الإسلامي بصفة عامة(٢٢)، وفي هذا الصدد يذكر السيوطي: "ولم يل مصر في الإسلام امرأة قبلها"(٢٣)، كما تعجب ابن إياس من ذلك بقوله: "وسلطنوا شجر الدر، وهذا أمر غريب لم يقع قط بالديار المصرية"(٢٤).

وبالرغم من أن شجر الدر أخذت تتقرب إلى الخاصة والعامة، وتعمل على إرضائهم بشتى الوسائل، حيث خلعت على الأمراء والعساكر وأرباب الدولة، وأنفقت عليهم الهبات والأموال، وأنعمت عليهم بالرتب والمناصب العالية، ومنحتهم الإقطاعات الواسعة، كما خففت الضرائب عن الرعية لتستميل قلوبهم(٢٥)، إلا أن المصريين عمومًا أنفوا من قيام امرأة في السلطنة، وقاموا بمظاهرات واضطرابات عديدة فى القاهرة، ويبدو أن رجال الدين كانوا وراء هذه الحركة المعارضة(٢٦) بدليل ما رواه ابن إياس من أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام -وهو أكبر زعيم دينى في ذلك الوقت- كتب حول ما قد يبلى به المسلمون بولاية امرأة(٢٧)، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل رفض الخليفة العباسي المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ/ ١٢٤٢-١٢٥٨م) الاعتراف بسلطنتها، وعاب على المماليك إقامة امرأة في السلطنة، وكتب إليهم قائلاً: "إن كانت الرجال قد عدمت عندكم، فأعلمونا حتى نُسيِّر إليكم رجلاً"(٢٨).

وهنا أدرك المماليك خطأ تصرفهم، وقالوا "لا يمكننا حفظ البلاد والملك لامرأة، ولابد من إقامة رجل للمملكة تجتمع الكلمة عليه"(٢٩)، ولكنهم في الوقت نفسه أرادوا أن تحتفظ زميلتهم في الرق بما حازت عليه من شرف السلطنة، فلم يقصوها نهائياً عن الحكم، وإنما أشاروا عليها بأن تتزوج الأتابك أيبك التركماني، وتتنازل له عن الحكم فقبلت ذلك وخلعت نفسها من السلطنة بعد أن حكمت ثمانين يوماً(٣٠)، ولكنها كانت تحكم من وراء زوجها

أيبك، وتدس أنفها في كل شئون الحكم والسياسة، وهذا هو السر فيما عـــزم عليه أيبك من التخلص منها(٣١).

ومن الملفت للنظر أن علاقة الخشداشية بين أمراء المماليك لم تمنع من التحاسد والتباغض بينهم، وكثيرًا ما شهد عصر المماليك صراعاً مريراً بين زملاء الطباق الواحد، وكان هذا الصراع يتيح الفرصـــة لطبقـــة المماليـــك للوصول إلى السلطنة، ومن ذلك ما حدث بين السلطان المعز أيبك وخشداشه الأمير أقطاى الجمدار فما أن استقر السلطان المعز أيبك في الحكـــم (٦٤٨-٦٥٤هـــ/ ١٢٥٠-١٢٥٦م) حتى واجهته عدة مشكلات هددت سلطانه(٣٢). و أهمها مشكلة زملائه من المماليك البحرية وزعيمهم الأمير أقطاي الجمـــدار، فقد كان أيبك يتخوف منه لقوته ولطمعه في السلطنة، وفي ذلك يقـــول أبـــو المحاسن واصفًا أقطاي الجمدار "كان طائشاً عاملاً على السلطنة"(٣٣)، كمـــا وصفه ابن أيبك الدوادار بـــ "أنه كان قد طغى وتجبر، وبغى وتكبر، وكانت نفسه ترى أن ملك مصر لاشيئًا عنده"(٣٤).

ثُمَّ استفحل أمر الأمير أقطاي، و وصل إلى درجة كبيرة مـــن النفـــوذ والمجد، والتف حوله عددٌ كبيرٌ من المماليك البحرية، وصـــار يركـــب فـــي موكب عظيم مثل موكب السلطان حتى أن أصـــحابه لقبـــوه بلقـــب "الملـــك الجواد"، كل ذلك و لا يستطيع المعز أن يفعل له شـــيئًا لكثـــرة خشداشـــيته البحرية والصالحية(٣٥).

ولم يكتف أقطاي بكل ذلك، بل بالغ في احتقار أيبك، فكان لا يسميه إلا أيبكاً(٣٦). كذلك امتدت أطماعه إلى طلب ثغر الإسكندرية إقطاعًا لـــه، فلـــم يستطيع المعز مخالفته لقوة شوكته، وتطاول زملاؤه البحرية، وأخذوا يطلبون الإقطاعات والزيادات(٣٧).

كما ذهب أقطاي إلى أبعد من كل ذلك، وخطب بنت الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماه، وكان أخوها الملك المنصور وهو يومئذ صاحب حماه بعد موت أبيه، ثم طلب أقطاى من أيبك أن يسكن عروسه قلعة الجبـــل لكونها من بنات الملوك، و لا يليق سكناها بالبلد(٣٨).

وكان هذا يعني أن أقطاي يطمع في منصب السلطنة لأن قلعة الجبل هي مقر الحكم، هذا فضلاً عن أن زواج الأمير أقطاى من إحدى أميرات البيت الأيوبي في الشام يجعل له سندًا شرعيًا في الحكم(٣٩).

وعلى هذا النحو أخذ الصراع يدب بين الزميلين أو الخشداشين المعز أيبك وأقطاي الجمدار.

ومما لاشك فيه أن أيبك أخذ يعمل على تقوية نفسه، ويتخذ احتياطاته، فأنشأ فرقة من المماليك عرفوا بالمعزية نسبة إليه، كما عين مملوكه قطز المعزي نائبًا للسلطنة بمصر، ولم يلبث أن أخرج المماليك البحرية من ثكناتهم بجزيرة الروضة(٤٠)، كذلك عزل الملك الأيوبي الطفل موسى شريكه الأسمى في الحكم، وانفرد بالسلطنة(٤١)و إلا أن هذه الإجراءات التي اتخذها أيبك ضد أقطاى والبحرية لم تقلل من خطرهم.

وهذا الأمر الأخير هو الذى جعل المعز أيبك يفكر في التخلص من أقطاي بالقتل، خصوصًا أن أيبك لم تعد له كلمة أو نفوذ على المماليك البحرية، وأصبحت الكلمة الأولى للأمير أقطاي وفي ذلك يقول المقريزي "وصار ليس له مع البحرية أمرٌ ولا نهيٌ ولا حلٌ ولا عقدُ، ولا يسمع أحد منهم له قولاً، فإن رسم لأحد بشئ لا يُمكَّنُ من إعطائه، وإن أمر لأحد منهم بشيءٍ أخذ أضعاف ما رسم له به، واجتمع الكل على باب الأمير فارس الدين أقطاي، وقد استولى على الأمور كلها"(٤٢). كما كانت الكتب ترد إلى أقطاي من الملك الناصر، ولا يقدر أحدٌ أن يفتح كتاباً، ولا يستطيع أحد أن يتكلم في هذا الأمر بشيءٍ لكثرة خشداشيته(٤٣).

وفي الجانب الآخر اتفق المماليك البحرية بزعامة أقطاي على قتل المعز أيبك، والتخلص منه(٤٤). وعندما علم المعز أيبك بذلك أخذ يدبر أمره سريعًا، وعمل على قتل أقطاي، فكاتب الملك المعز السلطان صلاح الدين يوسف، واستشاره في القضاء على أقطاي، إلا أنه لم يجبه بشيءٍ، و تأخر في الرد عليه، و هذا في الوقت الذي أرسل فيه أقطاي جماعة من البحرية لإحضار بنت صاحب حماه إليه، فخرجت العروس من حماه متوجهة إلى

الديار المصرية، الأمر الذى جعل أيبك في حيرة من أمره، فإذا منع أقطاي من سكنى القلعة، حدث صراع بينهما تكون نتيجته في صالح أقطاي، وإن أسكنه القلعة قويت شوكته، وفي هذه الحالة لا يستطيع أيبك أن يخرجه منها مرةً ثانية، الأمر الذي يترتب عليه استقرار الأمر لأقطاي، والتمكن من السلطنة، و من أجل ذلك قرر أيبك التخلص بسرعة من أقطاي(٤٥)بعد أن "طغى وتجبر، وبغى وتكبر" على حد تعبير ابن كثير(٤٦).

وبالفعل استدعى أيبك الأمير أقطاي إلى القلعة لكي يستشيره في بعض الأمور، في الوقت الذي كان فيه المعز أيبك قد رتب جماعة من مماليكه على رأسهم الأمير قطز المعزي(٤٧) للتخلص من أقطاي، وما أن دخل أقطاي القلعة، و وصل إلى قاعة الأعمدة حتى أُغلقت الأبواب، ومُنع من كانوا معه من المماليك البحرية من الدخول، ثم وثبوا عليه وقتلوه في عام (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م) (٤٨).

ومن الجدير بالذكر أن بعض خشداشية أقطاي وعددهم سبعمائة فارس، حاولوا إنقاذه ومنهم الأمير بيبرس البندقدارى ، والأمير قلاوون الألفي، وفي ظنهم أنه لم يُقتل بعد وإنما قُبض عليه، فلم يشعروا إلا ورأس أقطاي قد رُمي بها إليهم من سور القلعة(٤٩).

وعندئذ خشي المماليك البحرية من أن يكون هذا مصيرهم، فحاولوا الفرار إلى الشام، غير أن المعز أيبك حال بينهم وبين الفرار، حيث أغلق جميع أبواب القاهرة، ولكنهم أحرقوا أحدها، وهو باب القراطين، وفر المماليك البحرية إلى بلاد الشام، ودخلوا في خدمة الأيوبيين هناك، وعُرف هذا الباب من يومها بالبابَ المحروق(٥٠).

وهكذا نجح أيبك في التخلص من خطر خشداشية أقطاي الجمدار وزملائه المماليك البحرية، وقبض على من تبقى منهم في القاهرة، فقتل منهم من قتل، وسجن من سجن، وصادر أموالهم، وحتى يتأكد من عدم اختفاء بعض المماليك البحرية بداخل البلاد أمر المعز أيبك بالنداء في القاهرة ومصر "بتهديد من أخفى أحد البحرية"(٥١)، بل وأرسل إلى ملوك الأيوبيين

بالشام يحذرهم من البحرية وغدرهم، ولكنهم لم يستمعوا إليـــه، وألحقـــوهم بخدمتهم"[٥٢].

ومن بين الأحداث التي توضح بجلاء ذلك الصراع الذى حـــدث بـــين زملاء وخشداشية الطباق الواحد ما حدث من صراع بين بيبرس البندقداري وزميله وخشداشة السلطان المظفر قطز؛ فقد اتفق الأمير بيبرس مع جماعـــة من زملائه على قتل السلطان المظفر قطز في عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، و ظل بيبرس يترقب الفرصة المناسبة حتى واتته أثناء عودة السلطان قطـــز إلـــى مصر بعد انتصاره على المغول في عين جالوت[٥٣]، فعندما وصـــل قطـــز بالقرب من الصالحية انصرف إلى صيد الأرانب، فثار أرنب وجمح، وعندئذ نسي قطز أن يحترز على نفسه، وتعقب الأرنب حتى ابتعد، وعندئـــذ تبعـــه المتآمرون، وتقدم بيبرس حتى اقترب من السلطان يطلب منه طلباً، وعنـــدما أجابه قطز إلى ما طلب تظاهر برغبته في تقبيل يد السلطان اعترافًا بفضله، وما كاد قطز يمد يده حتى قبض عليها بيبرس بشدة، ليحـــول بينـــه وبـــين الحركة، في حين هوى عليه بقية المتآمرين بسيوفهم حتى قضوا عليه، فكانت مدة ملكه أحد عشر شهرًا وثلاثة عشر يومًا[٥٤].

ونتساءل هنا عن الدوافع التي دفعت بيبرس إلى قتل زميله وخشداشـــه السلطان قطز؟ و من تحليل أحداث تلك الفترة يتضح أن ذلك يعود إلى عـــدة أسباب:

أولاً: يعتبر السبب الرئيسي هو أن المماليك جميعًا نظروا إلى بعضهم البعض على أنهم أرقاء متساوون، فلا فضل لأحدهم على الآخر، فـــالجميع مماليك، لذلك كثيرًا ما أنفوا الخضوع لحكم أحدهم، و من أجـــل ذلـــك رأى بيبرس أنه لا يقل عن قطز في شئٍ، فلماذا لا يتولى السلطنة بدلاً منه، لذلك أقدم على التخلص منه[٥٥].

ثانيًا: أن الأمير بيبرس الذي أبدى شجاعة كبيرة في عين جالوت لا تقل عن شجاعة السلطان قطز نفسه فلماذا لا يصبح هو السلطان[٥٦].

ثالثًا: طمع بيبرس في نيابة حلب، وطلبها فعلاً من السلطان قطز، فوعده بها، ثم تنكر له وأعطاها لصاحب الموصل الأمير بدر الدين لؤلؤ، الأمر الذى جعل بيبرس يحقد على السلطان في الباطن" -على حد قول أبي المحاسن(٥٧)، ولذلك أخذ يفكر في التخلص منه.

رابعًا: كما أن السلطان قطز أضمر لبيبرس السوء، وبلغ ذلك بيبرس، "فاحترس كل منهما من الآخر"(٥٨).

ولا شك في أن قطز أظهر قصر نظر وعدم مرونة؛ لأنه لم يدرك ما حققه الأمير بيبرس من مكانة وأهمية خلال المعارك التي خاضها ضد المغول، ولو كان قطز على شئٍ من الحكمة لاستجاب لطلبات الأمير بيبرس وأعطاه نيابة حلب بدلاً من منافسته في مصر، وبذلك كان فى استطاعتة أن يباشر سلطانه في مصر دون منافس أو حاقد من زملائه(٥٩).

خامسًا: أراد بيبرس الانتقام لمقتل أستاذه أقطاى الذى شارك قطز في قتله، وما ترتب على ذلك من لجوئه هو وزملائه إلى الشام، والتشتت والتنقل، وما قاسوه من متاعب ومشاق(٦٠).

وبذلك لم تلبث أن انتقلت السلطنة في مصر بعد مقتل قطز إلى قاتله الأمير بيبرس، بوصفه أقوى الأمراء البحرية من ناحية، وصاحب الفكرة فى قتل السلطان قطز من ناحية ثانية(٦١)، فمن الأمور المألوفة في عرف المماليك أن يحل القاتل في سهولة محل القتيل في السلطنة مادام القاتل قد أظهر من الشجاعة والقوة ما حقق له التفوق على زملائه من الأمراء. وبعبارة أخرى فإن شعارهم كان "من قتل ملكًا أصبح هو الملك"(٦٢).

وتروي المصادر أن الأمراء البحرية الذين قتلوا قطز ساروا بعد تنفيذ مؤامرتهم إلئ الدهليز السلطانى بالصالحية، وقد أجمعوا أمرهم على سلطنة بيبرس، وعندما قابلهم الأمير فارس الدين أقطاي الأتابك عند باب الدهليز أخبروه بما فعلوا من قتل السلطان قطز، وعندئذ سألهم الأتابك من قتله منكم؟ فقال بيبرس: "أنا؛ فنظر إليه الأتابك أقطاي وقال "ياخوند" اجلس في مرتبة

السلطنة"[٦٣]. وبمثل هذه السهولة والبساطة حل القاتل محل القتيل، و اُستُدعِيَ العسكر في الحال ليحلفوا للسلطان الجديد قبل أن تجف دماء ضحيته[٦٤].

ومن بين الأحداث التى توضح عدم احترام المماليك لمبدأ الزمالة والخشداشية ما قام به بعض الأمراء من عزل أبناء السلطان الراحل، وقفزهم على العرش على الرغم من كونه خشداشاً لهم، ومن أمثلة ذلك ما قام به الأمير قلاوون الصالحي من عزل ابن السلطان الظاهر بيبرس.

ومما لاشك فيه أن الأمير قلاوون الصالحي أحس بالغيرة عندما وجد أحد زملائه وهو الظاهر بيبرس يلي منصب السلطنة، وإن كان قلاوون لم يستطع أن يعبر عن ذلك الشعور في حياة خشداشة بيبرس؛ وذلك لقوة السلطان الظاهر بيبرس ودهائه[٦٥]. ويؤكد المقريزى على أن المماليك حقدوا على بيبرس عندما تولى السلطنة بقوله: "كانوا يأنفون من تملك الملك الظاهر عليهم، ويرون أنهم أحق منه بالملك"[٦٦].

وقد أحس الظاهر بيبرس بذكائه ودهائه مدى قوة الأمير قلاوون، وازدياد نفوذه الذي أصبح يهدد طموحاته، ثم الخطر الذى يشكله عليه عندما يقدم على حفظ منصب السلطنة من بعده لابنه السعيد بركة، و من أجل ذلك لجأ الظاهر بيبرس إلى حيلة قوية ظن أنها تضمن بقاء العرش من بعده لأبنائه[٦٧] و هي أنه زوج الملك السعيد بركة من غازية خاتون ابنة الأمير قلاوون في عام ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م[٦٨]، ظناً منه أن قلاوون لن يطمع في انتزاع الملك من زوج ابنته[٦٩].

وإذا كان قلاوون وغيره من أمراء المماليك قد أعلنوا ولاءهم لأولاد بيبرس بعد وفاته في عام ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م[٧٠] لا حبًا في نظام ولاية العهد، ولا احترامًا لوراثة السلطنة، وإنما لعوامل أخرى كامنة فى نفوسهم؛ لقفز أقواهم على العرش، ومعنى ذلك أنهم لم يقيموا وزناً كبيراً لنظام وراثة العرش، ذلك النظام الذي وُجد بالفعل ولكنه لم يلق احترامًا من أمراء ذلك العصر لسبب أساسي ألا وهو أنهم جميعًا مماليك أرقاء تم شراؤهم وتربيتهم مع بعضهم البعض.

و من أجل ذلك كان الأمراء المماليك يتصارعون على منصب السلطنة بعد وفاة السلطان، و في بعض الأوقات كان يتم الاتفاق على الإبقاء على أولاد السلطان الراحل في السلطنة حتى ينتصر أقوى الأمراء المتنافسين، وبعدها يتم خلع هذا الصبي الصغير، ويجلس مكانة على عرش السلطنة الأمير المنتصر(٧١).

وهذا ما حدث بالفعل بعد وفاة السلطان الظاهر بيبرس، حيث كانت أطماع الأمير قلاوون في منصب السلطنة أقوى بكثير من روابط الخشداشية والمصاهرة، فلم يكد الظاهر بيبرس يموت حتى أخذ قلاوون يخطط لتحقيق أطماعه في الحكم، وإن كان حريصاً على عدم الكشف عن نيَّته. ولم يكن قلاوون في تخطيطه هذا غادرًا أو مغتصبًا أو معتديًا على حقوق ابن زميله وزوج ابنته، وإنما كان وفقاً للعقلية المملوكية مطالباً بحق مشروع طال السكوت عنه، ويكفي أنه رضي بالظاهر بيبرس وهو خشداشه سلطاناً، فلا مبرر بعد ذلك للخضوع لأبنائه وهم في نظره صبيان صغار أقل منه قوة. و على أية حال أخذ قلاوون يمهد لنفسه للوصول إلى منصب السلطنة في الوقت المناسب، فنجده يتصرف بكل ذكاء ودهاء في ذلك الوقت(٧٢)، فلم يعترض على تولية السعيد بركة بن الظاهر بيبرس منصب السلطنة في عام (٦٧٦-٦٧٨هـ/ ١٢٧٧-١٢٧٩م)، وكان عمره يبلغ التاسعة عشر(٧٣)، وتركه يلهو ويتصرف كيفما يشاء دون أن يوجه له النصح والإرشاد(٧٤).

ولم تمر على سلطنته سنتان إلاَّ وقامت المنازعات والخلافات بينه وبين بقية أمراء المماليك الذين أساء التصرف معهم، لدرجة أنهم حاصروه في القلعة، وقطعوا عنه الماء في عام ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م(٧٥).

ومن الجدير بالذكر أن السعيد بركة عندما طلب مساعدة صهره قلاوون نصحه الأخير بخلع نفسه من السلطنة، ونظراً لتخلي قلاوون عنه، ولقلة أتباعه، استجاب لرأي قلاوون، فاضطر إلى خلع نفسه من السلطنة في عام ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م، ثم توجه إلى الكرك، وأقام بها(٧٦).

ومن الملاحظ أنه أثناء النزاع الذى نشب بين الملك السعيد والأمراء

برز الأمير قلاوون الألفي كمرشح بارز لتولي السلطنة، خصوصًا أنه أدى دورًا مميزًا في هذه الأحداث(٧٧)، ومن أجل ذلك عرض عليه كبار الأمراء تولي المنصب، لكنه أحجم عن ذلك، واعتذر متظاهرًا بالزهد حتى "لا تخرج السلطنة من بيت بيبرس"(٧٨). و قد ذكر المقريزي أن قلاوون رفض قائلاً: "أنا ما خلعت الملك السعيد طمعًا في السلطنة، والأولى ألا يخرج الأمر عن ذرية الملك الظاهر"(٧٩).

و لم يكن رفض قلاوون لمنصب السلطنة بعد عزل السعيد بركة بسبب إيمانه بمبدأ وراثة الحكم، أو لأنه يقدر ما كان بينه وبين بيبرس من زمالة وخشداشيه، ولكن لأن قلاوون فضل التريث في تولي السلطنة حتى لا يثير عليه ثائرة المماليك خصوصًا أنه كان يدرك أن السلطنة ستؤول إليه إن عاجلاً أو آجلاً نتيجة تطور الأوضاع السياسية، بالإضافة إلى ظروف بيت الظاهر بيبرس من حيث عدم وجود شخص كفء يتولى السلطة(٨٠).

هذا فضلاً عن أن غالبية الجيش كانت من المماليك الظاهرية أنصار الظاهر بيبرس، ولاشك في أنهم سوف يعارضون قلاوون ويثورون عليه، فأدرك قلاوون أن الأمور لم تتضح بعد، فاختار أن يتريث بعض الوقت حتى يمهد الطريق لنفسه، ويقوم بعزل الأمراء الموالين للظاهر بيبرس من مناصبهم في الدولة حتى يخلو له الجو للانفراد بالسلطنة(٨١).

و على أية حال فإنه بعد خلع السعيد بركة تم الاتفاق على أن يتولى السلطنة الأخ الأصغر له وهو بدر الدين سلامش، وكان عمره سبع سنوات، واختير قلاوون أتابكاً له(٨٢). وفي الفترة التي تولى فيها السلطان بدر الدين سلامش السلطنة، أخذ قلاوون يمكن لنفسه، فأصبح الحاكم الفعلي للبلاد، حيث صار يذكر اسمه مع اسم العادل على المنابر في الخطبة، وتصرف تصرف الملوك" على حد تعبير المقريزي(٨٣).

وقد عبَّر ابن إياس عن ذلك بقوله: "وكان في الحقيقة قلاوون هو السلطان، وكان سلامش معه آلة، ليس له في السلطنة إلا مجرد الاسم فقط(٨٤)، كما ضربت السكة باسمه على وجه، وباسم سلامش على الوجه

الآخر[٨٥].

ثم أخذ قلاوون يعمل على تقوية مركزه، فاتخذ عدة إجراءات للوصول إلى السلطنة، حيث قضى على عدد كبير من المماليك الظاهرية المخلصين للظاهر بيبرس ولأبنائه، كما عزل كثيرًا من الولاة والنواب الموالين لبيبرس، والذين كان الظاهر بيبرس وابنه السعيد بركة قد عينوهم بالولايات، وأحل محلهم جماعة من أنصاره، كذلك تخلص قلاوون من بعض الأمراء المنافسين له، والذين توهم منافستهم له في منصب السلطنة، كما أحسن إلى زملائه من المماليك البحرية، وأغدق عليهم الإقطاعات ليستميلهم إلى جانبه[٨٦].

وبهذه الإجراءات أصبح قلاوون قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفه في الوصول إلى السلطنة. وعندما اطمأن إلى أن الظروف أضحت مواتية، و باتت الأمور مهيأة لاعتلائه منصب السلطنة، أعلن أنه لا فائدة من بقاء ذلك الصبي الصغير، وأن المملكة لا تقوم إلَّا برجل كامل، واتفق مع الأمراء والقضاة والأعيان على خلع السلطان سلامش نظرًا لصغر سنه، وتنصيبه بدلاً منه[٨٧].

و هكذا خُلع سلامش في عام ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م بعد أن حكم ثلاثة أشهر فقط[٨٨]. وتولى المنصور قلاوون منصب السلطنة، و وصلت البشائر إلى سائر الممالك الإسلامية بذلك[٨٩]، و بذلك ضرب قلاوون برباط الزمالة والخشداشية عرض الحائط.

وهكذا ظل أمراء المماليك يأنفون من الخضوع لواحد منهم حتى وإن ربطهم به رباط الخشداشية لاعتقادهم أنهم أجدر منه بالسلطنة، و من أجل ذلك رفض الأمير سنقر الأشقر نائب دمشق أن يعترف بسلطنة خشداشة المنصور قلاوون[٩٠]، وبالرغم من أنه تظاهر في البداية بالموافقة على سلطنته عندما تم الاتفاق على خلع السلطان بدر الدين سلامش من السلطنة في عام (٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م)، وفي ذلك يقول أبو المحاسن: "أخذ قلاوون الأمر لنفسه، فلما استقام له الأمر دخل إليه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، و وافقه على السلطنة، وأخفى ذلك لكونه خشداشه"[٩١]، الأمر الذي جعل

السلطان المنصور قلاوون يولي الأمير سنقر الأشقر نيابة دمشق في عام ٦٧٨هـ/ ١٢٨٠م[٩٢] حتى يتخلص من منافسته له على السلطنة[٩٣]، ثم أوصاه بالتعاون والإلتئام[٩٤]، وبعد ذلك توجه سنقر الأشقر إلى الشام ليتولى مهام منصبه الجديد[٩٥].

ومن الجدير بالذكر أن المنصور قلاوون أحس بعد أن أخرج سنقر إلى بلاد الشام "بأن الوقت صفا له" على حد تعبير أبى المحاسن[٩٦].

إلا أن الأمير سنقر الأشقر عز علية أن يتولى الأمير قلاوون منصب السلطنة متخطيًا إياه وهو زميله وخشداشه[٩٧]، فما كاد يدخل بلاد الشام في عام ٦٧٨ه/ ١٢٨٠م حتى أظهر العصيان على سلطنة خشداشه قلاوون، فدخل فى موكب عظيم يضاهي موكب السلطان[٩٨]، ثم ركب من قلعة دمشق إلى الميدان بدست السلطنة، ثم رجع إلى القلعة وكان يومًا عظيمًا[٩٩].

وفي ذلك يقول بيبرس الدوادار "سولت نفسه الاستبداد بالسلطنة في الشام وأعمالها"[١٠٠]. أمَّا النويري فأشار إلى ذلك بقوله: "فلما ملك السلطان المنصور، واستقر بالسلطنة خطر ببال الأمير شمس الدين سنقر الأشقر أن يستبد بسلطنة الشام"[١٠١].

ولم يلبث الأمير سنقر الأشقر إلا أن جمع الأمراء وأوهمهم بأنَّ السلطان قلاوون قد قُتِلَ، واستحلفهم لنفسه فحلفو له[١٠٢]، "ويأس له الأمراء الأرض على حد قول ابن إياس"[١٠٣]، كما لُقِب بلقب الملك "الكامل"[١٠٤]. ونادى المنادون فى دمشق بسلطنته واستقلاله بالمماليك الشامية[١٠٥]، كما خُطِبَ له في جامع دمشق[١٠٦].

ولم يكتف سنقر الأشقر بذلك، بل أرسل عساكره إلى غزة لحفظ البلاد، ودفع من يأتي إليها من الديار المصرية، و ذلك في عام ٦٧٩ه/ ١٢٨٠م ولم يكن للسلطان قلاوون فى ذلك الوقت حكم إلا على الديار المصرية فقط[١٠٧]، كما راسل بعض الأمراء الصالحية والظاهرية يستميلهم إلى جانبه[١٠٨]. فتغيرت قلوبهم على السلطان[١٠٩].

وبمجرد أن علم السلطان المنصور قلاوون بسلطنة سنقر الأشقر، وخروجه عن طاعته، حاول أن يستميله بالملاطفة واللين، ولكن لم يفلح في ذلك وتمادى سنقر في عصيانه(١١٠)، عندئذ جهز قلاوون جيشًا قويًا لمحاربته في عام ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م بقيادة الأمير سنجر الحلبي، والأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح، وفي الطريق اجتمعا مع الأمير عز الدين الأفرم، والأمير بدر الدين الأيدمري، وسار بهم الحلبي طالبًا دمشق(١١١). وعندما اقتربوا منها وجدوا سنقرَ الأشقر مستعدًا لهم، ومعه عساكر الشام عند الجسورة، وهناك وقعت المعركة الفاصلة بين الجيشين ودار القتال بينهما، حيث دارت الدائرة على الأمير سنقر الأشقر، وهُزم أمام جيش سنجر الحلبي في عام ٦٧٩هـ/١٢٨٠م، ولم يلبث سنقر الأشقر أن هرب إلى الرحبة، بينما دخل الحلبي إلى دمشق وتسلمها(١١٢). ومن الجدير بالذكر أن سبب هزيمة سنقر الأشقر ترجع إلى خيانة كثير من عسكره له حيث انحازوا إلى جيش سنجر الحلبى(١١٣).

و قد لجأ الأمير سنقر الأشقر أثناء قتاله ضد سنجر الحلبي إلى حيلة تهدف إلى تشتيت جيش الحلبي، حيث اتفق مع جماعة من العربان الموالين له على أن يُهاجِموا وقت المعركة مؤخرة جيش الحلبي ويقوموا بأعمال السلب والنهب حتى يشتتوهم، وبالفعل نفذ العربان هذه الحيلة، وفعلوا ما أوصاهم بهم سنقر الأشقر، وقاموا بالسلب والنهب، غير أن هذا العمل لم يفت في عضد سنجر الحلبي، فعندما قال العسكر للحلبي إن العرب نهبت الأثقال والقماش والأحمال رد عليهم قائلاً: "لا تلتفتوا إليهم"، و بهذا لم تنجح حيلة سنقر الأشقر في تشتيت جيش سنجر الحلبي(١١٤).

إلَّا أن خطورة ثورة سنقر الأشقر على زميله وخشداشه المنصور قلاوون تكمن فى أنه استعان بالمغول ضده، حيث تروي المصادر أن سنقرًا أرسل إلى إيلخان المغول أبغا بن هولاكو يحثه على غزو بلاد الشام للاستيلاء عليها(١١٥).

و قد كان من الطبيعي أن يستجيب المغول لطلب سنقر الأشقر، حيث

وجدوا في الخلاف بينه وبين قلاوون فرصة للهجوم على دولة المماليك، وبالفعل أرسل أبغا في عام ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م قوة استولت على بعض القلاع في شمال الشام[١١٦].

و تأسيسًاعلى هذا فقد كان الخلاف بين الزملاء والخشداشية سببًا في استقدام المغول ودفعهم للاستيلاء على بلدان العالم الإسلامي، وهنا ظهرت دبلوماسية السلطان قلاوون الذي رفض الخروج إلى الشام لمحاربة سنقر الأشقر خشية انضمام الأخير للمغول، فأرسل إليه يتلطفه ويعاتبه ويذكره بالخشداشية والصحبة[١١٧]، ثم أرسل جيشًا كبيرًا للتصدي للمغول، وفي الوقت نفسه أرسل الأمراء إلى سنقر الأشقر يطلبون منه التعاون مع جيش السلطان قلاوون لنصرة الإسلام، وهزيمة المغول[١١٨]. وفي ذلك يقول المؤرخون "فأرسل أمراء العساكر المصرية إلى سنقر الأشقر يقولون له: وهذا العدو قد دهمنا، وما سببه إلّا الخِلف بيننا، أو ما ينبغي هلاك الإسلام، والمصلحة أننا نجتمع على دفعه"، فامتثل سنقر إلى ذلك وأنزل عسكره من صهيون، واتفق مع اجتماع الكلمة، ودفع العدو عن بلاد الشام[١١٩].

ولم يلبث أن شارك سنقر بعساكره فى محاربة المغول[١٢٠]، وما أن فرغ قلاوون من حرب المغول حتى طلب من سنقر الأشقر تسليم شيزر التى استولى عليها، ولأن سنقر لم يكن في استطاعته مواجهة قلاوون لافتقاره إلي القوة العسكرية، فمال إلى الصلح، ولكنه اشترط:

١. أن يُلقب بلقب ملك.
٢. أن يحصل على أفاميه وكفرطاب وأنطاكية وصهيون مقابل تنازله عن شيزر.
٣. أن يُعيَّن أميرًا على ستمائة فارس باستثناء أتباعه.

فما كان من قلاوون إلا أن وافق مضطراً على هذه الشروط، وكتب لسنقر الأشقر تقليدًا بولاية هذه البلاد، لكنه رفض أن يلقبه بلقب ملك[١٢١].

ويبدو أن الجفاء ظل مستمرًا بين قلاوون وسنقر الأشقر بدليل أن

السلطان قلاوون عندما حاصر حصن المرقب لم يحضر سنقر الأشقر لمقابلته، واكتفى بإرسال ابنِه إليه، فغضب قلاوون من ذلك، ثم أرسل في عام ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م جيشًا لمحاربة سنقر الأشقر بقيادة الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة[١٢٢]، فحاصر سنقر بشدة، فلما رأى سنقر الأشقر الهزيمة تحيط به، أرسل يطلب الأمان من حسام الدين طرنطاي، فأجابه إلى ذلك، ونزل سنقر من قلعة صهيون، وتقابل مع الأمير طرنطاي، ووعده إنه عند مقابلة السلطان قلاوون لن يتعرض للسجن أو القتل، فلما وثق سنقر من ذلك أخذ أولاده وجاء بصحبة طرنطاي[١٢٣].

ويروي ابن إياس أن المنصور قلاوون عندما بلغه مجئ سقر الأشقر خرج لاستقباله، فلما وقعت عين سنقر على السلطان نزل عن فرسه، فلما رأه السلطان نزل عن فرسه هو الآخر، وتعانقا، فبكى نقر، وطلب من السلطان الأمان، فأعطاه منديل الأمان فوضعه سنقر على رأسه، ثم ركبا وطلعا إلى القلعة، وأخلع عليه السلطان خلعة[١٢٤].

وهكذا عفا السلطان قلاوون عن خشداشه سنقر الأشقر واستقر في الخدمة الشريفة[١٢٥]، وأعطى له إمرة مائة فارس، وبقي وافر الحُرمة إلى آخر أيام الملك المنصور قلاوون[١٢٦].

وبذلك عاد الوئام والوفاق بين السلطان المنصور قلاوون والأمير سنقر الأشقر بفضل ما كان بينهما من سابق زمالة وخشداشية.

غير أنه بين الحين والآخر تبرز ظاهرة الصراع بين الزملاء والخشداشية، والمماليك من ذلك ما حدث بين السلطان كتبغا وخشداشه الأمير لاجين، وذلك عندما اشتد الصراع بينهما، حيث كان الأمير لاجين في ذلك الوقت هو نائب السلطنة، وكان أشد الأمراء المماليك نفوذًا، وتطلع إلى منصب السلطنة منذ أن تسلطن العادل كتبغا (٦٩٤-٦٩٦هـ/ ١٢٩٤-١٢٩٦م)[١٢٧].

ثُم أخذ الأمير لاجين يكيد للسلطان كتبغا في الباطن مستغلًا عوامل

الكراهية والحقد التي أخذت تتجمع ضده(١٢٨).

وقد اتفق الأمراء مع لاجين على التخلص من السلطان كتبغا أثناء عودته من دمشق في عام ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م، وتم اختيار منطقة العوجاء لتنفيذ المؤامرة(١٢٩)، وبالفعل تزعم هذه المؤامرة الأمير لاجين، حيث هجم على مخيم السلطان، فمنعه بعض مماليك السلطان وأعاقوه عن الوصول إلى كتبغا، ولما بلغ هذا الأمر مسامع كتبغا رأى أنه لا قِبَلَ له بقتال لاجين لعلمه بمن وافقه من الأمراء وغيرهم، وخاف على نفسه، وركب من خيل النوبة فرساً تُسمَّى حمامة، وساقه لقلة سعده، ولزوال ملكه على حد تعبير أبى المحاسن(١٣٠).

ومن الجدير بالذكر أن السلطان كتبغا رجع إلى الشام حتى وصل إلى دمشق، ومعه أربعة أو خمسة من خواصه، وعندما أراد أن يقاتل المتآمرين عليه بزعامة لاجين رفض عسكر دمشق أن يقاتلوا معه، فاضطر إلى خلع نفسه من السلطنة، في حين تولى السلطنة خشداشه المنصور لاجين في عام ٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م(١٣١).

وإذا كان الأمراء المماليك تنافسوا على منصب السلطنة، ولم يحترموا رباط الزمالة والخشداشية، وعملوا على انتزاع الحكم من يد السلطان الذى كان خشداشاً لهم، إلا أنه فى بعض الأحيان كان بعض الأمراء المماليك يرفضون منصب السلطنة عندما يعرض عليهم خوفاً من أن يكون مصيرهم القتل أو العزل، ويفضلون على أنفسهم أحد زملائهم، وهذا ما حدث عصر الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثانية (٦٩٨-٧٠٨هـ/ ١٢٩٩-١٣٠٨م)، فعندما ضاق من تسلُّط كل من الأميرين ركن الدين بيبرس الجاشنكير الأستادار، والأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة(١٣٢)، و من استبدادهما بالأمور، وتجاوز الحد فى الانفراد بالأموال، والأمر والنهي، ولم يتركا للسلطان غير الاسم، مع محاصرته فى القلعة(١٣٣)،

الأمر الذى جعل السلطان الناصر محمد يخشى على نفسه من عاقبة الغدر به؛ فقرر أن يترك منصب السلطنة، فتظاهر بأنه يريد أن يؤدى

فريضة الحج، وذلك حتى يسمح له بمغادرة مصر، وعندما وصل إلى الكرك أعلن عن رغبته في الإقامة بها، وعزل نفسه من منصب السلطنة في عـــام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م[١٣٤].

ثم أرسل الناصر محمد رسالة إلى الأمراء فى مصر يخبرهم بما استقر عليه، وهنا ارتبك الأمراء عندما وصلتهم الرسالة؛ لأنهم لم يكونوا مستعدين لهذا الموقف[١٣٥]، وعندئذٍ عرض الأمراء منصب السلطنة على الأمير سلار، ولكنه رفض قبوله، وأشار إلى تولية زميله وخشداشه بيبرس الجاشنكير لعدة أسباب أهمها:

١. كون بيبرس الجاشنكير خشداشاً له، فقدمه على نفسه، بالإضافة إلى خوفه من أن يتعرض لنفس المصير الذى تعرض له السلطان كتبغا.
٢. كما أن عدم استقرار أحوال البلاد فى ذلك الوقت كان عاملاً دافعاً له إلى ذلك.

وقد أكد المؤرخ المقريزي على أن الأمير سلار أفصح عن رغبته في تولية بيبرس الجاشنكير السلطنة لما بينهما من زمالة سابقة، حيث ذكر أنـــه لما عرض الأمر على سلار رفض قائلاً :"والله يا أمراء أنا ما أصلح للملك، ولا يصلح له إلا أخي هذا، وأشار إلى بيبرس الجاشنكير، ونهض قائماً إليه، فتسارع البرجية وقالوا بأجمعهم: صدق الأمير، وأخذوا بيد بيبرس وأقـــاموه كرهًا"[١٣٦].

و هكذا لعبت رابطة الزمالة أو الخشداشية دوراً بـــارزاً فـــى تطـــور الأحداث السياسية في تاريخ دولة المماليك البحرية.

الهوامـــش

(١)ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيـق: مـراد كامل، طبعة أولى، القاهرة، ١٩٦١، ص ٣٦؛ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، ج١، ج٢، القاهرة، ١٩٨٧، ١٩٨٨، ج١، ص ٦٥؛ و أنظر أيضًا: حمدي عبد المنعم: تاريخ الأيوبيين والمماليك، الإسـكندرية، ٢٠٠٧، ص ١٥٤.

(٢)ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ٣٦؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة فـي ملـوك مصر والقاهرة، ١٦ جزءًا، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، لبنان، طبعة أولى، ١٩٩٢، ج٦، ص ٢٨٢، ٢٨٣؛ ابن إياس: بدائع الزهور في وقـائع الـدهور، ٥ أجزاء، تحقيق: محمد مصطفى، القاهرة، د.ط، ج١، ق١، ص ٢٦٩.

- لم يكن المماليك عنصرًا جديدًا ظهر أول ما ظهر في العصر الأيوبي بـل يرجـع ظهورهم في مصر إلى عصور سابقة تعود إلى العصر الطولـوني. ابـن عبـد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٣٥؛ و أنظر أيضًا: حامد زيان: المماليك، القاهرة، ٢٠١١، ص١٠؛ حمدي عبد المنعم: تاريخ الأيـوبيين والمماليـك، ص ١٥٣؛ ليلى عبد الجواد: تاريخ الأيوبيين والمماليك في مصر والشـام، القـاهرة، ٢٠٠٥، ص ١٥٧.

(٣)أبو المحاسن: النجوم، ج٦، ص ٢٨٣، هامش ٣؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٢٦٩، ٢٧٠؛ و أنظر أيضًا: محمد قنديل البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٣٢٨.

(٤)بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٢٦٩، ٢٧٠.

(٥)المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٤ أجزاء، طبعة مصـورة مـن طبعة بولاق، ج٣، ص ٢١٣، ٢١٤؛ و أنظر أيضًا: البقلي: مصـطلحات صـبح الأعشى، ص ٢٢٧؛ عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فـي مصر، جزءان، طبعة ثانية، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ١٥.

(٦)ابن شاهين الظاهرى: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيـق: بـولس راويس، باريس، ١٨٩٤م، ص ٢٧؛ و أنظر أيضاً: السيد الباز العريني: المماليك،

بيروت، د.ت، ص٨٦.

- ومن الجدير بالذكر أن الناصر محمد بن قلاوون تولّى السلطنة ثلاث مرات؛ الأولى ٦٩٣-٦٩٤هـ/ ١٢٩٣-١٢٩٤م، والثانية ٦٩٨-٧٠٧هـ/ ١٢٩٨-١٣٠٨م، والثالثة ٧٠٩-٧٤١هـ/ ١٣٠٩-١٣٤٠م.

(٧) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ٢١٣، ٢١٤؛ و أنظر أيضًا: حامد زيان: المماليك، ص١٤؛ ليلى عبد الجواد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٥٤؛ عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ص ١٥.

- كان المماليك الصغار في الطباق يتعهدهم الطواشي ويقوم بتعليمهم القراءة والكتابة وحفظ آيات القرآن الكريم، والتعاليم الإسلامية إلى أن يصلوا إلى سن البلوغ، ثم يبدأ تعليمهم فنون الحرب والقتال والفروسية. للمزيد من التفاصيل انظر: المقريزي: المواعظ، ج٣، ص ٢٣؛ و انظر أيضًا: حامد زيان: المماليك، ص١٠؛ عبد المنعم ماجد: نظم، ج١، ص ١٥-١٨؛ ليلى عبد الجواد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٥٤؛ السيد الباز: المماليك، ص ٨٩.

(٨)البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص ٢٩؛ حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار القاهرة، ١٩٥٧، ص ١٤٠.

(٩)بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة عصر سلاطين المماليك، ج٩، تحقيق: زبيدة عطا، القاهرة، د.ط، ص ٦٣، هامش (١)؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٩، هامش (٦)؛ و انظر أيضًا، ليلى عبد الجواد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ١٥٤؛ حمدي عبد المنعم: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ١٥٦.

(١٠)ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٣٦؛ و انظر أيضًا: سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ١٧٩.

(١١)حامد زيان: المماليك، ص ٣٤.

(١٢)سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة ١٩٩٨، ص ٢٢٢.

(١٣)حامد زيان: المماليك، القاهرة ٢٠١١، ص ٣٤.

(١٤)سعيد عاشور: العصر المماليكى في مصر والشام، القاهرة، ١٩٧٦، ص١١.

- **تورانشاه:** ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، تسلطن بعد موت أبيه الصالح بنحو شهرين ونصف، ودبرت شجر الدر أمور المملكة إلى أن قدم تورانشاه من حصن

كيفا في عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، إلَّا أنه لما ملك مصر استفحل أمره، وأخذ يهدد مماليك أبيه بالقتل، فتنكر الجميع له، واتفقوا على قتله. انظر: أبو المحاسن: مورد اللطافة في من وُلي السلطنة والخلافة، جزءان، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز، القاهرة، ١٩٩٧، ج٢، ص١٩، ٢٠؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٦ أجزاء، بيروت، د.ت، ج٥، ص ٢٦٨.

- **شجر الدر**: كانت واحدة من الجواري التي تباع في أسواق الرقيق مع غيرها من الغلمان والجوارى البيض، اشتراها الملك الصالح أيوب في حياة أبيه، وحظيت عنده، فأعتقها وتزوجها. انظر: أبو المحاسن: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٦، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٩٠، ص ٢١٩-٢٢١؛ الدليل الشافي على المنهل الصافي، جزءان، تحقيق: فهيم شلتوت، ١٩٧٩م، ج١، ص ٣٤٥؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ٣٣ جزءًا، ج١٦، تحقيق: وداد القاضي، بيروت، ص ١٢٠.

(١٥)ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧، الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٣٨٣؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج٦، ص١١٩-١٢٠؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص ٢٩؛ Lana Poole: History of Egypt in the Middle Ages. London. 1925. p. 225.

(١٦)بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، تحقيق: عبد الحميد صالح، طبعة أولى، ١٩٩٣، ص ٨، ٩؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص ٢٩؛ ابن إياس: بدائع؛ ج١، ق١، ص٢٨٥؛ Lana Poole: History of Egypt. p. 255.

- **أيبك**: كان من مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب، اشتراه في حياة والده الملك الكامل، وجعله جاشنكيره. أبو المحاسن: مورد اللطافة، ج٢، ص ٢٥؛ النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣.
- **أتابك**: يتكون هذا اللقب من مقطعين وهما "أطا" بمعنى أب، و "بك" بمعنى أمير، فيكون المعنى "الأمير الأب"، وأطلق هذا اللقب في العصر المملوكي على مقدم العساكر. القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ٤ أجزاء، نسخة مصورة من الطبعة الأميرية، القاهرة، ج٤، ص ١٨؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٤،

ص ٤، هامش (٢)؛ و انظر أيضًا: البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص ١٤؛ محمد عبد الغني الأشقر: أتابك العساكر في القاهرة عصر المماليك الجراكسة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٢١.

(١٧)أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج٦، ص٢١٩؛ الدليل الشافي، ج١، ص٣٤٥؛ أنظر أيضًا: Lana Poole: History of Egypt, p. 255؛ حامد زيان: المماليك، ص ١٧.

(١٨)أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٣٢، ٣٣٤؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ٤ أجزاء، ج١، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٤م، ج١، ق٢، ص ٣٦١؛ و انظر أيضًا: سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ١٨٢.

(١٩)السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٦١.

(٢٠)ابن العميد: أخبار الأيوبيين، القاهرة، د.ط، ص ٣٩؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ٢٣٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٢٨٥؛ و انظر أيضًا: حامد زيان: المماليك، ص ١٦.

(٢١)أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ١٢٣.

(٢٢)ليلى عبد الجواد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ١٦٩.

(٢٣)حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جزءان، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٩٨م، ج١، ص ٣٤.

(٢٤)بدائع الزهور: ج١، ق١، ص ٢٨٥.

(٢٥)ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٢٨٦.

(٢٦)العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٢٢؛ ليلى عبد الجواد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٧٤؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك، طبعة أولى، لبنان، ١٩٩٧م، ص ٤١.

(٢٧)بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٢٨٦.

(٢٨)المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٦٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٨٧؛ و انظر أيضًا: سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص١٤.

(٢٩)العيني: عقد الجمان، ج٢، ص ٩؛ و انظر أيضًا: ليلى عبد الجواد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ١٨٠.

(٣٠)المقريزي: المواعظ، ج٣، ص ٢٣٧؛ و انظر أيضًا: ليلى عبد الجواد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ١٨٠؛ العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٢٣.

(٣١)ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص١٦٥؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٠٣؛ و انظر أيضًا: حامد زيان: المماليك، ص ٢٤.

(٣٢)عن المشاكل التى واجهت المعز أيبك خلال فترة حكمه، و انظر، ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص ٤٠-٤٣؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٦-١٢.

(٣٣)المنهل الصافي، ج٢، ص ٥٠٣.

- **أقطاي الجمدار**: وهو الأمير فارس الدين الصالحي النجمي التركي، كان مملوك التركي إبراهيم المعروف بالحبيل، اشتراه ورباه وباعه بألف دينار. انظر: أبو المحاسن: المنهل، ج٢، ص ٥٠٢-٥٠٤؛ الدليل الشافي، ج١، ص١٤٣؛ الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص ٢٢٥.
- **الجمدار**: كلمة فارسية مركبة من مقطعين، أحدهما جاما ومعناه الثوب، والثاني دار ومعناه ممسك الثوب، فيكون المعنى ممسك الثوب، أي الذي يقوم بإلباس السلطان أو الأمير ثيابه؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٥٩؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٥، هامش (٣)؛ و انظر أيضًا: حامد زيان: المماليك، ص ٢٣ هامش (٣).

(٣٤)كنز الدرر وجامع الغرر، ٩ أجزاء، ج٨، الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق: ولرخ هارمان، القاهرة، ١٩٧١م، ص٢٤، ٢٥.

(٣٥)ابن أيبك: الدرة الذكية، ص٢٥؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج٢، ص ٥٠٣؛ و انظر أيضًا: ليلى عبد الجواد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ١٨٥.

- الصالحية: نسبة إلى أستاذهم الصالح نجم الدين أيوب، حيث كان المماليك ينتسبون إلى أستاذهم الذي اشتراهم وتعهد بتربيتهم. سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ١٧٩.

(٣٦)ابن أيبك: الدرة الذكية، ص ٢٠؛ و انظر أيضًا: سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ١٩؛ العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٣٣.

(٣٧)ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص ٤٢؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ٣٣ جزءًا ج٢٩، تحقيق: محمد ضياء الدين الريس، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٤٣٠.

(٣٨)ابن أيبك: الدرة الذكية، ص ٢٥؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٠؛ المنهل الصافي، ج٢، ص ٣.

- من الجدير بالذكر أن الناس تعجبوا من أن صاحب حماة يوافق على مصاهرة مملوك. ابن أيبك: الدرة الذكية، ص ٢٥.

(٣٩)سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص١٩.

(٤٠)محمد طقوش: تاريخ المماليك، ص ٤٨؛ العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٣٣.

- **قطز**: كان من أولاد الملوك الخوارزمية، فهو محمود بن ممدود، ابن أخت السلطان خوارزم شاه، وتم بيعه بعد استيلاء المغول على أملاك الدولة الخوارزمية. انظر النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص ٤٧٩-٤٨٦؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص ٢٩٣، ٢٩٤.

- **نائب السلطنة**: من المناصب الكبرى، وهو الذي يقوم مقام السلطان في عامة أموره أو غالبها. انظر: ليلى عبد الجواد: "نائب السلطنة في القاهرة في عصر المماليك البحرية"، بحث منشور بمجلة المؤرخ المصري، كلية الآداب، جامعة القاهرة، عدد ١ ، يناير ١٩٨٨، ص ١٥٩-٢٢٥؛ سعيد عاشور: نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك، بحث منشور في موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ص ٢٩، ٣٠.

(٤١)العيني: عقد الجمان، ج١، ص ٥٣؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٣٦٩.

والمعروف أن المماليك لجأوا إلى حيلة لتهدئة الأيوبيين في بلاد الشام، حيث أتوا بطفل صغير من أبناء البيت الأيوبي وهو الأشرف موسى حفيد الملك الكامل، وعمره ست سنوات، وأقاموه سلطاناً ليشارك أيبك في الحكم، وبذلك صارت المراسيم تصدر باسم الملكين الشريكين – الأشرف والمعز، إلا أن الأشرف ليس له سوى الاسم، وجميع الأمور بيد المعز أيبك. انظر: ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص ٣٩؛ النويرى: نهاية الأرب، ج٢٩، ص ٤١٩؛ ابن الوردى: تتمة المختصر في أخبار البشر، جزءان، القاهرة، ١٢٨٥، ج٢، ص ١٩٢؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٦٩.

(٤٢)السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٨٦.

(٤٣)المقريزى: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٨٦.

- الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز غياث الدين محمد بن الملك الظاهر غياث الدين غازي بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف، ملك بعد وفاة والده الملك العزيز حلب وحمص ودمشق. انظر: النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص ٣٦٦-٣٩١.

(٤٤)ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص ٤٢؛ النويرى: نهاية الأرب، ج٢٩، ص ٤٣٠؛ و انظر أيضًا: العبادى: قيام دولة المماليك، ص ١٣٣.

(٤٥)أبو المحاسن: النجوم، ج٧، ص١١.

(٤٦)البداية والنهاية، ١٤ جزءًا طبعة أولى، القاهرة، ٢٠٠٠، ج١٣، ص ١٨٩.

(٤٧)النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٩، ص ٢٣٠؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١١؛ و انظر أيضًا: العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٣٣.

(٤٨)النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص ٤٣٠؛ المقريزى: السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٨٩؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص٨٥.

(٤٩)المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٨٩، ٣٩٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٢٩١، ٢٩٢؛ و انظر أيضًا: سعيد عاشور: الأيوبيون، ص ١٩٠؛ العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٣٤.

- **بيبرس:** وهو من مماليك الأمير علاء الدين البندقداري، كان و هو صغير السن تبدو عليه علامات الفطنة والنجابة، وعندما صادر الملك الصالح أيوب الأمير علاء الدين واستولى على ممتلكاته ومماليكه كان بيبرس ممن استولى عليهم الملك الصالح، وصار من مماليكه البحرية، ثم ما لبث أن أعتقه الصالح نجم الدين. للمزيد من التفاصيل عنه انظر: أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج٣، ص ٤٤٧-٤٦٧؛ الدليل الشافي على المنهل الصافي، ج١، ص ٢٠٣؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٠، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، لبنان، طبعة أولى، ٢٠٠٠م، ص ٣٢٩؛ و انظر أيضًا: سعيد عاشور: الظاهر بيبرس، القاهرة، ٢٠٠١م.

- **البندقداري:** نسبة إلى البندق، وهي كرات صغيرة تستخدم في صيد الطيور

وتصنع من الحجارة أو الرصاص وكان البندقداري يحمل جرادة البندق أي كيسه خلف السلطان أو الأمير. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٩٨؛ سعيد عاشور: الظاهر بيبرس، القاهرة ٢٠٠١م، ص ٢٣، هامش (١).

- **قلاوون الألفي:** هو أحد المماليك البحرية الصالحية، اشتراه الأمير علاء الدين أقسنقر بألف دينار، وهو مبلغ كبير يظهر ما كان يتمتع به قلاوون من مواهب وصفات رفعت من قيمته، ولذلك عرف بالألفي. انظر ترجمته: ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص٤٠٩، ٤١٠.

(٥٠)النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص ٤٣٤؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٢٩٢؛ و انظر أيضًا: سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٢٠.

(٥١)المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ٣٨٣؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص٨٨؛ و انظر أيضًا: سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٢٠.

(٥٢)النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص ٤٣٤؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج١، ص ٤٤٩؛ و انظر أيضًا: سعيد عاشور: الظاهر بيبرس، ص ٣١؛ ليلى عبد الجواد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ١٨٦؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص ٢٥٣.

(٥٣)أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ٤ أجزاء، القاهرة، د.ت، ج٣، ص ٢٤٧؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص٢٥٣؛ و انظر أيضًا: العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٧١؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٣٩.

- **المغول:** ظهر المغول في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، فى الجهات الشمالية من بلاد الصين في الأراضي التي نشأت فيها قبائل الهون والترك وهم يمُتُّون إليهم بصلة قوية، ويطلق على المغول اسم "التتر" أو "التتار" أيضًا، وقد اختلفت تسميتهم باختلاف العصور. للمزيد من التفاصيل عن أصل المغول وحياتهم وعقائدهم. انظر: أحمد حطيط: حروب المغول "دراسة في الاستراتيجية العسكرية للمغول من أيام جنكيز خان حتى عهد تيمورلنك، بيروت، طبعة أولى ١٩٩٤، ص ١٣-١٩؛ عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا وأثرها على العالم الإسلامي، طبعة أولى، ١٩٩٧، ص ٣١-٩٤؛ حامد زيان: المماليك، ص ٤٧، ٤٨.

- **عين جالوت:** بلدة شرق دارين ببيسان ونابلس من أعمال فلسطين، ويرجع هذا

الاسم إلى الأسطورة القائلة بأن داود قتل جالوت في هذا المكان. ياقوت الحموى: معجم البلدان، ٥ أجزاء: تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، لبنان، د.ط، ج٤، ص ٢٠٠. عن معركة عين جالوت، انظر: المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ٤٢٩-٤٣٢؛ ابن أيبك الدواداري: الدرة الذكية، ص ٤٤-٥٠؛ و انظر أيضًا:أحمد مختار العبادي: في التاريخ الأيوبي والمملوكي، الإسكندرية، ١٩٩٢، ص ١٥٢-١٦٠.

(٥٤)أبو الفدا: المختصر، ج٣، ص ٢٤٧؛ ابن الوردي: تتمية المختصر، ج٢، ص ٣٠٩؛ و انظر أيضًا: محمد طقوس: تاريخ المماليك، ص ٨٣.

- **الصالحية:** قرية كبيرة ذات أسواق وجامع، قريبة من دمشق، وفيها جماعة من الصالحين لا تكاد تخلو منهم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص ٤٤٢.
- من الجدير بالذكر أن بيبرس طلب من قطز أن يعطيه امرأة من سبي التتار. ابن أيبك: الدرة الذكية، ص ٦١؛ محمد طقوش: تاريخ المماليك، ص ٨٣.

(٥٥)حامد زيان: المماليك، ص ٣٠، ٣١.

(٥٦)سعيد عاشور: الظاهر بيبرس، ص ٣٧؛ العبادي: قيام دولة المماليك، ص١٧١، ١٧٢.

(٥٧)النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٩٢.

(٥٨)المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ٤٣٥.

(٥٩)سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٣٨، الأيوبيون والمماليك، ص ١٩٩، ٢٠٠.

(٦٠)بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ٨١؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص ٢٥٢.

(٦١)سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٣٩؛ Lana Poole: History، p. 262.

(٦٢)سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ٢٠١، عبد العزيز الخويطر: الملك الظاهر بيبرس، د.ت، ص ٣٠.

(٦٣)بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص ١١؛ أبو الفدا: المختصر، ج٣، ص ٢٤٨؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ٤٣٦؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٧، ص ٩٢.

- **الدهليز:** الخيمة التى ترافق السلطان في الحرب، وتختلف عن غيرها من الخيام والدهاليز الكبيرة التى تقام للسلاطين في الصيد والتنزه لكونها خيمة قائمة بذاتها، ليس بجوارها خيام صغيرة. البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص ١٣٨.

- **خوند**: لفظ فارسي أُستعمل في مخاطبة النساء والرجال معًا. بمعنى السيدة أو الأمير أو السيد والأمير. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٦، ص ١٧١؛ و انظر أيضًا: البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص ١٢٤.

(٦٤)سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٤٠.

(٦٥)سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢٢٢.

(٦٦)السلوك، ج١، ق٢، ص ٦٤٥.

(٦٧)سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢٢٣.

- **السعيد بركة**: ناصر الدين أبو المعالي محمد، ابن السلطان الظاهر بيبرس، سُمي بركة خان على اسم جده لأمه بركة خان ملك التتار، تسلطن السعيد في حياة والده الظاهر عام ٦٦٢هـ وليست له أية سلطة إلى أن مات والده الظاهر في عام ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، فحلف له الأمراء إلا أنه أساء السيرة معهم، فخلعوه، وتوجه إلى الكرك، وظل بها إلى أن مات في عام ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م. انظر: أبو المحاسن: مورد اللطافة، ج٢، ق٣٥، ٣٦.

(٦٨)أبو الفدا: المختصر، ج٤، ص ١٥٥؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣٠، ص ٢٢٣؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص ١٤٦.

- **خاتون**: جمعها خاتونات أو خواتين، وهي كلمة عربية محرفة عن الكلمة المغولية "قادرين"، وذلك دون لقب الملكة الذي كان في عهد الفاطميين، وكانت تلقب به الزوجة أو الأم أو الأخت. حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ٢٦٤، ٢٦٥؛ و انظر أيضًا: البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص ١١٥.

(٦٩)سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ٢٢٣.

(٧٠)المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ٦٤١، ٦٤٢؛ العينى: عقد الجمان، ج٢، ص ١٨١.

(٧١)حامد زيان: المماليك، ص ٣٤.

(٧٢)سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ٢٢٣.

(٧٣)أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٢٢٥؛ و انظر أيضًا: سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ٢٢٣.

(٧٤)سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ٢٢٣.

(٧٥)ابن أيبك الدواداري: الدرة الذكية، ص ٢٢٩؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهــرة، ج٧، ص ٢٢٨-٢٣٠؛ ابن أبي الفضائل: النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشر بلوشيه Blochett في:

Palrologia Orientalised, XII, XIV, Paris 1919, TXIII, p. 469.

(٧٦)بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ١٧٣؛ ابن أيبك: الدرة الذكية، ص ٢٢٩؛ ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص ٤٧٠؛ أنظر أيضاً، حامد زيان: المماليك، ص ٣٢.

(٧٧)محمد طقوش: تاريخ المماليك، ص ١٦٥.

(٧٨)بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ٩٠؛ النويرى: نهايــة الأرب، ج٣٠، ص ٣٩٨، ٣٩٩؛ و انظر أيضًا: محمد طقوش: تاريخ المماليك، ص ١٦٥.

(٧٩)السلوك، ج١، ق٢، ص ٦٥٦.

(٨٠)محمد طقوش: تاريخ المماليك، ص ١٦٥.

(٨١)المقريزى: السلوك، ج١، ق٢، ص ٦٥٦؛ و انظر أيضًا: محمــد طقــوش: تــاريخ المماليك، ص ١٦٥؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٦٨.

(٨٢)بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص ٦٩؛ النويري: نهايــة الأرب، ج٣٠، ص ٣٩٩؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ٦٥٦، ٦٥٧؛ المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢٣٨؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص ٢٧٦.

(٨٣)السلوك، ج١، ق ٣، ص ٦٦٣.

(٨٤)بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٣٤٦.

(٨٥)بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ١٧٤؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهــرة، ج٧، ص ٢٤٣؛ السيوطى: حسن المحاضرة، ج٢، ص ٨٤؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص ٢٢٥.

(٨٦)بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ١٧٥؛ و انظر أيضًا: سعيد عاشور: الأيوبيــون والمماليك، ص ٢٢٤؛ محمد طقوش: تاريخ المماليك، ص ١٦٦.

(٨٧)بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ١٧٥، ١٧٦؛ أبو المحاســن: النجــوم، ج٧، ص ٢٤٣، ٢٤٤؛ و انظر أيضًا: محمد طقوش: تاريخ المماليك، ص ١٦٦.

(٨٨)أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج٦، ص ١٤؛ ابن أبي الفضــائل: الــنهج الســديد،

ص ٤٧٥.

(٨٩)ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص ٤٧٥.

(٩٠)الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٥، ص ٢٩٨؛ و انظر أيضًا: قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليين، طبعة أولى، القاهرة، ١٩٩٤، ص ١١٧؛ محمد حمزة الحداد: السلطان المنصور قلاوون، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٢٣؛ محمد طقوش: تاريخ المماليك، ص ١٧٢.

- **سنقر الأشقر:** هو سنقر بن عبد الله الصالحى النجمى، الأمير شمس الدين، كان من عتقاء الملك الصالح نجم الدين أيوب، ثم صار بعد موته من جملة الأمراء، وعندما غزا هولاكو حلب أخذه إلى بلاده وحبسه، وظل محبوساً عند هولاكو إلى أن تمكن الظاهر بيبرس من إعادة سنقر إلى مصر. وكان من أعظم أمراء الملك الظاهر بيبرس، فقد كان زميلاً له وخشداشه. للمزيد عنه انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٥، ص ٢٧٩-٣٠٠؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج٦، ص ٨٧-٩٥.

(٩١)النجوم الزاهرة: ج٧، ص ٢٤٣، ٢٤٤.

(٩٢)بيبرس المنصوري: التحفة المملوكية في الدولة التركية، تحقيق: عبد الحميد صالح، لبنان، ١٩٨٨، ص ٩٠؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٢٤٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٣٤٨.

(٩٣)سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ٢٢٤.

(٩٤)بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ١٧٥.

(٩٥)الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٥، ص ٢٩٨؛ ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص ٤٧٤.

(٩٦)النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٧٤٤.

(٩٧)العيني: عقد الجمان، ج٢، ص ٢٢٦؛ و انظر أيضًا: سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ٢٢٦.

(٩٨)أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٢٤٤، ٢٤٥؛ ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص ٤٧٦.

(٩٩)الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٥، ص ٢٩٨؛ ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص ٤٧٨.

(١٠٠)زبدة الفكرة، ص ١٨٢.

(١٠١)نهاية الأرب، ج٣١، ص ١٤.

(١٠٢)بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ١٨٢؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص ١٤؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص ٦٧٠؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص ٢٣٤.

(١٠٣)بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٣٥٠.

(١٠٤)ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ٦١؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ٣ أجزاء، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٧٦، ج١، ص ٥٢؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٢٥٠؛ ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص ٤٧٧.

(١٠٥)الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٥، ص ٢٩٨؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٧، ص ٢٥٠؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٧، ص ٢٥٠.

(١٠٦)ليلى عبد الجواد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٢٣٦؛ الحداد: السلطان قلاوون، ص ٢٣.

(١٠٧)أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٢٥٠؛ المنهل الصافي، ج٦، ص ٩١؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص ٢٣٣.

(١٠٨)المقريزي: السلوك، ج١، ق ٣، ص ٦٧٢؛ و انظر أيضًا: محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون في مصر، القاهرة، د.ت، ص ٢٣؛ الحداد: السلطان قلاوون، ص ٢٣.

(١٠٩)المقريزي: السلوك، ج١، ق ٣، ص ٦٧٢.

(١١٠)بيبرس المنصوري: التحفة المملوكية، ص ٩٣؛ قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ١١٧.

(١١١)ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٦٥؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ١٨٦، ١٨٧؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص ٦٧٥، ٦٧٦.

- **أمير سلاح:** هو الذى يتولى الإشراف على المماليك السلطانية، وعلى السلاح خاناه السلطانية. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٨.

(١١٢)ابن عبد الظاهر: تشريف، ص ٦٦؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ١٨٦،

١٨٧؛ بيبرس المنصوري: التحفة، ص ٩٣؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص ٦٧٦؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٢٥١، ٢٥٢؛ المنهل الصافي، ج٦، ص ٩١.

- **الجسورة:** موضع بدمشق. أبو المحاسن: النجوم، ج٧، ص ٢٥١، هامش (٢).
- **الرحبة:** تقع بين المدينة والشام قريبة من وادي القرى. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص ٣٧.

(١١٣)الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٥، ص٢٩٨؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٧، ص ٢٥١، ٢٥٢.

(١١٤)بيبرس الداوادار: زبدة الفكرة، ص ١٨٧.

- العربان: من الجدير بالذكر أن الأعراب انتشروا انتشارًا كبيرًا في مختلف أرجاء البلاد بأعداد كبيرة جدًا في عصر المماليك، والواقع أنه من الصعب أن تحدد أنهم البدو، فقد ذكر أصحاب القواميس الخاصة باللغة أن العرب هم أهل الأمصار، والأعراب سكان البادية. لبيبة إبراهيم مصطفى: "الفتن والقلاقل الداخلية في دولة سلاطين المماليك وآثارها السياسية والاجتماعية والاقتصادية (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)"، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ١٣٦.

(١١٥)بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ١٨٨؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص ٦٧٧، ٦٧٨؛ و انظر أيضًا: الحداد: السلطان قلاوون، ص ٢٣؛ **King: The Knights Hospitallers in The Holyland, p. 282.**

- **أبغا أو أباقا:** هو ابن هولاكو و قد اتبع سياسة معادية لدولة المماليك. عنه انظر: أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج١٢، تحقيق: محمد أمين، القاهرة ١٩٨٥م، ص ١٩٨؛ أحمد خطيط: حروب المغول، ص ٦٨-٧٠.

(١١٦)بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص١٨٩؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٧، ص٢٥٣، ٢٥٤؛ و انظر أيضًا: سعيد عاشور: الأيوبيون، ص٢٢٦، ٢٢٧؛ King: The Knights, p. 282.

(١١٧)بيبرس المنصوري: التحفة المملوكية، ص ٩٥.

(١١٨)بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ١٩٠؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص

٢٥٣؛ المنهل الصافي، ج٦، ص ٩٢.

(١١٩)الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٥، ص ٢٩٩؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٢٥٣، ٢٥٤؛ المنهل الصافي، ج٦، ص ٩٢.

-كان سنقر الأشقر قد لجأ بعد هزيمته أمام سنجر الحلبي إلى صهيون وتحصن بها. انظر: ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ٦٨؛ بيبرس المنصوري: التحفة المملوكية، ص ٩٤.

(١٢٠)بيبرس المنصوري: التحفة المملوكية، ص ٩٩؛ الصفدي: الوافي، ج١٥، ص ٢٩٩. عن حرب قلاوون ضد المغول. انظر: بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ١٩٥-١٩٧؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٢٥٩-٢٦١.

(١٢١)ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ٨٧؛ الصفدي: الوافي، ج١٥، ص ٢٩٩؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ٢٠٠، ٢٠١؛ و انظر أيضًا: جمال الدين سرور، ص ٢٥؛ محمد طقوش: تاريخ المماليك، ص ١٧٢، ١٧٣.

- **شيزر:** قلعة حصينة بالشام قرب المعرة، بينها وبين حماة مسيرة يوم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص ٤٣٤.
- **أفاميه:** مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص. ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج١، ص ٢٦٩.
- **كفر طاب:** بلدة بين المعرة ومدينة حلب ليس بها ماء، و يعيش من بها على مياه الأمطار في الصهاريج. عنها انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص ٥٣٤؛ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت د.ت، ص ٢٤٨.

(١٢٢)بيبرس المنصوري: التحفة المملوكية، ص ١١٤، ١٧؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ٢٧٥؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٩ أجزاء، ج٨، تحقيق: قسطنطين رزيق، بيروت ١٩٣٩، ص٤٩؛ و انظر أيضًا: محمد طقوش: تاريخ المماليك، ص ١٧٢، ١٧٣.

- **حصن المرقب:** قلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بانياس. للمزيد عنه انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص ١٢٧؛ القزويني: آثار البلاد، ص ٢٦١، ٢٦٢.

(١٢٣)بيبرس المنصوري: التحفة المملوكية، ص ١١٧؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة،

ج٧، ص ٢٧١، ٢٧٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٣٥٥.

(١٢٤)بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٣٥٥.

(١٢٥)ابن الحبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص ١٠٨؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج٦، ص ٩٥.

(١٢٦)بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ٢٧٦؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٥، ص ٢٩٩؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٢٧٢؛ ابن الفرات: تاريخه، ج٨، ص ٥٠.

(١٢٧)محمد طقوش: تاريخ المماليك، ص ٢١٧.

- **لاجين:** حسام الدين جركسى الأصل، من مماليك الملك المنصور قلاوون، أمره عندما تسلطن وجعله نائبًا لقلعة دمشق. انظر ترجمته في، أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج٩، ص ١٦٦-١٧٣؛ الدليل الشافي على المنهل الصافي، ج٢، ص ٥٦٦؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص ٤٤٠.
- **كتبغا:** أصله من سبايا التتار، أخذه الملك المنصور قلاوون في وقعة حمص في عام ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م، فصار من جملة المماليك السلطانية، ومالبث يترقى في المناصب حتى تولى نيابة السلطنة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، ثم أصبح سلطاناً. الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، جزءان، القاهرة، د.ت، ج٢، ص ١٥٨؛ ابن شاكر: فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، ٥ أجزاء، دار الصادر، بيروت ١٩٧٣م، ج٣، ص ٢١٨-٢١٩.

(١٢٨)بيبرس المنصوري: التحفة المملوكية، ص ١٤٧؛ و انظر أيضًا: ليلى عبد الجواد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٢٥١. عن عوامل كراهية الخاصة والعامة للسلطان العادل كتبغا، انظر: بيبرس المنصوري: التحفة المملوكية، ص١٤٤-١٤٧؛ ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص ٥٨٩-٥٩٤.

(١٢٩)بيبرس المنصوري: التحفة المملوكية، ص ١٤٧؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص ٨١٨؛ و انظر أيضًا: سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ٢٣٨؛ محمد طقوش: تاريخ المماليك، ص ٢١٨.

- **العوجاء:** تقع في فلسطين بالقرب من طبرية. للمزيد انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص ١٨٨.

(١٣٠)النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٥٣، ٥٤.

- فرس النوبة: كانت العادة أن يحفظ قرب حضرة السلطان بالقلعة أو في الأسفار فرس مجهز بالسروج الغاشية لاستخدامه في الطوارئ لركوب السلطان. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ٣٢٤، هامش (١)؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص ٦٠٨، هامش (٣).

(١٣١)أبو الفدا: المختصر، ج٤، ص ٤٥؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص ٢٤٢؛ و انظر أيضًا: محمد جمال الدين سرور: دولة بنى قلاوون، ص ٣٧.

(١٣٢)أبو الفدا: المختصر، ج٤، ص ٦٩؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص ٢٨٦؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص ٤٤؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٢٢.

- **الجاشنكير**: الذي يتذوق الطعام والشراب قبل السلطان خوفًا من أن يدس فيه سم. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٢١، ٤٦؛ و انظر أيضًا: البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص ٨١.

- **الأستادار**: هو الذي يتولى شئون مسكن السلطان أو الأمير ومصروفاته وتنفيذ أوامره. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٢٠؛ و انظر أيضًا: محمد سيد كامل: الأستادار والأستادارية، وقائع تاريخية، القاهرة ٢٠٠٨م، ص ١٥-١٦٩.

(١٣٣)أبو الفدا: المختصر، ج٤، ص ٦٩؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج١، ص ٤٦٨.

(١٣٤)أبو الفدا: المختصر، ج٤، ص ٦٩؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص ٢٨٦؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٤٤؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٤٢٢.

- **الكرك**: اسم قلعة حصينة جدًا من مدن الشام تقع بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس وهي على سن جبل تحيط بها الأودية إلَّا من جهة الربض. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص ٥١٤.

(١٣٥)سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ٢٤٣، ٢٤٤؛ ليلى عبد الجواد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٢٥٧.

(١٣٦)السلوك، ج٢، ق١، ص ٤٦.

- **المماليك البرجية:** ويسمون أيضًا المماليك الجراكسة، والتسمية الأولى نسبة إلى أن غالبية سلاطينها كانوا يسكنون بروج القلعة على جبل المقطم، أمَّا التسمية الثانية فلأنهم كانوا أصلاً من بلاد الجركس أو الشركس، وهي كلمة روسية قديمة معناها القوقاز بجوار بحر قزوين. عنهم انظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٢٥٧، ٢٥٨؛ و انظر أيضًا: و انظر أيضًا: عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ج١، ص ١١.

قائمة المصادر

- ابن إياس: محمد بن أحمد بن إياس الحنفى (ت: ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م).
- بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ٥ أجزاء، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، د.ط.
- ابن أيبك الدواداري: أبو بكر بن عبد الله (ت: ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م).
- كنز الدرر وجامع الغرر، ٩ أجزاء، ج ٧، الدر المطلوب فى أخبار بني أيوب، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٧٢م، ج ٨، الدرة الذكية فى أخبار الدولة التركية، تحقيق: ولرخ هارمون، القاهرة ١٩٧١م.
- ابن حبيب: الحسن بن عمر (ت: ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)
- تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه، ٣ أجزاء، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٧٦، ١٩٨٦م.
- ابن شاكر الكتبي: محمد بن شاكر بن أحمد (ت: ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م).
- فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، ٥ أجزاء، دار الصادر، بيروت، ١٩٧٣، ١٩٧٤م.
- ابن شاهين: غرس الدين خليل (ت: ٨٧٢هـ/ ١٤٦٨م).
- زبدة كشف المماليك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق: بوس راويس، باريس، ١٨٩٣م.
- ابن عبد الظاهر: محي الدين أبو الفضل عبد الله (ت: ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م).
- تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، تحقيق: مراد كامل،

طبعة أولى، القاهرة، ١٩٦١م.

- ابن العماد الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي (ت: ١٠٨٩هـ/ ١٦٩٠م).
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٦ أجزاء، بيروت، د.ت.
- ابن العميد: المكين جرجس (ت: ٦٧٢هـ/ ١٣٧٠م).
- أخبار الأيوبيين، القاهرة، د.ت.
- ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن على (ت: ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م).
- تاريخ ابن الفرات، ٩ أجزاء، ج٨، تحقيق: قنسطنطين رزيق، بيروت ١٩٣٨م.
- ابن كثير: عماد الدين إسماعيل بن عمر(ت: ٧٤٤هـ/ ١٣٧٢م).
- البداية والنهاية، ٤ أجزاء، طبعة أولى، القاهرة ٢٠٠٠م.
- ابن الوردي: زين الدين عمر (ت: ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م).
- تتمة المختصر في أخبار البشر، جزءان، مجلد واحد، القاهرة ١٢٨٥م.
- ابن أبي الفضائل: المفضل القبطي المصري (ت: ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م).
- النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد نشر، بلوشيه في:
- Patrologia Orientalis. XII، Xiv، xxii، Paris، 1919.
- أبو الفدا: عماد الدين إسماعيل (ت: ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م).
- المختصر في أخبار البشر، ٤ أجزاء، القاهرة، د.ت.

- أبو المحاسن: جمال الدين بن تغري بردي (ت: ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م).
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزءًا، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، لبنان، طبعة أولى، ١٩٩٢م.
- الدليل الشافى على المنهل الصافى، جزءان، تحقيق: فهيم شلتوت، مكة، ١٩٧٩م.
- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ١٢ جزءًا.
- مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، جزءان، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز، القاهرة، ١٩٩٧م.
- بيبرس الدوادار: ركن الدين بيبرس (ت: ٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م).
- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج ٩، تحقيق: زبيدة محمد عطا، د.ط.
- بيبرس المنصوري: ركن الدين بيبرس بن عبد الله (٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م).
- مختار الأخبار "تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البرجية حتى سنة ٧٠٢هـ، تحقيق عبد الحميد حمدان، طبعة أولى، لبنان ١٩٨٧م.
- التحفة المملوكية فى الدولة التركية، تحقيق: عبد الحميد صالح، طبعة أولى، لبنان، ١٩٨٧م.
- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن (ت: ٩١١هـ/ ١٥٠٥م).
- حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة، جزءان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٩٨م.

- الشوكاني: محمد بن علي (ت: ١٢٥٠ه).
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، جزءان، القاهرة، د.ت
- الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت: ٧٦٤ه/ ١٣٦٢م).
- الوافي بالوفيات، ٣٣ جزءًا، ج١٠، باعتناء أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، لبنان، ٢٠٠٠م، ج ١٦، باعتناء وداد القاضي، بيروت، ١٩٨٢م.
- العيني: بدر الدين أبو محمد محمود (ت: ٨٥٥ه/ ١٤٥١م).
- عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، ٤ أجزاء، تحقيق: محمد محمد أمين، ج ١، ج ٢، ١٩٨٧، ١٩٨٨م.
- القزويني: زكريا بن محمد (ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٠م).
  - آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، د.ت.
- القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي (ت: ٨٢١ه/١٤١٨م)
- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ١٤ جزءًا، نسخة مصورة من المطبعة الأميرية، القاهرة.
- المقريزي: تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت: ٨٤٥ه/ ١٤٤٢م).
- السلوك لمعرفة دول الملوك، ٤ أجزاء، ج ١، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٤م.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٤ أجزاء، طبعة مصورة بالأوفست من طبعة بولاق.

- النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت: ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م)
- نهاية الأرب فى فنون الأدب، ٣٣ جزءًا، ٢٩، تحقيق: محمد ضياء الدين الريس، القاهرة ١٩٩٢م، ج ٣٠، تحقيق: عبد الهادي شعيرة، القاهرة، ١٩٩٠م.
- ياقوت الحموي: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الملقب (ت: ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)
- معجم البلدان، ٥ أجزاء، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندى، لبنان، د.ط.

ثانيًا المراجع العربية

أحمد مختار العبادي:

- قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام، الإسكندرية ١٩٢٨م.
- في التاريخ الأيوبي والمملوكي، الإسكندرية ١٩٩٢م.

حامد زيان:

- المماليك التاريخ السياسي، القاهرة ٢٠١١م.

حسن الباشا:

- الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة، ١٩٥٧م.

حمدي عبد المنعم:

- دراسات فى تاريخ الأيوبيين والمماليك ٢٠٠٧م.

سعيد عاشور:

- الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، القاهرة ١٩٨٢م.

- نظم الحكم والإدارة فى عصر الأيوبيين والمماليك، مقال منشور فى موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، مجلد ٣، طبعة أولى، ١٩٨٧م، ص ٢٣٩-٢٨٩.
- العصر المملوكى في مصر والشام، طبعة ثانية، القاهرة، ١٩٧٦م.
- الظاهر بيبرس، القاهرة ٢٠٠١م.

السيد الباز العريني:

- المماليك، بيروت، د.ت

عبد المنعم ماجد:

- نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر، جزءان، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٩م.

قاسم عبده قاسم:

- عصر سلاطين المماليك، طبعة أولى، القاهرة، ١٩٩٤م.

لبيبة إبراهيم مصطفى:

- الفتن والقلاقل الداخلية فى دولة سلاطين المماليك وآثارها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٠م.

ليلى عبد الجواد:

- نائب السلطنة فى القاهرة فى عصر المماليك البحرية، بحث منشور بالمؤرخ المصرى، يصدرها قسم التاريخ، جامعة القاهرة، العدد ١ ،

يناير ١٩٨٨م، ص ١٥٩- ٢٢٥

- تاريخ الأيوبيين والمماليك، القاهرة، ٢٠٠٦م.

محمد جمال الدين سرور:

- دولة بني قلاوون فى مصر الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص، القاهرة، د.ت.

محمد حمزة الحداد:

- السلطان المنصور قلاوون، القاهرة، ١٩٩٨.

محمد عبد الغني الأشقر:

- أتابك العساكر فى القاهرة عصر المماليك الجراكسة، القاهرة، ٢٠٠٣م.

محمد قنديل البقلي:

- مصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، ١٩٨٣م.

محمد سهيل طقوش:

- تاريخ المماليك فى مصر، طبعة أولى، لبنان، ١٩٩٧م.

محمد سيد كامل:

- الأستادار والأستادارية، بحث منشور فى الوقائع التاريخية، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص١٥- ١٦٩

ثالثا: المراجع الأجنبية

- King: The Knights Hospitallers in The Holy Land.
- Lana-poole: Aistory of Egypt in the Middle Ages, London 1925.





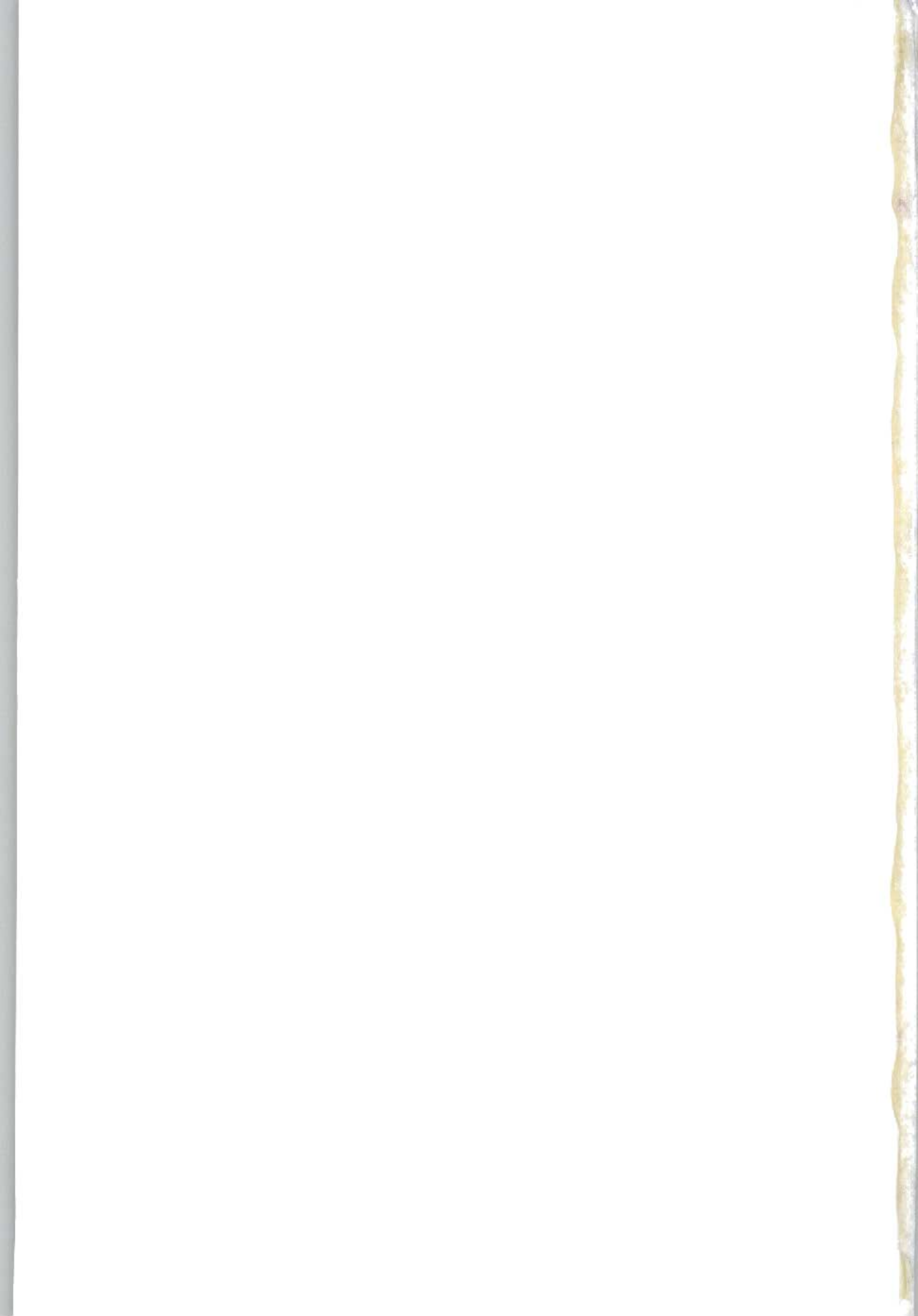
Egyptian Historian

Studies and Research in the History of Civilization (Scientific journal semi-annual)

Issued by the Department of History
Faculty of Arts - Cairo University

Forty Seven-number

July 2015





Journal Egyptian Historian



Studies & Researches In History & Civilization

(Scientific journal semi-annual)



Issued by the Department of History
Faculty of Arts - Cairo University

Forty Seven-number

July 2015